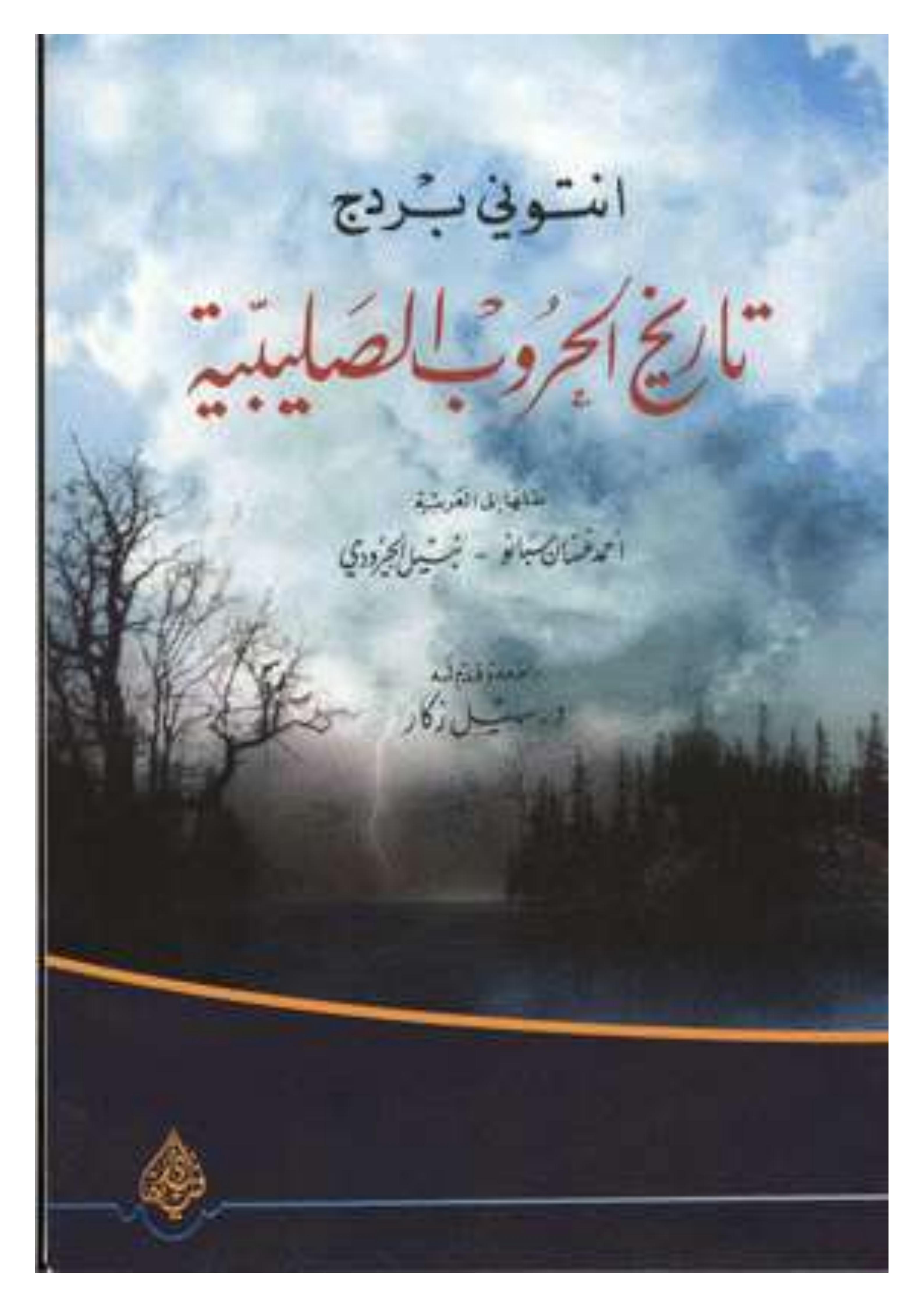

انتوني بردج
تاريخ الحروب الصليبية
نقلها إلى العربية
أحمد غسان سبانو - نبيل الجرودي

توطئة

انطلق في سنة 1096 الرجال والنساء في الحملة الصليبية الأولى من أوروبا للسيطرة على الأرض المقدسة، في حين تم طرد بقايا المواطنين من الممالك والإمارات الصليبية التي أوجدوها هناك من قبل جيوش الإسلام عام 1291. ولذلك، لفترة تقارب مائتي سنة كان الصراع مسلحاً للسيطرة على الأماكن المقدسة للعقيدة المسيحية، تلك الأماكن التي هي مقدسة أيضاً بالنسبة للمسلمين وتورط في هذا الصراع أفراد من أمم أوروبية ومواطنون تابعون للأمبراطورية البيزنطية والأرمن ويهود وأتراك وعرب ومغول ـ وبصرف النظر عن السكان المحليين لبلدان منطقة الشرق الأوسط فقد تصارعت فوق أراضيهم الجيوش المختلفة ضد بعضها بعضاً. وحدث أن انهارت نتيجة لذلك الإمبراطوريات القديمة ونشأت فوق أنقاضها إمبراطوريات جديدة فتغيرت ببطء ولين أنماط حياة الناس التي شملها الصراع الواسع.

لقد كان في الحقيقة صراعاً أو حرباً أممية شاملة: لعالم المسيحية الغربية المنبعث على نحو متألم من بربرية العصور الوسطى المظلمة الذي دخل في صدام على نحو واسع مع العالم المتمدن للإمبراطورية البيزنطية التي تخطت ربيعها السياسي ومن جهة ثانية، فكل من هذين العالمين قد اصطدم بالعالم الإسلامي الذي أقام ثقافته على القاعدتين الثقافيتين الرومانية والهلنسية

(الإغريقية)، وكانوا أيضاً على خلاف مع الأتراك الذين قدموا من سهوب آسيا وليس لهم عادات حميدة أو خصائص مدنية، ومما يلفت الانتباه أيضاً في هذين القرنين الهامين حدوث انقسامات في الجانبين الإسلامي والمسيحي، فقد انقسم المشتركون المسيحيون في أحداث ذلك الوقت إلى معسكرين متحاربين على نحو متطرف، وفقد الكاثوليك الغربيون الثقة، واحتقروا المسيحيين البيزنطيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية كما كرههم بالمقابل أخوانهم في المسيحية الذين يتكلمون اللغة الإغريقية بينما انقسم العالم الإسلامي أيضاً إلى سنة يعترفون بسلطة الخلفاء العباسيين في بغداد، وشيعة ينزعون بولائهم نحو خلفاء القاهرة الفاطميين.

ويبدو كل هذا على نحو واسع معقداً، وقد كان في الواقع كذلك إلى حد أنه كان من غير الممكن كتابة تاريخها جميعها في مجلد واحد، ومع ذلك فقد كانت هناك عدة كتب للتاريخ ـ مفصلة واسعة عن تلك الفترة من الزمن، كان بينها في المقام الأول المجلدات الثلاثة الضخمة (الحروب الصليبية) لمؤلفه ستيفن رنسمان Steven Runciman واني لا أجد أية فائدة في محاولة ذكر كتاب آخر، ورغم كون مؤلف المؤرخ هانس ابرهارد Hans Eberhard ممتازاً وموجزاً على نحو معتدل، وقد ترجم عن الألمانية، لكنني لا أعرف تاريخاً موجزاً جيداً في الإنكليزية، وقد كان هدفي أن أروي أخبار الحروب الصليبية بالبساطة والتوضيح، على أمل أن مثل هذا العمل يمكن أن يثبت الفائدة للقارئ العادي غير المختص، الذي ليس لديه ولوع بالدراسات التعليمية الثقيلة، كما أن مصادر هذه المادة غزيرة ومتوفرة بسهولة ولم يكن لدي أي مشكلة عدا أنه تعين علي أن أقرر ما ينبغي علي أن أتركه أو أهمله، وتعين علي أن أكون غير رحيم، وإلّا وجدت نفسي أتولى كتابة كتاب مسهب جداً، وكان علي كذلك أن أقاوم إغراء تحليل روح أو طابع الحروب الصليبية، هل كان الغزو أو الإجتياح البربري الأخير للعالم الأغريقي ـ الروماني المتمدن؟ أو كانت الإنطلاقات الأولى للتوسع الكبير لأوروبا الغربية التي بلغت الأوج في القرن التاسع عشر؟

أو كانت محددة بسبب إقتصادي كما يؤكد الماركسيون المحافظون؟ ربما كانت جميع هذه الأسباب، ولم أحاول أن أثبت أيا منها، فإن مثل هذا التخمين يقع خارج نطاق هذا الكتاب.

ويبقى هناك شيء واحد فقط ليقال: فإذا روَّعت الأعمال الوحشية لتلك الفترة القارئ العام، وإذا روَّعت بعض أعمال المسيحيين باسم المسيح في تلك الأيام القارئ المسيحي، فربما يكون الهلع في بعضها والفزع في بعضها الآخر، إشارات إلى أنه رغم الوحشية والحروب لعصرنا المظلم فلا بد أن الناس قد تغيروا قليلاً بتأثير العقيدة المسيحية، ولا نقول إنهم تغيروا بما يكفي طبعاً، ولكنهم على الأقل تغيروا.

تواريخ هامة

1071 معركة مناز كرد تدمير الجيش البيزنطي من قبل الأتراك السلاجقة.

1095 دعوة البابا أوربان الثاني لحملة صليبية في مؤتمر كليرمونت.

1096 تدمير الأتراك لحملة بطرس الناسك الصليبية وذبح اليهود في ألمانيا.

1097 وصول أول حملة صليبية إلى القسطنطينية التي كان إمبراطورها ألكسيوس كومينوس وحصار انطاكية، ثم الاستيلاء عليها في 3 حزيران 1098.

1098 استيلاء بلدوين على الرها.

1099 الاستيلاء على القدس في 15 تموز، واختيار غود فري أوف بوليون حامياً للقبر المقدس، ومعركة عسقلان في 12 آب.

1100 موت غود فري وقيام بلدوين الأول مقامه في مملكة القدس.

1118 موت بلدوين الأول وقيام بلدوين الثاني مكانه.

1119 معركة ساحة الدم وموت روجر صاحب انطاكية.

1124 الاستيلاء على صور.

1131 موت بلدوين الثاني، ووصول فولك أوف أنجو زوجاً لميليساند ابنة بلدوين.

1137 اعتلاء يوحنا كومينوس عرش القسطنطنية خلفاً للإمبراطور ألكسيوس، وقيامه بحملات ضد أرمينيا وأنطاكية.

1143 موت فولك واعتلاء بلدوين الثالث. موت الامبراطور يوحنا كومينوس واعتلاء مانويل كومينوس.

1144 استيلاء زنكي على الرها.

1147 الحملة الصليبية الثانية بقيادة الامبراطور الألماني كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع.

1153 الاستيلاء على عسقلان، وزواج رينالد أوف شاتليون من كونستانس أميرة أنطاكية.

1154 سيطرة نور الدين على دمشق.

1155 تحالف بلدوين الثالث مع الامبراطور مانويل كومينوس.

1156 زلازل في سورية.

1162 موت بلدوين الثالث، واستلام أخيه آمالرك الأول.

1163 ـ 69 حرب ضد مصر، قيام صلاح الدين.

1169 استيلاء صلاح الدين على القاهرة بمثابة قائد لنور الدين.

1174 موت آمالرك الأول واستلام بلدوين الرابع المجزوم، موت نور الدين، صلاح الدين يصبح حاكماً لمصر ودمشق.

1176 معركة myriocephalum تدمير الأتراك للجيش البيزنطي.

1180 زواج سيبلا أخت بلدوين من غوي أوف لوزنان وموت الامبراطور مانويل كومينوس.

1182 حملة أرناط إلى البحر الأحمر.

1183 غوي يصبح ولياً للعهد خلال فترة مرض بلدوين الرابع.

1187 انتصار صلاح الدين في حطين في الرابع من تموز، وصول كونراد أوف مونتفرات إلى صور في 14 تموز، وإستيلاء صلاح الدين على القدس في تشرين الأول.

1189 شروع غوي أوف لوزنان في حصار عكا.

1190 موت فريديريك بربروسا في جزيرة صقلية.

1191 الحملة الثانية: وصول فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد إلى عكا وإعادة الإستيلاء عليها مرة ثانية من قبل الصليبيين.

1192 إغتيال كونراد أوف مونتفرات ورحيل ريتشارد.

1193 موت صلاح الدين.

1200 الملك العادل أخو صلاح الدين يصبح سلطاناً على سورية ومصر.

1204 سيطرة رجال الحملة الرابعة على القسطنطينية.

1212 حملة الأطفال الصليبية.

1218 موت الملك العادل واستلام الكامل السلطنة في مصر.

1219 استيلاء الصليبيين على دمياط.

1221 خروج دمياط من أيديهم.

1229 استعادة الامبراطور فردريك الثاني للقدس.

1244 سقوط القدس للأتراك.

1249 نزول ملك فرنسا لويس التاسع في مصر واستيلاؤه على دمياط.

1250 هزيمة الصليبيين عند المنصورة: أسر الملك لويس وجيشه. ثم اطلاق سراحه بتنازله عن دمياط.

1254 عودة الملك لويس إلى فرنسا.

1258 استيلاء المغول على بغداد وذبحهم لأهاليها.

1260 دحر المماليك للمغول. واستلام السلطان بيبرس بلاد مصر.

1261 الأمبراطور ميخائيل باليوغوس يسترد القسطنطينية.

1268 استيلاء بيبرس على انطاكية.

1271 ـ 72 حملة ادوارد ملك انكلترا الصليبية وسقوط قلعة حصن الأكراد لبيبرس.

1277 موت بيبرس، سنتان من النزاعات حول خلافته تنتهي بنصر قلاوون قائد الجيوش السورية.

1281 هزيمة المغول من قبل قلاوون قرب حمص.

1290 موت قلاوون وسلطنة ابنه الأشرف خليل.

1291 استيلاء خليل على عكا في 18 أيار.

الفصل الأول

حجاب الظلام

تعال أيها الليل الأسود، واحجب نفسك في دخان نفسك في دخان كثيف من جهنم... فإن السماء لن تبدو من خلال حجاب الظلام.

شكسبير، ماكبث.

كانت العصور الوسطى في أوروبا مظلمة حقاً. وقد تلت انهيار الامبراطورية الرومانية البطيء على يد الشعوب البربرية، ولكن لم يسد الظلام جميع أوروبا فجأة ومرة واحدة. ذلك أن روما لم تنشأ في يوم واحد، وكذلك لم تدمر في يوم واحد آخر. ومع ذلك فأن تكرر الهجمات البربرية البدوية الواحدة بعد الأخرى وراء نهري الدانوب والراين واجتياحها للعالم الروماني مرة تلو المرة، قد أدى إلى تصدع صرح الحضارة في الغرب بشكل تدريجي، ومع بداية النصف الثاني من القرن السادس خيم الظلام بشكل كامل على بلاد روما، حتى أن البابا غريغوري العظيم رحب على نحو فعلي بالوباء الرهيب الذي دمر إيطاليا في ذلك الوقت واعتبره بمثابة منقذ رحيم من فزع الحياة اليومية، وصرح في يأس قائلاً: «إذا نظرنا إلى الطريقة التي مات فيها أناس آخرون فإننا نطمئن إلى كيفية الموت الذي يتهددنا. يا لها من مضاعفات ويا لها من أعمال وحشية رأيناها يُبتلى بها الرجال بحيث كان الموت الملجأ الوحيد للهروب. لأن الحياة فيها عذاب مرير. فقد رحل كل عجب وأبهة لكرامة الحياة في هذا العالم، فلم يعد هناك مجلس أمة ومات كثير من الناس ومع

ذلك فإن الأنين والحزن يتضاعفان يوماً بعد يوم بين القلة الباقية، وها هي روما كما كانت قبلاً فارغة تحترق».

وخلال القرون التي تلت لم تُفعل إلّا القليل لوقف عملية الفساد والدمار فيما عدا عصر شارلمان، وقد كان سريعاً حيث تركت المدن تدمر وتشتعل النيران فيها وتخربها الحروب، أما سكانها فكانوا يذبحون وتبيدهم الأمراض، وأصبحت خراباً تسكنه البوم، وتجنب سكناها الناس خوفاً من اللصوص الذين اختبأوا أحياناً في خرائب بيوتهم، واستمرت الحياة في أماكن أخرى لكن ببضعة آلاف من السكان، بينما كان عدد الذين كانوا يعيشون في العصور الرومانية عشرات الأضعاف، وفي نفس الوقت، أهملت شبكة الطرق الرومانية التي كانت تربط العالم مع بعضه بعضاً وتسبب له الازدهار وحيث ثبت عدم إمكانية تخريبها تماماً لم يكن من الممكن منع قيام أخاديد أو تخريب بسبب عامل الزمن أو الطقس، وكانت الأتربة تغطيها في الصيف وتتحول إلى طين في الشتاء وتنتشر فوقها الأعشاب والحشائش ونبتت الشجيرات الصغيرة بين أحجار أرصفها مما أدى إلى إغلاقها.

وفي الريف المنخفض الذي جففه الرومان وصانوه من الفيضانات بإقامة السدود السطحية الضخمة، عادت الطبيعة وفرضت أثرها فيه، فإنهارت الأعمال الأرضية، وجرفت المياه آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعية الجيدة، واختفت قرى كاملة وتركت أعداداً قليلة من قاطني المستنقعات ليحتالوا على العيش في حالة وجود بدائية غير مستقرة بالصيد وأكل الضفادع والأسماك، وفي أماكن أخرى هجرت أصقاع شاسعة من الأراضي الزراعية التي أصلحها الرومان بسبب عدم ترك أي شخص يحرث التربة، وقلّصت الأمراض والحروب أعداد السكان بشكل مثير، أما في الأماكن الريفية البعيدة عن المدن والقرى تركت الآجام الشوكية تنمو، وكان من الخطر الشديد العيش في حالة ريف محفوف بالمخاطر والإجرام.

وفي تلك الأوقات كانت أوروبا في الزمن الروماني قبل قدوم العصور

المظلمة لا تزال منطقة غابات وأراض وقفار مستنقعية وعشبية مفتوحة كما هي كندا اليوم، حيث كانت تجوب مجموعات الذئاب في تلال وغابات ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا. كما كانت الدببة الأوروبية منتشرة تبحث عن الكمأ في ضواحي باريس، وفوق التلال حول فلورنسا، بينما كانت قطعان الغزلان الكبيرة تشاهد في كل مكان، ونظراً إلى أن الحياة الحضارية قد انهارت فقد انتشرت صور وأشكال الحياة الريفية الطبيعية بشكل واسع فوق مناطق الحراثة والفلاحة قديماً، بحيث دفعت الناس إلى تقليص أعمالهم وقصرها في الأراضي الزراعية حول المدن والقرى وحول البيوت الريفية التي أنقذت من الدمار عبر الأيام، ووصلت الأمور إلى غاية السوء سنة 800، مع قدوم النورمانديين الذين كانوا آخر البرابرة الشماليين حيث اجتاحوا في موجة كبيرة وقاموا بالأعمال التخريبية وإحراق المدن والسلب والنهب والإجرام في شتى أنحاء الأراضي الأوروبية، وبعد ذلك ولمدة مائتي سنة أصبحت الحياة في فوضى وتشويش إلى درجة لا تناسب بقاء الشخص حياً هناك.

وكانت المدن محصنة، كما كان الأهالي ينسحبون ليلاً داخل أسوارهم المحيطة للإطمئنان، وتجمعت القرى حول قلعة أو نقطة حماية قوية، بينما كان سكان البيوت الريفية يجعلونها قلاعاً صغيرة حولها خنادق تملؤها المياه ويقيمون حواجز وخطوط دفاع حولها، وبذلك كان الرجال والنسوة يتمكنون من اتخاذها ملجأ مع أطفالهم وماشيتهم في حالة الطوارئ. ولم يكن خلال هذه الفترة الزمنية العصيبة قانون أو نظام سائدين في أية منطقة، وماتت التجارة، عدا تلك غير المستقرة التي قام بها اليهود والشرقيون وكانت سلعها مثل الجواهر والعاج المحفور والأعمال الفنية تباع لطبقة النبلاء مع البخور والعطور للكنيسة، وقد قويت المجتمعات البشرية الصغيرة لتصبح معتمدة ومكتفية ذاتياً.

وكانت الحياة تحت تلك الظروف غير باعثة على الارتياح بشكل خطير، ورغم أن النبلاء المحليين. كانوا يملكون الأراضي والقلاع والبيوت المحصنة

التي ينزلون فيها، لكنه لم يكن لديهم إلّا القليل من أسباب الراحة لتخفف من عدم الاطمئنان المقبض للصدر والكئيب صيفاً، أو ليمنع البؤس المجمد على جدرانهم الحجرية شتاءً، وكان طعام رجال الدين ليس بأفضل من طعام البغال، أما الفلاحون، فقد كانوا يقطنون في خيم وأكواخ حقيرة تغطيها الحشائش والقش والطين، تشاركهم فيها حيواناتهم الأليفة أو ماشيتهم، ولم تكن الصحة الشخصية معروفة بحيث اعتبر الغسيل والاغتسال من قبل معظم الناس غير ضروري، أو شواذ، وحتى اعتبره بعضهم خطيئة على نحو قاطع، وقد كان أحد الأشياء التي يجدها الرومان المتمدنون أكثر عداونية في فاتحيهم البربر هي روائحهم، ولم يغير العديد من أحفادهم عاداتهم الشخصية منذ الغزوات البربرية الأولى.

أما الغذاء فكان في نقص، بسبب الضغط السكاني منذ أيام الحكم الروماني، على قطع الأراضي الزراعية الصغيرة التي عانت من الزراعة المتواصلة، بحيث لم يكن لدى الفقير إلا النادر ليأكله أما طبقة النبلاء فلا بد أنها كانت راضية بالوجبات المستمرة نوعاً ما، نظراً لأنهم كانوا يتصيدون فوق أراضي مقاطعاتهم وكانت لديهم كميات وافرة من اللحوم وحيوانات الصيد والسمك، وهناك ثمة وصف لوجبة تناولها القديس لويس الذي كان متنسكاً ومقتصداً في طعامه، ولكنه لم يخطر بباله أنه من غير اللائق أن يتناول في يوم صيام غذاءً احتوى أنواعاً شتى من الأطعمة من السمك والسراطين والأربيان والحبوب والخبز، المهم أن الخضار والفواكه كانت غالية ودليل ترف في الصيف، والبطاطا لم تكن معروفة آنذاك. أما في سني المحل، عندما تكون هناك فيضانات أو قحط يدمر المحاصيل، فقد كان هناك القليل من الاحتياطي لدرء المجاعة وكان الناس يموتون، وقد شاعت في مثل تلك السنين، وحدث في القرن السابق لقيام الحملات الصليبية أن استمرت مجاعة 48 سنة من أصل 100 سنة.

ومع ذلك الوقت، لم تعد موجات البرابرة تشكل الخطر الرئيسي على المجتمع، حيث أصبح المجتمع نفسه بربرياً، وأصبحت الحرب مستوطنة حيث كان يتقاتل النبلاء الثانويون في الضواحي ولم تكن هناك سلطة مركزية قوية بشكل كاف للسيطرة عليهم، وإجبارهم على وضع حد لعدائهم الإجرامي الطويل. وأصبحت الحرب مهنة ومتعة لهم وشغلهم الشاغل والوحيد عدا الصيد، وتحدرت طبقة المحاربين مباشرة من البرابرة الذين فتحوا أوروبا، وسيطروا على أجزائها المتشتتة، لقد ملكوا معظم البلاد وأصبحوا أسياداً لفلاحيهم الذين يحرثونها لهم، وبالمقابل حماهم النبلاء قدر إستطاعتهم ضد أخطار الزمن. وغلبت عليهم مزايا لطافتهم وشجاعتهم وإخلاصهم لرفاقهم في السلاح، بالإضافة إلى ميل حماسي للحياة التي جعلتهم يعيشون حياة مرعبة باستمتاع كبير، ولكنها أيضاً جعلتهم قاطعي طرق دون شرف يغزون بعضهم بعضاً دون إحساس بالارتياب، ويجلسون يحتالون ويعذبون ويقتلون بعضهم بعضاً في عالم ساده العذاب من الجشع والطموح المروعين.

فإذا كانت طبقة المحاربين والنبلاء الاقطاعيين سادت العصور المظلمة في أحلك أزمانها جاعلةً الحياة فظيعة بالحروب الدائمة، فقد تحدت الكنيسة هذه السيطرة. لأنها على نحو جماعي كانت بقدر ضخامة النبلاء والاقطاعيين الدنيويين معاً، وأيضاً تستخدم نفوذها الروحي الهائل. وبشكل عام إستخدمت قوتها ومارست سلطتها بحكمة، وهي مع أخطائها حاولت أن تسمو باسلوب الحياة التي آمنت أنها ستكون حالة ذات صبغة مسيحية أكثر من تلك التي فرضتها بالقوة على كل فرد الفوضوية والاعمال الوحشية للقرنين التاسع والعاشر، وفي الواقع اشمئز بعض رجال الكنيسة المتأخرين من الحرب حتى أنهم شرعوا بحركة لدعم السلام بالتهديد بفرض الحرمان الكنسي على الأشخاص الذين يلجأون إلى السلاح دون سبب وجيه، فتشكلت أحلاف السلام وساندها رجال الدين المسيحي الذين شاعوا شعبياً إلى درجة أن قلاع بعض النبلاء المحليين الذين رفضوا الانضمام إليهم هوجمت بعنف من قبل

عصابات المسالمين المسلحين في حالة متناقضة ظاهرياً، ورائعة للقتال في سبيل قضية السلام.

وأخفقت جميع محاولات التخلص من الحروب، ولكن مساعي أكثر واقعية وطموحاً نجحت في وضع حد لإرهابها، ففرض حظر القتال والعداءات في أيام الآحاد والأيام المقدسة وبقي فيما بعد رئيس الأساقفة في رافين ينادي بهدنة الهية حددت الحرب السرية بثلاثة أيام في الأسبوع، ومع ذلك بقي ثمة متنفس لنزعة القتال الطبيعي عند الرجال، فكان أي شخص يستطيع قتل مسلمي أسبانيا الذين يحدثون اضطرابات لعبور جبال البيرينية ولا يحدث هذا دون الإفلات من العقوبة فحسب، بل أيضاً تحت مباركة الكنيسة والاستحسان الحار من الرب، وكان ذبح الملحدين أو المقاومين للنصرانية يعتبر أعمال تسلية ورعة. في حين أن رجال الدين الذين كانوا يحاولون بإخلاص السمو بالسلام بين المسيحيين، كانوا أطفال زمانهم ونتاج مجتمعهم، وكان شيئاً طبيعياً أن يجد المرء المطارنة ورؤساء الاساقفة يقاتلون بكامل أسلحتهم جنباً إلى جنب مع رفاقهم المسيحيين في حروب مقدسة ضد أعداء النصرانية. وأن ترى سيوفهم الأسقفية حمراء تقطر بدماء الكفرة، وكانوا إذا قتلوا في المعركة على يقين بأن البابا ضمن لهم الغفران ومحو خطاياهم جزء وفاقاً لقتالهم المخلص.

وكان هذا الفعل بالغ الأهمية بالنسبة لهم فقد قيل إن على الناس تكبد مخاوف معينة لو تمسكت بهم تصبح سبباً لاضطرابات عصبية وتجعلهم مرضى ويتضح مثل هذا القلق لدى المرء في علمه بخطيئته، كما ينتج في يقين قدوم يوم ما يموت فيه، وكانت فكرة الذنب مستحوذة على رجال العصور الوسطى، ولم يكن شيئاً مصدماً عند تذكر التباين بين أعمالهم ومثالياتهم المسيحية. كما لم تعن بالنسبة إليهم أكثر من التكفير عن ذنوبهم، ومن أجل هذه الجائزة سوف لن يألوا جهداً في نكران الذات، وتحمل تقريباً أي ضرب من المشقة لأن البديل كان اليقين، إن قتلوا على حين غرة ولم يتحللوا من خطاياهم فيستعين

عليهم أن يعانوا سوء العذاب في جهنم، كما كان رائجاً في أوساط الاعتقاد الشعبي للعصور الوسطى.

كانت فكرة الموت مستحوذة عليهم بشكلٍ متساوٍ وهو ليس بالشيء المفاجئ لأن الموت إمكانية مستمرة دوماً ليس فقط نتيجة لقسوة الزمن المتواصل بل أيضاً لأسباب طبيعية. وفي أيامنا أقصت مهنة الطب الموت الباكر بنجاح كبير إلى درجة أنه إذا مات طفل أو شاب يافع يحزن الجميع بعمق وعندما يتعرض رجل في الخمسينات لصدمة أو ضربة يعتبر موته حادثة قبل الأوان على نحو مأساوي. ولكن الموت في العصور الوسطى كان حادثة يومية متكررة، حيث يموت الناس في عمر الشباب، وكان عدد الوفيات بين الأطفال هائلاً، حيث سرت محنة إنتشار الأمراض المميتة ومصادر الخطر الأخرى بين الأطفال قبل نضوجهم مما كوَّن عاملاً مؤثراً في إضعاف منزلتهم الاجتماعية، وكان أحد البابوات ولداً لعائلة كانت مؤلفة من اثنين وعشرين طفلاً، وقد كان أحد اثنين بقيا على قيد الحياة حتى سن العشرين بينما مات الباقون، وهو شيء بعيد عن أن يكون غير عادي أو مفاجئ، بل هو طبيعي تماماً. ونورد بعض الأمثلة عن أسر حكمت فيما بعد مملكة أو أكثر من الممالك الصليبية فقد مات بلدوين الخامس عن عمر تسع سنوات ومات هيج القبرصي في الرابعة عشرة من عمره وماتت الملكة ماريا المقدسية في الحادية والعشرين من عمرها. وحتى الامبراطور الروماني هنري السادس من أسرة هو هنزتوفن توفي كرجل دولة محترم إلى حد بعيد، وصاحب خبرة واسعة وذا هيبة يخافه الناس بشدة، توفي في سن الثانية والثلاثين.

وكان كل شيء محتمل، فأية إصابة بسيطة ربما تؤدي إلى ما هو أسوأ مثل الحميات، أو إلى التهاب اللوزات، أو المغص أو انفجار الزائدة الدودية، أو أحد من ضروب الأورام المختلفة، يمكن أن يجهز على المرء بعد عدة أيام من المرض، وكانت بعض الأمراض مثل الجذام والطاعون كوارث تقتل ملايين الناس بطرقها المختلفة بين الحين والآخر، أما المجاعات فكانت تأخذ

ضريبتها الهائلة على نحو نظامي ورتيب، وحتى الحوادث الصغيرة غالباً ما كانت أسباب مؤدية للموت، حيث مات الناس نتيجة للسقوط من على أو الاصابة بجرح، أو بالغرق أثناء الصيد، وقد قتل فريدريك بربروسا حينما سقط عن حصانه في الجدول، رغم أنه لم يحدد إذا كان مات سقوطاً أو غرقاً. وكان يحدث أن يقتل الناس أنفسهم بأساليب مختلفة غير مرجحة، كما حدث أن مات ملك القدس أموري الثاني نتيجة لتخمة بسمك البوري.

وقد خلق تأثير الإمكانية المستمرة للموت المفاجئ على عقول الناس، بالإضافة إلى الفكرة المستحوذة عليهم عن الخطيئة والذنب ـ خلق جواً من عدم الإطمئنان الأساسي، وتعين عليهم أن يحيوا فيه أم لا، وكان لهذا آثار بعيدة على الطريقة التي عاشوها، ولربما شجب الرسول اشعيا لترديده مثل هذه الأقوال: «دعنا نأكل ونشرب وسوف نموت غداً» ولكن كان لديهم حد فاصل، لأن كلمة غداً ربما عنت اليوم التالي بدلاً من اليوم الموعد البعيد الغامض في المستقبل الشيخوخي، وكما يبدو بالنسبة لنا أن كان الصوم الشيء الوحيد الذي تمتع به الناس، بينما كانوا يستطيعون الزواج وينشؤون العائلات، ويستحوذون على السلطة، ويقتلون أنفسهم، ويبنون لأنفسهم المجد خلال غفلة اللحظات العابرة لخوفهم من أن تكون فترة امتيازهم قليلة، وفي الواقع اتبعت الأيدي العاملة في القرون الوسطى نصيحة بروتس وانتهزت كل فرصة قبل أن يغمر طريقها الفيضان على أمل أن تعود إلى الحظ السعيد قبل أن يدعوها القبر، وأطلق هذا ينابيع القدرة فيهم، تسوقهم خلال درب الحياة بطريقة تبدو فجأة نشيطة، وقوية على نحو عجيب، ومع ذلك هي ضجرة ومهملة بشكل لا يصدق عندما ينظر إليها بمنظار أفضلية الفراغ بالنسبة لضمان تعميرنا الطويل، كما جعلهم هذا متقلبين على نحو محير، فهم في لحظة يحبون ويتسمون بالنبل والشهامة ومفعمين بأنبل المثاليات، ولكنهم في لحظة أخرى كانوا يتصرفون بوحشية إجرامية فظة، لا يتورعون عن القيام بأعمال العنف ولا يحترمون الكهل أو المرأة أو الطفل.

أما العالم الطبيعي الذي تسكنه طبقة الأيدي العاملة في العصور المظلمة، فكان تفهمه بطريقة مختلفة عن إدراكنا إلى حد أنه من الصعب علينا إعادة تصوره، وأما صياغتهم النظرية للعالم الذي كان يشكل خلفية غير متميزة لتصور عقولهم، فلم تكن تمت بأية علاقة على الإطلاق للصورة الذهنية للعالم التي نحملها في أذهاننا، ويكاد يكون من الضروري أن نوضح أنه ليست ثمة وقائع انكشفت لنا بالمجهر العالمي الحديث كانت معروفة لديهم ولكن من الواضح كما يبدو، إنه من السهل نسيان أن هذا قد باعد بين عالمهم الفكري وعالمنا. فهم قد عاشوا في عالم مستقر: عالم ينتشر او يمتد حولهم مثل سهل متطاول بلا نهاية، ولا يستطيع إنسان رؤية حوافه، ولكنه عالم يعرفه كل سليم عقل انه موجود في مكان ما بعيد على نحو شاسع ومختبىء في سديم الأرض المجهولة. لقد كان عالماً أكبر وأكثر غموضاً من عالمنا: أكثر لأن مسافاته كانت تقاس بالأطوال الزمنية التي يمضيها المرء حتى يقطعها، وأكثر غموضاً لأنه لا زال هناك الكثير منه مجهولاً. ولم تكن الرحلات الطويلة واردة على الإطلاق. وربما كان الحاج إلى الأرض المقدسة مثلاً من سانت اليانس أو كوتانس أو فرانكفوت يستغرق مدة ثلاث إلى أربع سنوات لاتمامها ذهاباً وإياباً. أما نحن فنطير من لندن إلى مطار اللدفي خمس ساعات، وعلى الأرجح فإن الحاج نفسه لم يغادر إلى أبعد من عشرين ميلاً خارج مكان ولادته، قبل الانطلاق في رحلته لتحمل الصبر والمشقة وحتى أنه لا بدقد بدا سكان الاقليم التالي لغزاً بالنسبة إليه، وربما لم يشهد البحر، ولكان السكان المتلكمون لغة مختلفة عن عالمه تقريباً بقدر قدوم زائر من الفضاء الخارجي، كأمر غريب بالنسبة لنا.

ولكن بالطبع لا بد من أنه سمع عن بلاد أجنبية وأصبح معتاداً على أعاجيب الأسفار. ولكن ما لم يفقد غموضه، وكان القسم الكبير غير المكتشف من الأرض إلى خلف حدود العالم المعروف، وتسربت إشاعات عن حيوانات غريبة وأناس دخلاء خارج الحدود الشرقية لبلاد فارس والهنود،

والأراضي الصينية والمغولية، واختلطت مع خرافات عن عمالقة وظلمان وأنواع من التنين بعين واحدة، وعن أناس يأكلون أطفالهم، ووصلت روايات عن ممالك إلى الجنوب من الثرى والحرارة لصحارى شمال افريقيا، حيث شاعت أن مواد الخام والذهب والأحجار الكريمة كالتراب وتملأ تلك البلاد الحيوانات الغريبة مثل وحيد القرن والزرافة وحيوانات ضخمة وقوية وصفت في «كتاب العمل»، وهو على الأرجح كان وصفاً خرافياً للتمساح، الذي تكمن قوته في خاصرته، ومقدرته في عضلات بطنه ويحرك ذنبه مثل شجر الأرز، وتنعقد أعصاب فخذه مع بعضها بعضاً وعظامه من أنابيب نحاسية وأطرافه من قضبان حديدية، وحتى ما يقع خلف هذه المناطق البعيدة والاستثنائية لا يمكن تخليه، فقد كان مجهولاً كلية. وماذا يقع وراء الأطلسي، وهل الأرض التي راجت الاشاعات عن بردها وظلمتها الدائمين مثل شمال السديم الثلجي، وقدم منها البربر، وتحضن أيضاً أجناساً أكثر شراسة؟ لم يكن أحد يعلم ولا أين هي تنتهي، لقد كانت لغزاً محيراً ولا يستطيع أحد حله. وفي الواقع، أن العالم اليومي الذي كان يعيش فيه إنسان العصر الوسيط من بعض النواحي يلفه الغموض بالنسبة إليه أكثر من العالم الآخر الذي عرف حتماً أنه راحل إليه بعد الموت. لأن الخطوط الرئيسية لعالم المستقبل كانت واضحة بشكل كامل في عقله ولا يعتريها أي شك، ففوقه قبة السماء حيث يسكن الرب في علياته تحيطه الملائكة وجميع ضيوف السماء فالرب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وعينه الرقيب اليقظ لا يهمل صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان الجنس الغالي من أجل الخطر الخالد ـ أخطاؤه الكبيرة والصغيرة تدخل بشكل قاطع في كتاب الحكم من السماء وأعماله هي التوبة والفضيلة. فإذا كانت ـ عندما يموت المرء ـ صحيفة ميزانه السماوي في الجانب الأيمن ينضم إلى رفاق كثيرين من القديسين والشهداء في الجنة، أما إذا كانت في الجانب الأيسر بسبب تراكم ذنوبه العرضية فلديه فرصة لتصحيحها خلال سني الألم والتوبة في موطن تطهر فيه النفوس ولكن إذا ثقلت موازينه بأثقال كبيرة من الذنوب المهلكة الرهيب،

فيؤخذ دون ريب إلى جهنم حيث تعذبه الشياطين وتحرقه النار الأبدية، ويخضع لشقاء دائم محفوظ لكل ملعون.

إن هذا الوصف للعوالم التي تتدلى من الأعلى وتطوق من الأسفل سهلاً منبسطاً فسيحاً للعالم الطبيعي، لم يكن أبداً وسيلة لوصف ما لا يوصف باللغة التصويرية فاتخذت على أنها طريقة خرافية للتكلم عن الرب والإنسان والقدر والاختيار ذلك أن الجنة والنار كانت وقائع مادية حيث يذهب المرء إلى هذه أو تلك في المستقبل، هي لربما في الواقع، من أصعب الأشياء قبولاً بالنسبة لشخص يعيش في القرن العشرين، فقد كانت بالنسبة العصور الوسطى الحقيقة الأسياسية ولم تكن تلك من الشؤون اليومية السياسية والاقتصادية، وأن الدين أقحم ضمنها كخيار أضافي لمن له ميل روحي في أيام الآحاد، وربما لوقت قصير كل يوم خلال بقية أيام الأسبوع. ولكنها على النقيض كانت بالنسبة لأنسان العصور الوسطى الحقيقةالأساسية الأولية التي وضعت في رسوم جدارية، وعلى نوافذ زجاجية ملونة لكنائسه وكاتدرائياته، فعاش حياته اليومية وفقاً لنظرته للخلود والحساب.

وكان الخوف فقط ينال من أولئك الذين كانوا أطفالاً من الظلام، والمرور من زاوية معينة فوق درج فيه شيء مخيف، أو المشي عند ملتقى أحجار مرصوفة خوفاً من بلاء مرعب ينزل نتيجة لذلك، وكل إنسان مهما حاول تصور الأمور يبقى تصوره عملاً باهتا عما شعر به انسان العصور الوسطى، فقد كان عالمه مكاناً مرعباً وروحياً على نحو عميق وسطحي لما وراء الطبيعة، كما كان مكاناً للمعجزات حيث تخضع فيه الأشياء المادية لقوة الأرواح، وحيث هناك صراع بين قوى الجنة وقوى الجحيم في تقدم مستمر، وتترصد الأرواح الشريرة في انتظار للانسان الفاضل عند تقاطع الطرق، وقرب قبور المعدومين، وعند أطراف الغابات وجانب الحجارة الواقفة وفي الأفواه الفاغرة، وفجوات الحجارة وثقوب الأباريق، وفي الكهوف لأنها تنزل بشكل واضح إلى جوف جهنم. وكان الخونة الأقزام والمجانين والسحرة

والمشعوذين وأشباح الموتى المتحركون جميعاً تخيف كل شخص، وهي جنود الصدام المتنكرة التابعة للشيطان، ويستطيع أولئك الذين يميزونها في الوقت المناسب مقاومتها بلفظ وترديد إسم المسيح برسم إشارته .التي يفزعون منها رعباً.

ولحسن الحظ يترك الناس دون أحلاف سماوية في هذا الصراع الدائم مع الأشباح الذي يجري داخلهم وحولهم. وكانت هناك ملائكة تحرسهم يمكن دعوتها عند الحاجة، كما تفعل الصلوات وأدعية القديسين فعلها العجيب، وصنفت الملائكة إلى جانب الآلهة الكبرى في المعركة الكونية، تتنكر برفق بصور قديسين مسيحيين يصنعون المعجزات ولهم مقامات ومشاهد في الكنائس مبنية فوق المذابح القديمة، أو إلى جانب الجداول والآبار المقدسة أو جانب الأشجار العتيقة حيث كانت تعبد لقرون قبل العهود المسيحية. أما العرائس اللواتي لم يصبحن حبالى بسرعة فيكفي أن يكبتن مخاوفهن أنهن عاقرات، فيسارعن لتقديم بعض القرابين لمزار قديس محلي أو يؤدين احترامهن المتواضع إلى صورة مقدسة لأم الرب بالأخص تلك التي عليها عباءة ربة الخصب الكبيرة أو عباءة ربة الأرض الأم الكبيرة. أما الذين يعانون من الأمراض المزمنة فكانوا يرتحلون مسافة أميال للبحث عن العلاج في أماكن حيث استشار في يوم الرومان والأغريق الطبيب اسكالابيوس أو أوفياروس وإلى أماكن فيها آبار ونوافير يرمي في وسطها السواح في تلك الأيام بقطع نقدية لاعتقادهم بقدرتها الخارقة. وكان رجال ونساء العصور الوسطى يذهبون ليطلبوا مساعدة من رب محلي قديم، أو من أماكن العفاريت الذين كانوا يعبدون منذ أيام العصور الحجرية.

ان هذا الترافق الشديد لقوى روحانية مع أماكن متينة له نظير متمم في علاقتهم الأشد مع أشياء خاصة، فعلى الرغم من أن الاعجاب بالآثار التذكارية كان شيئاً عالمياً، ورغم أنه يعتبر في أحسن الأحوال تحت الشبهات، وفي أسوأ الأحوال مجالاً للسخرية والازدراء، لكن له منطقه الخاص به، لأنه

لو استطاع الإنسان اليوم خزن خصلة من شعر رأس زوجته التي ماتت، وعرف أن بين ذراعيها معجزة خلاقة من الحب فكم هو معقول جداً بالنسبة لإنسان العصور الوسطى أن يختزن قطعاً خشبية من الصليب الذي حدثت فوقه في وقت ما معجزة قصة غرامية للرب من أجل تخليص العالم كله من الخطيئة؟ وللسبب نفسه، كان تبجيل جثث القديسين الموتى التي من خلالها تكلم وفعل الرب، فهناك لسان القديس مارك ومنديل فيرونيكا العجيب أو الثوب الذي ارتداه يولي كارب الذي نال الشهادة في أزمير. وفي الواقع لم تكن مثل هذه الأشياء تثمن غالياً فحسب ولكن حيثما وجدت، وجدت غالباً مغلقة بوسائل من الذهب مصنوعة على نحو عجيب ورائع ومرصع بالأحجار الكريمة التي أصبحت مقاصد للحج. وقد كان العديد منها تحفظه أماكن عديدة، فكانت روما مليئة ببقايا وأثار قديمة لمعتقد بال ولم تكن لتجار القسطنطينية وكان آلاف الحجاج إلى الأرض المقدسة يمرون بأكبر المدن في العالم (وكانت عشرة أضعاف ضخامة أية مدينة أخرى في ذلك الوقت) لكي يحدقوا برهبة وإجلال إلى مجموعاتها من الأشياء المقدسة التي لا يمكن منافستها. وكانوا يطوفون مارين من أماكن مثل خشبة الصليب وتاج الشوك والرداء الوحيد ومسامير صلب المسيح مروراً بأشياء أخرى مثل زنار الذي لبسته فيما مضى مريم العذراء المقدسة وخصلة الشعر المقطوعة من رأس جون يوحنا المعمدان، ثم إلى فيض سن التذكاريات لرجال وقديسين أتقياء، وكانت قد حملت إلى المدينة جثة النبي دانيال من قبل والدة قسطنطين القديسة هيلينه أم الأمبراطور قسطنطين الكبير. وفيما بعد بقليل وصلت جثث القديس تيموزي والقديس أندروس والقديس لوقا وسرعان ما إنضمت إليها جثث صموئيل وأشعيا. وفي أيام جستنيان أتى جثمان القديسة آن لينفخ الحياة في هذه المجموعة المتيبسة والصامتة من الجثث الميتة.

وفي عالم محتشد بالأشياء المقدسة والأماكن المقدسة يأتي حتما الناس إلى اعتبار بعضها أقدس من أخرى، وهي أماكن طبيعية حيث قام المسيح

بمعجزاته فيما مضى ووطأ نفس أرضها التي وطأها الانسان الخاطئ الذي يحتل المنزلة المقدسة فيها جميعا . ومن أجل زياراتها والوقوف حيث وقف في الماضي المسيح والرسل للنظر بخشية وتبجيل إلى التلال وبساتين الزيتون وإلى البحيرات والجداول الصغيرة والمدن والقرى التي عرفوها في زمانهم ـ ينبغي على المرء أن يدخل في اتصال روحي معها له خاصيته المباشرية، وليس من شرط آخر. وهكذا تطور ببطء نوع من التسلسل الجغرافي للأماكن الدينية، فهناك في اسبانيا كومبوستيلا حيث ادخر جثمان جيمس العظيم، وهو أخ جون يوحنا المعمدان وابن زبدي ويحتل منزلة تالية لروما حيث عاش ومات القديسان بطرس وبول وتصنف روما في المنزلة الثانية بالنسبة للقدس والأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين، وكان القيام بالحج إلى تلك الأماكن رغبة عميقة لدى كل شخص. وهو راض من أجل اشباع هذه الرغبة بتحمل أكبر قدر من المشقة والخطر.

وكان ثمة قيود. ورغم عهود الإيمان فقد برزت مسألة أنه لم يعد العديد من الناس معدين للرحيل إلى القدس، ثم أن هناك مكانة سماوية هائلة لمثل هذا الارتحال وللثواب الذي يمكن أن ينالوه في يوم الحساب، وكانت صدمة هائلة لجميع الصليبيين عندما سقطت القدس في أيدي جيوش الإسلام سنة 638، وعلى أية حال فقد ثبت أن فاتحيها المسلمين كانوا متسامحين على نحو مدهش مع تابعيهم المسيحيين. وفي الواقع رحب بعض المسيحيين هناك بحرارة بالحياة تحت قيادة حاكميهم الجدد، وفضلوها على تلك التي توجب تحملها لقرون تحت سيطرة الأباطرة البيزنطيين، الذين لم يرهقوهم بالضرائب الكثيرة فحسب، بل كانوا يضطهدونهم لعقائدهم المنشقة. ونقول منشقة حسب المعايير التي آمنت بها القسطنطينية، ولكنها كانت مرفوضة في فلسطين وسورية ومصر، فقد أفسح المسلمون لهم المجال على الأقل ليؤمنوا بما اعتقدوا به، وبعبادة ما فكروا أنه مناسب. كما أفسحوا المجال للحجاج من الغرب لزيارة المواقع الدينية المقدسة دون عائق، فازدادت باطراد أعداد المسيحيين القادمين

للصلاة عند موضع الآثار المقدسة فوق جبل الزيتون أو في كنيسة عيد المهد في بيت لحم ولكن في بعض الأحيان أظهرت الرحلات مخاطر وصعوبات، كما حدث عندما استغرقت رحلة رجل انكليزي يدعى ويلي بولد سبعة أعوام وذلك في السنين الأولى من القرن الثامن. كما كان يعاق تدفق الحجاج الشرقيين، إضافة إلى القرصنة التي أغلقت البحر المتوسط في دورة العصور الوسطى في القرن التاسع. وكما أن أحد الخلفاء كان أحمقا جعل الحياة فظيعة للجميع في نهاية القرن العاشر. إنما عل العموم شجعت السلطات الإسلامية الحجاج على القدوم وحمتهم من الأخطار.

وفي 19 آب 1071 تعرضت هذه الحالة السعيدة نسبياً لنهاية مفاجئة. ذلك أن الأتراك السلاجقة وهم جنس من الرعاة البدو في سهوب آسيا الوسطى الذين اهتدوا إلى دين الإسلام خلال سير الهجرة الضخمة نحو الغرب التي فرضتها عليهم حالة الضغط السكاني على الموارد المحدودة من أراضي الرعي الآسيوية القديمة. وكانوا قد ازدادوا قوة لسنين، وفي عام 1055 دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة هناك، ومنذ ذلك الوقت أصبحوا سادة الامبراطورية التي امتدت من آسيا الوسطى وروسيا الجنوبية إلى الحدود الشمالية من بلاد سورية. اتصلت مع الامبراطورية البيزنطية. وكان ثمة مناوشات على الحدود حيث قتل العديد من الطرفين واشتعلت حروب غير رسمية عندما كان يطوف البدو الأتراك مع قطعاتهم ومخيماتهم فوق تخوم هضاب أناضول بحثاً عن الكلأ. ودخلوا في نزاعات مع المزارعين البيزنطيين ومالكي الأراضي الذين غزيت أوطانهم. ومع حتمية المأساة الأغريقية فإن القوتين دخلتا سلسلة صدامات أدت إلى دمار لأحداها. وكان جيش الامبراطورية البيزنطية هو الذي دمر في آب سنة 1071 في معركة حدثت في مكان قريب قرب بحيرة وأن تدعى منازكرد شرق تركيا وبعدها لم يكن هناك من شيء يوقف الرعاة الأتراك من اجتياح الأناضول.

لقد كانت نكبة مدمرة للامبراطورية البيزنطية وأغلقت طرق الحجاج

الغربيين عبر آسيا الصغرى إلى الأرض المقدسة، فإذا مازال المسيحيون في الغرب يرغبون في زيارة تلك الأرض حيث عاش ومات المسيح بات عليهم السفر بحراً أو مساعدة رفاقهم الشرقيين المسيحيين لاستعادة الأرض التي خسروها، وكانوا قد اعتادوا على القتال ضد المسلمين في إسبانيا من أجل إنقاذ الأراضي المسيحية من الحكم العادي، ولكي ينالوا الأهلية من الرب لدفاعهم عن الدين المسيحي ضد أعدائه. ولذا كانت فكرة حتمية القيام بحرب مقدسة ضد الأتراك لانقاذ أقدس الأماكن المقدسة في العالم المسيحي من الهيمنة المعادية وسرعان ما خطرت الفكرة إلى البال المسيحي، وكانت النتيجة الحروب الصليبية.

الفصل الثاني

المدينة التي لا تقهر

حلمت حلما ورأيت مدينة لا تقهر
صامدة أمام الهجمات المختلفة من كافة انحاء الارض

وايتمان

بنى الامبراطور قسطنطين مدينة القسطنطينية فوق مدينة قديمة تدعى بيزنطية، وسميت تبعة لمؤسسها. وأشير إليها كعاصمة جديدة للعالم الروماني في 11 أيار 330، وقد قدر لها أن تبقى صامدة وسط العالم المظلم والمعادي أكثر من ألف سنة حتى 29 أيار 1453، عندما اخترق محمد الفاتح ومعه ثمانون ألف تركي أسوارها، ودافع عنها ما لا يقل عن سبعة الآف رجل، ومرة بعد مرة خلال تاريخها الطويل، وبينما غرق الغرب في الظلام والفوضى كانت القسطنطينية تتعرض إلى هجمات الأعداء المدنيين والبرابرة، ورغم أن الهون والقوط والصقالبة والبلغار والعرب والروس المسلمين والأتراك السلاجقة، قد انهمروا على أسوارها الضخمة المنيعة بسيل أسود من الرجال والخيول، فقد تغلبت عليهم، حتى كان محمد والعثمانيون معه الذين فتحوا ثغرة فيها بواسطة اختراع جديد دعي البارود فسقطت القسطنطينية أخيراً في هجوم للأعداء من جهة البر، ولم يكن بعد هذا عجيباً أن سماها البيزنطيون «المدينة التي دافع عنها الرب».

وقال ادوارد غيبون المؤرخ الانكليزي الكبير، والوحيد تقريباً لفترة

زمنية طويلة من بحث في تاريخ الامبراطورية البيزنطية: «كان تاريخها قصة مطردة ومضجرة من العذاب والضعف» إنه نادراً ما كان هناك حكم تاريخي مجحف ومؤذ على نحو دائم يؤهله لأخذ مكانه في مجموعة أكاذيب العالم الكبيرة، ذلك أن الحقيقة شيء معقد جداً فالتاريخ البيزنطي بعيد عن كونه متماثلاً أو مملاً، وهو قصة متنوعة وفاتنة بعيدة عن الذل والمجد، ومرصعة بين فترات الضعف بفترة قوة هائلة من العقيدة الدينية الصادقة العميقة الممزوجة بشكل فريد بسمة بيزنطية من السخرية المصقولة، ومن الذكاء المتقد الملون بعناصر خرافة بدائية، بقي البيزنطيون خلالها جميعاً شعباً مهذباً ومتمدناً على نحو عميق.

وبعد عهد قسطنطين نجح النصف الشرقي من الامبراطورية مع عاصمته الجديدة على بحر البوسفور في الصمود ضد هجمات البرابرة الذين دمروا الغرب، وفقدت بذلك الامبراطورية كثيرا من أراضيها ومقاطعاتها الأوروبية وفي شمال أفريقا، التي تعرضت للتدمير والغزو بين الحين والآخر. ولكنها كانت تنجح في طرد الغزاة المعتدين، واحتفظت تحت سيطرتها بمعظم بلدان البلقان الشرقية، كما بقيت سورية ومصر وفلسطين بصبغتها الرومانية. وأيضاً الثغور الحدودية الهامة في القرم. وبعد مائتي سنة وخلال حكم جستينيان شن هجوم معاكس كبير ضد الفاتحين البربر في الغرب، فاستعيدت إيطاليا وجزيرة صقلية ومعظم شمال أفريقيا وقسماً من أسبانيا، ورغم نجاح هذه الانتصارات فقد دفع ثمنها دماء غزيرة وأموال طائلة من الخزينة إلى حد أنه عندما مات جستينيان وتوسعت الامبراطورية إلى أبعاد شاسعة، عادت مرة أخرى وفقدت معظم أراضيها. وتبعت تلك الأحداث فترة صعوبات وأخطار، فقد تدفق البلغار والصقالبة عبر نهر الدانوب مجتاحين مناطق البلقان الوسطى واليونان، بينما اكتسحت جيوش الدين الإسلامي الجديد التي بدت قاهرة ومتعصبة، كل شيء أمامها في الشرق، وخسرت الامبراطورية أيضاً مصر وفلسطين وسورية والجزيرة وتعرضت القسطنطينية نفسها مرتين لحصار تام من قبل العرب،

واستسلمت معظم آسيا الصغرى لقوتهم لكن كما بدا للبيزنطيين أنفسهم ولأعدائهم في ذلك الوقت، كانت الامبراطورية ما تزال قوية، ولم تلفظ نفسها الأخير، ولم يزل مواطنوها يعتمدون على احتياطاتهم الضخمة، العسكرية منها والمعنوية في تصميمهم لمقاومة هجمات أعدائهم المسلمين الذين وصفهم الأمبراطور نقفور فوقاس بقوله: «أنهم شرذمة كافرة من أبناء هاجر، أولاد كلاب يفترون على المسيح كلمة الرب، ويتبعون رسولاً كاذباً وهم لا يتورعون عن أكل لحم الجمل النجس» ومع ذلك، فعهدهم الطويل القادم..» وبعد حوالي 150سنة من محاولة العرب الأخيرة المجهضة للاستيلاء بالقوة على القسطنطينية، وفي منتصف القرن التاسع عندما بدأت أوروبا الغربية تعيش أحلك الأزمنة وأكثرها فوضوية، وعصور اليأس الهمجي البدائي، شنت الأمبراطورية بقيادة سلسلة من أباطرتها المحاربين العظام هجوماً معاكساً ناجحاً ضد العالم الإسلامي في الشرق، وضد البلغار والصقالبة في الغرب، وأدى هذا العمل إلى توسع الامبراطورية مرة بعد أخرى، وازدهرت الحضارة البيزنطية لفترة مائتي سنة أخرى بشكل لم تعهده من قبل وأصبح يعترف بها كقوة عالمية ثانية، ولم يكن هذا الا نمواً خادعاً لنقاط ضعف داخلية معينة ترافقت مع مجيء الأتراك السلاجقة الذين أضعفوا قواها مرة أخرى في الفترة التي سبقت قيام الحملات الصليبية.

ورغم هذا العرض الموجز لفترة تقارب الف سنة من التاريخ البيزنطي الذي يكشف عن مدى أهمية الدور الذي شغلته مدينة القسطنطينية في الحضارة البيزنطية وبقائها، إلا أن هذا برهان عن عبقرية قسطنطين في اختيار هذا الموقع لروماه الجديدة، فقد أسست المدينة فوق مثلث من الأرض يحده بحر مرمرة من جانب والقرن الذهبي من الجانب الآخر (أكمل موانئ العالم)، وبما أن السور العظيم الذي يمتد من البحر إلى البحر في جهة اليابسة أتم بناءه الامبراطور سيودسيوس الثاني في عام 413 وأعيد تقويته وتحصينه بعد زلزال عام 447، فقد أصبحت القسطنطينية أمنع مكان فوق الأرض، ولم يكن اختيار

قسطنطين لمكان الامبراطورية البيزنطية موفقاً من الناحية العسكرية فحسب، بل كان أيضاً خطوة عبقرية من وجهة النظر التجارية والاقتصادية لأن المدينة تقع عند نقطة حيث تنفصل أوروبا عن آسيا بمضيق البوسفور المائي، ومن سيطر على القسطنطينية فقد سيطر أيضاً على الحركة في ذلك الممر المائي عرضاً وطولاً وبالتالي، فهي القيّمة على طرق القوافل بين الشرق والغرب، وعبرها كانت تصل مواد الحرير والتوابل والمجوهارت من الصين والهند وبلاد فارس إلى العالم الغربي كما تقع أيضاً في ملتقى طرق التجارة بين الشمال والجنوب، وعبرها كانت تسافر تجارة الرقيق والأسماك المحفوظة والفراء من السهوب الروسية عبر البحر الأسود إلى العالم الغربي الروماني، ومع مرور الأيام أصبحت المدينة مترفة على نحو واسع.

وكانت القسطنطينية مكانا عالمياً ومتحرراً وضخماً بمعايير يومنا، وفي أوج قوتها وازدهارها في القرنين التاسع والعاشر وصل عدد السكان فيها على الأغلب إلى ثلاثة أرباع المليون نسمة وربما أكثر اذا أضيف قاطنوها في الضواحي. وفيما بعد زمن الحملة الصليبية الأولى ربما قل عدد السكان، ولكن على الأغلب بقي معظم الشعب في القسطنطينية في ذلك الوقت، وأكثر من سكان انكلترا في نفس الفترة.

وكان بين البيزنطيين عروق وجنسيات مختلفة، ولم يكن عرق بشري فوق الأرض إلا وتمثّله قلة منه ابتداء من اليونانيين والرومان الذين تمكنوا من تقصي سلالتهم خلال ألف سنة ماضية، وخلال أجيال شهيرة من النواب والنبلاء الأرستقراطيين إلى عامة الناس التي تعود جذورها العرقية إلى أرمينيا وسورية وقبرص واليهود والقوط والصقالبة والأتراك والعرب ولكنهم حيث كانوا يتكلمون الرومانية، ويعتبرون أنفسهم بيزنطيين صالحين، لكون البيزنطيين لديهم سجية صهر الناس التي تختلف أصولها العرقية لتجعلهم مواطنين بيزنطيين صالحين، كما برهن الأمريكيون في جعل البولنديين والروس والإيطاليين والألمان والهنغاريين واليهود والانكليز والإيرلنديين مواطنين

أمريكيين طيبين، ولكن فقط لفترة من الزمن كان هناك حاجز اجتماعي لوني في المجتمع البيزنطي في القرن الرابع، عندما تعرض أمن الدولة لخطر أقلية واضحة عرقياً من القوط غير المتمتعين بامتيازها، وكانوا يستخدمون كرقيق لدى الأهالي في أحقر الأعمال المدنية، وأقلها ربحا، ولفترة من الزمن كان عامة البيزنطيين يخشون تمرداً قوطياً إلى درجة أنه كان ينظر إلى كل شخص ذي شعر ناعم وبشرة بيضاء وعيون زرقاء ليس فقط على كونه تهديد سياسي لبنية المجتمع، بل أيضاً على أنه ضرب أدنى عرقياً من الكائن البشري، ولم يستمر هذه الكره للعرق الأجنبي طويلاً، فقد قبل القوط وأدخلوا في الهيئات كسياسيين مثل بقية الأقليات والجماعات التي ألفت الأمبراطورية.

وساعدت ثلاثة عوامل على التحامهم في الكل، وجعلتهم بيزنطيين في الدرجة الأولى فقد كانوا يحسنون التكلم باللغة اليونانية، ومدركين بشكل مركز لكونهم مواطنين في الامبراطورية البيزنطية، كما شاركوا في الدين المسيحي العاطفي العميق، وربما بدا غريباً أن طائفة من الناس كانت لا تتكلم إلا اللغة اليونانية كانت تعد نفسها مواطنين رومانيين فقد كانت الامبراطورية الرومانية منذ أيامها الأولى وعاء صهر لعروق وأجناس بشرية، كما كانت اليونانية اللغة المشتركة في النصف الشرقي من الامبراطورية قبل بدء العصور الرومانية، ولم يستعمر الأغريق ذلك الجزء من العالم فقط لقرون مضت، بل أن الأسكندر المقدوني تبنى أيضاً سياسة واضحة لنشر الثقافة والعادات الاغريقية في جميع أرجاء العالم الكبير الذي فتحه، هكذا أصبحت اليونانية اللغة الثانية لكل شخص في مدن الشرق الأدنى من غير ريب، مثلما أصبحت اللغة الانكليزية اللغة الثانية لكل شخص في جميع شبه القارة الهندية في العصور الانكلو الهندية، وحدث بشكل حتمي أنه لما تحرك مركز الثقل للعالم الروماني من ضفاف دجلة في الشرق، إلى شواطئ بحر البوسفور، حلت اللغة الاغريقية كلغة رسمية في الامبراطورية.

ولم تنقص حقيقة أنهم يتكلمون الاغريقية من إدراك البيزنطيين أنهم كانوا

الورثة لروما القديمة، التي كانت مصدر فخر كبير لهم، ومن الصعب حتماً تصور ما كان يشبه شعور المرء أنه روماني في عالم في ذلك الزمن، فبعضنا فخور لكونه انكليزياً أو فرنسياً أو أمريكياً أو. . . ولكن بعضنا سيدعي حقاً مطلقاً للفخر لوطني: وأننا نعترف بحق الآخرين أن يكونوا فخورين لكونهم ألمان أو اسبان أو روس، ولكن أن يكون المرء رومانياً كان يعني في العصور البيزنطية، أنه مواطن من الأمة العظيمة الخالدة التي أصبحت مترادفة مع الحضارة نفسها، وحيث كانت روما هي الحضارة والحضارة هي روما. والاثنان مشتركان في العلاقة، فخارج تخوم روما كان هناك الظلام والحياة البربرية. بينما حفظ في داخلها فترة تقارب ألفي سنة بشغف ميراث الاغريق بما فيه: الآداب والفنون، أما القانون والنظام فقد بسطته للجماهير المختلفة الأعراق، أما كنوز المسيح ورسالته في الانجيل المسيحي، فقد أدخرتها قوى الظلام التي سادت في العالم غير الروماني، ولذا فأن تكون رومانيا، لم يكن يعني فقط أن تكون متمدناً بطريقة فريدة تماماً، بل يعني أيضاً أن تكون مدافعاً عن كل شيء متمدن في عالم كان مستوى الفوضى والتشويش المظلمين يهددان فيه بشكل متزايد الحضارة نفسها.

ومن أوجه أكثر أهمية لم يكن البيزنطيون مختلفين كثيراً عن الجمهور في أوروبا الغربية، فقد شابهوا بعقيدتهم المسيحية إلى حد كبير معاصريهم الغربيين. ولم تكن بالنسبة إليهم الحقيقة الرئيسية عالم المعيشة الدنيوية اليومية بل عالما دينيا أيضاً، وفي الواقع فان تكون بيزنطيا كان يتعين أن تكون متديناً بحماسة تقرب حد الاستحواذ، وكان الموضوع المفضل في أحاديثهم الدين الذي كان سبب مناقشات مسرة ومسلية وقوام آمالهم وأحلامهم ووجهات نظرهم وقلب سياستهم وأحد شؤون سياستهم الخارجية، وتماماً مثل موسكو اليوم التي تعتبر أنه لو استطاعت أن تفوز بضم دولة ما إلى الشيوعية تصبح هذه الدولة بشكل عفوي حليفاً وصديقاً لروسيا، وبنفس الطريقة كان البيزنطيون يفترضون أنهم لو استطاعوا هداية البلغار الوثنيين والآفار والروس إلى

المسيحية، فهم أيضاً يكونون قد فازوا بحلفاء وأصدقاء، وكانت أحياناً مثل هذه الهداية الجماعية هدف اتفاقية دبلوماسية مثلما وعد الدوق الكبير فلاديمير صاحب كييف في روسيا أن يصبح مسيحياً ويهدي شعبه إلى الدين المسيحي في مقابل يد الأميرة البيزنطية «آن» أخت الامبراطور باسيل الثاني، ومن الناحية السياسية، كانت النتيجة نصراً موزراً لصالح الدبلوماسية البيزنطية، لأن هداية أكبر دولة سلافية في العالم إلى اعتناق الديانة المسيحية، جعلها بشكل بارز تدور في فلك نفوذ القسطنطينية، وحتى أن لها نتائج بعيدة، لأنه عندما يساق فلاحو كييف في المياه الداكنة لنهر الدنيبر لينتصروا (ليتعمدوا) شاؤوا ذلك أو لم يشاؤوا، فقد أنجبت روسيا مريم المقدسة بطريقة روسية فريدة لا تضاهى، ويالللأميرة المسكينة آن التي ظنت أن الصفقة لن تعقد فهي على الأغلب كانت غير سعيدة، فقد كان زوجها فلاديمير بربرياً أخرق، سبق وجمع عدداً مدهشاً من الخليلات والمحظيات إلى درجة وصفه بها معاصروه بأنه فاسق وزان، مما شجعها أن لا تأمل في تذوق نعمة حياة زوجية.

ورغم عمق وإخلاص إيمانهم المسيحي (أو ربما بسببه) نظروا عموماً من وجهة نظر متشائمة إلى الشؤون والامكانيات الدنيوية وكانوا مدركين لعزلتهم المدنية الحضارية وسط بحر واسع من البربرية، ليكونوا فقط متشائمين إنما بشكل مهذب تجاه فرص نجاتهم الطويل الأمد من القدر الذي سبق أن فاجأ الامبراطورية الغربية، وعلى نحو مشابه لدى بعض مفكرينا المعاصرين، الذين يعتبرون إلى حد بعيد أنه لا يوجد فرص لبقاء حضارتنا، لوجود تهديدات موجهة إليها لقد كان البيزنطيون متأكدين تماماً بطريقتهم الحسنة الإدارة، أنه في يوم ما، رغم حماية الرب، ستخضع الامبراطورية للظلام المحيط بها، وقدروا أنها ليست من شؤون الرب أن يثبت ممالك هذا العالم حتى الأبد، رغم كون حاكمها نائباً عن المسيح في الأرض أي الامبراطور رئيس الكنيسة والدولة معاً.

ان صيغة القيصر ـ البابا التي ضربت بها العملة لتصف دور الاباطرة

البيزنطيين، تحدد بالضبط منصبهم الفريد، الذي كان يعني أن كلاً من القياصرة والبابوات لا يسألون عن حقهم المزدوج في الحكم المطلق فقد عاشوا في القصر المقدس في القسطنطينية، وكان هذا عبارة عن مجمع ضخم من الأبنية التي بناها الأباطرة المتعددون عبر السنين، فكانت أكبر بالكرملين في موسكو أو بقصر باغنجهام أو بالبيت الأبيض الأمريكي، لأنها كانت أيضاً نواحٍ سكنية ذات فخامة هائلة أعدت للامبراطور وحاشيته، كان فيها قاعات المآدب وقاعات العرش، وقاعات الملكة وأجنحة الحريم حيث تسود الامبراطورة وحدها على النساء الوصيفات وحيث تقع الكنائس وأبنية الادارات التي فيها أعمال الحكومة، التي يديرها أعضاء من الطبقة الإدارية البيزنطية الواسعة ثم هناك أحياء الحرس الامبراطوري، وقد بنيت جميعها حول حدائق ونوافير المياه فوق أرض تلال متموجة تشرف على مناظر طبيعية لبحري مرمرة والبوسوفور، حيث يقع الآن جامع السلطان أحمد وكان العالم كله مدهوشاً لجمالها، أما في الداخل فوقعت الأبنية الرئيسية ذات الاهمية الاستثنائية بأرضها الموشاة بالموزاييك وجدرانها الرخامية المرصعة، والسقوف المرسومة والمطلية بالذهب، وستائرها ذات النسيج المزدان بالصور والرسوم، وسجادها الحريري المجلوب من بلاد فارس وزليجها المستورد من الصين، وأثاثاتها المصنوعة من العاج والفضة والذهب، وكان الامبراطور وحاشيته يرتدون ثياباً تدل على الأبهة الرصينة، وقد مضت الأيام القديمة للثوب الروماني الفضفاض منذ عهد بعيد، حيث كان الرجال يرتدون ثوباً طويلاً ذا أكمام طويلة، تحاكي أثواب سفراء الامبراطورية الصينية القاسية السميكة مثل ألواح مطرزة، والمرصعة بحجارة ثمينة بينما ارتدت النساء الحرير وهن متزينات على أتم وجه، كما كن يتألقن على نحو باهر بكل ضروب المجوهرات الفاتنة. وكان أثر هذه الفخامة على الزوار هائلاً لأنها بالطبع كانت معدة لذلك وهناك وصف لمقابلة منحت من قبل الامبراطور قسطنطين السابع بروفيد وجنتوس في القرن العاشر لسفير الامبراطور الالماني أوتو الأول وكان إسم السفير لود براند الذي

أصبح فيما بعد أسقف كريمونا وقد استقبل في إحدى القاعات العظمى للقصر، حيث كانت جوقة الغناء تغني عندما أدخل إلى الحضرة الامبراطورية برفقة اثنين من الخصيان، وفرشت الأرض بنبات اللبلاب وأكاليل الغار ونبات اكليل الجبل وتبلات الورد التي فاحت روائحها الخلابة عندما تطأها أقدام الحاشية الامبراطورية، وقد جلس الامبراطور على سرير ذهبي فخم كان يعرف بعرش سليمان وكان في الواقع عبارة عن لعبة ميكانيكية بارعة إلى أبعد الحدود، وعندما اقترب لود براند وسجد أمام الامبراطور كما أرشد، بدأ جهاز العرش بالعمل، فزأر زوج من الأسود الذهبية، وغردت بعض الطيور الصغيرة، وارتفع قسطنطين عالياً ببطء وفخامة حيث دفعه العرش نحو السقف، ولم يدون وقع الحادثة على الأسقف المقبل لمنطقة كريمونا، ولكن معلوم أن مثل هذا العمل كان قد ترك انطباعاً لدى البرابرة الزائرين إلى البلاط البيزنطي، وفيما بعد، عندما وصل أوائل الصليبيين إلى القسطنطينية، ورغم مفاجأتهم بما قرروا اعتباره عادات وترف مخنثة من مضيفيهم المتمدنين، اربكتهم فخامتهم.

وكان الوجود الغريب والشاذ للأخصاء في كل زمان ومكان مظهراً آخر من مظاهر الحياة في القسطنطينية، أدهش الصليبيين، حيث كانوا منتشرين في كل مكان، وتركزوا خاصة في الخدمات المدنية المتعددة التي حكم بوساطتها الامبراطور امبراطوريته، وكانت معظم المناصب الهامة وأغلب السامي منها بأيدي الخصيان، بحكم عادة ترسخت طويلاً فالخصيان امتازوا على غيرهم من الرجال من وجهة نظر الأباطرة. حيث لم يكن لهؤلاء أية طموحات أسروية في السيطرة على الحكم، وبقية الرجال في مناصب ذات نفوذ كبير ربما كانوا ليركبوا المخاطر ليتآمروا لأجل مصلحة أطفالهم، بينما لا يستطيع الأخصاء بحكم طبيعتهم فعل ذلك، لذا كانوا أشد أمانة من أناس آخرين، مثل وزراء التاج الامبراطوري، وفوق ذلك كانوا غالباً رجالاً في غاية الخبث، وكانت الفكرة الشائعة في الغرب أن الخصي على نحو مختلف يتصف بكونه أحمقاً وخبيثاً وكسولاً وغير جدير بالثقة وجباناً ومتخنثاً وشاذاً ليس له صفات الرجولة

وكاذباً، أما في العصور البيزنطية فقد برهن الخصي في الغالب على أنه حاد الذكاء وشجاع في عمله ومتفتح وشريف كبقية الجنس البشري، وأصبح بعضهم قواداً ذوي امتيازات، وقواداً في الأساطيل البيزنطية ورجالات دولة رفيعي المستوى، وكذلك كانوا في الحقيقة محط احترام شديد، إلى درجة أنه كان من الطبيعي أن تجد أبوين يخصيان ولدهما، أو أكثر من أبنائهم منذ الطفولة كي يحسنوا الحصول على مناصب رفيعة عندما يكبرون.

وإذا كان المجتمع البيزنطي قد منح الاخصاء فرصاً طيبة في الحياة، فهناك مجتمعات قليلة أعطت النساء حظاً وافراً مماثلاً لابراز أهميتهن، وقدمت مجتمعات قليلة نساء رائعات مثل اللواتي وجدن في حوليات التاريخ البيزنطي، وقد كان هذا على الأقل جزئياً نتيجة الاسلوب الذي يختار فيه ورثة العرش البيزنطي أحياناً عرائسهم المقبلة وذلك بتنظيم مباريات جمال على نطاق الامبراطورية، ثم يكون زفاف ملكة جمال بيزنطية على الرغم من أن الفائزة في مناسبة ما كانت تفقد حظها بأن تصبح الامبراطورة بردها جواباً أنيقاً رداً على سؤال يطرحه الامبراطور،كما كان هذا نتيجة لطريقة حماية القانون لحقوقهن، فعندما يكن مسيحيات فلدى البيزنطيين كل مسوغ لاهوتي لمعاملة النساء باحترام شديد بقدر الرجال، وعندما يقصر الرجال بذلك كما حدث أحياناً، فإن النساء البيزنطيات نادراً ما كن يفتقرن إلى مناصرة في المراكز الرفيعة ومن يناضل من أجل حمايتهن. فالامبراطورة ثيودورا زوجة جبستنيان بدأت حياتها في ظروف وضيعة جداً وعاشت شطراً من حياتها كراقصة متعرية وخليلة في بعض الأيام، وقد أصبحت بعد زواجها أحدى الامبراطوريات اللامعات في التاريخ البيزنطي، ومدافعة ونصيرة مخلصة لبنات جنسها.

وكان هناك قلة من الامبرطوريات اللواتي كن أقل شهرة كبقية الناس، رغم أنهم لم يكن بجاذبية ثيودورا تلك، مثل تلك الفتاة الأثينية ذات الجمال الخلاب والطموح الذي لا يحد، وكانت تدعى ايرينا التي تزوجت الامبراطور ليو الرابع في القرن الثامن، وبقيت بعد وفاة زوجها وحكمت الامبراطورية دون

اعتراض وبسلطة كاملة، حتى أنها أصرت على الاشارة إليها كامبراطور بدلاً عن امبراطورة.

وكان هناك كلام في وقت ما عن إمكانية زواجها من شارلمان، وقد قيل إنه رغم أنها كانت في الخمسين في ذلك الوقت عندما قدم سفراؤه لى القسطنطينية للتداول في الأمر حيث رحبت بهم في حمامها، ولكن القصة ـ وا آسفاه ـ غير صادقة، ولعل فتاة أخرى من أصل وضيع، ويقيناً أنها اناستاسيا التي بدلت اسمها إلى ثيفونا الارستقراطي، بعد زواجها من رومانوس الثاني في القرن العاشر كانت شهيرة كبقية الامبراطوريات ولكن مشهورة بسبب سوء سمعتها أكثر من فضائلها التي لم تظهر منها أي أثر، وقد اتهمت بدس السم لعمها (حماها) الامبراطور بروفير وجنتوس وزوجها قسطنطين السابع، والأرجح براءتها من ذلك، ولكن ليس ثمة شك على الاطلاق أنها ارتكبت جريمتها الثانية بزوجها الثاني الامبراطور نقفور بمساعدة وتستر عشيقها خليفة الضحية الامبراطور يوحنا تزكمس، وكان لها ابنان من زوجها الاول، اللذان أصبحا بدوريهما امبراطورين، وهكذا كان ممكناً لهذه الأنثى القاتلة في نهاية حياتها أن تدعي لنفسها بكونها ابنة حمى لأحد الأباطرة وزوجة لاثنين آخرين (أجرمت بأحدهما بشكل وحشي وعن عمد) وربة بيت لأخر، وأماً لرابع وخامس أيضاً وأنه سجل رائع وملفت للنظر حتى ضمن المعايير البيزنطية، سيما وأن أربعة من الأباطرة ممن في حياتها كانوا عظاماً ولا مثيل لهم في التاريخ البيزنطي.

وبالطبع لم يكن جميع البيزنطيين يعيشون في دائرة البلاط أو في ظروف الأبهة العظيمة فخارج القصر المقدس كانت ثلاثة أرباع المليون نسمة تقريباً يسعون من أجل حياتهم اليومية تحت ظروف متنوعة كما في أية مدينة أخرى وفي أي زمان، وعاش الأغنياء في بيوت مترفة تحيط بها الحدائق والساحات المركزية، حيث زينت الحدائق بتماثيل الأرباب الوثنية، والحوريات التي تضفي عليها جواً معتدلاً، بينما عاش الاخرون في مساكن صغيرة مزدحمة ذات

شرفات تطل على أزقة ضيقة في أطراف المدينة القديمة، ومع هذا كانت القسطنطينية مكاناً فسيحاً تنتشر فيها الساحات العامة والحدائق والمنتزهات والبساتين وحتى حقول الزيتون والعنب، وبني حول الساحة الرئيسية في المدينة التي كانت تدعى اغسطيوم تخليداً لذكرى هيلانه والدة الامبراطور قسطنطين الكبير، القصر المقدس والهبودروم ومجلس الشيوخ والكتدرائية الضخمة للحكمة المقدسة التي عرفت باسم كنيسة أيا صوفيا. ويتفرع عندها الشارع الرئيسي في المدينة ويمتد هذا الشارع ذو الرخام الرائع لمسافة ثلاثة أميال أو أكثر إلى البوابة الذهبية في السور العظيم لثيوديوس وقد كان شارعاً عظيماً تكتظ فيه الأسواق، ومحال صياغة المجوهرات والعطور وتجارة الحرير، وصانعو الأثاث وأصحاب حرف أخرى كلهم يبيعون بضائعهم من شتى الأنواع التي تحويها مخازنهم المنتشرة على طرفي الطريق، وكانت حياة المدينة ترى دائماً هناك، لأن البيزنطيين كانوا يمضون معظم نهارهم خارج دورهم، أكثر مما نفعل اليوم، فكانت تختلط دنيا المجتمع الراقي مع الفلاحين القادمين من الريف في ذلك الوقت لبيع بضائعهم، وهناك كان الموظفون المدنيون والجنود خارج أوقات عملهم، وجماعات الأطفال يلعبون في الطريق، وعمال التنظيف والمحامون والسواح وفوق ذلك كله الناسكون والكهان، كانوا جميعاً يشاهدون في الشوارع، يتبادلون أطراف الحديث مع أصدقائهم، أويتوجهون إلى أعمالهم، كذلك يشاهد الحضور الدائم للأساقفة، فقد كانت القسطنطينية مدينة الكنائس والأديرة على نحو خاص وكانت غاياتها التقشف والاحسان والطاعة لارادة الرب وهي مشاهد رأى فيها بعض البيزنطيين ميزاناً معادلاً ضرورياً ضد الترف في البلاط الامبراطوري، وربما أصبح ناسك في بعض الأحيان معبوداً للجماهير كما هو الحال بالنسبة لأي نجم شعبي أو رياضي مفضل في أيامنا، كما كان عرش أي امبراطور غير شعبي عرضة لأن يهتز ببضع كلمات من ناسك ضعيف يعيش حياة تقشف قاسية متطرفة في كهف في تلال كبدوكية على نحو مؤثر أكثر مما لو كان قريباً حيث تعوقه عادة المؤامرات

التقليدية من خصوم سياسيين ثانويين لذا فقد كانت الكنيسة قوة نافذة على الأرض.

ولم يكن جميع البيزنطيين يقيمون في القسطنطينية حيث كانت مدن المقاطعات تعج بالحياة بقدر العاصمة تقريباً رغم أنها لم لكن مثيرة، وكانت الحياة في الريف مملة إلى درجة دفعت ملاك الأراضي الكبار إلى امضاء معظم أوقاتهم في القسطنطينية وبقي الفلاحون في الريف حيث لم يكن لهم خيار الا المكوث هناك، ونظراً إلى أن الأرض كانت أفضل الاستثمارات خلال التاريخ الروماني والدور البيزنطي، كانت هناك نزعة مستمرة لدى جميع المقاطعات للتوسع، وكانت هذه عملية خطيرة ليست فقط بالنسبة لزيادة قوة الاقطاعيين الكبار على حساب حكومة القسطنطينية التي هددوها غالباً، بل أيضاً لأنهم كانوا يجردون بشكل تدريجي أصحاب الأراضي المستقلين الصغار الذين ينتجون أغلب الثروة الرئيسية في الامبراطورية، والذين يجهزون أيضاً صفوف الجيش البيزنطي عندما يسألون الدفاع عن الامبراطورية ضد أعدائها، وكان هذا ينطبق بشكل خاص على فلاحي وسكان ريف منطقة الأناضول الذين لا يعرفون الاستسلام حيث الاتساع الهائل للريف الخصيب والسهول الممهدة التي تبدو أنها تمتد إلى ما لا نهاية من الساحل الايجي في الغرب إلى حدود سورية والجزيرة في الشرق. ولذا كان الأباطرة يبذلون جهودهم لكبح قوة كبار أصحاب الأراضي، وحماية مصالح الفلاحين وصغار الملاك في آسيا الصغرى، وكان هذا عملاً شاقاً وعسيراً بالاضافة إلى أن صغار الملاك أخذوا يقلون، وهاجر أبناؤهم إلى المدن، فعمل بعض الرقيق الضعفاء في أراضي الاقطاعيين المتغيبين، كما اضطر الأباطرة إلى ملء الجيش بالمتسأجرين.

وأدت هذه العملية إلى إضعاف الامبراطورية بشكل متزايد، ولم يكن هذا بالضعف الذي نتج عن النكبة التي دحرت الجيش البيزنطي، في منازكرد عندما هزم جنود الامبراطور، وكان جميعهم من المرتزقة بخيامهم ومواشيهم وعائلاتهم واحتلوا وسط القوة البيزنطية، وكان يحدث مثل هذا من قبل ويطرد

الغزاة خارجاً، وفي آخر الأمر يعمل الامبراطور على استعادة قوته ومجده القديمين، ولم يكن لدى البيزنطيين شك في أن السلاجقة ـ بنعمة من الله ـ سيطردون خارجاً بعد فترة وجيزة أيضاً، ولكن في تلك الأثناء، كان الامبراطور بحاجة إلى مساعدة عسكرية يؤيد فيها نعمة الله، ومع انتصار الجيوش الإسلامية في الشرق لم يكن لدى الامبراطور من مكان يتحول إليه الا الغرب.

إن الامبراطور الذي كانت مهمته لا يحسد عليها وهي أن يحاول إحياء قدر الامبراطورية البيزنطية بعد نكبة منازكرد ـ هو الكسوس كومينوس الذي كان رجلاً قديراً ودبلوماسياً لامعاً، ولم يسأل المسيحيين في الغرب مساعدته في إعادة إحياء الامبراطورية، ولم يطلب منهم أن يساعدوه مباشرة لطرد الأتراك خارج آسيا الصغرى، التي كانت مركز اهتمامه الواقعي، وبدلاً عن ذلك اتجه إلى البابا في روما يسأله تقديم المساعدة لانقاذ المسيحيين في الشرق، وكنائسهم من استبداد فاتحيهم المسلمين، وكان من غير المحتمل أنهم أرغموا مع أماكن عقيدتهم المقدسة التي إليها قدم العديد من الحجاج في الماضي على الوقوع تحت الوطأة الثقيلة للأتراك الكفار كما قال، وكانت كلماته تقصد إثارة استجابة في قلوب وعقول الرجال والنساء العاديين في شتى أنحاء أوربا الغربية، فتاريخ أوربا وتاريخ العالم أجمع ينبغي أن يغيروه بأنفسهم، ولكنهم عملوا على تغييره بطريقة مختلفة تماماً عن تلك التي تخيلها الامبراطور الكسيوس أو تأملها.

الفصل الثالث

عندما يموت المتسولون

عندما يموت المتسولون وتبطل مشاهدة النجوم
تنشر السموات بنفسها نبأ موت الامراء.

شكسبير، يوليوس قيصر

كان أوربان الثاني هو البابا الذي ناشده الامبراطور البيزنطي لمديد المساعدة اليه وكان هذا البابا الذي كان مثيراً للخشية والاعجاب قد ولد في تشاتلون سورمارن من عائلة فرنسية نبيلة، وأصبح راهباً في دير كلوني قبل الثلاثين من العمر وبرتبة كردينال رئيساً لأساقفة اوستيا قبل الأربعين، وفيما بعد في آذار 1088 أصبح بابا، عندما كان في السادسة والأربعين.

ولم يكن ليستطيع أن يرتقي عرش القديس بطرس في وقت أكثر صعوبة، فقد كانت البابوية والامبراطور الألماني قد أوقفا نفسيهما على صراع على السلطة لسنين، وفي وقت انتخاب أوربان كان الأمبراطور هوهنري الرابع، وكانت هناك حادثة مشهورة في أيام أحد أسلاف أوربان، عندما اضطر الامبراطور للانتظار بضعة دقائق حافي القدمين مرتدياً ألبسة التوبة في ساحة القلعة في كانوسا ليتلقى الغفران من البابا غريغوري السابع الذي حرمه كنسياً، وولت تلك الأيام، وانقلبت الظروف إلى حد بعيد، وكان هنري مبتهجاً بانتصاره في كل مكان، كما كان مدعوماً من بابا آخر منافس (مرشح مخفق في الانتخابات الباباوية) يحكم في مدينة روما نفسها وكان لا يطيق البابا أوربان

الذي كان يعتبره رجلاً عنيداً، ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن كان قد سجنه في ألمانيا بسبب مساندته الصلبة للبابا غريغوري.

ومات غريغوري وجاء أوربان وقد أخذ على نفسه مهمة إعادة توكيد سلطة البابوية وقدرت لمجموعة هائلة من مواهبه ومقدراته إعادة التوازن بينه وبين الامبراطور الالماني، فقد اتصف بأنه رجل نبيل المحتد، راسخ الإيمان، دمث ومحب للسلام، يكره سفك الدماء، كما كان يتجنب الخلافات، ففاز بقلوب الناس بجمعه صفة التحلي بالصبر والثقة المتأصلة، حتى أنه ما كان ليحصل على منصبه ويكون في مركز البابا لفترة خمس سنوات حتى اعترف كل شخص بأنه الزعيم الروحي للعالم المسيحي الغربي، أما وقد فاز بالكنيسة الغربية فقد تحول شرقاً في محاولة لتحسين العلاقات المتوترة مع البيزنطيين، واستجاب الكسيوس بحرارة وسرعة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الرجلان على الأقل بالمراسلة، صديقين حميمين، ونتيجة لهذا أرسل الكسيوس بمبعوثين بيزنطيين إلى المجتمع الأعظم لدى أوربان حيث عقد في كريمونا آذار 1095، وهناك شرح السفراء بالنيابة عن الامبراطور مأزق المسيحيين في الشرق تحت هيمنة الاتراك، وصعد الأساقفة المجتمعون وكذلك أوربان على نحو جدي من هول الخطر، ومن المؤكد أنه شرع في كريمونا بالتفكير بدعوة المسيحيين في الغرب من أجل استجماع القوة والشجاعة لمد يد المساعدة لاخوانهم وأخواتهم في النصرانية في الشرق، وللحظة الأولى لم يقم بأي عمل، فقد كان رجلاً محترساً، وكان في حاجة إلى بعض الوقت قبل أن يطلق الفكرة التي خطرت إليه.

وفي بداية شهر تشرين الثاني من نفس العام عزم على الشروع بالعمل، فتنقل على مهل عبر بلاد فرنسا شاغلاً نفسه بشؤون عديدة للكنيسة، التي كانت بحاجة إلى عنايته، وفي آخر الأمر قام بدعوة أساقفة فرنسا وجاراتها إلى مجلس شورى يعقد في كلير مونت فاجتمع هناك أكثر من ثلاثمائة أسقف في 18 تشرين الثاني، حيث انشغلوا بعملهم الاعتيادي المشترك خلال الأيام

الأولى: فقد كان الملك فيليب ملك فرنسا محروماً كنسياً بتهمة الزنا، وكذلك أسقف كامبري لشرائه منصب الكهنوتية، ثم أعلنت هدنة الرب وأكدت على الجميع، ووطدت قضية السيادة لأسقفية ليون بين أسقفين متنافسين. وقبل أن ينهي المجلس انعقاده أعلن أوربان أنه يريد أن يعلنها صرخة مدوية على الجميع قبل أن يعود كل منهم إلى وطنه، وذلك في جلسة عامة تعقد يوم الثلاثاء 27 تشرين الثاني.

وكانت الحشود التي قدمت للاجتماع في تلك الجلسة للاستماع إلى ما يمكن أن يقوله البابا ـ حشوداً غفيرة إلى درجة أن القاعة في الكاتدرائية لم تتسع لهم، ونصبت منصة عالية خارج باب المدينة الشرقي في حقل مفتوح ليقف فوقها البابا الذي كانت لديه قدرات عديدة، منها إجادته لفن الخطابة الذي استغله إلى أبعد الحدود، بحيث أصغى جمهوره مأخوذاً في تلك المناسبة، وأخبرهم البابا أن المسيحيين في الشرق قد ناشدوه النجدة لأن الأتراك كانوا يتقدمون داخل الممالك والأراضي المسيحية، ويعاملون السكان الأبرياء رجالاً ونساء بقسوة وشراسة وينتهكون كنائسهم المقدسة ويدنسونها وكان هذا غير سار بما فيه الكفاية، ولكن أن تسمع أنباء عن تدنيس القدس ذات الأماكن المقدسة الكثيرة وإدخال الرعب والاهانة والأعمال الوحشية التي كان يخضع لها الحجاج إلى الأرض المقدسة، فتلك كانت جميعاً مزعجة جداً، وكان الوقت مناسباً بالنسبة للمسيحيين في الغرب أن ينهضوا في حنق شرعي، ويسيروا لينقذوها. فليوقفوا شن الحروب بين بعضهم البعض في الأوطان،ودعوهم يشنوها حرباً مقدسة ضد أعداء الرب الذي سيهديهم، ويكتب لهم النصر، ووعد البابا أوربان أولئك الذين سيقتلون في القتال بالغفران، والتغاضي عن جميع ذنوبهم زماناً ومكاناً، فلماذا يمضون حياتهم في العيش والبؤس وارتكاب الخطايا هنا، في حين يستطيعون أن يلقوا السعادة في هذا العالم، والنجاة في العالم الآخر كجنود المسيح الذي عاش ومات في تلك الأرض؟ فلا مسوغ لأي تأخير بأن الوقت مناسب جداً للشروع بالعمل،

وعندما يحين الصيف ينبغي أن تعبأ جيوش المسيحية وتستعد للتحرك.

لقد كانت الأعمال والكلام في مناسبات خاصة اندفاعاً، كما كانت الاستجابة فورية غامرة، وتعالت صرخات بأن «هذه إرادة الرب» كمتنفس للعواطف التي أثارها أوربان فيهم، وركع أمام البابا أسقف لي بوي واسمه ادهمر، وتوسل إليه أن يأذن له بالانضمام إلى الحملة إلى الأرض المقدسة، وبدأ الكاردينال يتلو صلاة الغفران بصوت عال، وانضم إليه الآلاف. وعندما انتهت إلى أوربان أعطاهم كلمة الغفران، وأخبرهم أن يعودوا إلى منازلهم ويصلوا من أجل ما أخبرهم به، وأذن لهم بالانصراف تحت ظل بركاته، ولم يكن رحيلهم فيه إشارة لعودتهم إلى الحياة العادية أو نهاية حماسهم، بل على النقيض، شرع البابا بعمل شيء أعظم مما توقع، وانتشرت دفقات هائلة من الحماسة من كليرمونت عبر أنحاء فرنسا لتصب في جميع أنحاء البلدان الأوروبية الغربية ليشحذ سكانها اتقاداً. كما شرع الأساقفة والكهان والناسكون في كل مكان يبشرون بحرب مقدسة ضد الأتراك، لتحرير الأرض المقدسة. ولم يأت أحد بنتيجة أعظم مما أتى بها نساك صغير فوق حمار.

فقد كان الكاهن بطرس الناسك، عندما باشر الدعوة، رجلاً في أواسط العمر، ذا وجه أسمر طويل عابس وحزين وقبيح مثل وجه الحمار الذي كان دوماً يمتطيه، ولم يكن يرتدي سوى ما اعتاده ناسك قذر كثيراً. مع عباءة بالية، وقد مضت أعوام على قدميه الحافيتين دون أن تغسلا، وهو لم يأكل اللحم أو الخبز، بل اقتصر على وجبة سمك وخمر، ويبدو أنه كان قد حاول مرة أن يحج إلى القدس، ولكنه عومل بقسوة وأعاده الاتراك الذين كرههم منذ ذلك الحين. وكان لديه قوة هائلة لتحريك الأشخاص بكلماته، وقد وصفه أولئك الذين سمعوه بأنه يتكلم بقوة إلهية تقريباً بحيث أنه حيثما توجه كان يتبعه الناس رجالاً ونساء، وتنقل خلال الشهور الأولى من سنة 1096 خلال شمال فرنسا يعظ ويبشر، ثم عبر سهل اللورين ووادي الموز إلى آخن وكولونيا التي وصلها في أسبوع الآلام، الذي يسبق عيد الفصح، ومعه أكثر من خمسين ألف تابع.

كان القليل منهم محاربين عاطلين أو فرسان فقراء ودعي أحدهم ولتر سانسغيور الذي شغل دوراً قيادياً في أحداث قتالية، ولكن كان معظمهم من الفلاحين والمنبوذين والرعاع في أحداث مجتمع العصور الوسطى. وكان معه على الأغلب بين عشرين وثلاثين ألفاً رغم صعوبة تحديد أعدادهم ولأن المدونات المعاصرة مبالغ فيها إلى حد كبير ومختلف.

وكان نجاحه رائعاً، ويرد على الأقل إلى قسوة الظروف والأحوال، فقد تفشى الطاعون في أوروبا عام 1083، واكتسحت الفياضانات بلاد فرنسا وألمانيا في 1094، ودمرت المحاصيل، كما أتت السنة التالية بجفاف، وكانت النتيجة المجاعة، وخلال فترات المجاعة في العصور الوسطى كان الرجال والنساء يكرهون على السفر لمسافات بعيدة بحثاً عن أسباب المعيشة، وكتب غلابر أوف كلوني في أوائل ذلك القرن، وقت مجاعة واصفاً كيف كان المسافرون أحياناً ينزلون في فنادق محلية لمبيت ليلهم، فيذبحون أحياء خلال نومهم من قبل مضيفيهم، الذين كانوا يأكلونهم في اليوم التالي، وقد ذكر أن كاهناً كان يقيم في غابة تشاتني كان قد دفن جثث ثمانية وأربعين شخصاً قتلهم وأكلهم قبل أن تكشف جرائمه، وكان عندما تنجو المحاصيل من الآفات كان الضغط السكاني على المصادر هائلاً في الأرياف حيث كان يكثر دوماً الفلاحون الفقراء والجائعون الذين يطردون خارج أعمالهم. بينما حوت المدن العديد من المتسولين بين سكانها، حيث لم يتوفر لهم أماكن إقامة أو طعام يأكلونه، وحتى هدنة الرب قد أدت إلى جعل الحياة أكثر تعقيداً بالنسبة لفئة من الناس لم تكن من الفرسان فحسب، والذين كان شغلهم الشاغل دوماً القيام بالحروب بين بعضهم خارج العمل، بل أيضاً لديهم رجالهم المستأجرون في القتال غير المحدود، وقد حاولوا في ذلك الوقت أن يطوفوا في الريف على شكل عصابات تسرق وتنهب الجميع بسبب اليأس. وكانوا شائعين في الريف حول برابانت، حتى أصبحوا يعرفون ببراباكان رغم أنهم يعزون بشكل مطلق إلى أرض الراين، وكان إغراء الناسك بطرس لمثل هؤلاء الناس للانضمام إلى

جيوش المسيح، والزحف معه لفتح القدس عملاً لا يقاوم، فقد ظن أغلبهم ببساطتهم، أنهم كانوا يزحفون إلى قدس جديدة موعودة في الأمل المسيحي، أو أنها تلك المدينة مدينة الذهب والأحجار الكريمة، يأكلونه، وحيث نوافير دائمة من المياه، فلا يعطشون، ثم يمسح الرب كل دموعهم من أعينهم.

ولم تكن هناك من مدينة في العصور الوسطى بامكانها إطعام زائرين يصل عددهم إلى عشرين ألفاً، ولم تكن مدينة كولونيا مستثناة من ذلك، وعلى أية حال، كان العديد من أتباع بطرس لا يملكون الصبر للانتظار أو التريث في طريقهم إلى القدس، ولذلك فإنه بعد أيام قليلة من عيد الفصح قرر ولتر سانسغيور وعدة آلاف من الفرنسيين التحرك، واتخذوا طريقاً شمال نهر الراين، ثم نزلوا إلى حوض الدانوب، ثم إلى هنغاريا في شهر أيار، ولم يعتبرهم حاكم هنغاريا الملك كولمان جيشاً مخيفاً لأنهم لم يكونوا يتعدون في نظره حشداً من الحجاج المسلحين ينبغي مساعدتهم حيثما كان ذلك ممكناً، وسمح لهم بالعبور خلال بلاده، وفعل ما في وسعه ليزودهم بالمؤن خلال طريقهم، وسار كل شيء على ما يرام حتى اجتازوا داخل الأراضي البيزنطية قرب بلغراد، حيث فاجأ قدومهم الحاكم العسكري المحلي ولم تكن محاصيل ذلك العالم قد نضجت بعد، ولم يكن في الأسواق الا القليل من المؤن للبيع، وعندما بدأ الجوع يدب فيهم أصبحت أمزجتهم نارية، وسرقت مجموعة من المتشردين سوقاً في مدينة هنغارية حدودية صغيرة، كانت قد مرت بها جماعة قبل ذلك، وأوقفت السلطات أفرادها فجردتهم من أسلحتهم وعرتهم من ثيابهم وأرسلتهم لينضموا إلى الباقين عند بلغراد، وأدى هذا إلى بدء هؤلاء بعمليات السلب والنهب للطعام في الريف، وعندما أرسل الحاكم العسكري فرقاً عسكرية لإعادة النظام، كان قد قتل العديد من الفرنسيين، بينما أحرق آخرون أحياء في كنيسة كانوا قد لجأوا إليها للأمان. وانفجر الوضع أثر ذلك، ولكن ما لبث أن استعيد النظام، وأدرك ولتر وجوب تحريك رجاله باتجاه نيش بالسرعة الممكنة، فهناك أخيراً كان يتوفر الطعام، فقل غضب الصليبيين،

وعادت الأحوال بعد ذلك إلى التحسن حيث واكب جنود بيزنطيون القادمين الجدد بحذر عندما تابعوا رحلتهم، ووصلوا إلى القسطنطينية دون أزمات أخرى في تموز.

وفي تلك الأثناء، كان بطرس الناسك قد غادر كولون بعدد أضخم من الحجاج المسلحين في قافلته التي تضمنت عدداً من المحاربين الألمان وأبناء الأسر النبيلة في زحف متقدم باتجاه الحدود الهنغارية في نفس الطريق التي طرقها ولتر ورجاله، بينما تخلف بعض مريديه ليجندوا كثيرين من الألمان فوق ذلك في جيوش المسيح، ويأتي بينهم بالدرجة الأولى راهب اسمه غوتشولك ورجل كان يدعى ايمش كونت منطقة ليزنغتان الذي سنسمع عنه الكثير في المستقبل القريب، واستقبل أيضاً بطرس باللطف من قبل ملك هنغاريا كولمان، وسارت الأمور على ما يرام حتى وصل إلى إحدى المدن الحدودية الصغيرة حيث اصطدم رجال ولتر مع السلطات وجردوا من أسلحتهم، وكان هؤلاء لا يزالون مشنوقين فوق سور المدينة ليراهم الناس. ولم يمض وقت طويل قبل انتشار الإشاعات الوحشية خلال الحشد المنيع الضخم، حول مدى فظاعة المعاملة التي تلقاها أصحابهم، وانفجر العداء ضد الهنغاريين، وتحولت مشاجرة بشأن شراء زوج من الأحذية إلى غضب عارم، أصبح فيما بعد معركة ضارية، وهاجم رجال بطرس المدينة حيث نهبوا الأسواق والمحال، وقتل من جراء ذلك أربعة آلاف هنغاري، وبذلك فقط وخوفاً من رد فعل الملك كولمان على الأحداث في ذلك اليوم حاولوا عبر نهر سافي إلى داخل الأراضي البيزنطية.

وكان الحاكم العسكري المحلي قد أخفق في التغلب على مصاعب ومشاكل وصول رجال ولتر قبل أسابيع قليلة. وكان في ضيق أكبر حيث لم يعرف كيف يتعامل مع رجال بطرس في جيش من التابعين الثائرين الذين كانوا كثيرين بالنسبة إليه ليعترض سبيلهم وقرر أن يتقهقر إلى نيش ليطلب من هناك إمدادات عسكرية عديدة قدر الإمكان، وأذن لبعض المرتزقة الأتراك أن

يتخلفوا لمحاولة إعاقتهم عندما يبدأون عبور النهر، وكانت مهمة يائسة وعندما حاول الأتراك الضعفاء التدخل أسروا وقتلوا، وأحدثت أنباء القتال ذعراً وهلعاً في بلغراد، حيث فر الكثيرين إلى الجبال تاركين المدينة مفتوحة لرجال بطرس الذين دخلوها دون مقاومة فسلبوها وأحرقوها ثم زحفوا بما لديهم من المؤن التي نهبوها من الأسواق في المدينة خلال غابات هائلة من شجر البلوط والسنديان في الصرب حتى وصلوا إلى نيش.

ولدى وصولهم، طلبوا الأذن لشراء بعض الطعام فوافق الحاكم برضى كافٍ، وطلب بعض الرهائن في مقابل التصرف الجيد، وأعطى بطرس هؤلاء، ومرة أخرى سارت الأمور على ما يرام لفترة من الوقت، ولكن عند آخر لحظة حينما كان الجيش يغادر المدينة تشاجر بعض الألمان مع بعض السكان المحليين وأضرموا النار في بعض الطواحين عند النهر، فسارع الحاكم العسكري إلى إرسال فرق هاجمت الصليبيين الراحلين، وبدأ قتال ضارٍ. وسارع بطرس للعودة وإحياء السلام، ولكن قبل أن يصل انعطف جيشه وهاجم المدينة بضراوة، فردتهم حاميتها على أعقابهم، لكنهم عادوا إلى الهجوم، وفي هذه المرة أصدر الحاكم البيزنطي أمره إلى قواته كلها بالتحرك والقتال، وكان الصليبيون أشبه بعصابة منهم بجيش منتظم، ولم يكونا ليضاهوا جنوداً محترفين، ولذلك هزموا هزيمة منكرة، وقتل الكثير منهم وأسر أكثرهم مع نسائهم وأطفالهم، أما بطرس الذي فقد ماله في المعركة فقد فرّ في ذعر ومعه حوالي خمسمائة آخرين إلى الجبال، حيث اعتقدوا أنهم الناجون الوحيدون من الكارثة. وانضم إليهم في اليوم التالي عدة آلاف آخرين فزحفوا باتجاه صوفيا، وانضم إليهم كثير من المتشردين حتى اتضح لهم أنهم قد فقدوا ما يقارب ربعهم، وكان هذا سيئاً، ولكن ربما كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ.

وبعد ذلك، سارت أمور رحلتهم هادئة بشكل كافٍ واجتازوا صوفيا دون مشاكل. وكان الاغريق أصدقاء لطفاء معهم، وقد أرسل الأمبراطور ألكسيوس إلى بطرس رسالة ترجيب، وقد تحملوا مشاقاً كثيرة، وغمر بطرس شعور

بالعرفان، وانتهت بقية الرحلة إلى استنبول دون مشاكل، ولدى وصولهم قام رجال بطرس ببعض الازعاج، وسرقوا مثل الأغربة مقتحمين المنازل والقصور على السواء، وسرقوا صفائح الرصاص من سطوح الكنائس إلى حد أن ألكسيوس كان مجبراً على ترحيلهم عبر مضيق البوسفور داخل آسيا بأسرع ما يمكن، ولم يفكر فيهم أكثر من قوة مقاتلة صغيرة، ونصحهم بالانتظار حتى قدوم الامدادات العسكرية من أوروبا قبل الشروع بالدخول في قتال مع الأتراك، ثم فعل ما وسعه لتحذيرهم من الأخطار التي تنتظرهم، وجعلهم ينتقلون إلى معسكر كبير دعي سيبوتوس على الساحل الآسيوي من بحر مرمرة، وليس بعيداً عن نيقوديميا حيث التقوا مع ولتر سانسفيور ورجاله وبعض الايطاليين الذين قدموا على نحو مستقل، وفي طريقهم إلى هذا المعسكر تشاجر الألمان والفرنسيون لسبب ما، وأنكروا قيادة الناسك بطرس واختاروا بدلاً عنه نبيلاً إيطالياً دعي رينالد وحينما وصلوا إلى سيبوتوس لم يكونوا على علاقات طيبة مع رفاقهم المسيحيين من فرنسا، ولم تكن هذه بداية مبشرة بالنجاح بالنسبة للمعسكر ضد أعدائهم.

وقد كان ألكسيوس حكيماً في اخراجهم بعيداً عن القسطنطينية، ولم يكونوا منظمين ولا موجهين، وحالما وصلوا إلى مقصدهم شرعوا يغيرون على الريف متجاهلين نصيحة الامبراطور الجيدة، بعدم القيام بأي هجوم حتى تأتيهم الامدادات، وفي البداية لم يخاطروا في التغلغل بعيداً داخل الأراضي التركية، راضين بسرقة ونهب القرى القريبة التي كانت فريسة سهلة، ولم يخطر ببالهم أن القرويين السيئي الحظ كانوا جميعاً من المسيحيين الاغريق الذين قدموا على ما يظهر للمساعدة، وكان الأسوأ هو الآتي ففي شهر أيلول قامت قوة كبيرة من آلاف الفرنسيين بعمل حاسم وزحفت متقدمة حتى مسافة نيّقية (إزنيق حالياً) عاصمة السلطان التركي المحلي الذي صدف أنه لم يكن قريباً في ذلك الوقت، ولم يجرؤوا على مهاجمة المدينة نفسها، بل اكتفوا بمهاجمة القرى في الضواحي، ونهبوا ما وجدوه من المواشي، وقتلوا وعذبوا القرويين

المسيحيين بوحشية لا تصدق، إلى درجة أنهم أضرموا النيران وأحرقوا وشوهوا الأطفال، وقد أمكن بسهولة صدّ قوة من الأتراك هاجمتهم خارج المدينة وأعادتها إلى المدينة وعاد الفرنسيون عند ذلك إلى سيبوتوس محملين بالغنائم. وهم في غاية النشوة والسرور. ولم يكن الإيطاليون والألمان راضين، ففي نهاية الشهر خططوا للقيام بحملة خاصة بهم، فانطلق أكثر من ستة آلاف رجل تحت قيادة رينالد في اتجاه نيقية يسلبون ويغنمون حيثما ذهبوا. ولكن على خلاف الفرنسيين كانوا يستثنون المسيحيين في طريقهم، كما نجحوا في الاستيلاء على قلعة مهجورة كانت تدعى السرغوردن التي قرروا استخدامها كقاعدة، يمكن أن يغيروا منها على الأرياف المحيطة، ولكنهم لم يبقوا فيها إلا لفترة قصيرة حيث ظهرت أمامهم قوة تركية كبيرة، فاضطر الصليبيون إلى الالتجاء إلى القلعة التي حاصرها الأتراك مباشرة، ولسوء الحظ لم يكن هناك مورد مائي في المنطقة بالنسبة للرجال المحصورين داخل القلعة إلا نبع واحد فقط يقع في واد صغير خارج أسوار القلعة، وسرعان ما دب فيهم العطش إلى حد الجنون، وروى مؤرخ أحداث معاصر كيف عذبوا بعطشهم إلى درجة أنهم كانوا يستخرجون الدماء من عروق حميرهم وخيولهم ويشربونها، بل كان يبول بعضهم في أيدي الآخرين للشرب، أما البعض الآخر فكان يحفر الأرض بحثاً فيها عن الرطوبة، وينثر التراب فوقه لتهدئة العطش القاتل، ودام هذا الوضع ثمانية أيام حيث عرض رينالد الاستسلام إذا منح الأمان ولكن الأتراك لم يعدوا بشي عدا الابقاء على أرواح أولئك الذين يرتدون عن العقيدة المسيحية، ولم يكن لدى رينالد إلا خيار واحد أن يقبل فتخلى ومعه قليلون آخرون عن المسيحية، وبيعوا كرقيق وقتل الباقون.

وأحدثت أخبار الكارثة عندما وصلت إلى سيبوتوس كثيراً من الهلع والذعر، ولما كان بطرس الناس خارجاً في القسطنطينية، اجتمع القادة الباقون بسرعة ليقدروا الموقف، واشتمل الاجتماع على ولتر ونبيلين ألمانيين لم ينضما إلى حملة رينالد التي قادها إلى اكسرغوردن، وكان الرؤساء بينهم في

جانب الحذر والحرص، حيث حاولوا أن يبرهنوا أنه لم تكن هناك من غاية في الاسراع بإرسال حملة على نحو طائش لمهاجمة الأتراك، وكان من الأفضل التريث بانتظار وضع قوي يمكن الدفاع فيه بسهولة، والسماح للأتراك بالقدوم إليهم، وبالنسبة لذلك الوقت انتظروا، ولكن لم تمض أيام كثيرة حتى انتشرت الأخبار بأن الأتراك يتقدمون نحو المعسكر في قوة، وهنا قام أشخاص متهورون عديدون من الجيش يقودهم شاب فرنسي يدعى غودفري بورل، وقرروا أنه من الجبن المطلق التقاعس والبقاء في المعسكر، بينما كان العدو يتقدم على مهل، وكانت صرخات «الجبن» تثير عواطف غير منطقية وقوية، وتمكن غودفري وآخرون معه محبين للقتال، من كسب ما يريدون، ومع نهاية شهر تشرين الأول كان الجيش كله قد تحرك خارج سيسبوتوس، وزحف ضد الأتراك مخلفاً وراءه النساء والأطفال وبعض رجال الدين والكهنة.

وعلى مسافة ثلاثة أميال خارج المعسكر كانت ثمة طريق تمر بواد ضيق، وإلى جانبه غابة، حيث تربص الأتراك الذين تلقوا الأخبار، واختبأوا في مكمن في حين لم يتخذ الصليبيون الحيطة، وكانوا يسيرون في شكل حشد كبير غير منتظم على نحو فوضوي يصرخون، ويضحكون، تتقدمهم في الطليعة الفرسان فوق صهوات الخيول، ولذا فقد أخذوا على حين غرة على نحو كامل. فمزقهم وابل من النشاب في ضربة لازبة وقتل العديد من الخيول تحت الفرسان بينما تراجع الآخرون في خوف وألقوا أسلحتهم ودروعهم إلى الأرض فارين بأنفسهم إلى خلف صفوف المشاة التي دب فيها الذعر والفوضى، وقبل أن يستطيع أي شخص استعادة أي نوع من النظام، خرج الأتراك من مكمنهم وحملوا بضراوة على الصفوف المنتظمة داخل حشد الجنود المسيحيين المقاتلين، الذين وقع بعضهم فوق بعض بشكل طائش للنجاة، أما الفرسان الذين لم يقتلوا في وابل النشاب الأول فقد قاتلوا بشجاعتهم المعتادة، ولكن بدون جدوى، أما الأكثرية الساحقة من الصليبيين فلاذوا بالفرار على نحو غير منتظم، عائدين عبر الطريق إلى سيبوتوس.

وعند المعسكر كان النهار يبزغ، وكانت النساء تطبخن الطعام لأطفالهن، وكان البعض لا يزال نائماً، وبدأ الكهنة بترتيل القداس عندما بدت غيمة كبيرة من الغبار عبر الطريق، وصراخ وضجة وأصوات غير واضحة لرجال في معركة، أرسلت موجة من الخوف عبر المكان وكان القتال يقترب مع شعور مرعب من الانهيار والموت نفسه، وتشتت الجيش المنهزم داخل المعسكر، في حين كان الرجال يتعثرون ويقعون فوق بعضهم البعض من شدة طيشهم اليائس لتجنب الأتراك المطاردين، فلم يكن هناك إمكانية للمقاومة، فكانت مذبحة صرع فيها الأطفال والنساء والجنود الفرسان، وأيضاً الكهنة عندما ركضوا يصرخون للأمان، أو عندما أخذوا يلهثون وكانوا غير قادرين على الفرار أكثر من ذلك، واستثنيت قلة من الفتيات والفتيان الذين استحوذوا على الاعجاب، وأسرهم الأتراك، وتوقف القتال عندما شعر جنود الاسلام بالاكتفاء وكان ما يقارب ثلاثة آلاف شخص قد فروا من المذبحة والتجأوا إلى قلعة قديمة على شاطئ البحر، حيث عضهم اليأس، وأقاموا بعض المتاريس والحواجز ضد الهجوم وعلى كل حال انتهت المعركة.

وبمعجزة ما، استطاعت القلعة مقاومة محاولات هجمات الأتراك، وتمكن اغريقي محلي من شق طريقه إلى القسطنطينية حاملاً أنباء النكبة، فأرسل الكسيوس على الفور أسطولاً من السفن الحربية إلى سيبوتوس لانقاذ الباقين، وعندما رآهم الأتراك مبحرين نحو البحر رفعوا حصارهم عن القلعة وتقهقروا داخل البلاد، وأخذت البقية من أبناء بطرس إلى العاصمة حيث جردوا من أسلحتهم، ونزلوا في ضواحي المدينة، وخلفوا وراءهم جثث القتلى مبعثرة في الريف من الوادي الصغير حيث انقض عليهم الأتراك نزولاً حتى شواطئ بحر مرمرة بما فيها جثث ولتر ومعظم المحاربين الألمان، وفرّ غودفري هارباً وهو الذي قام بالدور الأكبر في أحداث هذه النكبة أكثر من أي شخص آخر.

الفصل الرابع

سلة فواكه صيفية

وهكذا أراني السيد الرب وإذا سلة للقطاف، فقال ماذا أنت راء يا عاموس؟ فقلت سلة للقطاف، فقال لي الرب قد أتت النهاية على شعبي اسرائيل

عاموس 8/ 1 ـ 2

دارت الأخبار الأولى عن حملة بطرس الناسك التي وصلت إلى فرنسا والمانيا حول سفرها الناجح إلى القسطنطينية، ولكن تأخرت كثيراً أخبار النكبة، وفي غضون ذلك كان نوابه المتعددون منهمكين في تجنيد الامدادات العسكرية فقد حشد الكاهن غوتز شولك جيشاً صغيراً من الرجال من اللورين وبافاريا، وفعل رفيقه الكاهن الذي لا يعرف عنه شيء غير اسمه فولكمار نفس الشيء في بوهيميا. بينما جمع الكونت امش من ليزنغن جيشاً أكبر آخر في أراضي الراين، وقبل أن تنطلق أي من تلك المجموعات المسلحة من الرجال لتنضم إلى بطرس في آسيا الصغرى لتقاتل أعداء المسيح، طرح أحد الأشخاص سؤالاً: ألم يكن هناك أعداء للمسيح في وطن أقرب ينبغي أن تكون المعاملة أولاً؟ ولماذا السير والزحف مسافة ألفي ميل لقتال الأتراك، بينما هناك أفراد من العرق الذي صلب المسيح حياً في مدينة أوروبية عظيمة؟ لم يكن اليهود شائعين بين عامة الناس في أوروبا، وفي الحقيقة لم يحاولوا اكتساب شعبية. وبدلاً عن ذلك كانوا دائماً يعيشون بعيدين عن بقية الناس كمجموعة أقلية دينية وعرقية محافظين على أنفسهم، ومتجنبين أي احتكاك مع

جيرانهم المسيحيين ويعيشون حياتهم الخاصة بطريقتهم الخاصة، كما كانوا يمارسون الربا الفاحش الذي حرمته الكنيسة على المسيحيين ولم يكن مقرضوا المال رائجين كثيراً، في حين كان اليهود فهم فوائدهم كأصحاب أموال وتجار وخاصة بالنسبة للنبلاء، وكان الجميع يعترف بأنهم يعلمون الكثير عن فنون الطب أكثر من غيرهم، لذا فقد لقوا تسامحاً دينياً، لذلك لم يكن متوقعاً العاصفة التي ثارت حولهم والضربة التي نزلت بهم.

ومن الصعوبة بمكان تبيان سبب ذلك، فقد كان بطرس الناسك مقتنعاً إلى حد ما أن يهود فرنسا أعطوه رسائل تعريف إلى يهود شرق أوروبا، الذين كان يأمل أن يجمع منهم مساعدات مالية في طريقه، وربما كانت فكرة جذب اليهود إلى دعم الصليبيين مبنية على أساس هذه السابقة. وفي نفس الطريقة كان غود فري دي بوليون دوق حوض اللورين المنخفض الذي كان يستعد للالتحاق بالصليبيين أعطاه يهود منز وكولونيا ألف قطعة فضية ليسرع في طريقه. وقد قيل أيضاً لتركهم في سلام، وقد أكد لهم أنه لم يكن لديه أية نية في ازعاجهم ومع ذلك أخذ أموالهم. ومن الممكن أن الناس الآخرين رأوا فرصتهم في عبرته السابقة ومهما يكن فهو الذي بقصد أو بغير قصد، زرع فكرة اضطهاد اليهود في أذهان رجال ذلك الوقت، في أوائل صيف 1096، ونمت هذه الفكرة إلى طفرة إجرامية من العنف اللاسامي، وقام إمش أوف ليزنغن باولى الحركات في 3 أيار مع بعض صحبه بالهجوم عل يهود سبير وقتلوا اثني عشر يهودياً، وأجبروا الشابات اليهوديات على الانتحار على أن يغتصبن. وكتجربة شخص عسكري، لم يكن ذلك مثيراً للخشية والرهبة بل كان بداية.

وبعد أسبوعين قام كونت ليزنغن بالزحف إلى وورمز حيث كان اليهود، لسبب ما شائعين أكثر من أماكن أخرى، وعند العلم بمقصده تضخم جيشه مباشرة بانضمام حشد من الفلاحين الغاضبين، والاهالي للهجوم على الناحية اليهودية، وفتح أسقف وورمز أبواب قصره لليهود كملجأ. ولكن أمش وحشده كانوا متعطشين للدماء فاقتحموا القصر الأسقفي، وقاموا بالاجرام بحق

خمسمائة رجل وامرأة وطفل بالرغم من احتجاجات الأسقف الفزع، ثم بعد خمسة أيام في 25 أيار كان دور منز حيث أمر رئيس الاساقفة باغلاق أبواب المدينة في وجه امش ورجاله، ولكن أخبار قدومهم انتشرت وكان هناك ثورات مناهضة لليهود في المدينة، وفي اليوم التالي 26 أيار فتح شخص ما الابواب لهم، فدخلوا المكان في ضراوة صامتة، مثل عصابة ذئاب تدخل حظيرة غنم، وبدون رحمة على ضحاياهم المقصودة، وياللخوف! حاول اليهود شراء رحمة أمش مقابل الذهب، وعرضوا عليه سبعة أرطال منه لاقناعه بالابقاء على حياتهم، فقبلها، ثم أصدر في اليوم التالي أوامره لجميع رجاله بقتل كل يهودي في المدينة، وكان المكان الأول الذي هوجم هو قصر رئيس الأساقفة حيث التجأ إليه العديد من اليهود، وهرب رئيس الاساقفة تاركاً اليهود يلاقون قدرهم، ورغم أنه كان رجلاً طيباً صالحاً إلا أنه لم يكن بطلاً، وسرعان ما قتل ضيوفه، واستمرت المذبحة يومين لم ينجو منها إلا قلة منهم لاذوا بالفرار، وتخلى آخرون عن إيمانهم كي ينجو بارواحهم، ولكنهم كانوا قلة أرضاً، وعندما توقف سفك الدماء كان ألف من اليهود فوق الأرض أمواتاً.

وبينما كان امش يقتل يهود أرض الراين، كان فولكمر ومدده يسيرون شرقاً. ولم يمنعه هذا من الانضمام إلى العمل الالهي في الاجرام بالناس الذين كانوا قد صلبوا المسيح، وكانت أنباء المذبحة في المانيا قد وصلت إليه عندما كان ورجاله قد وصلوا إلى براغ حيث بدأ في الحال بتذبيح كل اليهود الذي استطاع أن يجدهم، وقد روعت السلطات والاسقف لكنهما لم يمكنهما التدخل وعندما لم يعد هناك يهود ليقتلهم فولكمر تابع زحفه إلى هنغاريا، ولم يكن للملك كولومان أية نية في السماح لأي شخص بقتل أحد من تبعيته، سواء أكانوا يهوداً أم غير يهود، لهذا عندما شرع فولكمر بتصيد اليهود في هنغاريا، أصدر أوامره أن يتفرق الصليبيون، وفي الهجوم التالي قتل عدد من رجال فولكمر، وأسر كثيرون، ولكن قدر فولكمر وآخرين كان مجهولاً، فقد اختفى كل خبر عنهم.

وانتقلت عدوى مناهضة السامية إلى غوتز شولك ورجاله، وعندما بدأوا زحفهم الطويل نحو الأرض المقدسة توقفوا لمدة طويلة في راتسبون ليجرموا باليهود هناك. ثم تابعوا مسيرهم نحو هنغاريا حيث كان الملك كولومان الصابر كثيراً، وعرض على الصليبيين كل مساعدة ليعبروا بلاده ـ رغم ما تحمله على أيديهم ـ طالما بقوا بسلوك صالح، ولكن رجال غوتز شولك برهنوا أنهم غير مختلفين عن أسلافهم، وبدأوا بسلب الريف حالما عبروا الحدود، وعلى نحو مدرك تماماً، برهن الفلاحون الهنغاريون الذين كانوا الضحايا الرئيسية أنهم ليسوا بأكثر صبراً من الملك كولومان، ونشأ قتال بينهم والصليبيين الذين رجعوا إلى أعمالهم الوحشية المعتادة، وفي إحدى القرى أماتوا شاباً هنغارياً على خازوق خشبي مروس في ساحة السوق، وأفقد مثل هذا التصرف أخيراً الملك كولومان احتماله وأرهقه. فأرسل جيشه ضد هؤلاء القتلة غير المرحب بهم. فما كان من غوتز شولك إلا أن فرَّ، ولم يبتعد كثيراً مع رجاله حتى أبيدوا جميعاً.

وبقي امش غير المشهور الذي كان قد اقترب إلى الحدود الهنغارية بقوة أكثر هولاً من قوات فولكمر وغوتز شولك، وكانت سمعته قد سبقته ورفض الملك كولومان أن يأذن له بدخول البلاد، وأصدر امش أوامره بوجوب أن يشق رجاله طريقهم عبر النهر الذي كان يشكل الحدود إلى داخل مدينة ويزلبرغ على الجانب الهنغاري، ولم يكن هناك غير جسر واحد فقط، وقد دافع عنه الهنغاريون بحماسة بالغة، وكان هناك قتال متقطع لمدة ستة أسابيع بينما شرع الألمان باقامة جسر آخر، وعندما تم تشييده نزلوا إلى الجانب الهنغاري، وأكرهوا المدافعين على التقهقر إلى داخل أسوار وينزبرغ التي حوصرت على الفور، وكانوا قد أتوا باسلحة حصار معهم، ولفترة من الوقت بدا كما لو أن المدينة ستخضع لقوتهم وعددهم المتفوق، ثم أن إشاعة من نوع ما انتشرت على نحو مفاجئ بين صفوف رجال امش وقذفت في قلوبهم الذعر، ولم يكن أحد يعرف ما هي، لكنها أحدثت التشتت الواضح، وانتهز الهنغاريون فرصتهم

وقاموا بالهجوم بقوة من المدينة على أعدائهم، وفقد الالمان توازنهم ودمرهم رجال الملك كولومان بعد قتال قصير حيث قتل أكثرهم وأسر باقون، كما كان هناك العديد من الفارين المحظوظين إلى أبعد الحدود بحصولهم بسرعة على خيول متعقبيهم. ومن بينهم امش.

ووصلت أنباء دمار جميع قوة امش إلى الغرب بسرعة بعد أن أصبح قدر الجيوش معلوماً، ولدى سماع الناس أنباء إبادة رجال بطرس الناسك من قبل رجال الأتراك، لم يعرف عويلهم وذعرهم حداً، وبدا أن الرب قد تخلى عن شعبه، واستنتج العديد أن النكبات التي نزلت بالصليبيين كانت عقاباً لجرائمهم المرتكبة بحق اليهود، ولكن رغم أسفهم كان حقيقياً عميقاً إلى حد شعورهم أنهم قد اغضبوا الرب. لم يتوقفوا عن الإعداد لحملة صليبية جديدة، أو الصلاة إلى الرب أن يهديهم إلى النصر في المرة القادمة، وكانوا قد تطهروا من ذنوبهم وتعين الرد على السؤال الذي طرحه المزمور 79، قائلاً: «إلى متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك»؟ ولعل هناك جواباً واحداً. لن يكون الرب غاضباً على شعبه إلى الأبد أنها فكرة غير قابلة للتأمل، لهذا ستكون الأمور مختلفة في المرة القادمة.

الفصل الخامس

اجتماع الامراء

«ملك الله على الأمم. الله جلس على كرسي قدسه.
شرفاء الشعوب اجتمعوا»

المزمور 47

خلال صيف عام 1096 وبينما كانت الكارثة تستبد ببطرس الناسك ورجاله، وفي حين كان يهود ألمانيا وأوروبا الوسطى يُقتلون بإسم المسيح، كان مختلف الأمراء والنبلاء الذين كانوا استجابوا لنداءات البابا أوربان لحمل الصليب ـ جاهزين لمغادرة بلادهم، ولما كانوا أقل تهوراً من بطرس وأقل تعطشاً لسفك الدماء من امش أوف ليزنغن فقد تحققوا أنه ما من حملة عسكرية بهذا الحجم ممكنة النجاح ضد الأتراك ما لم تكن معدة ومهيئة بشكل دقيق، ومع ذلك فمن الخطأ التحدث عن الحملة الصليبية التي كان فرسان العالم المسيحي يعدونها كحملة وحيدة، لأنها لم تكن على الاطلاق كذلك، بل كانت عبارة عن عدة حملات شبه منفصلة تحت أمرة لورداتها الذين اشتركوا معاً في الإيمان المسيحي، وجمعهم هدفهم المشترك، وليس تحت ولاية قائد عال، حيث كانت جيوشهم مختلفة في الحجم بقدر اختلاف قادتها في الشخصية والمزاج والحافز لأخذ الصليب، بالإضافة إلى انفراد كل منهم في توقيت تحركه شرقاً، ومن المهم أيضاً فهم أية نوعية من الرجال كانوا لأنهم كانوا الأشخاص الذين تعين عليهم تشكيل وتكوين الممالك الصليبية الأولى في الأرض المقدسة، ورغم إسهام بعضهم أكثر من الآخرين.

وقد كان أولهم هيوج أوف فير مانديوس الابن الأصغر لملك فرنسا هنري الأول، فقد تميز بمظهر جيد ولسان متحدث، أكثر من قوة شخصية، أو قدرة عملية، وبعد أن حشد جيشاً صغيراً من التابعين من مقاطعاته المتواضعة في شمال فرنسا، انطلق إلى إيطاليا في آب، ولم يكن أحد يعلم ما حقيقة دوافعه للتحرك، ولربما كان قد ورث شهوة التجوال والتسفار من أمه الاسكنديناڤية. آن أميرة كييف ومهما تكون دوافعه. فقد قرر أن يحيا لدى وصوله القسطنطينية باحترام مناسب لشخص تجري في عروقه دماء ملكية فرنسا وبعث برسالة إلى الامبراطور الكسيوس يطلب فيها أعداد استقبال مناسب، وتبع رسالته إرسال مجموعة صغيرة من الرسل الذين طلبوا نفس الشي من الحاكم البيزنطي في ديرا خيوم الميناء الصغير على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي، الذي قصده ورجاله مبحرين من ميناء باري وكما ينبغي وافت رسالته القسطنطينية حيث أثرت على الأميرة آنا كومينا ابنة الامبراطور ذات الأربعة عشر ربيعاً فهي لم تستطع التغاضي عن الوقاحة السخيفة لهذا البربري القادم من الغرب ولا عن غطرسته وتبجحه في إرسال مثل تلك الطلبات إلى أبيها، ولكن شروع هيوج في حمل الصليب في الواقع هام لأن أخاه الملك فيليب منع من القيام بذلك لأنه كان محروماً كنسياً، ولعله كان بربرياً في نظر آنا البيزنطية كما كان في الواقع جميع الغربيين في عيون البيزنطيين، ولكن كونه أصبح صليبياً عنى ذلك موافقة البيت الملكي الفرنسي على المشروع الذي دعا له البابا أوربان.

وجمع هيوج خلال طريقه عبر فرنسا، بعض الرجال الذين تبعوا امش أوف ليزنغن في حملته المشؤومة، ثم شق طريقه جنوباً عبر ايطاليا إلى باري في ابوليا التي كانت ممكلة نورماندية في ذلك الوقت، ومليئة بالنورمانديين الذين كانوا يعدون العدة ليقوموا بحملتهم الصليبية، وجرى كلّ شيء على ما يرام، ولكن سرعان ما بدأت الأمور تجري على نحو خاطئ ومدمر بعد إبحار أسطوله خارج ميناء باري في أوائل تشرين الأول، فقد مضى معظم السنة وليس هناك

من أحد يحب الانطلاق في رحلة بحرية بعد انقضاء الصيف، لأن عواصف الشتاء أخافت الجميع، كما كانت أشهر أيلول وتشرين الأول رديئة السمعة برياحها وكل ما كان بامكانه ذلك كان يحاول تجنبها، ولكن هيوج رأى أنه إذا لم يسافر فلن يصل القسطنيطينية قبل قدوم الشتاء، ولذا ركب البحر وصادفته عاصفة في وسط البحر الادرياتيكي حيث غرقت بعض قطع سفنه بمن كان فيها أما الباقي فدفعتهم الأمواج إلى الصخور الجرداء لساحل اليرنا اما هيوج فطرحه البحر ذليلاً في أقصى الشمال من ميناء ديراخيوم حيث أصبح مرتبكاً ومبللاً ومحطماً إلى درجة لم يعد في مزاج ليفاخر بدمه الملكي، وعثر عليه بعض الرجال الذين أوفدهم الحاكم المحلي الذي علم من خبرته الطويلة أن رياح المناخ المعتدل لم تكن في يوم من الأيام تحترم الأمراء.

ومثل استقباله السابق، عومل بأعظم الاحترام من قبل مضيفه البيزنطي الذي دعاه إلى الشراب والطعام بشكل يليق بمكانته الاجتماعية الرفيعة، وفي الوقت نفسه راقبه بحذر وترصد حركاته، وأخيراً نقل إلى القسطنيطينية حيث تبنى الامبراطور السياسة نفسها تجاهه، فاستقبل بالحرارة والاحترام ونثرت بين يديه الهدايا، ولكن حرية حركته ضبطت بحذر، إن لم تكن على نحو تطفلي دقيق، وهي حقيقة أزعجت بعض تابعيه الذين اتهموا سراً الامبراطور بمعاملته كأسير.

وفي حين لم تكن القضية حقيقية بشكل محكم، هناك بعض التسويغ للاتهام ذلك أن الامبراطور كان قلقاً بما فيها الكفاية، وكان هيوج أول الأمراء الغربيين وصولاً إلى القسطنطينية على رأس جيشه الخاص، كما كان الامبراطور قلقاً بشكل مفهوم أن يكشف نواياهم، وعندما ناشد الامبراطور الغرب ضد الاتراك، لم يسأل، ولم يعقد صفقة أو اتفاقاً لغزو امبراطوريته بسلسلة كبيرة من الجيوش المستقلة، وأمل فقط بمتطوعين للقتال كمستأجرين في جيشه الخاص وتحت أمرته ولم يدع هيوج أوف فيرماندیوس يبتعد عن نظره حتى لو كشف نواياه، أو أخذ ميثاق إخلاصه أو لم يأخذه منه، فهو لا يثق بالافرنج كما أصبح جميع المسيحيين الغربيين يدعو بذلك، ولم يرغب

بالتعامل معهم، لخبرته بهم في الماضي ـ خاصة النورمانديين ـ الأمر الذي لم يشجعه لكنه كان على استعداد لاطرائهم وبهرهم بالمال والثروات الضخمة، عله يستطيع كسب ولائهم ولم يطل الأمر كثيراً حتى تغلب على هيوج وحصل على يمين الولاء منع بعد قليل من التردد، ومع ذلك لم يثبت أن تابعي هيوج كانوا مثله يمكن كسبهم بسهولة.

وكان غودفري أوف بوليون دوق اللورين الأدنى هو الشخص الثاني الذي زحف شرقاً تحت راية الصليب، الذي كان غالباً ما رسم بالألوان الخيالية الزاهية والوردية، وكان صورة مصغرة عن فارس شوسر الارستقراطي في قصص كانتبري، وفي الحقيقة كتب مؤرخ الانكليزي هوهارولدلام قبل حوالي خمسين سنة يصف كيف ومتى انطلق غودفري واخواه يوستاس ويلدوين في الحملات الصليبية، حيث تبعتهم الأعين ممتطين خيولهم، مقتفين أثر شباب اللورين الثلاثة ذوي الأعين الرمادية، وضاحكين لحبورهم وحول بنيانهم الجسدي وفخارهم البارز، وكان مطرزاً على ثيابهم الجلدية فوق القسم اليميني من قلوبهم صليب أحمر، وتطوق أعناقهم مسابح كهرمانية اللون، وتتدلى شعورهم الذهبية فوق أكتافهم، إنها صورة خيالية، ولكنها مضللة والحقيقة أن غودفري كان رجلاً وسيماً طويلاً وذا شعر ناعم، لكن ليس كما جنح خيال الكاتب فوصفه بشاب ذي عيون رمادية فقد كان في ذلك الوقت يتجاوز السادسة والثلاثين عاماً، ورغم سلوكه الجميل وجاذبيته، زاد مقدار الاموال التي كان يحتاجها لتمويل حملته بشكل يشبه ابتزاز اليهود في دوقيته، رغم أنه فعل ذلك بلطافة ودون اللجوء إلى عنف امش واختلاسه، أما بلودين أصغر الأخوة الثلاثة فيناسب الصورة أقل من غوفري، حيث كان أطولهم بلون داكن بقدر ما كان أخوه الأكبر أشقر، وفي حين كان غودفري جميلاً وساحراً في اللقاء، كان بلدوين بارداً ومتشامخاً ومتكبراً، ولما قدر للأخ الأصغر أن يكون لصالح الكنيسة، فقد تدرب على الكهنوتية، ولكن لم يعمل كاهناً لعدم مناسبة ذلك لذوقه. وتخلى عن الكهنوتية بعد فترة وجيزة، وكان لديه نزوع

هائل إلى رفاهية الحياة أكثر من أن يقسر نفسه على النظم المقدسة، فقد كان يميل إلى ملذات الجسد، الأمر الذي جعل غودفري لا ينجذب إليه كثيراً ويفضل عليه بلدوين الذي كان من أخطر الأمراء الصليبيين الأوائل، قادراً ومنفرد الرأي وغير رحيم، وكان يغتنم المنفعة الذاتية بأيد مفتوحة في الحملة الصليبية، ونظراً إلى أنه كان الابن الأصغر في عائلة نبيلة، لم يكن لديه مشاريع عن أراض وراثية في الغرب، لهذا ذهب إلى الشرق ليعوض هذا النقص، ومن الصعب القول فيما إذا كان مهتماً في القدوم من أجل تقديم المساعدة لأخوانه المسيحيين في حاجتهم إلى التحرير من الأتراك، أم لا، ولكن من المؤكد أن عليه تجريب حظه في الشرق، لأنه اصطحب معه امرأته النورماندية، وأطفاله وبالتالي أظهر بوضوح النية لديه في العودة.

ورغم أن الأخوة الثلاثة قادوا جيشاً مؤلفاً من الآف الفرنسيين الشماليين وأبناء اللورين والألمان خلال بلاد هنغاريا، فقد كان عبورهم هادئاً ومسالماً، فبعد خبرته عن بطرس الناسك وامش ورجالهما، لم يكن لدى الملك كولومان أية فرصة من أجلهما وطالب بوجوب استسلام بلدوين كرهينة لقاء التصرف الجيد من أولئك الصليبيين الجدد، ووافق بلدوين على مضض. كما أعلن غودفري من جانبه أن أي عمل عنف من جانب رجاله سيكون لقاؤه الموت، ونتيجة لذلك سارت الأمور بشكل حسن حتى غادر الجيش أراضي هنغاريا، وعبر داخل الأراضي البيزنطية حيث استقبل الصليبيون بالاشاعات التي أخبرت بكل شيء عن السجن الفعلي لهيوج فأصبح هؤلاء في غضب وشرعوا في ثورة من أعمال العنف والسلب التي خربت قليلاً حول المدينة الصغيرة سيليمبريا على مسافة خمسين ميلاً غرب القسطنطينية، وأرسل الامبراطور رسله إلى غودفري يحتج على تصرفات رجاله. وأعاد غودفري بشكل متأخر ترتيب قواته قبل التحرك، ووصل إلى أسوار القسطنطينية قبل يومين من عيد الميلاد وخيم عند مياه القرن الذهبي.

وإذا كان هاماً جداً بالنسبة للامبراطور إقناع هيوج أوف فيرماندیوز لأخذ

موثق ولاء نفسه، فإنه كان هاماً أيضاً أن يستميل غودفري وإخوته وحشد فرسانه المساعدين على رأس جيشهم الأكبر والاضخم للقيام بنفس العمل، ورغم ضغط هيوج على زملائه للموافقة على طلب الامبراطور كان غودفري متحيراً وغير راغب بالموافقة. ذلك أنه كان مديناً بالولاء للامبراطور الغربي هنري الرابع ولم ير سبباً للقسم بالولاء لرجل غريب آخر لم يعرفهو ولذا فقد رفض، وبالمقابل أصبح الكسيوس حذراً وغاضباً، فقد تأكد جميع مخاوفه وقرر قطع المؤن عن الأفرنج، فلا يأكلون إن لم يتعاونا معه، وأخفقت هذه المعاملة في تخويف بلدوين الذي قاد رجاله في فرق أغارت على ضواحي المدينة ووضع يده على أي شي أراده دون إنتظار إذن للقيام بذلك، حتى تراجع ألكسيوس، ولم يكن هذا بالطبع بداية مبشرة بالنجاح لعلاقات الامبراطور مع ضيوفه الجدد، ولم يتوطد السلام بينه وبينهم طويلاً.

وانتظر ألكسيوس إلى مضي عيد الميلاد قبل تجديد محاولة لاقناع غودفري لتقديم قسم الولاء، ولم يكن الوقت في جانبه لأنه يعلم أن جيوشاً أخرى من الصليبيين كانت في طريقها إلى بلاده، وصمم أن ينجح في محاولته قبل وصول تلك الإمدادات الغربية لتقوية هؤلاء، وبقي غودفري وأخواه في عنادهم، ومرة أخرى عاد ألكسيوس مرغماً على إنقاض المؤن عن الجيش، ولكنه لم يقطعها بشكل كلي، فرد الصليبيون مرة أخرى بالإغارة على الريف والقرى المجاورة حيث اصطدموا مع بعض قوات المرتزقة من البشناق التي كانت تشغل دور الشرطي في المنطقة، وكانت قوات البشناق من قبيلة تركية زودت الامبراطور بأفضل رجاله االمحاربين، بنفس الطريقة التي قامت بها قوات الغورخاز بتزويد الجيش الهندي ببعض أفضل محاربيه المشهورين في أيام الحكم البريطاني في الهند، وعندما اكتشف الصليبيون أن العديد منهم كانوا مسلمين لم يعرف غيظهم وقلة ثقتهم بالإمبراطور حداً، وأصبح بلدوين غاضباً كثيراً بحيث وضع كميناً لقوات البشناق وقتل العديد منهم وأسر ستيناً آخرين، ومن الصعب تصور ما قدمه موتهم من خدمة للقضية الافرنجية، وبعد

حين تمكن الجانبان من تحقيق هدنة بينهما لكنها لم تدم طويلاً.

ولدى تحققه من هذا، تحرك غودفري ربما بدافع من قبل بلدوين إلى أسوار المدينة حيث شن هجوماً واسع النطاق على أحد أبوابها، وكان ذلك في يوم خميس من الأسبوع المقدس، وفوجئ البيزنطيون كثيراً، وكانوا غير مستعدين مطلقاً لمثل هذا الهجوم، لكونهم أناساً يدعون الإيمان بالمسيحية، ولم يفكروا قط بالقيام بهجوم على إخوانهم المسيحيين في يوم من الأيام المقدسة، وفي أثناء ذلك، كان شيء من الفزع يسري في المدينة، غير أن أسوارها كانت منيعة كثيراً، وتدبر البيزنطيون أمرهم بإحكام إغلاق البوابة التي بقيت تحت الهجوم، ولم يسع الصليبيون أن يفعلوا كثيراً غير التقهقر إلى مسافة أمينة بعد قتل سبعة مدافعين، وفي اليوم التالي، يوم الجمعة الحزينة أرسل ألكسيوس مبعوثيه للتكلم مع غودفري، ورغم حرمة ذلك اليوم هاجمهم الصليبيون دون إنتظار سماع ما لديهم، وكان هذا كثيراً بالنسبة للامبراطور، الذي رُوع كمسيحي، بحيث نفذ صبره، وأصدر أوامره لبعض القوات الامبراطورية بالهجوم على رجال غودفري وتلقينهم درساً جدياً، وبينما كان رماة الأسهم البيزنطيون يرمون من فوق أسوار المدينة عل الأفرنج المدحورين عمدوا على نحو غير مقصود إلى عقر خيولهم بدلاً من محاولة قتل أخوانهم المسيحيين في مثل ذلك اليوم، وشنت فرقة من الفرسان البيزنطيين هجوماً عليهم من البوابة المجاورة، وكان هجوماً فنياً بحيث ضمن استئصال الأفرنج مباشرة.

وأعادت الهزيمة الساحقة أخيراً الرشد إلى غودفري، وتحقق من ضعفه أمام الامبراطور الذي كان لا يزال بمقدوره قيادة قوة أضخم كثيراً للتخلص من الصليبين، ولم يعقد شروطاً في الحال، كما لم يكن لديه الوقت قبل قبوله بالمحتوم، ولكن ترك الامبراطور يعلم أنه سيقدم إلى المدينة ليراه، إذا أرسل أولاً بعض الرهائن مقابل أمانته وسلامته، وكان على الأرجح يوم عيد الفصح عندما تقابل الرجلان. وأعطى غودفري وأخواه، بالإضافة إلى أرفع النبلاء في

سلكه، وفيهم ابن عمه ويدعى بلدوين أوف لابروغ - أعطوا جميعاً يمين ولاء لألكسيوس الذي رحب بهم مباشرة، وقبلهم قبلات السلام دلالة على اعتباره إياهم أولاده بالتبني، وأمطرهم بالهدايا، واستضافتهم بفخامة جليلة على مأدبة امبراطورية، وبعد أيام من راحته، نقلهم وجيشهم عبر بحر البوسفور ليخيموا عند الشاطئ الآسيوي قبل وصلو قوات متوقعة من الصليبيين تزيدهم قوة.

وكان ذلك مناسباً وفي وقته، فقد بدأت حال مغادرة غودفري مجموعة كبيرة مختلطة وغير منظمة من الصليبيين المتخلفين الذين كان معظمهم من المتشردين في الوصول على شكل شراذم عبر أراضي البلقان على أمل اللحاق بغودفري ووصلت هذه الشراذم إلى ضواحي القسطنطينية، وبرهن رجالها كسابقيهم أنهم غير متعاونين، وأنهم محبين للقتال، ومن أجل التعامل معهم احتاج الكسيوس إلى كل اللباقة والجلد على حسابه الخاص، وعاد مرة أخرى وطلب من قادتهم تقديم يمين ولاء له، ومرة أخرى لاقى مقاومة مشاكسة، ولكنهم أخيراً وافقوا ودعا الامبراطور لتلك المناسبة غودفري وبلدوين لحضور التشريفات وكان القادمون الجدد سيئي التصرف وفظين في معاملتهم، وعندما تجرأ أحدهم ليجلس على عرش الامبراطور وبخه بلدوين بشدة، ولجأ الرجل في ارتباك إلى العدوانية، وحاول بصوت عال أن يسوغ موقفه بالشكوى بوجوب عدم جلوس الامبراطور في حين كان يقف رجال شجعان، وأطال ألكسيوس السماع لكلمة الرجال وطلب إدخاله إليه، وعندما شرع الرجل بالتفاخر بنجاحاته الفردية في القتال، وكان يتبجح بصخب، نصحه الامبراطور بلطف، أن يكون حذراً لدى مقابلة الاتراك الذين لا يتقيدون في الغالب بقواعد الفروسية التي تتحكم في الصراع الفردي بين فارسين مسيحيين، وعندما انتهت المأدبة وقدم جميع الحضور يمين الولاء نقلوا عبر البوسفور لينضموا إلى جيش غودفري.

ومرة أخرى كان ألكسيوس موفقاً في الوقت المناسب، فبعد أيام قليلة وصل الأمير النورماندي بوهيموند من منطقة تورانتو إلى القسطنطينية بعد رحلة

سلمية لا أحداث فيها، وصل على رأس جيش أصغر من جيش غودفري، ولكنّه كان حسن التدريب والتسليح، ومؤلف من النورمانديين الذين كانوا جنوداً بالفطرة، وخاف الامبراطور ألكسيوس كثيراً من بوهيموند الذي كان ابناً لمغامر نورماندي سيء السمعة يدعى روبرت جويسكارد الذي انتزع لنفسه الدوقية بقوة السلاح في المقاطعة الإيطالية الجنوبية ابوليا ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ غزوه الامبراطورية البيزنطية، ومساعدة بوهيموند له في نشر الارهاب حيثما توجه، أما بالنسبة لبوهيموند الذي كان مخلوقاً عظيماً من الناحية الجسدية، فقد أربك الأميرة أناكومينا[1] فكتبت عنه تقول: «لم يشاهد مثل هذا المرء من قبل في الأراضي الرومانية، حيث كان أطول من أي شخص آخر بمقدار قدم أو أكثر، وكان أهيف الوسط ضيق الوركين عريض المنكبين، ذا صدر كبير، وذراعين ضخمتين... كما كان ذا يدين قويتين وحنجرة عضلية مفتولة، يقف باتزان وثبات تامين كما كان ذا إحدداب قليل، أما لون شعره فذهبي أحمر متدل قليلاً فوق كتفيه مثل بقية البرابرة، لأنه لم يكن يهتم به، في حين كان وجهه حليقاً نظيفاً أما عيناه الزرقاوتان الصافيتان فتخترقان الروح، وتوحي بالجلال مثل أنفسه، وكان ثمة سحر خاص يحيط بهذا الرجل، ورغم ذلك فقد كان هناك شيء مرعب فيه بسبب حجم جسده، وكان الوميض في عينيه يكشف عن القوة والوحشية، وحتى ضحكته كانت تبدو مثل الشخير... لأن هذا الرجل كان ذكياً وسريع الريب بالآخرين، كما كان ذا مزاج متقلب وحزين، وقد ترك بلاده حيث لم يكن لديه ما يملك، ليتعبد أو هكذا قال، عند الضريح المقدس، ورغم ذلك فقد كان بحاجة إلى كل شيء، وقصد في الواقع أن يسير على خطى أبيه، وأن يتغلب، إن استطاع، على امبراطوية ما في الشرق». وكانت آنا على حق فيما قالت عنه، وفوق ذلك لم يكن لدى

(1) ابنة الامبراطور ألكسيوس كتبت عن حياة والدها كتاباً اسمه «الالكسياد» يعد على رأس مصادر الحملة الصليبية الأولى، وترجمت مؤخراً القسم المتعلق بالحروب الصليبية من هذا الكتاب وهو يطبع الآن.

بوهيموند أية نية في كشف ما في يديه قبل أن يضطر، ولم يحدث لدى وصوله القسطنطينية أية صعوبات في تقديمه يمين الولاء لوالد آنا، عندما ركع أمام ألكسيوس وأقسم قسم الاخلاص بجلال بغض النظر عما يمكن أن يسره من خطط في مستقبله.

أما أضخم الجيوش الخاصة التالية فكان بقيادة ريموند الرابع كونت سانت جايل (صنجيل) أمير منطقة تولوز وماركيز منطقة بروفانس، وكذلك أدهمر أوف مونتيل أسقف منطقة لي بوي الذي كان يعتبره الجميع القائد الروحي لكل الحملة الصليبية، وكان وحده مسؤولاً أمام البابا، وكان ريموند صاحب تولوز رجلاً في الستين، له أملاك ضخمة في لونغدوك وبروفانس، واعتبره البيزنطيون قائداً متمدناً وموثوقاً أكثر من القادة الغربيين الآخرين، وكانت رحلتهم شاقة فقد اصطحبوا العديد من النبلاء من جنوب فرنسا، وبعكس أولئك الذين سبقوه، قاد ريموند رجاله خلال شمال إيطاليا، وجنوباً خلال جبال دالماشيا، ولم يكن ثمة خيار حكيم للطرق التي كانت سيئة إضافة إلى الصعوبات في الأرياف، في حين كان الشعب المحلي معظمه من السلاف المعادين والقليلي التمدن، وظهرت البربرية جيداً في حادثة خلال رحلتهم، ووصفها القسيس ريموند أوف أغولير الذي كان قسيساً ملحقاً بريموند أمير تولوز حيث كتب يقول: «كان الكونت ورجاله عند المؤخرة عندما أعيق وبعض رجاله من قبل بعض السلاف، فقام بالهجوم وأسر ستة منهم، وعندما تحشد أمامه سلاف آخرون بوحشية واضطروه على اللحاق بجيشه وأصدر أوامره بقلع عيون بعض الأسرى، وقطع أرجل آخرين وتشويه أنوف وأيدي الباقين، وبذلك أعاق تقدم مطاردية عند رؤيتهم للأسرى والحزن على ما أصابهم من العذاب، في حين كان قادراً، ومعه مرافقوه على النجاة دون أذى، وخلال طريقه، أنقذ من الموت برحمة من الرب وكذلك من أخطار ذلك المكان»، ومن الصعب لأناس من العصور المتأخرة المختلفة أن تفهم دور رحمة الرب في تلك الحادثة الدموية الصغيرة، لكننا ولن نتمكن من فهم العصور الوسطى أو

الحروب الصليبية، إذا نحن أخفقنا من فهم مدى إخلاصهم وعمق تمسكهم برحمة الرب أثناءِ مثل تلك الحوادث.

وحتى عندما عبر صليبيو ريموند خلال بلاد السلاف ثم دخولهم الامبراطورية البيزنطية قرب ديرا خيوم لم تتوقف مشاكلهم، وقد كانوا غير منظمين على نحو مخيف. ودفعتهم محاولاتهم المتكررة لسلب الريف خلال عبورهم أخيراً ـ إلى الاصطدام مع قوة حماية من البشناق. كما أثيرت العواطف أكثر فأكثر، وبدأت تشتعل الأمزجة غيظاً، وأخيراً، وقعت معركة ضارية بين الصليبيين وبعض فرق بيزنطية أرسلت لمساندة قوات البشناق وهزمت قوات الأفرنج هزيمة ساحقة، أما الباقون فعوقبوا إلى درجة لم يسببوا أية مشاكل أخرى خلال مدة استمرار رحلتهم إلى القسطنطينية، حيث وصلوها في نهاية شهر نيسان بعد فترة وجيزة من عبور رجال بوهيموند البوسفور.

وكان هناك ثلاثة جيوش خاصة أخرى قارب تعداد رجالها عشرة آلاف من الأشداء، ومرة أخرى نعود لنؤكد صعوبة تحديد العدد وذلك لكون المدونات لذلك العصر كانت تبالغ دوماً، وقاد تلك الجيوش روبرت أوف فلاندرز، وسافروا معاً معظم طريقهم، فقد كانوا من نوع مختلف في القدرات والأمزجة، وكان روبرت أوف نورماندي الابن الأرشد لوليام الفاتح[1] وكان رجلاً متوسط العمر ناعماً قليل التأثر ـ نوعاً ما، وكان على خلاف مع أخيه وليم روفس ودخل في حرب على نحو متقطع معه منذ موت والدهما: وهي حالة من الصراع لا يلام فيها روبرت لأن الأخ الأصغر اعتاد غزو دوقية أخيه، وكان روبرت قد استجاب لدعوة البابا أوريان من أجل حملة صليبية بكل حماس مخلص وورع، واصطحب معه أودو أسقف منطقة بايوكس. وكذلك عدداً كبيراً من نبلاء منطقة نورماندي، والقليل من بريطانيا من بينهم أيرل منطقة نورفولك الذي كان يعيش في المنفى في منطقة بريتاني في ذلك الوقت.

(1) دعي بذلك لفتحه انكلترا إثر نصره في معركة هيسنغ سنة 1066م.

أما ستيفن، فكان شخصية مختلفة تماماً، وليس لديه حماسة للحملة الصليبية، بل تزوج من أديلا ابنة وليم الفاتح، التي اضطرته إلى الذهاب، وهكذا ذهب، وليس هناك مجال لكلام فارغ وهراء حول من اتخذ القرار: ولابد أنها هي، وذهب معه قسيس دعي فولشر من منطقة تشارتز، الذي أصبح مؤرخاً رئيسياً للأحداث التالية، وكان لدى الكونت روبرت من منطقة فلاندرز وهو أصغر من الاثنين الآخرين شخصية مروعة أكثر منهما، ولدى انضمامه للحملة الصليبية كان لديه شعور يتبعه في خطوات والده، لأن الرجل الأكبر كان قد قام بحجة إلى القدس قبل ما يقارب عشرة سنوات، وخلال طريق عودته مكث فترة وجيزة في القسطنطينية.

ولدى زحفهم جنوباً عبر إيطاليا معاً انقسم الجيش إلى قسمين. فأبحر روبرت أوف فلاندرز وتابعوه مباشرة من ميناء باري وقادهم بأمان ودون حوادث إلى القسطنطينية، التي وصلها بعد وصول بوهيموند بوقت قصير. أما روبرت أوف نورماندي وابن حماه، فقد قررا إمضاء الشتاء للراحة في جنوب إيطاليا قبل متابعة طريقهم، ومع مضي الأشهر بدأ جيشهما بالتحلل قليلاً حيث بدأت حماسة رجاله بالانحسار، وقررت مجموعات قليلة العودة إلى الوطن، وعندما قرر القائدان أخيراً أن يركبا البحر مع رجالهما عند برنديزي أصابتهم نكبة من نوع نكبات العصور الوسطى، وانقلبت أول سفينة تغادر المرفأ، وغرقت بجميع ركابها مع قطيع حيوانات وخزينة الأموال ومستودعات المؤن، وفزع أولئك المنتظرون ليبحروا على مركب آخر، ولم يمض كثير من الوقت قبل انتشار أخبار ظهور جثث الرجال الذين غرقوا معلمين بإشارة الصليب على جلود أكتافهم، كما قال فولتشر أوف تشارترز، «ولم تكن تلك المعجزة مفاجئة لأي شخص لأن ـ ولنقتبس كلام فولتشر ثانية: «ـ الحجة جعلتها واضحة بالنسبة لأولئك الذين يلحقون بها السمعة السيئة، إنها كانت مناسبة جيدة لهؤلاء الموتى الذين حصلوا على رحمة الرب وسلام الحياة السرمدية في تنفيذ واضح وجلي للنبوءة التي كتبت. فقط أولئك الذين أخذهم الموت قبل النضوج

سيجدون السلام». ورغم أن صليبيين آخرين لم تفاجئهم هذه المبالغة في قوة الرب، فهي لم تنجح كلية في إعادة الشجاعة لجميع أولئك المنتظرين ليبحروا على السفن الباقية بالإضافة إلى هجرة بعضهم، ولكن معظمهم حافظوا على نذورهم كصليبيين، تاركين أنفسهم لتنقل عبر البحر إلى دير أخيوم دون مزيد من الخسائر بعد العبور القاسي وغير المسر ومن ثم إلى القسطنطينية التي وصلوها في شهر أيار حيث سحرتهم المدينة.

وأبهجت أيضاً فولتشر أوف تشارترز حيث كتب: «آه.. يا لها من مدينة جميلة ونبيلة! كم فيها من الأديرة والقصور التي بنيت جميعها بإعجاز، وكم فيها من الأعاجيب لترى حتى في الشوارع والساحات، إنه من الصعب سرد كميات الذهب والفضة والأثواب المتنوعة والآثار المقدسة التي تشاهد هناك، حيث تجلب جميع الأشياء اللازمة للانسان إلى هناك باستمرار عن طريق الزوارق، ولم يكن ستيفن أوف بليوس أقل تأثراً بالمدينة، ولكنه احتفظ بإعجابه الكبير للامبراطور الكسيوس الذي كان كريماً إليه، ولطيفاً معه، كما كان مع بقية اللوردات الغربيين الآخرين الذين أمطرهم بالهدايا والتجف حالما أقسموا بمين الولاء، حيث كتب إلى أدلاء زوجته: «إن أباك يا حبيبتي أعطى عدة هدايا، ولكنه لا يقارن بهذا الرجل»، ولا يستطيع المرء التوقف عن العجب بكيفية رد فعل أدلا ودهشتها بالنسبة لهذه الملاحظة عن أبيها وليم الفاتح، ونظراً لأن زوجها كان بعيداً قرابة من ألفي ميل لعله لم يبال كثيراً بردة فعلها.

وفي تلك الأثناء كان ألكسيوس موضوع إعجابه، يتنهد بشكل عميق نتيجة شعور بالراحة لأن آخر جيوش الصليبيين نقل بأمان عبر البوسفور إلى آسيا، وعن طريق ممارسته الصبر والثبات والجلد والدبلوماسية والكرم كان قد نجح إلى حد ما في استيعاب سلسلة من الجيوش الأجنبية المروعة داخل امبراطوريته دون نكبات، في حين أرسلهم أيضاً في طريقهم لمقاتلة أعدائه، وهو قد فعل ذلك على نحو أكثر إنسانية ليضمن ذلك، وهم عندما يقومون

بذلك فهم يمثلون دوراً كتابعيه، أما وأن يحنثوا بإيمانهم فليس هذا خطأه، كما يمكن الافتراض أنه ليس خطأ المقسمين بإيمانهم أيضاً. ذلك لأن الإيمان أمور هشة في أحسن الأوقات، وعندما تجعلهم يشعرون بالإعاقة في إحدى الحركات الكبرى للتاريخ فإنهم نادراً ما يكونون أقوياء بما فيه الكفاية لمنع الرجال من التخلي عن الطريق الشاقة للشرف والإخلاص، ولما عبرت الفروسية غير الرحيمة والقليلة التنظيم والوحشية وحتى الحالمة للعالم المسيحي الغربي عبر البوسفور تحت عيون الرقابة لألكسيوس وأخوانه البيزنطيين، كانت قد بدأت ثقافتان في الاندماج، كانت إحداهما قديمة جداً ومتمدنة كثيراً وسباقه في سمو قوتها العملية، بينما كانت الأخرى قد خرجت للتو من بربريتها الكلية وهي مفعمة بالطاقة الصلبة غير المحدودة وبالإبداع الفني الجديد، وقدر للصغرى أن تشغل دوراً كبيراً في تدمير الكبرى ولكن ما من أحد كان يعلم آنذاك حيث كانتا تعتقدان أنهما حليفتان.

الفصل السادس

تقدم الجنود المسيحيين

إلى الامام يتقدم الجنود المسيحيون إلى الحرب.
مع صلب يسوع على رأسهم ويقودهم المسيح السيد الربان
ضد الأعداء وتشاهد رايته تتقدم إلى الأمام في المعركة.

سير بارنغ غاولد

ما أن تجمع جميع الصليبيين مع بعضهم في مخيم عسكري على الجانب الأسيوي من بحر الفوسفور، حتى كانوا متحمسين لبدء زحفهم الطويل شرقاً إلى الأرض المقدسة، وبنفس الدرجة، كان الأمبراطور ألكسيوس تواقاً لرؤيتهم يذهبون، وقد وعدهم بتزويدهم بأدلاء يعرفون الطريق عبر هضبة الأناضول الواسعة، ولكن كان ثمة شيء واحد فقط تعين عمله قبل انطلاقهم بأمان في زحفهم إلى القدس مسافة ألف ميل. لقد تعين عليهم الاستيلاء على نيقية المدينة المحصنة التي تبعد خمسين ميلاً عن القسطنطينية في خط مستقيم لأنها تقع عبر طريقهم الرئيسية التي تقع تحت سيطرة الأتراك السلاجقة وتقع المدينة على شواطئ بحيرة تدعى أسكانيا تحيط بها أسوار دفاعية هائلة، ونظراً إلى أن الأتراك اعتبروها عاصمتهم، فقد تعين أن يكون بها حامية قوية عسكرياً، ولم يكن بإمكان الصليبيين المرور بها بسهولة فهي قد شكلت قلعة خطيرة في حال تركها في مؤخرتهم.

وكان جيش الصليبيين أضخم قوة عسكرية تجمعت من شعوب غرب أوروبا منذ نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية، وكانت تعد على الأغلب، مائة

ألف رجل وامرأة وتابعين من المعسكر أيضاً، ورغم أنها تفتقر إلى قائد عام، إلا أنها كانت في الواقع قوة رهيبة، وفي مغامرتهم الأولى ضد الأتراك كان الحظ إلى جانب الصليبيين، ذلك أن قلج أرسلان سلطان السلاجقة (وتعني كلمة أرسلان ـ الأسد) كان يقاتل بعيداً على الجبهة الشرقية بعض الأتراك الدانشمند وهم منافسون للأتراك السلاجقة من أجل السيطرة على دولة أرمينية ثانوية في ذلك الجزء من العالم، وكان تقسيم الأتراك في قبائل في حالة فوضوية كثيراً حيث كان هناك السلاجقة والدانشمند والخوارزمية والغزنوية والقفجاق والبشناق والقراخانية[1] وفيما بعد العثمانيون، وقد كانوا جميعاً في الأصل رعاة وبدو قدموا من آسيا الوسطى، وأصبحوا مسلمين، كما أسسوا امبراطوية كانوا يتخاصمون من أجلها تارة، وتارة أخرى يدافعون عنها كأحلاف، وفي زمن الحملة الصليبية الأولى كان السلاجقة مهيمنين بزعامة سلطانهم قلج أرسلان، وقد سمعوا عن قدوم حشود من المسيحيين الغربيين، ولكن كان بطرس الناسك ورعاعه قد أقنعوه، أي السلطان»، ألا خوف من هؤلاء الرعاع المسيحيين غير المنظمين، فلم يزعج نفسه ليسرع لمقابلتهم حيث كانت نيقية محصنة جيداً إلى درجة تستطيع أن تهتم بنفسها.

وكان غودفري أوف بليون أول من غادر المعسكر الرئيسي في البوسفور، وقاد رجاله ضد المدينة، وسرعان ما انضم إليه جيش بوهموند تحت قيادة مؤقتة من ابن أخته تانكرد نائباً عن خاله الذي نزل في ضيافة الامبراطور ألكسيوس في القسطنطينية، كما انضم إليهم بطرس الناسك مع القلة الناجية من النكبة التي سبق وقادهم إليها قبل أشهر، والتحق بهم أخيراً بعض المهندسين البيزنطيين لأداء النصح، ومساعدتهم إذا لزم الأمر في فرض الحصار على المدينة، ووصل الجميع عند أسوارها في 6 أيار، وكانوا مدرعين وأقوياء إلى حد كبير وبطول يمتد إلى مسافة أربعة أميال، ولم يحدث جديد حتى التحق بهم

---

(1) لا يحمل قبول هذا التقسيم علمياً أبداً.

ريموند أوف تولوز مع حشده الضخم من الصليبيين من لانغ دوك بعد عشرة أيام، وتبعه روبرت أوف تورماندي ثم ستيفن أوف بليوس في أوائل حزيران حتى أمكن حصار المكان بالكامل، وفي تلك الأثناء أرسل الأتراك رسلهم ـ أسر أحدهم ـ ليتم إخبار قلج أرسلان عن وصولهم، ولدفعهم ليسرع لمساعدتهم.

وكما حدث تماماً. كان في طريقه إليهم، وحالما وصل شن هجوماً على جيش ريموند الذي كان يدافع عن السور الجنوبي للمدينة، وحلت الوطأة العظمى من هجوم الأتراك على الجناح اليميني المسيحي الذي كان تحت أمرة أسقف لي بوي الذي كان رجاله ـ رغم أوامره المقدسة يكرهون على التمسك بمواقعهم حتى مجيء روبرت أون فلاندرز لمساعدتهم، واستمر القتال طوال اليوم بحيث كان العديد من القتلى بين الجانبين، ولكن السلطان في النهاية اضطر لأمر رجاله بالتراجع، وكانت دهشته البالغة أن القادمين الجدد برهنوا أنهم مختلفون عن رجال بطرس الناس وأنهم أكثر من كونهم نداً ورجلاً لرجل في مقابل الأتراك، ولا حاجة للقول، كان الصليبيون معجبين بنصرهم رغم جروح العديد منهم وإنهاك معظمهم، واحتفلوا بنصرهم بتقطيع رؤوس العديد من الأتراك الموتى وبقذفهم بالمنجنيق فوق أسوار المدينة داخل شوارعها[1]، بينما وضع آخرون على رؤوس الرماح عند مدخل المدينة على مشهد كامل من المدافعين المحزونين.

ورغم أنه كان نصراً عظيماً، غير أن المدينة لم تسقط في أيديهم، ولم يبد أنها ستكون كذلك، حيث لا زالت المؤن تصلها عن طريق الزوارق عبر بحيرة أسكانيا، وعندما حاول المهندسون البيزنطيون شق جدار المدينة أخفقوا، وأخيراً، لدى طلب النجدة من الامبراطور، أمر أسطولاً صغيراً من

---

(1) كذا، الحقد قديم، فحتى في هذ الأيام لا يخفي الكاتب سروره بتقطيع رؤوس القتلى من المسلمين ويرى أن ذلك كان مجرد احتفال بالنصر.

البحرية البيزنطية بمنع وصول المؤن إلى المكان عن طريق البحيرة، وقاد السفن الأدميرال بوتومايتز الذي كان لديه أيضاً توجيهات امبراطورية لفتح باب المفاوضات مع قائد الحامية التركية لتسليم المدينة، وأدرك القائد التركي أنه ليس لديه أمل بالنجدة من قلج أرسلان بعد هزيمته، كما رأى ألا جدوى في مقاومة طويلة وأعلم بوتومايتز أنه مستعد لتسليم المدينة إليه في مقابل سلامة أرواح رجاله، وكان هذا الاتفاق بين القائد التركي والأدميرال البيزنطي، ولعل قادة الحملة الصليبية أبعدوا عن إعلامهم عن تقدم المحادثات، ولم يعرف رجالهم شيئاً عما كان يجري هناك، لكنهم على النقيض كانوا يتطلعون إلى توجيه هجوم عام على المدينة، خطط له في 19 حزيران، وكان حماسهم يتعاظم مع اقتراب ذلك اليوم، ولذلك خلال ليلة 18 حزيران فتح الأتراك أحد الأبواب لرجال بوتوماتيز، وبذلك تبين الصليبيون لدى استيقاظهم في الفجر أنهم خينوا في فريستهم. وكانوا يأملون في نهب المدينة ولذلك فقد أصبحوا مغتاظين وغاضبين أكثر عندما شاهدوا الأسرى الأتراك يعاملون بالحسنى من قبل البيزنطيين الذين أذنوا لبعضهم أن يفتدوا حريتهم، أو يعودوا إلى عائلاتهم دون ضرورة دفع أي شيء مقابل هذا الامتياز، أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا قد أجهزوا عليهم جميعهم على الفور باعتبارهم أعداء المسيح فقد بدا هذا الكرم غير المقدر، وغير القابل للتعليل مماثلاً للخيانة، وحتى إنه نسيب الكفر، ولم يستطيعوا على عكس البيزنطيين، إدراك قيمة الأسلوب الدبلوماسي لمثل تلك السياسة الناعمة.

ولما كانوا غاضبين لم يشك أحد من الصليبيين أن الاستيلاء على نيقية كان نصراً عظيماً، وتشجع الجميع بذلك، وكتب ستيفن أوف بليوس إلى زوجته أديلا في روح عالية «سنكون في القدس خلال فترة أسبوع»، وأضاف إلى ذلك ما برهن على كونه نظر في العواقب نظرة غير متفائلة قائلاً: «ما لم يعقنا شيء في انطاكية» ولم تعتم ظلال أنطاكية حالة التفاؤل عند الصليبيين عندما انطلقوا من نيقية بعد أسبوع من الاستيلاء عليها، رغم مشكلة الحفاظ

على مثل هذا الحشد الهائل من الناس والحيوانات وإبقائها على قيد الحياة، خلال رحلة رهيبة يعرفها جيداً الأدلاء البيزنطيون، وهي أن الأناضول لم تكن أرضاً مضيافة، فهي في الشتاء هضبة مترامية الأطراف إلى حد كبير، وتمتد بعيداً داخل آسيا، وهي مقفرة تماماً لا نبات فيها كصحراء غوبي أو سهوب روسيا الجنوبية تجتاحها الرياح الثلجية القادمة من سيبيريا، ويغطيها ركام الثلوج التي يمكن أن تصل إلى عمق خمسين قدماً في بعض الأماكن، أما في الصيف فتبدو بأراضيها الحشائشية المتناثرة، وسهولها البركانية الصخرية بمساحاتها الملحية العديمة الحياة، والجافة تصليها أشعة الشمس، وتضيع معالم أفاقها في وميض الحرارة العالية أو تختنق في العواصف الرملية، فترى رعاتها البدو في أوطانهم في هذا البلد يعيشون على قطعانهم، وهم يعملون أين يمكن أن يجدوا الماء، ولكن طعام جيش شامل بكل ما تحويه عرباته، بالإضافة إلى الحيوانات المخزونة فقد كانت مهمة مختلفة تماماً، وكذلك مسألة المياه، وكانت النساء كالرجال صلابة ومشاكسة، وكن مستعدات للسير على الأقدام مثل أي شخص آخر، ورغم أن القليلات ركبن الحمير، لكن الفرسان كانوا راكبين إنما عمد العديد منهم إلى السير على الطريق لتوفير مطاياهم التي قادها الساسة، وحملت ممتلكات الكثيرين مع المستودعات العسكرية للحملة فوق عربات بدائية تجرها الثيران أو فوق ظهور البغال، وخلال تلك الأثناء كان الجنود والنساء والفرسان والقسيسون والتابعون من المعسكر والحيوانات أيضاً، كانوا جميعاً ـ يحصلون على طعامهم وشرابهم بطريقة أو أخرى. وحيث لم يكن ثمة نظام تزويد بالمؤن، فقد تعين على الجميع أن يطعموا خلال عبورهم البلاد، لقد كانت المسألة خطيرة إلى درجة أنهم قبل تنقلهم بعيداً قرروا أن ينقسموا إلى مجموعتين: فسار النورمانديون والفرنسيون الشماليون مع ممثل البيزنطيين في المقدمة تحت قيادة بوهموند، وتبعهم الباقون تحت قيادة ريموند أوف لولوز بعد عشرة أيام.

وعندما رحل بوهموند ونورمانديه مسافة أربعين ميلاً، وصلوا إلى مدينة

تدعى دوريليوم، فخيموا قرب بعض ينابيع المياه، وأمضوا ليلة 29 حزيران 1097، وعند الفجر هاجمهم جيش قلج أرسلان الذي كان في انتظارهم، وتغلغل الفرسان الأتراك ذوي التسليح الخفيف بأسلحتهم الخفيفة من كل الجوانب، وأمطروا الصليبيين بالسهام، وفي الحال أرسل بوهموند خيالاً يخبر ريموند أنه وقع تحت هجوم الأتراك، ويحثه للاسراع إلى مساعدته، وبعد القيام بذلك تحول إلى مهمة تنظيم الدفاع، فجمع النساء وغير المقاتلين في وسط المعسكر إلى جانب الينابيع مع أوامر بلزوم تزويد المقاتلين بالماء خلال القتال، كما أمر الخيالة بالترجل، والبقاء في وضع دفاعي حتى تتمكن النجدة من الوصول، وكان الرجل الوحيد الذي خالفه هو الفارس الذي وبخه بلدوين لجلوسه فوق عرش الامبراطور ألكسيوس، وبرجاله الأربعين من تابعيه الخاصين هاجم الأتراك في حمى القتال الجوهري ليسقط ميتاً فور ذلك متأثراً بجروحه الكثيرة البالغة، ولحسن الحظ أطاع الجميع بوهموند من أجل أنفسهم ومن أجل القضية المسيحية، وتقهقرت الموجة الأولى من الأتراك إلى الوراء.

ومع مضي الوقت، ارتفعت الشمس الأناضولية عالياً في وسط سماء زرقاء صافية، بحيث أصبحت الحرارة غير محتملة من قبل المقاتلين المجهزين بالدروع، وبدأ المسيحيون يتساءلون فيما إذا سيبقى منهم أحياء تحت الوابل المتواصل من الأسهم التركية، ولكن نظراً لكون التقهقر غير ممكن، والاستسلام غير وارد في التفكير، ولشجاعتهم التي كانت أنبل فضائلهم توصلوا إلى حل، وهو الموت قتالاً، وقام بعضهم بذلك، ولكن بعد منتصف النهار ظهر بعض الفرسان في غمامة غبار إلى الشمال، وكانوا بسبب حركة السراب الحراري يبدون بشكل ضعيف مشوه على نحو غريب. وتداعى الهجوم التركي، وعرف السلطان أن القادمين الجدد ليسوا أتراكاً، فلم يكن لديه إحتياطي في المنطقة، ومع ذلك وحتى تلك اللحظة تخيل أنه كان يقاتل كل الجيش الصليبي وأنهم، أيضاً لا يمكن أن يتوقعوا إمدادات، ولكن عندما اقتربت غمامة الغبار الذهبي المموضة، وبدأ الضجيج المرعد لحوافز الخيل

على نحو ظاهر وأشد وقعاً من أصوات القتال، وأصبح بالامكان سماع طنين السهام، وصهيل الخيول، وصليل الفولاذ على الفولاذ، وصراخ رجال في غضب أو في نزع الموت ـ ورايات تولوز وراين لاند، وفيرمانديوس ـ أصبحت جميعها ترفرف فوق الصفوف المدرعة للفرسان الذين كانوا يقتربون، وتمكن فرسان منطقة بروفانس واللورين بهجوم مكثف من الاجهاز على الأتراك، وكانوا مجهدي، وانطلق النورمانديون الذين كانوا في المعركة طوال النهار، إلى وضع دفاعي وذلك في عرض مهيب من القتال الذي لا يقهر، فكان في الجناح الأيسر كل من بوهموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بليوس، أما في الوسط فريموند أوف تولوز وروبرت أوف فلاندرز على حين كان غودفري وبلدوين وهيو في الجناح الأيمن، وسارت زبدة الفروسية المحتشدة للعالم المسيحي الغربي في موكب الهجوم، أما الأتراك الذين واجهوا عدواً أكبر منهم بكثير وعلى نحو هائل فكانوا غير مستعدين على الاطلاق لمثل هذا الهجوم، فانقلبوا على أعقابهم، وعندما رأوا فجأة ما حدث وكان جيشاً آخر للصليبيين تحت قيادة أسقف منطقة لي بوي من غير ريب ـ شاقاً طريقه عبر خط تراجعهم فوق التلال خلفهم ـ أصبحوا في حالة فزع، وألفوا مدبرين، وتم بذلك نصر الصليبيين التام.

وانفتحت الأناضول أمامهم بعد استيلائهم على كثير من الغنائم من معسكر السلطان، بعد أن تغلبوا في المعركة، وأصبحت معنوياتهم مرتفعة أكثر مما كانت بعد سقوط نيقيه حتى بدا لهم أنه ليس ثمة شيء سيقف في طريقهم الذي نصرهم فيه الرب، ولكنه كان لا يزال طريقاً طويلاً وعسيراً، وزاده الأتراك المنهزمون صعوبة بتخريبهم وحرقهم الريف والمحاصيل وتلويثهم الآبار، وكان الطقس لا يزال حاراً إلى حد الألم، بحيث لم يمضي وقت كثير حتى بدأ العطش والجوع يأخذان مأخذهما منهم، وبدأت الخيول تموت أولاً، وأقتصر الفرسان على المسير على أقدامهم، في حين أن المواشي والماعز وحتى الكلاب أخذت تعاني من حمل أمتعتهم، وبدأ الناس يأكلون الحشائش

الجافة، والحبوب التي كانت تنمو على طرفي الطريق، ومع ذلك لم يكن ذلك يسد رمقهم، وفي حين كانت جبال طوروس على أحد جانبي طريقهم، كانت الصحراء الملحية في الجانب الآخر، ولم يكن ثمة نباتات تشاهد غير الشجيرات الشوكية التي مضغها الصليبيون على أمل الحصول على بعض الرطوبة، حتى سقط ريوند صريع المرض، وتعين حملة في محفه، ومع مضي الأيام ساءت حالته، وبدا كأنه سيموت، وأما غودفري أوف بوليون فقد كان مصاباً بجروح من دبّ حاول اصطياده، وأما بقية رجال الرتل والعامة فبدأوا يموتون من الحرمان، ولكن بأعداد قليلة، وكانت جثثهم تحمل فوق العربات لتدفن كل مساء في قبور جماعية، وكان قادتهم يقفون متحلقين، بينما كان يأخذ أسقف لي بوي وقسيسون آخرون الصليب، ويرتلون القداس على الموتى على ضوء خافت، ولقد كان عملاً محزناً، ولكنه لم يؤثر على الصليبيين على نحو عميق، فقد كان لديهم يقين أن أرواح الموتى قد انتقلت مباشرة إلى ربها، لأن البابا أوربان كان قد وقد كل من يموت في طريقه إلى القدس بالصفح والغفران عن ذنوبهم، وليس ثمة أحد يرغب في الحياة فضلاً عن هذا الموت، وقد شوهدوا في ضوء ذلك بأنهم كانوا محظوظين.

ولذا بقيت المعنويات عالية وعندما وصل الجيش إلى قونية ابتهج الجميع، وفر السكان الأتراك إلى التلال من خوفهم من الغزاة الصليبيين هاجرين المدينة، ونظراً إلى أنهم كانوا يأملون في العودة في يوم ما، فقد تركوها دون تخريب، وكان منظر حدائقها وجداولها وبساتينها أشبه بقبس من الجنة بالنسبة للصليبيين العطاشى والمرهقين الذين ساروا خلال مكان يشبه دخول بني اسرائيل إلى أرض الميعاد وإذا كانت المدينة لا تعطى عسلاً وحليباً، فلا بأس بأن تزودهم بالطعام والفواكه المتنوعة، ولذا استقر الجميع ليتمتعوا براحة لبضعة أيام، حتى ريموند الذي كان مريضاً جداً، وتليت عليه الطقوس الأخيرة من الكنيسة وعندما وضع عند باب الموتى، تنشط وبدأ بالتحسن، وكانت دهشة الجميع أن عاش الرحلة الطويلة، في حين مات آخرون.

وعند هرقلية على بعد ثمانية أميال شرقي قونية التقى الصليبيون مرة أخرى مع الأتراك الذين بدا أنهم يأملون في إخافتهم من عبور جبال طوروس باتجاه الساحل، وبالتالي يتركون أرض تركية غير مغزوة في بقية طريقهم إلى الأرض المقدسة، ولكن بوهموند لم يكن لديه أية نية في تحوله عن عهده الذي اختاره ورجاله الذين هزموا من أجله مرتين في آخر الأيام، ولذا قاد مباشرة الجيش كله في الهجوم، وتقهقر الأتراك الذين لم يرغبوا في ركوب مخاطرة صدام آخر مع جيوش الفروسية المسيحية الجرارة، متخلين عن كبدوكية الجنوبية للصليبيين، وتحدد نصرهم في تلك الليلة بعلامة مذنب توهج في دربه العجيب والرائع عبر السماء الشرقية، في تذكار استحسان الرب لأحداث ذلك اليوم.

وحتى ذلك الوقت كان الصليبيون موحدين تماماً غير أن نقاشاً حول الطريق إلى الأمام تبع معركة هرقلية، وكان أقصر طريق إلى سورية عبر جبال طوروس عن طريق ممر عرف باسم بوابة كيليكية، وكانت وعرة وشديدة الانحدار، وكان أغلبية الأمراء يعارضون اتباعها، لكن أما وقد اندحر الأتراك مرة أخرى أصبحت الطريق خلال قيصارية عاصمة منطقة كبدوكية ـ مفتوحة أمامهم، ومن هناك تستمر طريق جيدة عبر جبال طوروس الثانوية نزولاً إلى سهل سورية وفيما بعد أنطاكية، وكانت الأغلبية في جانب السفر عبر تلك الطريق، ولكن مجموعة صغيرة لم تقنع ولم توافق، وقررت السير في طريق مختلفة خاصة، وأعلن تانكرد ابن أخت بوهموند مع بعض النورمانديين من جنوب إيطاليا، وكذلك بلدوين أخو غودفري مع بعض اللوريين، وبعض رجال من برابانت نيتهم على التحرك جنوباً داخل كيليكيا على نحو مستقل عن الجيش الرئيسي، ونظراً لأنه تبين أن القرار كان نقطة تحول في شؤون المسيحيين في الشرق الأوسط، فلابد من وصف مجريات الأحداث التي أعقبت رحيلهم، قبل متابعة سرد قصة الجزء الرئيسي من جيش الصليبيين.

الفصل السابع

البحث عن الثروة

كل إنسان صانع لحظه.

سير رتشارد ستيل - التيبتلر

في 15 أيلول انطلق تانكرد مع ما يقارب من ثلاثمائة رجل معظمهم من الفرسان وتبعه بلدوين الذي رافقه ابن عمه وسميه أي بلدوين أوف لي بورغ ومعهما خمسمائة فارس، وألفين من رجال المشاة، وتحركوا ببطء أشد من قوة تانكرد الصغيرة، وشقوا طريقهم المختلفة قليلاً فوق الجبال إلى السهل الساحلي، وكان الهدف من ذلك الاستيلاء على مدينة طرسوس المدينة الهامة في كيليكيا حيث ولد القديس بول ووصلها تانكرد ليجدها محتلة من قبل القوات التركية، التي خرجت لملاقاته في قوة، فاندحرت بقسوة إلى داخل المدينة، وسر السكان الذين كان معظمهم من المسيحيين لمشهد تحريرهم من الأتراك، وأرسلوا الرسل إلى تانكرد يناشدونه السيطرة على المدينة بأسرع وقت ممكن، ولكن قوته كانت صغيرة وليس قوية إلى حد كاف للانقضاض على تحصيناتها، ولهذا فضل أن ينتظر وصول بلدوين.

ولم يتعين عليه الانتظار طويلاً فبعد ثلاثة أيام من وصوله، قدم بلدوين وجيشه يزحفون ببطء عبر السهل، تلفهم غمامة من الغبار، فأوقع منظرهم الرعب في قلوب الأتراك، وقرروا في الحال الخروج من المدينة، رغم أنه كان لا يزال هناك متسع من الوقت للقيام بذلك، وما أن خيم الظلام على المدينة حتى انطلقوا هاربين، وعلى الفور فتح أبناء مدينة طرسوس البوابات وأسرعوا

لأخبا تانكرد، إن الحامية قد ذهبت، ودعوه ليدخلها منتصراً، فقام بذلك دون انتظار بلدوين، وعندما أشرقت شمس الصباح في اليوم التالي، استقبلت راية تانكرد المرفرفة فوق المدينة بافتخارٍ وتحدٍ لبلدوين ورجاله الذي لم يرتضوا بما حدث.

ولم يكن لدى بلدوين نية في السماح لتانكرد بالاحتفاظ بمدينة طرسوس وبكل برودة أعصاب طالب بوجوب تسليم المدينة له في الحال، ولما كان لديه قوة أكبر بعدة مرات مما كان يقف وراء تانكرد، وجد الأخير أن ليس لديه إلّا أن يفعل ما طلب منه، رغم أنه كان غاضباً لكنه سلم المدينة لبلدوين، وخرج ورجاله من المدينة، حيث كانت ثمة مدن أخرى تنتظر انتزاعها من الأتراك، وسوف يقوم بذلك دون اللجوء إلى مساعدة بلدوين ليأخذها منه فيما بعد.

ولم يكن لدى بلدوين نية في تسليم طرسوس إلى الإمبراطور ألكسيوس إلّا بقدر سماحه لتانكرد بالاحتفاظ بها، ورغم يمين ولائه ووعده بإرجاع جميع الأراضي البيزنطية لأصحابها السابقين، قصد الاحتفاظ بالمدينة كمركز للحملة التي رغب في إقامتها لنفسه، ولذلك، فعندما وصل ثلاثمائة نورماندي أمام بوابات المدينة قائلين إنهم قدموا لدعم تانكرد رفض بلدوين السماح لهم بدخولها، وقال لهم إن تانكرد رحل، ومن الأفضل لهم أن يتبعوه، وكان الوقت مساءً فقرر النورمانديون ضرب خيامهم خارج أسوار المدينة لتلك الليلة، ولكن لم يكن بلدوين أو النورمانديون يعلمون أن الحامية التركية كانت لا تزال في جوار المدينة، وقدر للنورمانديين أن يكتشفوا أن الأتراك لم يرحلوا بعيداً، بل تسللوا تحت جناح الليل خلفهم وذبحوا كل فرد منهم.

وفوجيء الصليبيون بموتهم، وأسقط بيد بلدوين لكثر الانتقاد من رجاله لعدم الأذن لهم بدخول المدينة، وأصبح خزيهم أشد مرارة عندما قرر بلدوين بعد فترة من الزمن التخلي عن المدينة لبعض قراصنة المسيحيين الذين صدف وكانوا في جوارها، وتساءل الناس لماذا مات النورمانديون إذا لم يكن لدى بلدوين نية في الاحتفاظ بطرسوس أكثر من يوم أو يومين. على حين قصد

تسليمها لتلك الشرذمة القادمة من البحر.؟ ولعل سبب ما فعل في التخلي عن المدينة، كان وقوعها وسط مستنقعات ملاريا، بالإضافة إلى مناخها الحار إلى حد مؤذ، أو لعله توصل إلى نتيجة وهي أنه لا تزال أمامه مدن أفضل تنتظر أن يفتحها في أقصى الشرق، كما سبق لنا نكرد أن اكتشف ذلك، ومهما تكن دواعيه فقد خرج من طرسوس وسار في أثر تانكرد.

والتقى الجمعان في مكان دعي المصيصة على مسافة أميال قليلة شرق طرسوس، ولدى سماعه خبر وصول بلدوين قام تانكرد ورجاله بهجوم مباشر عليه، ولكن بلدوين كان أقوى فصد الهجوم بشكل حاسم، وكان ذلك عملاً يتسم بالحماقة، وعندما سمعت الهيئة الرئيسية للصليبيين وقادتهم بهذا النزاع غير اللائق بين الأخوة المسيحيين غضبوا، لأن مثل هذا الخلاف غير محتمل وأجبر الرأي الشعبي كلاً من بلدوين وتانكرد على الدخول في صلح مكروه، وأمل الجميع في نسيان هذا الحدث المشين، ولكن البيزنطيين لم ينسوه، لأنه أظهر بوضوح تماماً أن اثنين على الأقل من القادة الصليبيين الذي أقسموا يمين الولاء للامبراطور، كانا مهتمين في إقامة ممالك مستقلة لأنفسهما، في أراضٍ كانت بيزنطية لقرون عديدة قبل مجيء الأتراك، رغم ما قطعوه من وعود لإرجاعها إلى سادتها الشرعيين.

وبعدما سوى بلدوين خلافه مع تانكرد وأسرع الخطى للعودة للانضمام إلى الجيش الرئيسي الذي عبر في ذلك الوقت جبال طوروس، مقترباً من الحدود السورية، سمع بمرض زوجته وأطفاله، ثم ماتت زوجته قبل أن يدركها، ولحق بها أطفاله بعد ذلك، ومع ذلك لم يدع تلك الحادثة تؤثر على تصميمه لما قدم إليه، ومرة أخرى فارق الجيش الرئيسي بقوته الخاصة، رغم أنها أصبحت أصغر مما كانت، عندما قادها إلى طرسوس، وتحرك شرقاً باتجاه نهر الفرات، خلال بلاد يسكنها الأرمن، الذين كانوا جميعاً مسيحيين، وعندما اقترب قام الأرمن ضد الأتراك الذين كانوا يكرهونهم، وقاموا بتذبيحهم وهم في حالة ابتهاج عظيم، واستقبلوا الصليبيين بأقصى حد من

الابتهاج، كمنقذين قادمين من الرب لتخليصهم من هيمنتهم، وانضم إليه بعض القادة الأرمن المحبين للقتال مع قواتهم المحلية، وهكذا أصبح جيش بلدوين الصغير أقوى عندما تابع سيره، ولم يمض وقت طويل قبل أن استولى على جميع البلاد حتى النهر، ووضع حاميتين من الأرمن في قلعتين استراتيجيتين تسيطر أحداهما على الطريق إلى أنطاكية، بينما تسيطر الثانية على نقطة عبور نهر الفرات عند جرابلس، وبعد ذلك بوقت قصير، ولدى دعوة أمير الرُّها الأرمني المستقل له، ذلك أن كان خائفاً مما قد يفعله الأتراك عن طريق الثأر من جديد إذا لم يقم بالحرب ضد بلدوين، وخائفاً أكثر مما سيفعله بلدوين إن هو قام بذلك، ـ وعليه عبر بلدوين النهر، ووافق أن يصبح ابن الرجل المتبنى، وحاكم الرها المتعاون معه، وكانت مراسم التبني فريدة، فقد تعرى بلدوين والأمير الأرمني، الذي كان اسمه طوروس إلى أوسطهم، ولبسا معاً قميصاً كبيراً، وبعزلتهما الخاصة حكا صدريهما العاريين مع بعضهما، ومع ذلك لم ينته الأمر فبعد تنفيذ طوروس للمراسم، كان من المتوقع أن يقوم بلدوين بتكرير ذلك مع زوجته، وهو إجراء لابد يظن فيه المرء بعض الأوجه المربكة.

وكحاكم متعاون لمنطقة الرها مع طوروس نال بلدوين نصف المملكة، وما هي إلا مدة قصيرة حتى تعين أن يأخذها كلها، وكان طوروس حاكماً غير شعبي لدى سكان منطقة الرها الذين تاقوا منذ سنين لأن يتخلصوا منه والبحث عن شخص آخر يحل مكانه، ولذا كان وصول بلدوين تغييراً للوضع كله، ولم يمض كثير من الوقت عندما ثار الشعب ضد طوروس وضرب حصاراً حول القلعة التي أقام فيها هذا الأمير، ومن غير المعروف ما إذا كان بلدوين على اطلاع مسبق على هذه الثورة ضد أبيه بالتبني فهو لم يمد يد المساعدة له، بل على العكس نصحه بالاستسلام للمتآمرين، ووعده الابقاء على حياته، واستسلم طوروس وسجن في قصره، الذي حاول الفرار منه بعد فترة، ولكن محاولته لانقاذ نفسه كشفها سكان المدينة، الذين أمسكوا بالرجل التعيس

وقطعوه إرباً إرباً، وفي اليوم التالي دعوا بلدوين، ونادوا به حاكمهم الوحيد تحت لقب كونت الرها.

وبدأ حكمه مبشراً بالنجاح، فقد أدار بلاده جيداً بمجموعة عناصر من الدبلوماسية والقوة العسكرية، والدافع الاقتصادي، ووسعها بالفوز والتغلب أو بشراء الدويلات الصغيرة المجاورة، وتعاظم مركزه كلياً بالسير بهذه العملية، ونتيجة لذلك أخفق الهجوم المعاكس الذي شنه ضده التركي الخائف والعنيف المسمى أتابك كرنوغا صاحب الموصل وقدم اخفاق هجوم كروغا خدمة جليلة لجيش الصليبيين الرئيسي الذي كان قد وصل إلى أنطاكية في ذلك الوقت، وزادت تلك الانتصارات نفوذ بلدوين على نحو هائل، ودعمه بالاضافة إلى ذلك زواجه من الأميرة الأرمنية المحلية، ابنة رجل كان يدعى ثاتول بعدما حصلت على مهر ضخم، وخلال تلك الأثناء عمل بقدرة سياسية وإدارية في معالجة قضايا شعبه، باذلاً كل ما يستطيع ليدمج سكان مملكته الجديدة في كل واحد منسجم، حتى كانت معاملته للمسلمين المحليين تتسم بالاحترام واللطف، وهي سياسة فاجأت بعض تابعيه.

وظهر بعض الأشخاص الكارهين له، وفي مقدمتهم ناقدوه من الأرمن الذين أصبحوا متحررين من وهم ما كان يدعى بمحررهم، واستاؤوا من غطرسة فرسان (بلدوين) الذين كانوا ينزعون إلى معاملتهم على نحو أقل، وغير مقبول عرفياً واجتماعياً، كما كرهوا سياسته في استخدام المسلمين الذين كانوا مستعدين للخدمة تحت قيادته، ونتيجة لذلك، بدأ بعضهم بعد فترة بالتآمر لاسقاطه، وكانت خطتهم تدعو إلى خلعه، وتنصيب عمه الجديد الأرمني ثاتول في مكانه، وإن أخفقت الخطة فانهم أملوا على الأقل في الضغط عليه لقبول ثاتول كحاكم متعاون، ولكن أمر تآمرهم انكشف (لبلدوين)، الذي وجه ضربه إليهم من الخلف، بسرعة ودون رحمة، وألقي القبض على قائدي المتآمرين وجعلهما لا ينعمان بنور البصر بعدها، في حين قطعت أنوف وأرجل متآمرين آخرين، أما الباقون ممن وقعوا في الشك فقد ألقوا في السجن، كما

صودرت أموالهم: أما تاتول فتقهقر بسرعة إلى الجبال حيث أحاط به تابعوه، وهكذا أمن من انتقام صهره الهمجي.

وعندما انتشرت قصة القضاء على المؤامرة في الرها أرجاء المنطقة، انتشرت معها شهر بلدوين، ولما كانت القسوة ميزة محبوبة في الحاكم، فان أثره قد ارتفع في آفاق بعيدة إلى خلف حدود مملكته الجديدة، فقد انضم إلى الحملة الصليبية كأمير صغير لا طموحات لديه، وبعد ذلك، ها هو وحده من بين أولئك الذين اتخذوا الصليب استجابة لدعوة البابا أوربان قد أسس أول مملكة صليبية، وهو انجاز ضخم.

الفصل الثامن

«خذوا حذركم شعب قادم من الشمال»

هكذا قال الرب هوذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة من أقاصي الأرض.
تمسك القوس والرمح، هي قاسية لا ترحم صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب
مصطفة كانسان لمحاربتك

إرميا 6/ 22 ـ 23

بينما كان بلدوين منهمكاً عند سهل الفرات كان الجيش الرئيسي قد قام برحلة شاقة بطيئة نحو الجنوب عبر جبال الأمانوس في شمال سورية ليصل إلى أسوار أنطاكية في 21 تشرين الأول 1097، استغرقت مدة أربعة أشهر ليشق الجيش عبر هضبة الأناضول من نيقية، كما فقد بعض أعداده خلال الطريق بسبب المرض والقتال، ولكنه وصل في حالة معنويات عالية مليئة بالأمل والثقة التامة، وأوقع منظر المدينة في نفوسهم الروع، وبصرف النظر عن لمحتهم الوجيزة عن مدينة القسطنطينية، لم ير أحد منهم مدينة أنطاكية حيث أسسها أحد الجنرالات الاسكندر واسمه سلوقس في سنة 300 ق.م. واتخذ اسم والده أنتيوخس لتسميتها، ولفترة قرون تنافست المدينة مع الاسكندرية وكانتا كلتاهما تدعيان بأنهما المدينة الثانية في العالم الروماني، وقد تفوقت في نقطة واحدة على الأقل على منافستها، فقد كانت أنطاكية المدينة الأولى في العالم تضاء بمصابيح الشوارع ليلاً، وبالنسبة للمسيحيين كانت مدينة هامة حيث نال المسيحيون اسمهم «مسيحيون» فيها لأول مرة، ورغم الزلزال والحروب التي قلصت مجدها السابق إلى حد كانت ما تزال إحدى المدن الكبرى في العالم وأقواها بشكل كبير.

وتقع المدينة على مسافة 12 ميل عن البحر، فوق ضفاف نهر العاصي، وتغطي منطقة تتراوح أبعادها بين ثلاثة أميال طولاً وميلاً واحداً عرضاً بين النهر والريف الجبلي الوعر من سورية حيث بني حي جنوبي على أكتاف تلة جبل القسيان، وكان الامبراطور جستنيان قد أحاطها بأسوار عالية في القرن السادس، كما أصلحها البيزنطيون وطوروها في السنين الأخيرة، وكان ذلك المكان حصيناً بوجود النهر عند جانبها والأسوار المدعمة الشاهقة على نحو فخم حتى جبل القسيان، وحتى القلعة المنتصبة بشكل جليل على ارتفاع ألف قدم فوق السهل عند جانبها الآخر، وقد صممت بنفس الدرجة لمقاومة أي حصار لكونها كبيرة جداً، كما لم تكن قليلة المياه حيث تنحدر الجداول أسفل أطراف جبل القسيان ورغم جفافها في الصيف، إلا أن الرعود عند قمة التلة كانت غالباً تأتي بفيضانات مفاجئة تعيد ملء خزانات المدينة وتهدد بالخطر أرواح حيوانات في مجرى الجداول، وقد سمي أحدها قاتل الحمير، لكثرة البهائم التي ماتت في بعض الأوقات من جراء الفيضانات المفاجئة، ونادراً ما كانت المؤن تنقص لدى حصاره ما بسبب الكميات الضخمة الممكن تخزينها في المدينة، فقد كانت هناك وفرة من الحدائق والبساتين والحقول ضمن أسوار المدينة، تمدها بكل ما يلزم.

وباستثناء ريموند أوف تولوز الذي قام في الهجوم على المكان على الفور، وقف قادة الحملة الصليبية على الجانب بانتظار الإمدادات، ذلك أن تانكرد لم ينضم إليهم بعد، كان ثمة احتمال أن يرسل الامبراطور ألكسيوس بعض المهندسين مع أسلحة الحصار عند الطلب منه، كما كانت هناك إشاعات عن قدوم أسطول من جنوا في طريقه إلى هناك، وكانت التحصينات في المدينة قوية بشكل هائل إلى درجة بدا أنه من الجنون المغامرة بأرواح الصليبيين في مهمة يائسة للاستيلاء على المكان، بالقيام بالانقضاض عليها قبل أن يجري سبر بقية الإمكانيات الأخرى، ووافق على تلك النتيجة جميع الأمراء والأفراد بكل إرتياح، وبدلاً من الاندفاع لمهاجمة الأسوار قرروا القيام بمهمة ممتعة

لسلب ونهب ضواحي المدينة، وسرقة البيوت والقصور الريفية المترفة الكثيرة التي كانت تقع خارج المدينة، وكان الطعام وافراً فاستولوا على الدواجن والخنازير والماشية والغنم، وحتى الخمور الموجودة في الأقبية، كما استولوا على الحدائق والبساتين والكروم التي كانت لا تزال تزخر بفاكهة الصيف والخريف، وبعد أربعة أشهر من التقشف والجوع حتى كادت المجاعة تأتي عليهم، أصبحت فكرة الإنغماس في الطعام والشراب شيئاً مرحباً به كثيراً.

وكان الجيش لا يزال مع أتباعه يزيد على مائة ألف مقاتل، ولم يمض وقت طويل حتى جردوا بسرعة كل الريف مما كان يحويه، ولذلك عندما بدأت الموارد بالنفاذ اضطر الصليبيون أن ينهبوا أكثر فأكثر من الحقول، وأعطى ذلك الأتراك فرصاً لنهب المدينة ليلاً ونصب الكمائن لمجموعات من الصليبيين والمتشردين الذين كانوا يذبحون، ولذا كان وصول الجنوبيين واستيلاؤهم على ميناء السويدية الصغير أمراً باعثاً على الغبطة، لأنه أتى بقوة جديدة إلى الجيش، وبسبب إمكانية استخدام السفن لجلب المؤن إلى الميناء، لكن حتى وصول تلك السفن كانت نتيجة قدوم الإيطاليين خلق مشكلة أشد حدة لتغذية ذلك الجيش، ولذلك تقرر في عيد الميلاد إرسال بوهموند وروبرت أوف فلاندرز مع عشرين ألف رجل في حملة إغارة كبيرة لسلب المؤن، في حين تخلف باقي الجيش تحت قيادة ريموند وأسقف لي بوي لمحاصرة المدينة، وسرعات ما وصلت الأنباء إلى الوالي التركي في أنطاكية وكان يدعى يغي سفان الذي قام بشن هجوم ليلي على بعض رجال ريموند حيث كانوا يخيمون شمال نهر العاصي وقد فوجئوا بالهجوم، وكلن ما أن سمع ريموند بالهجوم التركي حتى سارع على نحو مثالي، وجمع عصابة من فرسانه حوله دون الانتظار لتجهيز قوة كبيرة، وهاجم الأتراك تحت جناح الليل على نحو مفاجئ وسلب ونهب ما لديهم، وعندما طاردهم عبر النهر إلي داخل المدينة كاد ينجح في فتح البوابة خلفهم، غير أن حصاناً ضالاً أوقع الارباك في جماعة صغيرة من فرسانه، وبذلك ضاعت الفرصة، وكانت مجابهة دموية صغيرة، في حين

قتل العديد من الطرفين بما فيهم بعض فرسان (ريموند) الذين تعذر على الصليبيين تعويضهم.

وبينما كان القتال يجري عند أسوار انطاكية اصطدم يوهمند وروبرت وفرقتهما المغيرة دون سابق قصد بعساكر جيش مسلم كبير، كان قد تجمع لتخليص أنطاكية وقدم من دمشق وزحف شمالاً حتى وادي نهر العاصي والتقوا في اليوم الأخير من سنة 1097، وفوجيء رجال روبرت الذين كانوا في مقدمة مجموعة يوهموند على حين غرة تماماً، وحوصروا قبل التحقق من قرب العدو منهم، وقاتلوا بشجاعتهم وضراوتهم المعتادة، وكانوا سيهزمون هزيمة منكرة لولا أن ظهر بوهمند فشن هجوماً على المسلمين لحظة ظنوا أنهم قد انتصروا في القتال، ودمر الانقضاض المفاجيء الرجال القادمين من جهة دمشق، بحيث اضطروا للانتكاص على أعقابهم للنجاة بأرواحهم، وهكذا كان النصر في جانب الصليبيين الذين كانت خسائرهم كثيرة أيضاً، مما اضطرهم للتخلي عن القيام بحملتهم المغيرة من أجل المؤن، وعادوا إلى أنطاكية دون الأتيان بأية غنائم كان الجيش في حاجة ماسة إليها.

وفي نفس الوقت وقع زلزال في نفس الليلة تبعه منظر للشفق الشمالي، وخاف الصليبيون ورعبوا ونظراً إلى أن ثبات الأرض وظلمة الليل كانتا جزئين من أمور ربانية، فقد خلصوا إلى نتيجة معقولة أن أية عقبة في اتجاهم لا بد كانت بسبب بعض الغضب الشديد من جانب الرب، الذي كان بوضوح غاضباً، وقد أرسل تلك الاشارات عن غضبه، ليحذرهم من الخطر الذي هم فيه، وكانت تلك النتيجة التي دعمها هطول المطر، وليس من أحد غير الرب الغاضب يمكنه أن يرسل مثل هذا الطقس عليهم، وبعد الزلزال والليلة المرعبة حيث أبعدت موجة الغضب الإلهي الظلام الطبيعي، انفتحت السماء وصبت أمطاراً لم تسقط من عهد نوح، حينما أبيد جميع الجنس البشري، لأن الأرض امتلأت بالعنف، وأعلن أسقف لي بوي الصيام، على أمل أن يتحول غضب الرب بعيداً عنهم، ولما لم يكن ثمة طعام في المعسكر او الريف المجاور،

فقد أدي ذلك إلى تحشد الصليبيين الجائعين مع بعضهم من أجل الدفء تحت أي وقاء وجدوه، فقد أصبح كل شخص وكل شيء مبللاً وصلباً، وتحول المعسكر نفسه إلى سبخة يتحركون فيها بصعوبة من كثرة الوحول التي ترشحت في أغطيتهم التي حاولوا النوم تحتها، كما لم تعد خيامهم ترد المياه، وغطت الأتربة دورهم وانحلت أوتار قسيهم وأصبحت رخوة، أما جلود عدتهم الحربية فأصبحت طرية، وكتب ستيفن أوف بليوس إلى زوجته أديلا يقول لها إنه من الخطأ التصور أن الشمس مشرقة دوماً في سورية لأننا «خلال هذا الشتاء تحملنا برداً قارساً، أمطاراً متواصلة.»

وأضاف إخفاق الفرقة المغيرة التي قادها بوهموند وروبرت مجاعة مهلكة إلى نكبات الصليبيين الأخرى، على حين جلب القرويون المسيحيون من الطعام ما استطاعوا أن يوفروه، كما فعل ذلك الناسكون في تلال سورية، واستطاع أغنياؤهم فقط أن يوفروا طعامهم، حيث لم يكن القرويون أو الناسكون محسنين بل على النقيض كانو يعرفون أسواق الباعة عندما يرون أحدها، وكانت ترسل فرق مغيرة بعيداً في الحقول طلباً للطعام، ورغم أنهم تمكنوا من إحراز بعض النجاح، إلا أن ذلك لم يمنع خيولهم ورجالهم من الموت، ومع مضي الوقت بدأ الطعام يقدم من قبرص، ولكنه بقي غير كاف لإشباع جوع جيش كبير، وظل الناس يموتون، وكانت أضمن طريقة لضمان بقائهم أحياء تبناها بعض أبناء الفلمنكية (بلجيكا) شبه المتمدنين وقد عرفوا بالمعدمين وهم من رحل شرقاً مع بطرس الناسك فقد قاموا بجمع بعض جثث الأتراك الموتى وأكلوها، وعندما بدأت جثث الأتراك بالنفاذ شرعوا باصطياد أتراك أحياء ووضعوهم في قدورهم لطبخهم.

وفي نهاية شهر كانون الثاني 1098 ساءت الأمور إلى درجة كبيرة، وبدأ الرجال بالفرار، وكان أول من قام بذلك بطرس الناسك لكنه لم يترك ليذهب بعيداً، بل أعيد معتقلاً، فاختفى أثره الذي كان له سابقاً، وبعد فترة قليلة أعلن ضابط بيزنطي ممثلاً للامبراطور في الحملة الصليبية، أنه ينوي المغادرة،

وكانت دوافعه نبيلة، ومع ذلك اعتبر رحيله فراراً، وتعمقت شكوك الصليبيين بالاغريق، وبدأت المساوئ بالظهور فقد كان بوهمند الشخص التالي الذي بدأ بالتكلم عن العودة إلى الوطن، ومن المؤكد أنه لم يكن لديه أدنى نية في عمل ذلك، ولكن إعلانه أحدث شيئاً يشبه الفزع في الجيش، وما من شك في أنه قصد أن يحدث ذلك، وعلى الفور سارع الجميع إلى رجائه أن يعدل عن فكرته، ووافق بلطف على ذلك، وعلى إفهام أنه عندما يتم الاستيلاء على أنطاكية، فإن السيادة على المدينة ستكون له، ولكن بعض الصليبيين القياديين الآخرين لم ينخدعوا بتلك التمثيلية، غير أن القليلين دعوه إلى تنفيذ وعده بسبب وصول أنباء في ذلك الوقت عن زحف جيش تركي كبير لتحرير أنطاكية.

كان الأتراك يتقدمون من جهة حلب، ووضعت الأخبار الصليبيين في وضع حرج، ذلك أنهم لو خرجوا لملاقاتهم في قوة تاركين أنطاكية خلفهم غير محروسة فإن حامية يغي سغان المحاصرة ستكون حرة للقيام بهجمة لتدمير معسكرهم، في حين لو تخلوا عن عدد كاف من رجالهم لحصار الأتراك في المدينة، فلن يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية لدحر القادمين من حلب، وعقد مؤتمر، وتقرر حسب اقتراح بوهمند ترك المشاة لحصار المدينة على حين يخرج الفرسان وحدهم لملاقاة العدو المتقدم، ورغم ذلك فلم يكن هناك أكثر من سبعمائة فقط من المناسبين للخدمة، فإذا استطاعوا مفاجأة خصومهم فإنهم سينالون فرصة النجاح، وقد كانت خطة جريئة على نحو مدهش، وقد كادت أن تخفق. فقد خرج الفرسان من المعسكر تحت جناح الليل، والتقوا عند الفجر مع الأتراك المتقدمين، وشنوا هجوماً قبل أن يفسحوا المجال لرماة الأسهم ليتحركوا إلى الجاهزية القتالية، ولكن العدو كان كبيراً إلى درجة أن هجوم الصليبيين لم يحطمه، واضطر بوهمند إلى التراجع، وربما كان ذلك مسبباً لكارثة، ولكنه اختار أرضه بحذر، وكأن فكرة عن هزيمة محتملة كانت لديه، وجعل يغوي الأتراك المبتهجين المنتصرين باللحاق به لدى انسحابه حتى قادهم إلى أرض ضيقة بين نهر العاصي وبحيرة ماء، بحيث أصبح جناحاه

اليميني واليساري محميين، ولم يستطع الأتراك الالتفاف حوله. بل التف بوهمند حول مطارديه، وعاد الفرسان مرة أخرى للهجوم عليهم، وكانت النتيجة هائلة، لأنه رغم أنهم كانوا متفوقين كثيراً على جبهة ضيقة، لكن نفوذهم ضعف وزاد انحلالهم، وانتشرت في الأتراك الفوضى التامة، وفي خلال دقائق كانوا قد فروا يتعقبهم مطاردوهم ويقتلونهم حيثما اتجهوا، ولم يسمح بوهمند لرفاقه بمطاردتهم بعيداً فقد كان قلقاً عل الجيش الموجود عند أسوار أنطاكية، وكان وصولهم لدى دخولهم المعسكر مبتهجين بنصرهم المثير ـ مناسباً جداً لمساعدة قوة المشاة التي كانت تحت تأثير هجوم رجال يغي سغان الذي قام بهجمة قوية من المدينة، وقد كان الأتراك يقومون بالضغط على المعسكر، غير أنهم لدى رؤيتهم الفرسان المقتربين عادوا وانسحبوا إلى داخل المدينة بأقصى سرعة.

وكان هزيمة الجيش القادم من حلب دليلاً آخر على أن الصليبيين كانوا مقاتلين أشداء، وكان احتياطهم من الشجاعة الثابتة مؤثراً وعسير الفهم على نحو ظاهر، وفي الواقع كان الأتراك غير قادرين أن يسيطروا على إعجابهم من شجاعتهم غير العادية، ولكن نصرهم لم يهدئ صعوبة وضعهم السيء، حيث لا زالت المجاعة تتفشى في معسكرهم، وأخيراً ومع بداية شهر آذار بدأت كميات كبيرة من الطعام تصل من قبرص، حيث دخل أسطول انكليزي إلى ميناء السويدية مع شحنة من مواد الحصار ومهندسين بيزنطيين أرسلهم الامبراطور ألكسيوس لمساعدتهم، وحاول الأتراك ما في وسعهم ليحولوا دون الوصول تلك المؤن إلى الرجال الجائعين عند أسوار أنطاكية، وقامت معركة حاسمة على الطريق إلى الساحل، وبعد النكسة الأولية كانت النتيجة أن هزم الصليبيون خصومهم مرة أخرى بشكل كامل، وقيل إنهم قتلوا ما يزيد عن خمسمائة من الأتراك، بينهم تسعة أمراء وربما كانت تلك مبالغة، وعند المساء كان الصليبيون يتركون الأتراك ليخرجوا من المدينة ليدفنوا موتاهم، ولكن هذه النوبة المفاجئة من الشفقة لم تدم طويلاً، ففي صباح اليوم التالي خرجوا إليهم مرة أخرى وسرقوا كل ثمين وجدوه فوق الجثث.

وانقطعت أنطاكية عندئذ عن العالم الخارجي، ولأول مرة بدأ سكانها يعانون من الجوع، ومع قدوم الربيع ازدادت المؤن القادمة من قبرص إلى الصليبيين الذين كانوا أفضل حالا من الأنطاكيين، ورغم أن البيزنطيين جلبوا معهم أسلحة الحصار، غير أن احتمال الاستيلاء على المدينة بالقيام بالانقضاض عليها بدا بعيداً أكثر من قبل، وفي حالة صفاء فكري كاف تحقق بوهمند أنه إذا أريد الاستيلاء على المدينة فلابد من اتخاذ اجراءات أخرى لحصرها، فقام بالاتصال مع الأعضاء القياديين من هيئة يغي سغان، وهو أرمني متحول إلى الإسلام، واسمه فيروز، وكان حاقداً على سيده التركي، وبسرية شديدة حاول إقناع الأرمني بخيانة المدينة، ووعده بوهمند بمبلغ من المال لقاء ذلك العمل، وسرعان ما بدأت الأخبار عن قدوم كربوغا الضاري مع جيش تركي ضخم، ونقلت الأنباء عن قوته بحيث بدأت نوبة من الهلع تسري بين صفوف الصليبيين، وخلال شهر أيار حاول المرتحلون في مجموعات تتراوح بين عشرة إلى مئة فرد ـ الوصول إلى الساحل بأمان. وفي أوائل شهر حزيران تقدم ستيفن أوف بليوس ورجاله الفرنسيون الشماليون ـ إلى الاسكندرونة التي كانت تحت قبضة الصليبيين، ورأى هذا ألا جدوى من الانتظار ليذبح الصليبيون من قبل أتابك الموصل، وأنه من الأفضل إنقاذ أرواحهم بدلاً من اقحامهم في غير ما غاية واضحة.

وفي نفس يوم رحيل ستيفن الذي وبخته زوجته أديلا الرهيبة من أجله على نحو مرير، تلقى بوهمند رسالة من فيروز تعلمه بموافقته على تسليم المدينة إليه في تلك الليلة، وكان الأرمني قد اكتشف أن زوجته قد وقعت فريسة غواية أحد الأتراك الكبار، مما أدى إلى جعله حانقاً ومغتاظاً ضدهم، فقرر عدم التردد وأرسل رسوله إلى بوهمند بأنه إذا طوق رجاله سور المدينة عند مكان معروف ببرج الأختين، فإنه سيدعهم للدخول. وعلى الفور دعا بوهمند جمع القادة الصليبيين إلى مؤتمر وشرح لهم خطته: في تلك تحت أعين الأتراك سيقود الجيش يتفاخر خارج معسكر نحو الشرق، كما لو أنه زاحف إلى ملاقاة

كربوغا، وحالما يهبط الظلام يعود ويلتف على أعقابه متبعاً آثاره السابقة، ويجمع رجاله بصمت شديد تحت أسوار أنطاكية عند بقعة اختيرت من قبل الخائن فيروز، واستمع الآخرون إليه، وعندما انتهى من الكلام وافقه الجميع وأيدوه حتى أن ريموند أوف تولوز لم يعارضه رغم كراهيته له وحسده المميت.

ونفذت الخطة بشكل جيد، وكان الوقت فجراً تقريباً عندما وصل الجيش أسف برج الأختين، حيث كان الرجال يتحركون خلسة خلال الأرض الصخرية حاملين دروعهم، ونصبت السلالم على البرج قرب نافذة مفتوحة، وأحاط به ستون فارساً يتقدمون الواحد خلف الآخر، يقودهم رجل يدعى فولك أوف تشارتر (نظنه المؤرخ، ليس فولشير الذي جاء من المدينة نفسها). أما فيروز الذي كان في حالة اهتياج أقصى ـ فقد قابلهم على حين لم يعيروه انتباهاً بل انطلقوا عبر أعلى السور، وتمكنوا من الاستيلاء على برجين آخرين قبل أن يعلن النفير، ثم وضعت السلالم على الأبراج الثلاثة عند الأجزاء التي استولى عليها الفرسان، وبينما كان يحتشد أكثر وأكثر من الصليبيين عند أعلى السور، كان بعض الفرسان ينزلون إلى داخل المدينة ثم فتحوا إحدى البوابات للجيش المنتظر خارجاً، ولم يكن هناك شيء يوقف الصليبيين عند التدفق إلى داخل المكان، حيث حياهم بصخب شديد المواطنون اليونانيون والأرمن الذين كانوا مشمئزين من سيطرة المسلمين، كما كانوا فرحين للانضمام إلى المجزرة التي تلت ذلك، وكانت بربرية ووحشية إلى حد بعيد لم يترك منها أحد حياً، حيث جرى ذبح النساء والأطفال إلى جانب رجالها، كما كان الخطأ من نصيب عدد من اليونانيين والأرمن[1]، وحاول يغي سغان الفرار مع بعض حرسه من الفرسان، ولكنه يم يبتعد كثيراً حيث سقط عن حصانه فوق درب جبلي خارج المدينة، حيث وجده أرمني، قتله في الحال وقطع رأسه وجاء به

(1) لم يرحب بالصليبيين أحد، وقد ذبحوا لدى دخولهم أنطاكية جميع من كان فيها بلا تميز.

إلى بوهمند الذي دفع له مالاً بسخاء لقاء هديته الشيقة، وحتى منتصف النهار لم يبق تركي واحد حياً في المدينة، عدا بعض من التجأوا إلى القلعة، وصمدوا ضد جميع محاولات الإحاطة بدفاعاتها الهائلة، أما الشوارع فقد افترشت بالجثث في كل مكان إلى درجة أنه كان من الصعوبة ألا يتعثر المرء بها، وبدأ الهواء يعبق بروائح كريهة من الدماء واللحم المتفسخ، وعندها ازدادت حرارة الجو. غير أن أنطاكية أصبحت للمسيح مرة أخرى عن طريق[1] الأفرنج.

ولكن وضعهم مع ذلك بقي متقلقلاً إلى حد كبير، ذلك أنهم ما كادوا يحتلون المدينة حتى وصل كربوغا وجيشه، وفرض حصاراً حولها، ومع بقاء القلعة في أيدي الأتراك الذين التجأوا إليها، ازداد خطر إمكانية سقوط المدينة في أيدي القادمين الجدد، ورغم شنهم هجوماً على دفاعات المدينة التي كادوا أن يخترقوها، غير أنهم أبعدوا أخيراً بعد تكبيدهم خسائر جسيمة من قبل رجال هيو أوف فيرمانديوس الفلمنكيين، ورجال روبرت النورمانديين، وبعد أيام شن الصليبيون هجوماً عنيفاً مماثلاً على الأتراك، ولما لم يحققوا أي نصر فقد ردوا إلى داخل المدينة، وأوقع إخفاقهم الحزن في نفوسهم وتسرب القنوط إليها كثيراً، فإنهم إن كانوا في الماضي جاعوا فقد جاعوا في هذا الوقت جوعاً أشد وأقسى، ذلك أن رغيفاً صغيراً ـ إن وجد ـ كان يكلف غالياً إلى درجة أن القليل منهم تمكن أن يشتريه، وبحيث اقتصر الصليبيون الفقراء على مضغ الحشائش، وأوراق الشجر، لقد واجهوا الجوع والاستسلام، وكان أملهم الوحيد في إمكانية قدوم الامبراطور البيزنطي لمساعدتهم، وعلم فيما بعد أن جيشاً بيزنطياً كبيراً أعاد سيطرته على جزء كبير من منطقة الأناضول في أعقاب التقدم الصليبي، وقد أرسلت رسل عديدة تناشده ان يساعدهم، ولكن ألكسيوس الذي سمع روايات عن عمليات فرار هائلة ضخمة مثل رحيل ستيفن

(1) عن طريق الدم الذي أوصى المسيح بصيانته.

أوف بليوس وحالات الشدة المنفصلة التي أوهنت الباقي قبل سقوط أنطاكية، لم يكن مستعداً لدفع جيشه لركوب المخاطر لانقاذهم، ورغم ذهاب أوف فيرماندوس معرضاً نفسه للمخاطر الهائلة إلى القسطنطنية ليرجوا الامبراطور التدخل، لكنه رفض، لقد أدرك أن قدر إمبراطوريته كلها معتمد على الحفاظ على قواته المسلحة، وإذا أرسل جيشه لمساعدة الصليبيين سيجدهم قد انهزموا تماماً قبل أن يصل إليهم، وعندها سيصبح في خطر حقيقي من الابادة قبل الأتراك، لقد كان قراره حساساً. وعندما سمع الرجال المحاصرون في أنطاكية بذلك ازدادت مرارتهم، ونذروا ألا يثقوا بالبيزنطيين مرة ثانية، وبعد ذلك تبع هيو أوف فيرماندوس زميله ستيفن المتعقل، وانطلق عائداً إلى الوطن.

وفي حين كان رجال أنطاكية في حالة جوع وغضب، وخوف حقيقي للمرة الأولى أن الرب هجرهم حدث ما رفع معنوياتهم فجأة بانبثاق قوة غيبية في ظلام حياتهم اليومية، فبعد فترة أسبوع من الاستيلاء على المدينة سعى شاب أشعث دعي بطرس بارثلميو لمقابلة ريموند أوف تولوز وأسقف لي بوي ليعلن أنه رأى رؤيا عجيبة، ففي ليلة الزلزال فزع كثيراً، فالتجأ إلى كوخ حيث ظهر عليه فجأة رجلان متدثران في عباءتين مضيئتين، فزاد خوفه أكثر، ثم أخبره الرجل الأكبر منهما أنه الرسول القديس أندرو وأنه جاء ليبين لبطرس أين تقع الحربة التي خرقت جانب جسد المسيح خلال صلبه، وعلى الفور انتقل بشكل اعجازي، وهو مرتد قميصاً فقط، إلى كنيسة وكاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية التي حولها المسلمون إلى جامع، حيث أرى القديس أندرو الفلاحَ الفزع مكان الحربة المقدسة المدفونة تحت أرض المعبد، وأراد بطرس أن يأخذ الحربة مباشرة، لكنه أخبر أن ينتظر حتى يستولي الصليبيون على أنطاكية، ثم يعود ويبحث عنها. ثم أعاد القديس أندرو وزميله الملائكي بطرس إلى المعسكر واختفيا. ولكن بطرس خاف أن يطيع أوامر القديس المقدسة، وخاف وهو الرجل الفقير من السخرية، ومضى في عمله اليومي المعتاد، فزاره القديس أندرو أكثر من ثلاث مرات ووبخه بقسوة لعدم إطاعته وأمره أن يفعل كما أخبره.

ولكن أدهمر أسقف لي بوي كان متشككاً، فقد كانت القصة مشتتة وغير محتملة، كما أن الرواي لم يكن مثقفاً ومخادعاً وضعيف التأثير، وبحكم كونه رجل كنيسة كان قد تدرب على عدم تصديق رؤى خاصة، اضطر إلى رفض هذه الرؤية باعتبارها نتاج خيال تنشط بسبب الخوف والجوع، لكن ريموند كان أقل نزوعاً إلى الشك، وكذلك سميه وراهبه ريموند أوف أوغلرز فقد صدقا باخلاص كل كلمة في قصة بطرس، وانتشرت القصة بسرعة، وسرعان ما ظهرت رؤى عند شخص آخر: لقد ظهر المسيح ترافقه أمه مريم والقديس بطرس، لكاهن فرنسي دعي ستيفن، بينما كان يصلي في ليلة كنيسة سيدتنا، فإذا أقلع الصليبيون، كما أخبر ستيفن، عن أساليبهم في العهر وعن الشراب، فإنهم سينعمون بالرعاية مرة أخرى، وتنتهي جميع المشاكل وكان ستيفن رجل دين محترماً حتى أن أدهمر تأثر به، وكان قد قال: عندما يتوهج نجم كبير فوق المدينة ـ ثم ينقسم ويسقط فوق الأتراك، تنتهي الشكوك، ويبدأ الرب في إظهار عمله، فهو قد فعل أولاً من خلال بطرس بارثلميو ثم من خلال الراهب ستيفن، ثم أخيراً من خلال النيزك العجيب الضخم، وقد حان الوقت لإطاعة أوامره الإلهية.

وانطلق في اليوم التالي بطرس بارثلميو وعدد من الرجال المتخيرين من بينهم الكونت ريموند وراهبه ريموند ـ إلى كاتدرائية القديس بطرس (القسيان) وشرعوا في حفر أرض الكنيسة حيث أرى القديس أندرو بطرس كما زعم المدية، وحفروا لمدة ساعات، ولكن لم يجدوا شيئاً، وعاد ريموند أوف تولوز إلى بيته وهو خائب يشعر بالمرارة، ثم بدأ الجميع يتساءلون عما إذا كانوا قد خدعوا، وفجأة قفز بطرس نفسه، وهو مرتدٍ قميصه الوحيد، كما كان ليلة رؤياه العجيبة إلى داخل الخندق، ودعا الجميع للصلاة كما لم يصلوا من قبل، ثم انحنى أسفلاً وأخرج في غاية من الانتصار شيئاً معدنياً حاداً ورفعه عالياً، وأقسم الراهب ريموند فيما بعد أنه قبّل رأس الشيء ولا يزال مدفوناً بقيته في الأرض. ولكن آخرين من ضمنهم المؤرخ المسلم ابن الأثير ـ اتهموا

بشكل تام بطرس بتلفيق الشيء كله، أو على الأقل بدفنه المدية بنفسه، ولن نعرف ما إذا فعل ذلك أم لا، غير أن الأغلبية الساحقة من الصليبيين كانوا مقتنعين أن المدية المقدسة التي خرقت جانب الرب فوق الجلجلة (موضع صلب المسيح) قد انكشفت بأعجوبة لهم كإشارة من تأييد الرب.

ومع مرور الوقت بدأ الكثير من الناس يشكون في بطرس، فإذا لم تتكرر رحلته الأصلية في عالم التجربة الغيبية، فربما لم يناقشوا مصداقيته، ولكنها ترافقت مع عدد من الرؤى العجيبة المتعاقبة والمريبة كثيراً، فأصبح العديد من الناس ميالين للشك وكان أحدهم ذا قدر عملي وهام، حيث كانت رؤى ظهر فيها القديس أندرو مرة أخرى لبطرس وتنبأ له أنه إذا هاجم الصليبيون الأتراك في فترة خمسة أيام فإنهم سينتصرون، وفي الواقع لم تكن هذه توقعاً غير محتمل كما قد تصور ذلك، لأن الأتراك كانت لهم مشكلات خاصة، كما كان قادتهم منقسمين فيما بينهم على نحو حاد، بالإضافة إلى افتقارهم إلى الطعام، وفوق هذا وذاك، أصبح رجال كربوغا مرهقين من الحصار ومشاكله وكانوا يهربون مبتعدين، وعلى أمل في ذلك أرسلت هيئة ممثلة تحت قيادة بطرس الناسك لإقناع كربوغا بالتخلي عن الحصار، ولكنها أخفقت، وبالإضافة إلى مشكلاته، ولم يرتض كربوغا بانهاء الأزمة بأقل من استسلام المسيحيين غير المشروط، ولما كان ذلك غير مقبول كلية قرر المسيحيون تحت قيادة بوهومند الذي كان في قيادة فردية خلال مرض ريموند أوف تولوز ـ أنه ليس لديهم بديل غير أن يخاطروا بكل شيء للمعركة.

وفي الصباح الباكر من يوم الثامن والعشرين من شهر حزيران، فيما أقام رجال الدين القداس فوق أسوار المدينة، خرج الصليبيون عن طريق بوابة تقود مباشرة إلى جسر مثبت فوق نهر العاصي، وكان معظمهم هزيلين من الجوع، وفي أسمال بالية، لكن معنوياتهم كانت مرتفعة، لأنهم أدركوا أن المدية المقدسة قد أتي بها لتدخل معهم المعركة، وهي مثبتة باحكام فوق احدى الرايات، وبمثل ذلك الأثر المقدس على رؤوسهم، كانت فكرة الهزيمة

تجديفية وسخيفة، وبعد ذلك خرجت النساء معهم يحملن أكياساً جلدية فيها الماء، كما انساق مع الحشد الأطفال، أما الفرسان فكانوا مرتدين أسمالاً بالية ورثة، أكثر منها عندما خرجوا من أوروبا، وقد أجبر بعضهم على الذهاب إلى القتال سائرين على أقدامهم بعد أن فقدوا خيولهم. بينما ركب آخرون بغالاً وحميراً، أما دروعهم فكانت حمراء اللون من الصدأ، أما راياتهم فبهتت وخبا لونها، ولم تعد تصلح لتحمل، وإذا كانوا قد بدوا أقل رهبة وهولاً مما كانوا في الماضي فإن مظهرهم يعطي فكرة خاطئة عنهم، حيث كانوا خطيرين غير خائفين، كما كانوا في السابق، منظمين في ستة جيوش، كل منها تحت قيادة سيدها، وعندما عبروا الجسر في شكل نهر طويل من البشر على نحو ظاهر، انتشروا ببطء ووضوح عبر السهل ليشكلوا خط هجوم.

أما جيش كربوغا فقد كان أيضاً ضخماً، حيث ضم العديد من أفضل سلاح فرسان في آسيا تحت قيادته، لقد ارتدى الأتراك السلاجقة السوابغ الفارسية والخوذة الفولاذية الدمشقية، ورغم انعدام الود بين العرب والأتراك، قام عدد هائل من الأمراء العرب ومعهم محاربيهم الصحراويين بمساعدة كربوغا ضد عدو الإسلام المشترك، وبالطبع التحق الحكام الأتراك في حلب وحمص ودمشق مع جيوشهم الخاصة بعمائمهم الثقيلة وسيوفهم الحدباء والأقواس القصيرة، وقد قدموا رغم كرههم كربوغا وشك بعضهم بنوايا الآخر، وعارضهم كربوغا إغراء الهجوم على الصليبيين عندما عبروا الجسر لئلا يتدمر بسهولة قسم منهم، بينما يدع الباقين يتقهقرون بأمان إلى داخل المدينة، ولكنه أخطأ، وعندما رأى حشد المسيحيين يتخذون تشكيل الهجوم عليه، أرسل رسولاً متأخراً يعرض عليهم الهدنة إذا أرادوا، ولكن الوقت فات، وتجاهل الصليبيون الرجل ورسالته، وبدأ القتال عند الجناح الأيمن قرب النهر، وكانت أصوات الرجال تهدد عالياً كما كان صليل الفولاذ يسمع في جميع أنحاء أرض المعركة.

وفي ظرف دقيقتين اشتبك الجيشان على طول الجبهة كلها، وصب

الفرسان الأتراك أسهمهم محاولين الالتفات على أعدائهم عند الجناح الأيسر من الصليبيين حيث لا يحميهم نهر العاصي، لكن زحف المسيحيين كان شديداً ولا يمكن إيقافه بحيث بدأت خلخلة الصف التركي، وفي أوج القتال حيث تصعدت كمية الخسائر في الجانبين انتشرت إشاعة خلال صفوف الصليبيين عن سرية من الفرسان فوق خيول بيضاء تحمل ألوية بيضاء ترفرق فوقها، قد شوهدت تقاتل بشراسة على الجناح الأيسر كما أمكن تعيين قوادها على أنهم القديسون المحاربون العظام الثلاثة في العالم المسيحي: القديس جورج والقديس ديمتريوس والقديس ميكيوري وقام رجال مناطق نورماندي وبروفانس وفلاندرز ـ هم في حالة تيه وابتهاج لذلك البرهان الجديد من التأييد الإلهي ـ قاموا بممارسة الضغط الشديد، بشراسة متناهية، وبشجاعة إجرامية، فكان العرب أول من بدأ الانسحاب وهم غير راضين عن موتهم من أجل سادتهم الأتراك، ولم يمر وقت طويل قبل أن قرر أمراء حلب وحمص ودمشق إنقاذ أنفسهم ومن بقي من جيوشهم وترك أتابك الموصل يواجه قدره، حيث كانوا يغارون منه على نحو مفرط لفترة سنين، وعندما بدأ الصف المسلم بالانهيار ورأى أمراء وأفراد الجيش المسيحي اللواء القرمزي العائد للنورمانديين اندفعوا فجأة إلى الأمام على خطى بوهمند وفرسانه، وبدأوا بمطاردة الأتراك متعثرين بأجساد الجرحى، وجثث القتلى، وهم يبكون من الفرحة والطرب، ويصرخون باثارة بادية، ثم تبع تانكرد وفرسانه بوهومند في سحابة مرعدة من الغبار، وعندما دخلت احتياطات الصليبيين الأخيرة القتال، تراجع الأتراك ولاذوا بالفرار، وهكذا فاز الصليبيون بالمعركة.

الفصل التاسع

«أبواب القدس»

فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب.

تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم.

المزامير: 122

كان النصر على القوات المتحدة للإسلام عند أسوار مدينة أنطاكية حاسماً، ولكن الاحتفالات التي تلت عطلها حادثتان: موت أسقف لي بوي ونشوب شجار عنيف بين بوهمند وريموند أوف تولوز حول سيادة المدينة المفتوحة، ولم يكن هذين الأمرين غير مرتبطين لأن أدهمر لي بوي كان الرجل الوحيد في المعسكر المسيحي الذي لقي إعجاب وحب الجميع، فقد استطاع دوما الترفع على الشجار وأسباب الخلافات الحزبية التي هددت على نحو متكرر بتمزيق وحدة الصليبيين الهشة، وبحكم كونه الممثل الرسمي للبابا، كانت سلطته واسعة، فإنه عندما مات لم يكن هناك رجل يأخذ مكانه: أي لم يكن هناك ثمة شخص يتوسط بين الأمراء المتعطشين للسلطة، أو لضبط عدائهم العنيف فلو أنه كان حياً فلابد أن الأمور كانت مختلفة، ولربما أن الادعاءات الأصلية للامبراطور البيزنطي للسيادة على أنطاكية التي أقسم جميع القادة الصليبيين على احترامها كانت قد ذكرت، ولربما أيضاً كانت هناك حالة توافق بين الطرفين قد بقيت مصونة، أما في غيابه، فلم يلق أحدهم انتباهاً لألكسيوس أو لعهود ولائهم له باستثناء ريموند أوف لوز الذي كان غاضباً كثيراً عندما شرع بوهمند في تأسيس ما كان يعتبره حقه في المدينة، بينما التزم

بقية الأمراء الكبار الحياد، وهكذا ظهر الحقد والشجار وازداد، وكانت هذه العقبة المخيفة تشاهد غالباً خلال التاريخ الطويل للمالك الصليبية فيما وراء البحار، كما أصبحت تسمى الأراضي المفتوحة من قبل المسيحيين وبذلك بدأ تاريخهم.

وانعكست المنافسة بين بوهمند وريموند في كراهية مشتركة للنورمانديين والفرنسيين الجنوبيين، ونما ذلك مع مرور الأشهر ولم تقم أية محاولة للضغط لإعادة الهدف الأصلي للحملة الصليبية، ونعني القدس، لأن القادة كانوا منهمكين في المشاحنة من أجل مصير مدينة أنطاكية، وحدث أثناء ذلك حادثة نموذجية من حوادث الصراع بين أمراء الفرنجة.

فقد استولى رجال ريموند على معرة النعمان وهي مدينة هامة في شمال سورية وذلك بعد حصار قصير باهظ الثمن، وما أن انضم إليهم رجال بوهموند السريع المخادع، الذين لم يكن لهم دور مذكور في الاستيلاء عليها حتى شرعوا بنهبها قبل أن يدرك رجال منطقة بروفانس أتباع ريموند ما كان يحدث، ونتيجة لذلك، أصبح البغض بين القائدين ورجالهما مراً وصعباً، ووصل ذلك غايته حتى باتوا لا يتكلمون إلى بعضهم البعض إلّا نادراً. وأخيراً اضطر بعض الأمراء الذين وقفوا على الحياد في النزاع القائم بين الحزبين ـ إلى الكتابة إلى البابا أوربان يرجونه أن يقدم ويتولى بنفسه زمام القيادة في الحملة، ولكنه لم يكن مستعداً لمغادرة روما، وبدلاً من ذلك أرسل رئيس الأساقفة في مدينة بيزا وكان يدعى دايمبرت لينوب عنه، وقد كان اصطفاؤه سيئاً، فعندما وصل أخيراً انقلب ليصبح نكبة تامة تقريباً، ولكن الأحداث لم تنتظر وصوله: فقد اشمأز جمهور عناصر الجيش كثيراً من خداع قادتهم المستمر إلى درجة قرروا فيها التدخل أخيراً، وعند حلول عيد الميلاد سنة 1098، طالب جميع الرجال برؤية ريموند، وعرضوا عليه اعترافهم به قائداً أعلى إذا قادهم إلى القدس، وأدرس ريموند أن موافقته تعني تخليه عن أنطاكية لبوهموند، مع هذا اضطر لصيانة سمعته بالموافقة وقاد في يوم 13 كانون الثاني سنة 1099 جيشاً صغيراً

هزيلاً نحو الجنوب على الطريق إلى المدينة المقدسة، ولم يكن هذا الجيش يتجاوز أكثر من ثلاثين ألف رجل نصفهم تقريباً محاربين، وكوسيلة لتذكير إخوانه الأمراء بعهودهم المسيحية الأصلية بعدما رفض العديد منهم مرافقته، سار حافي القدمين على رأس رجاله في لباس الحجاج.

وسارت الأمور في أول الأمر بشكل حسن، فقد استقبل السكان المحليون الذين كانوا يكرهون الأتراك، ريموند ورجاله كمحررين،[1] وقدموا كل مساعدة لهم في الطريق، وربما كانت تلك النزعة الخيرية بسبب ـ على الأقل جزئياً ـ حقيقة سماعهم أخباراً مرعبة عن الصليبيين، ولكونهم متحمسين جداً لعدم تعرضهم لهم، وفي حين كانت بعض المدن الساحلية لا تزال تحكمها حاميات تركية فقد تعين على ريموند إلقاء الحصار عليها. وبالفعل استولى على موانئ مرقية وطرطوس دون مشقة كبيرة وأقنعت هذه النجاحات المبكرة غودفري أوف بوليون وروبرت أوف فلاندرز بتقليد روبرت أوف نورماندي وتانكرد اللذين سبق وانضما إليه، وتضاعفت قوة جيشه تقريباً بانضمام هذه الامدادات الجديدة، لكن رغم هذه الإمدادات أخفق في الاستيلاء على مدينة عرقة قرب طرابلس، ولما أصبح الصليبيون ضجرين ومثبطي الهمة عند أسوار المدينة، انفجرت الخلافات مرة أخرى بين أبناء منطقة بروفانس والنورمانديين، في حين كان الأمراء النورمانديون غير راضين عن سلوك ريموند بشأن الحصار، ورغبوا في التخلي عنه. وعندئذ تدخل بطرس بارثلميو مرة أخرى، فمنذ سقوط أنطاكية كان ينقل أخباراً عن مقابلات مع القديس أندرو وقديسين آخرين ألقوا إليه بأوامر على نحو متعدد ومتلائم بنقل رسائل مؤيدة له أو لرئيسه ريموند، وأصبح العديد من الناس متشككين بادعاءاته عن خبراته الغيبية، واعتبروه أحد أحلاف ريموند السياسية في صراعه ضد النورمنديين، كما بدأ بعضهم يشك في صحة المدية المقدسة، وعندما

(1) ليس بين المؤرخين العرب وغير العرب من لاتين واغريق وسريان من أورد هذا.

ادعى بطرس أنه قد تلقى أيضاً وحياً آخر من القديس أندرو، وكان يسانده في هذه المرة القديس بطرس والمسيح نفسه - بحيث حض الصليبيين على إطاعة أوامر ريموند واتباع نصيحته حول حصار عرقة - عندها وصلت الشكوكية مستويات جديدة واتهم بطرس علناً بالاحتيال.

وطالب بطرس وهو غاضب بشدة، بحق الدفاع عن نفسه ضد متهميه في اختبار بالنار، وسلم بالأمر، وفي يوم الجمعة الحزينة بدأت الطقوس، فرتب رتلين من الأخشاب مثل سورين بينهما ممر ضيق، وبعد تلاوة الصلوات من قبل الأسقف أضرمت النار في الأخشاب، وانتشرت أخبار المحنة في أرجاء المعسكر المسيحي، واجتمع الجيش جملة ليشهد النتيجة، وكان بطرس مرتدياً رداءه الكتاني، وماسكاً في يده المدية المقدسة، فهو مؤمن بنبرته القادمة، وتقدم بعد ركوعه لمدة دقيقة وتصليب نفسه، إلى النار دون علامة خوف، وكانت الحرارة شديدة إلى درجة أن طيران طائر فوق النار كان مستحيلاً لأنه سيسقط فيها ويفنى، ومع ذلك، لم يتردد بطرس لحظة واحدة، فقد نهض من ركوعه وركض خلال ألسنة اللهب، وتوقف لدقيقة في نقطة منتصف الطريق ثم ظهر من النهاية الأخرى، حيث سقط إلى الأرض محترقاً على نحو بائس، ثم مات بعد أيام، ولم يصدقه أو مديته التي كشفها أحد على الإطلاق، عدا أبناء بروفانس الذين أقسموا أنه دفع بعد خروجه ثانية إلى داخل السنة النار من قبل أناس كانوا يتوقون للمس حافة ردائه الاعجازي.

وبعد موت بطرس تخلى ريموند على مضض عن حصار عرقه وقاد الجيش جنوباً مع الطريق الساحلية، وسارع حاكم طرابلس لتأكيد صداقته للمسيحيين مزوداً إياهم بالأموال والخيول والمؤن والمرشدين، كما برهن مواطنو بيروت أنهم متحمسون ليرضوه، وتتابعت المدن الكبيرة على الساحل المتوسطي الواحدة بعد الأخرى - مثل صيدا وصور وحيفا ويافا - بمد يد الصداقة للصليبيين، أو السقوط بأيديهم بعد قتال، أو تركت خلفهم في عزلة قاتلة، وكان الفاطميون حكام مصر الذين كانوا أسياداً اسمين لذلك الجزء من

البلاد ـ غير محبوبين من قبل السكان المحليين تماماً مثل الأتراك في أقصى الشمال، ولم تحدث أية مشكلات إلّا من قبل قليلين منهم بالنسبة لريموند، أما سكان منطقة الرملة فقد لاذوا بالفرار، ونصب أسقف لاتيني هناك، وعين أمير للمدينة أيضاً، وفي أوائل حزيران دخل تانكرد بيت لحم، ورفع لواءه فوق كنيسة المهد وصعد الجيش في اليوم التالي التلة التي سموها فيما بعد «جبل الغبطة»، ومنها أمكنهم رؤية القدس، وكان قد مضت ثلاث سنوات منذ أن غادر غودوي أوف بوليون سهل اللورين، ولكنه والصليبيين الذين بقوا على قيد الحياة خلال نكبات الرحلة ـ وصلوا أخيراً، وكانوا جائعين ومتعبين كثيراً، وألبستهم رثة، وسرعان ما برهنوا مرة أخرى أنهم برابرة ومجرمون، ولكنهم عندما نظروا عبر الوادي الذي يفصلهم عن أقدس المدن في العالم بأسواره الحجرية الملونة بلون العسل وبسقوفها المتجمعة مع بعضها بعضاً، وبقية صخرتها المتألقة التي بدت لهم قبة لهيكل سليمان، الذي اعتقد العديد منهم بوجوده ومهما يكن الأمر لم يوجد بينهم واحد لم تهتز مشاعره واخلاص إلى حد البكاء الانفعال والفرح بهذا المشهد، ذلك أنهم أيقنوا أن الرب لم يتخل عن شعبه.

ولكن لو قادهم الرب إلى أبواب القدس لبقيت تلك الأبواب مغلقة في وجههم ولما كان لديهم مفتاح ديني يفتحونها به، ذلك أن القدس كانت دائماً مدينة محصنة على نحو هائل، كما كانت الأسوار التي تجابه الصليبيين رهيبة أيضاً، بناها أولاً هادريان فكانت تقوى وتجدد بشكل عصري مع كل جهاز جديد من المهندسين العسكريين عند البيزنطيين والأمويين والفاطميين، وكما نعرف اليوم فإن أسوار المدينة القديمة بنيت في وقت متأخر من قبل السلطان العثماني، سليمان الفاخر وعلى الأرجح أن العثمانيين اتبعوا نفس الخط الذي اتبعه الصليبيون في زمانهم، ولابد أن المدينة التي حاصروها بدت إلى حد كبير مثل المدينة القديمة المقدسة هذه الأيام، وقد كان الحاكم الفاطمي في المكان قد حذر مسبقاً من قدومهم، واتخذ جميع الاحتياطات الممكنة لجعل المدينة

منيعة، ورحل المسيحيين لئلا يبرهنوا على أنهم غير أهل للثقة، وعمد إلى تخزين مستودعات هائلة من الطعام والماء، وعمد إلى تلويث الآبار خارج المدينة، وبذلك دمر موارد الماء لأعدائه، وجلب قطعان الماشية والحيوانات من الريف المجاور إلى داخل المدينة ليمد حاميته من المصريين والسودانيين بالغذاء، في حين يتصور الصليبيون جوعاً، وأخيراً أرسل رسلاً إلى مصر يدعو خليفتها لنجدته، ولحاجته الملحة إلى إرسال جيش للتفريج عن المدينة.

ورغم خوف قادة الصليبيين المبهم من الهجوم على مكان محصن دون اللجوء إلى أسلحة الحصار المناسبة، فإنهم شجعوا بالقيام بذلك من قبل ناسك مسيحي كان يعيش في مكان قرب جبل الزيتون، فقد نصحهم هذا الرجل بمهاجمة المدينة مباشرة، مسلحين بالإيمان المطبق بالرب، وأكد لهم أنهم المنتصرون، وصدقوه. وفي اليوم التالي هاجموا أسوار المدينة عند الجانب الشمالي منها هجوما بين أنها غير منيعة، واجتازوا دفاعاتها الخارجية في فترة قصيرة مذهلة، ولكنهم توقفوا هناك تحت وابل الأسهم والحجارة التي كان يقذفها المدافعون من فوق السور الداخلي من المدينة، وبرهن إيمانهم غير المدعوم بسلالم التسلق ـ أنه غير كاف لتقدم الصليبيين أكثر من ذلك، ورغم قتالهم لفترة ثلاث ساعات خضعوا للمحتوم وتقهقروا إلى الوراء حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم.

كانت خيبة مريرة. واستسلم الجيش لليأس، ولما أخفقوا في اجتياح المدينة لم يكن لديهم بديل آخر غير حصارها حتى يتمكنوا بطريقة ما من إيجاد لوازم بناء أسلحة مناسبة يجددون بواسطتها هجومهم، ولم يكن لديهم أية فكرة أين يمكن أن يجدوا مثل تلك الأدوات، وابتهجوا كثيراً بوصول أسطول انكليزي جنوب ميناء يافا حاملاً معه المؤن وبعض المعدات الحربية، إنما لا يكفي لمساعدتهم على التغلب على بعض الصعوبات لفترة قصيرة، فلقد كانوا بحاجة إلى أخشاب ثقيلة لبناء أبراج هجوم متحركة يمكن جرها إلى الأسوار، ومن أجل ذلك أرسلت حملات مختلفة في أنحاء البلاد للبحث عنها، ولكن

الأشجار كانت نادرة إلى حد كبير وتمكن أخيراً بعض الصليبيين من الوصول إلى تلال وفيرة الأشجار حول مدينة نابلس على مسافة خمسين ميلاً شمال القدس حيث وجدوا ما أرادوا، ومع ذلك بقيت مسألة كيفية نقل كميات الخشب الثقيل فوق الطرق الوعرة لمناطق «الضفة الغربية»، وحلت الأزمة أخيراً باستخدام الأسرى المسلمين والحيوانات المخزونة لديهم لجر الأخشاب بمشقة خلال الطرق الترابية.

وعندما بدأ العمل في بناء برجي انقضاض كبيرين وعدد كبير من السلالم، تغير الطقس وأصبح حاراً كثيراً، فقد كان شهر أيار وحزيران رديئي السمعة في شرق البحر المتوسط بسبب هبوب رياح ساخنة من صحارى شمال أفريقيا حاملة معها حرارة لا تطاق تجعل الحياة غير محتملة بالنسبة للإنسان والحيوان، وقد عرفت عند العرب برياح الخماسين، ويشبه هبوبها نفحة هواء ساخن من مجفف كهربائي، وتأثر الصليبيون الذين لم يخبروا مثلها بحيث اختنقوا أو التفحوا أو خبلوا منها، كما أثارتهم الزوابع التي غطتهم بالاتربة، وملات أنوفهم وآذانهم، ودخلت إلى عيونهم وشعورهم لدى نومهم، أما طعامهم فقد كسته طبقة ناعمة من الرمال كانت تصر بين أسنانهم، بينما أصفر الماء، وأصبح طعمه كالطين، لذا كان الرجال يشعرون بالعطش باستمرار، وسرعان ما بدأت الحيوانات بالموت بسبب تلك الكميات القليلة من الماء، وأرسلت مجموعات من الرجال لمسافات حتى نهر الأردن لجلب الماء، ولكنهم نادراً ما كانوا يعودون بما يكفي ليطفئ عطش الرجال، ولذا بدأ بعض الناس بالفرار بعد فترة وجيزة.

وتحت تلك الظروف، احتدمت الأمزجة وبدأت المهاترات حول سبب معاقبة الرب لشعبه مرة ثانية، وظن البعض أنه بسبب تعليق تانكر رايته الشخصية على سطح كنيسة المهد في بيت لحم في لحظة جهل تجديفي تقريباً، بينما اعتقد آخرون أن السبب تقديم العديد من الأمراء الصليبيين طموحاتهم أولاً على واجباتهم تجاه المسيحية، وفي الواقع، بقوا يتصرفون في نفس

الطريقة من البحث الذاتي، وتجادلوا حول من سيصبح ملك القدس عندما تسقط أخيراً، وكان رجال الدين عنيدين برأيهم، أنه ليس من شخص ينبغي أن يتخذ هذا اللقب، ولعل ثمة ملكاً واحداً للقدس، ولكنه مات على صليب، وهو الذي أعطى اسمه لهذه المملكة كما بين البابوات منذ ما يزيد على ألف سنة مضت ووافق معظم الشعب على رأي رجال الدين، كما خضع الأمراء الكبار للرأي العام، ولكن المناظرات لم تعدل الأمزجة كما كان الوقت صيفاً.

وفي أوائل تموز وصلت أخبار عن خروج جيش مصري كبير باتجاه الشمال للتفريج عن القدس، فبدأ الجميع يتساءلون عن كيفية صمود الصليبيين في وجهه بعد تقلص عددهم إلى حوالي خمسين ألف رجل بعد أن أنهكهم التجويع والمرض، وبدا لهم أنه بعدما صاروا من هدفهم قاب قوسين أو أدنى يكاد الرب أن يتخلى عنهم وينكر عليهم النصر، وقد جعل معنوياتهم تنخفض أكثر من أي وقت مضى، ولكنهم عاشوا في عالم كان غشاؤه الفاصل بين الزمن والأبدية، والرب والطبيعة دقيقاً، وعرضة للتمزق في أية لحظة، خاصة في ساعات الأزمات عندما يزيد القلق الواعي، ففي ليلة الخامس من تموز حدثت معجزة لراهب يدي بطرس ديسيدريوس حيث ظهر له أدهمر لي بوي الذي مات قبل بضعة شهور، وأخبره أنه لو تخلى الصليبيون عن أساليبهم الأنانية، وصاموا يوم الصيام وطافوا حول المدينة حفاة الأقدام ـ فإنهم سيستولون عليها في ظرف تسعة أيام، ودون تردد تقبل الجيش كله هذه الرؤى كحقيقة، وفرض الصيام على الفور. ثم في يوم الثامن من تموز سار الجميع في موكب فخم حول أسوار القدس، وقاد الأساقفة والكهان الموكب وتبعهم عن قرب الفرسان، وتعثر الصليبيون ونساؤهم حفاة الأقدام على نحو مؤلم فوق التلال الصخرية حول القدس، بينما احتشد المدافعون المسلمون في الدينة عند أبوابها ليشاهدوهم، وكانوا مسرورين كثيراً بغرائب أعدائهم المسيحيين، وحملوا فوق ظهورهم علامات الصليب للسخرية، في حين كان نساؤهم ترمي قطع الروث عليهم ويصرخن بكلمات السباب غير المعقولة،

ولكن الصليبيين تجاهلوهم، وعندما صعدوا جبل الزيتون قام بطرس الناسك والراهب ريموند والواعظ الشهير المسمى أرنولف أوف روهس بوعظ الجمع المحتشد الواحد بعد الآخر، وهكذا أصبح لدى الجميع الثقة أن المدينة ستكون لهم قريباً.

وخلال اليومين التاليين ساعد الجميع في إكمال بناء أبراج الحصار الخشبية الضخمة، وكانت ثلاثة تتدرج في الحجم، وسلحت أيضاً ضد النيران الاغريقية، التي كان يستخدمها المدافعون، وكانت هذه النار عبارة عن تركيب كيميائي من المواد شديدة الاشتعال، تشعل وتوجه ضد المهاجمين في آليات تشبه قاذفات اللهب الحديثة، وكانت الأبراج التي بنيت بعيداً عن نظر المسلمين الذين روعوا عندما شاهدوا فجأة تلك القلاع المتحركة الكبيرة المتوعدة تتدحرج ببطء وثبات نحو أسوار المدينة، وأصدر الحاكم العسكري أوامره إلى رجاله لتقوية الدفاعات عند نقط بدت مهددة، وعندما قام رجاله بالعمل على نحو مسعور لزيادة وتقوية السور، واصل آخرون قذفهم الثابت بالحجارة والنيران الإغريقية ضد أبراج الحصار، بينما هي تقترب، ولفترة قصيرة كانت معظم ذخيرتهم قد ضاعت هباء، لأن الصليبيين وأبراجهم كانوا خارج نطاق رميهم. وقبل أن يتمكنوا من دفع الأبراج لشن هجومهم، كان يتعين عليهم تدمير السور الخارجي وردم الخندق المحفور عند أقدام السور الرئيسي ومن ثم يمكن دفع الأبراج المتحركة مباشرة إلى أماكنها المخصصة في القتال، وكان هذا عملاً هائلاً، ولكن معظمه أنجز في ليلة 13 تموز، وخلال اليوم التالي، واصل الجانبان رمي قذائفهم الثقيلة، وتكبد المقاتلون عند أقدام السور كثيراً من الخسائر، وفي ليلة 14 تموز دفع أحد الأبراج إلى موضعه وحاول ريموند أوف تولوز شن هجوم من قمته، ولكن المدافعين قاتلوا ببسالة وشراسة بحيث لم يتمكن رجال ريموند من إحراز أي تقدم، وبدا أنهم في مأزق حرج.

لم ينم أحد في تلك الليلة، وكتب ريموند أوف أغيلرز فيما بعد. «كانت ليلة مرعبة بالنسبة للجانبين، فقد تخوف المسلمون من إمكانية إنقضاضنا على

المدينة خلال الظلام حيث أن سورهم الخارجي تحطم وردم الخندق أيضاً، وكنا من جانبنا متخوفين من إضرامهم النار في الأبراج التي كانت قريبة من السور الداخلي، ولذلك كانت ليلة مراقبة وعمل وعناية ساهرة،» وعندما بزغ الفجر في اليوم التالي 15 تموز، بدأت مهمة دفع ثاني أكبر برج نحو السور الشمالي، وكان غودفري أوف بليون وأخوه بورتاس أوف بولون في قيادة الطابق الأعلى، ولكن مقاومة المدافعين كانت شديدة، وعندما أصبح الصباح بدت كما لو أنها أشد قوة بالنسبة للمهاجمين. فأشار بعض فرسان غودفري عليه بالتخلي عن البرج والانسحاب، ولكنه ما كان ليفعل ذلك، ورغم أن الرجال كانوا يدفعون ببطء وألم، البناء الضخم قرب هدفه، ويتكبدون الخسائر أكثر وأكثر غير أنه لم يصدر أمره بالتراجع، لقد كانت الحجارة والنيران تمطرهم، وحرارة الشمس الحارقة لا تطاق إلى درجة أن بعض الرجال تجردوا من دروعهم في يأس قاتل، مفضلين الموت بسهم على أن تشويهم الحرارة حتى الموت، ولكنهم مثل غودفري لم يكن لديهم نية في التخلي عن القتال، وعند منتصف النهار قدموا البرج إلى مسافة ثلاثة أقدام من السور الداخلي، وعندها ابتهج الجيش المحاصر بشكل مفرط، وصرخ المسلمون متحدين لهم وأضرمت النار في أسهم مربوطة بقطن مشتعل في رف خشبي عند أعلى السور، الذي كان المدافعون يرشقون منه الحجارة على الصليبيين، وعندما امتدت النيران والدخان، أصيب المدافعون بفوضى سريعة، واغتنم غودفري فرصته، وأمر أحدهم أن يقطع الحبال التي تمسك الجسر المتحرك فسقط وتحطم على الشرفات المشتعلة، وعلى الفور انطلق فارسان فلمنكيان من مدينة تورناي عبر أعلى السور وتبعهما غودفري مع عصبة من الرجال المنتقين الذين كانوا ينتظرون، وعندما انتشروا واستولوا على قطاع صغير من السور رفع الرجال السلالم وتسلقوا إلى الأعلى للانضمام إليهم، بينما تسلق آخرون البرج وأسرعوا عبر الجسر لدعم فرقة غودفري المتقدمة، لقد اخترقت الدفاعات ولم يعد ثمة شيء ينقذ القدس.

وبينما كان غودفري ورجاله اللورنيين يعززون مواقعهم فوق السور قاد تانكرد فرقة من النورمانديين إلى داخل المدينة وفتحوا إحدى بوابات المدينة للجيش المنتظر، وعندها تدفق الصليبيون داخل الشوراع فتقهقر المدافعون المسلمون إلى منطقة الهيكل حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك وهناك عمدوا إلى الصمود الأخير ضد الصليبيين الغزاة، ولكن تانكرد ورجاله ألقوا القبض على العديد منهم قبل أن يتمكنوا من متابعة المقاومة، فوعدهم بأرواحهم لقاء فدية ضخمة، وعندما وافقوا أعطاهم رايته لتعلق فوق الجامع بصفة أنهم أصبحوا تحت حمايته، وعلى أية حال، لم يؤد ذلك إلى فائدة، فما أن تغلغل الصليبيون داخل المدينة حتى عرضوهم لمذبحة دموية مرعبة هائلة، لقد عانى هؤلاء من الحرمان الكبير لمدة أشهر، ورأوا قادتهم يموتون من المرض والجوع والعطش، كما رأوهم يقتلون في المعارك، وبعد فوزهم بالنصر العظيم، وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة، كانوا في حالة شعور مفرط هستيري تقريباً، وبعد ذلك لم يشكوا لخطة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب ومدنسين للأماكن المقدسة، وعاملين لدى أعداء المسيح، وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذكر في الأنجيل، ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامين. وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب[1]. ودامت المذبحة طوال ذلك اليوم، وقسماً من الليلة التالية، وعندما ذهب الراهب ريموند أوف أغيلرز لزيارة منطقة الهيكل في صباح اليوم التالي وجدها قفراء مليئة بالجثث، بحيث أن المسجد الأقصى وعلى سطحه يرفرف لواء تانكرد وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين، الذين وصلت دماؤهم لمستوى الركب، أما الأشخاص الناجون وحدهم من المدينة بأرواحهم فكانوا

---

(1) مهما بلغت حرارة المؤلف وبراعته الأدبية، ما من شيء يمكن أن يسوغ المذبحة التي اقترفها الصليبيون في القدس، وستبقى وصمة عار في تاريخ أوروبا ما دام هناك تاريخ وشعوب تقرأ التاريخ.

الحاكم وطائفة حرسه الذين سمح لهم ريموند بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليم خزائن هائلة، وذبح الباقون بما فيهم اليهود الذين حشدوا أولاً في معبدهم الرئيسي، ثم أضرمت النار في المبنى وهم أحياء، وعندما لم يبق من يقتلونه سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي لا زالت مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة الموت ـ إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر إلى الرب لرحمته العظيمة المتنوعة، من أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه.

الفصل العاشر

ظل التــاج

الالقاب ظل التيجان أشياء فارغة

ـ دانيال ديفو ـ الانكليزي الأصيل

كان الاستيلاء على القدس الانجاز الأعظم للحملة الصليبية، من أجل ذلك خرجت وقاتلت وكافحت، كما كانت الاستجابة لصلوات كل مسيحي في أوروبا الغربية، ولكن البابا أوربان الذي دعا الصليبيين للزحف شرقاً تحت لواء النصرانية لتحرير الأماكن المقدسة من الهيمنة التركية لم يقدر له أن يرأس احتفالات النصر والصلوات لتقديم الشكر لقاء ذلك النصر للأسلحة المسيحية بسبب موته بعد سقوط المدينة، وقبل أن تصل الأخبار إلى أوروبا، وبالرغم من موته، ابتهج الجميع كثيراً لدى وصول الأنباء أخيراً، لقد غفر الرب أخطاء وذنوب الماضي، وقاد شعبه إلى نصر عظيم.

كانت تلك النتيجة التي خرج بها الصليبييون في القدس، بعدما توصلوا إلى هدفهم، لكنهم ماذا يفعلون بعد ذلك، فلم يرتب أحد في الأهمية السامية للاستيلاء على القدس فهي المدينة المقدسة للديانة المسيحية، ولذلك وبدلالة ذاتية تعين أن تبقى في أيد مسيحية، ولكن ماذا تفعل الأيدي فيها، وهي الآن في حوزتهم، لم يكن أحد يعرف، ومع ذلك فهناك مهمتان سريعتان ينبغي عملهما: تنظيف المدينة من آلاف الجثث المتفسخة، وخلق نوع من الدفاع ضد هجوم إسلامي مضاد، وكان العمل الأول غير محبب، ولكنه نسبياً سهل التنفيذ، أما المهمة الثانية فكانت أصعب لأن المنافسة بين الأمراء كانت على

أشدها، ولم يكن من الممكن تنفيذ أية خطط مناسبة حتى تسوى مسألة قيادة الجيش نهائياً، فلو كان أدهمر لي بوي حياً فمن المؤكد أنه سيجعل رئيساً للأساقفة أو بطريركاً للقدس، وكذلك لكانت قد حلت قضية القيادة في المدينة بحب وسلام، ولأختير على الأرجح ريموند أوف تولوز، ثم لكان القادة في المدينة الآخرون مع دعم أدهمر له قد قبلوه دون معارضة، غير أن أدهمر ميت، وليس هناك أحد له قوة نفوذه كان يستطيع حلول محله.

وعندما اجتمع القادة توصلوا إلى اتفاق حول شيء واحد فقط وهو: وجوب تنصيب بطريرك في الحال، لأن القيادة الروحية للمدينة والجيش هو المطلب الأسمى، وبالنسبة إلى سيمون البطريرك اليوناني للقدس الذي مات في قبرص قبل ذلك، لو أنه مازال على قيد الحياة، فإنه سيكون دون فائدة لهم، وشرعوا يحاولون اختيار أحدهم لملء العرش الأسقفي، ولكن ذلك كان صعباً بالنسبة لوحدتهم الضعيفة، وسرعان ما تشاجر أبناء بروفانس بقيادة ريموند مع النورمانديين حول نقطة التعيين. حيث كان أرنولف أوف روهز وهو أحد الأشخاص الذين وعظوا الصليبيين المجتمعين ليلة الانقضاض على القدس ـ يؤيده النورمانديون للمنصب، فقد كان قسيساً لروبرت أوف نورماندي، كما كان المدرس الخاص لبعض أطفال وليم الفاتح، ولكن كان هناك اعتراضات على ترشيحه لم يسمح ريموند بنسيانها، فقد كان بالإجتماع العام رجلاً حسن الثقافة لكنه غير شرعي، ومتحلل لمبادئه على نحو سيء، ولم يكن بالإضافة إلى ذلك مجرد شماس مساعد، واحتدت الأمزجة كثيراً إلى درجة أن انتخاب رئيس أساقفة ترك لعامل الزمن، وبدلاً عن ذلك عولجت قضية من يصبح القائد المدني هناك، ومن بين العديد من الرجال كان هناك مناضلان هامان انطلقا من القسطنطينية. فأما بلدوين فقد كان خارج السباق لأنه في الرها وبالنسبة لبوهمند فقد كان في أنطاكية، وأما ستيفن أوف بليوس وهيو أوف فيرماندوس فقد عادا إلى الوطن، وأما يوستاس أوف بولون وتانكرد فلم يكن لديهما أتباع كافون ليصبحا المرشحين الهامين، وتقلص حقل المنافسة

أكثر مع إعلان روبرت أوف نورماندي وروبرت أوف فلاندرز عن رغبتهما بالعودة إلى الوطن في أسرع وقت ممكن، بعدما تحققت الغاية الرئيسية من الحملة، وبقي ريموند أوف تولوز وغودفري أوف بوليوم.

ولو أن القادة الأساسيين كانوا المستهلين في سباق القوة لكان ريموند أوف تولوز المفضل بينهم، لأنه من عدة نواحٍ المرشح الواضح، فهو غني جداً، وأرشدهم في السهر والخبرة، كما كان صديقاً لأدهمر، في حين كان النورمانديون يكرهونه، ولم يبرهن عن نجاحه عموماً، وفوق ذلك فقد ساند بطرس بارثلميو وكان يحاول بثبات أن يكون في صالح صحة المدية المقدسة. وعندما نبذهما الناس ككاذبين دفعت سمعته وموقفه ثمن ذلك، وقيل أخيراً إن العديد من تابعيه لم يرغبوا في اختياره، لأنهم كانوا يريدون العودة إلى الوطن، ومع ذلك، قرر أخيراً مجلس الأساقفة والأمراء الذي أصبح مسؤولاً عن الانتخاب، عرض العرش على ريموند وكانت مفاجأة للجميع رفضه العرض على أساس لا يرغب في أن يصبح ملك القدس، فهناك ملك واحد فقط للقدس، كما قال، هو المسيح. وربما طرح الشك في العرض على أنه غير مشجع، وربما أمل بجوابه أن يجعل الأمر غير ممكن لغودفري ليصبح ملك مكانه، ومع ذلك تحول المنتخبون مباشرة إلى منافسة الشخص الذي وافق أن يأخذ على عاتقه القيادة، ولكنه رفض أن يدعى بالملك، وبدلاً عن ذلك أعلن أنه يجب أن يدعى المحامي عن القبر المقدس، واستقرت الأمور بذلك الشكل.

كان ريموند مغتاظاً وتصرف مثل طفل أرعن ورفض القبول بسلطة غودفري أوف بوليون وتسليم قلعة القدس [المبنى المعروف ببرج داوود] الذي كان مسؤولاً عنه، وصدم عرض الرعونة مؤيديه، وسرعان ما خدع فغادر البرج في حنق وترك خارج القدس مع رجاله الذين قادهم إلى الأردن ثم أريحا حيث مكث مقطب الجبين.

وبعد ارتياحهم من حضوره المخيف إلى حد ما. عاد الأمراء في القدس

إلى مهمة تعيين رئيس أساقفة للمدينة، واختير أخيراً أرنولف أوف روهز وكرس لذلك رغم أخطائه الواضحة. وبالنظر لخلفيته العلمانية فقد برهن أنه مقبول لدى غوردفري والسلطات المدنية الأخرى، ولكن كان حساساً بشكل يبعث على اليأس وغير لبق مع رجال الدين الإغريق والمسيحيين الذين ابتهجوا لتحريرهم من الأتراك[1]، ثم سرعان ما ندموا على تغيير أسيادهم، وبدا أن هدف أرنولف هو أن ينصب رجال الدين الغربيين الذين تمرسوا في الطقوس اللاتينية في كل منصب فارغ، مكان رجال الدين الأغريق من الكنيسة الأرثوذكسية الذين كانوا هناك، ومنع الكهنة من إدخال الطقوس اليونانية إلى كنيسة القيامة، كما خاصم بشكل مرير أعضاء الكنائس الصغيرة مثل الأرمن والأقباط واليعاقبة بمعاملتهم كمنشقين، إنما عامل المسلمين معاملة أفضل.

ولم يأخذ غودفري زمام الحكم في يديه لفترة طويلة حتى قدمت الأخبار عن وصول جيش مصري كبير عبر صحراء سيناء إلى فلسطين، وكان يقوده الوزير نفسه من مصر وهو أرمني الأصل إسمه الأفضل، وتقدم الجيش إلى المدينة الساحلية عسقلان، وكان تانكرد ويوستاس أوف بولون بعيدين عن القدس، خرجا إلى نابلس ليتقبلا خضوع سكانها، وعندما نقل رسول غودفري الأخبار إليهما تحركا إلى السهل الساحلي قرب قيسارية، ثم زحفا جنوباً نحو المصريين المتقدمين آسرين بعض طلائعهم في الطريق، ومن تلك الحوادث السيئة، استخلصوا أن الوزير لم يكن يتوقع أن يهاجمه المسيحيون. وتوقف ليأخذ بعض الراحة منتظراً أن يدركه أسطوله بالمؤن، بينما يستعيد رجاله نشاطهم من المسير الطويل عبر سيناء، وبعد التحقق من الأهمية الحاسمة لتلك المعلومات أرسل تانكرد ويوستاس رسالة إلى غودفري ينصحانه بالانضمام إليهما مع كل رجل وبالسرعة الممكنة ـ، فإن الوضع خطير جداً، وكان الأمل الأكبر للنجاح يقع في القيام بالانقضاض على الأفض وقوته الأكبر كثيراً.

---

(1) كانت القدس تحت الحكم الفاطمي، ولم تكن بيد التركمان وقت غزوها.

وكان هذا مرة ثانية معياراً لمدى انقسام أمراء الحملة الصليبية حسداً من بعضهم البعض حتى إن ريموند الذي كان لا يزال مغضباً في أريحا وروبرت أوف نورماندي الذي تشاجر مع غودفري لسبب ما، ـ رفضا أن يسيرا معه حتى تتأكد الأنباء بشكل مستقل من قبل تانكرد ويوستاس، بينما استجاب روبرت بسرعة، وفي 9 آب 1099 خرج ومعه غودفري برجالهما من القدس، كما خرج رئيس الأساقفة أرنولف ورجال الدين معهما، فقد كانت الصلاة سلاحاً حربياً مثل الدرع أو السيف، ولم يكن ممكناً بالنسبة للصليبيين التفكير بإهمال الجانب الروحي في المعركة القادمة، وعندما وصلوا إلى الرملة حيث كان تانكرد ويوستاس ينتظران لم يكن ثمة شك في أذهان الجميع أن قدر الحملة الصليبية سيتم تقريره في الأيام القليلة التالية، وأرسل أحد الأساقفة المرافقين لأرنولف إلى القدس ليثير الآخرين على الانضمام إليهم بأقصى سرعة، وبعد اقتناعهما أخيراً، انطلق ريموند وروبرت أوف نورماندي مع كل قادر على حمل السلاح. وتركا حامية صغيرة وراءهما، وطلب إلى بطرس الناسك حث كل مسيحي في المدينة من الاغريق واللاتينين على الصلاة دون توقف من أجل النصر، وفي صباح اليوم التالي التقى ريموند ورجاله من أبناء بروفانس وروبرت ورجاله من النورمانديين مع غودفري. وانطلق روبرت أوف فلاندرز وتانكرد ويوستاس والجيش المسيحي كله للزحف نحو الجنوب، ومع ذلك فقد كان الجيش أصغر من أي وقت مضى، لا يتجاوز أكثر من اثني عشر ألف فارس، وتسعة آلاف من الرجّالة.

وساروا بثبات عبر رمال وحرارة يوم صيفي نموذجي في فلسطين، وعندما انتهى النهار وانحدرت الشمس للمغيب فس سماء صافية حذرتهم طلائعهم، فقد أبصر رجالها أمامهم خلال وهج الحرارة ووميض وهج المساء الباكر الساكن الحار جيشاً من رجال وخيول. وبدا المنظر في الضوء الباهت والمتمزق مثل جيش في سراب، وخرج منهم مائتا فارس ليتحققوا، وعندما اقتربوا وجدوا أنفسهم محاطين بقطعان كبيرة من الجمال والماشية والخراف

والماعز يرعاها فئة من العرب الخائفين الذين هربوا لدى اقترابهم، لقد كانت قطعاناً قدم بها الوزير ليطعم جيشه، ووقعت في أيدي الصليبيين، وكانت النتيجة أن أكل الجميع جيداً تلك الليلة، وكتب القسيس ريموند: «أمضينا الليلة دون راحة، لأنه لم يكن لدينا خيم أو خمر، وكان لدى بعضنا الخبز والقليل من الطحين والملح، غير أن اللحم كان وفيراً وفرة الرمال، حيث أكلنا اللحوم وأكثرنا من لحم الضأن بدلاً من الخبر».

وعند انبلاج نور الفجر من النهار التالي، اصطفوا فوق السهل شمال عسقلان حيث كان الجيش المصري لا يزال نائماً في المعسكر، وأخذ رجال الوزير على حين غرة تماماً، ورغم أنهم كانوا ضعف عدد المسيحيين، لم يبدوا مقاومة تذكر، وقتل بعضهم وهم مستلقون نيام، بينما نجا آخرون بأرواحهم في فزع حيواني، ولكن لم ينج إلا القليل، واختبأ العديد منهم في غيضات أشجار القصب، فأشعل الصليبيون النيران فيها فماتوا حرقاً، بينما سبق آخرون إلى البحر ليقتلوا أو يغرقوا، واندفع تانكرد وروبرت أوف نورماندي في طريقهما إلى مركز معسكر العدو، مع عصبة من الفرسان الراكبة وقتلوا حامل لواء «الأفضل»، واستولوا على خيمته وأغراضه الشخصية، وتعقب بقية الفرسان الفلول المتناثرة من الجيش المصري المرعوب في الطريق إلى عسقلان وقتلوهم، وكان الوزير مع اثنين من مساعديه الشخصيين من بين الأشخاص القليلين الذين وصلوا المدينة في أمان، حيث ركبوا بسرعة سفينة إلى مصر، لكن الآخرين كانوا في عداد القتلى أو الأسرى بحيث تم النصر للصليبيين.

ومرة أخرى فسدت الأمور بانفجار شجار عنيف بين القادة المنتصرين، الذين بدوا غير قادرين على العمل معاً إلّا في لحظات الأزمات، لقد أنقذت القدس، كذلك لا بد أن سقط عسقلان الميناء الهام، بعد وقت قصير، في أيديهم مثل ثمرة خوخ ناضجة، وفي الواقع عرض الحاكم المسلم تسليم المدينة على ريموند وليس على غودفري، وعلى الأرجح أنه اختاره من أبناء بروفانس، لأنه تمتع شهرة أرفع من الآخرين الذين تلوثت أسماؤهم ببربرية

أعمالهم خلال المذبحة بعد سقوط القدس، وكان غودفري مغتاظاً ومتشككاً على نحو عميق بنوايا ريموند فيما إذا استلم المدينة، فرفض أن يقدم أية مساعدة لانجاز هذه الاتفاقية، وغضب ريموند من هذا كثيراً، ورغب أن ينفض يديه من الأمر كله، فسار برجاله بعيداً باتجاه الشمال في مزاج استياء غاضب، وكبرياء مجروح، كما غادر كل من روبرت أوف نورماندي وروبرت أوف فلاندرز اللذين كانا غاضبين على غودفري، الذي غدا ضعيفاً جداً ليهاجم عسقلان دونهما، وهكذا فاتت فرصة الاستيلاء عليها، ولم تتكرر لأكثر من خمسين سنة أخرى.

وعندما عاد غودفري إلى القدس أعلن الروبرتان أنهما عائدان إلى الوطن، وسارا برجالهما شمالاً للمرحلة الأولى من رحلتهما الطويلة، فهما قد حققا قسمهما، وليس لديهما رغبة للخدمة تحت قيادة غودفري، كما سار معهما شمالاً روبرت أوف تولوز آملاً أن ينال أمارة لنفسه مثل بلدوين وبوهموند وغودفري الذين نجحوا في القيام بذلك، ورغم كرهه لهم، كان راضياً أن يتولى إمارة بمثابة تابع للامبراطور البيزنطي، ولذلك كان متخوفاً مثل النورمانديين الإثنين عندما وصل ثلاثتهم إلى مدينة اللاذقية على الساحل السوري ليجدوا أن بوهمند يحاصرها وحاميتها البيزنطية بينما كان أسطول قدم من بيزا مع الممثل البابوي الجديد رئيس الأساقفة ديمبرت يحاصر المكان من جهة البحر، وكان قد وافق البيزيون الذين كانوا مجموعة من الأشخاص البدائيين الجشعين لاحتكار رئاسة الأساقفة في الممالك الصليبية فيما وراء البحار على أمل الحصول على امتيازات تجارية قيمة، ومع ذلك، لم يترددوا عن التصرف مثل القراصنة، فقد أغاروا على عدد من الجزر والموانئ البيزنطية لإغاظة الإمبراطور ألكسيوس، الذي أمر أسطوله بمعاقبتهم، ولكنهم كانوا محظوظين في تملصهم من السفن اليونانية، ولدى وصولهم إلى اللاذقية وجدوا بوهمند محاصراً لها، فانضموا إليه بعد دعوته لهم، وكان ريموند ممتعضاً ومغتاظاً من بوهموند بينما كان الروبرتان الرجلان اللذان تحققا أنهما دون رضا

البيزنطيين لن يصلا إلى وطنهما ـ كانا فزعين على السواء، كما كان ثلاثتهم مشدوهين من حماقة ديمبرت في السماخ لنفسه ليصبح منهمكاً في حرب صغرى مع البيزنطيين، الذين بعد ذلك كله كانوا إخوانهم المسيحيين، وبعد دعوتهم ديمبرت للقدوم إلى معسكرهم في جبلة، تدبرا أمر إقناعه بإيقاف أسطوله البيزي، ونظراً إلى أن بوهموند لم يكن ليستطيع محاصرة اللاذقية دون مساعدته، فقد تقهقر إلى أنطاكية في حقد كبير، ولفترة قصيرة انتهت الأزمة، ولكن لم تتحسن العلاقات مع البيزنطيين، أما الممثل البابوي فقد بدأ عمله بصعوبة في الممالك الصليبية فيما وراء البحار وبطريقة مشؤومة كثيراً.

في حين أن الروبرتين شقا طريقهما إلى الوطن. نزل ريموند في ضيافة الحاكم البيزنطي في اللاذقية، وفي أثناء ذلك تعين على غودفري تقويم وضعه في القدس، لقد كان العمل مؤثراً فهو في حاجة إلى الرجال على نحو يبعث على اليأس، ورغم أن مملكته الصغيرة كانت آمنة من هجوم إسلامي مضاد، إلا أن المدن الساحلية لا يزال يحكمها أعداؤه رغم أنهم كانوا يتصرفون بطريقة ودية سليمة منذ خذلان الجيش المصري، ولذلك عندما أعلن مراراً بلدوين وبوهموند في الرها عن نيتهما في القدوم إلى القدس للتحرر من إيمانهم كحجاج ـ سر غودفري كثيراً على أن يقنع العديد من أتباعهما بالبقاء ليزيد حاميته الصغيرة بشكل مثير للشفقة، وعلى أية حال نجح في القيام بذلك، ولكن النتائج الأخرى من زيارتهما لم تكن سعيدة، حيث عزل ديمبرت أرنولف من رئاسة الأساقفة في القدس على أساس أن انتخابه غير معترف به، ورتب الأمور بطريقة مكنت من انتخابه على الفور بطريركاً مكانه، ثم أصر على أن يركع غودفري أيضاً أمامه ليقلده السلطة كحاكم شرعي للقدس، أما حقيقة أن بوهموند وافق على أن يخضع لنفس المراسم ليقلد من قبل ديمبرت كحاكم شرعي لأنطاكية لم تكن عزاء كبيراً بالنسبة لغودفري الذي عرف أنه سيعيش مع البطريرك الجديد، وتصرفاته غير المحتملة، عندما يغادر بوهموند، وفوق ذلك فإن غودغري بعمله ذلك يكون قد اعترف ضمناً بديمبرت سيداً اقطاعياً له،

رغم أن الاعتراف ضمني ليس غير، أما بالنسبة لبلدوين فقد كان رجلاً من طراز مختلف، كما كان غيابه واضحاً خلال مراسم التقليد، حيث لم يكن لديه نية في الركوع أمام أي شخص.

وتشجع غودفري بنجاحه في إقناع بعض الفرسان الزائرين بالبقاء في القدس وشعر بعد مغادرة بوهموند وأخيه (غودفري) بلدوين أنه قوي بما يكفي ليتولى الهجوم ضد بعض المدن الساحلية، التي كانت لاتزال في أيدي المسلمين، والتي عقدت الواحدة بعد الأخرى اتفاقات معه، وفي إحدى المراحل حاول المصريون التدخل عن طريق إرسال بعض الفرق لدعم أحد الأماكن الذي كان يحاصره وشجع وصولها الحامية الجائعة على الهجوم والاشتراك في المكافحة مع رجال غودفري الذين هاجوهم في كمين ودمروهم، وتوسل المواطنون في يأس من أجل الأمان فقبل غودفري خضوعهم دون فرض مطالب غير ممكنة عليهم، ولم يمض وقت طويل على تلك الحادثة حتى قرر أمراء عسقلان وقيسارية وعكا وقد اطمأنوا لما حدث، قرروا أيضاً الخضوع له ودفع جزية، وبعد فترة قليلة تقرب منه العرب في شرقي الأردن على أمل إقامة نوع من علاقات الصداقة معه، فقد اعتمد عيشهم على تجارتهم مع المسلمين في السهل الساحلي، ونظراً إلى أن دولة غودفري الجديدة كانت تقع عبر طريقهم التجارية، فقد كان من المهم لهم إقامة صداقة مع جيرانهم المسيحيين الجدد، وكان لدى غودفري حس جيد لإدراك ذلك، فإذا قام الوجود المسيحي بإحكام في الأرض المقدسة، فلن تكون هناك حرب مستمرة ممكنة مع الإسلام، ورحب بالانفتاح العربي، وسمح لقوافل العرب بعبور مقاطعته، وشجع تجارتهم على التعامل مع شعبه، وبالنتيجة لم يزدهر مواطنو الصليبيين الجدد بشكل مطرد فحسب، بل تحسنت علاقاتهم مع جيرانهم المسلمين يومياً بحكم الحقيقة الجغرافية والاقتصادية، التي فرضت على الجانبين اكتشاف فوائد التعاون المشترك.

وكانت أكبر مشكلة بالنسبة لغودفري ما خلقه الممثل البابوي ديمبرت

الذي أظهر بوضوح كاف مع مرور الوقت، أن لديه نية في عدم حصر نفسه في دور البطريرك ورئيس الأساقفة في القدس، أو في السماح لغودفري بمعاملته كمجرد سلطان اسمي، وعلى النقيض انتهز كل فرصة للقبض على القوة المدنية، ولم يستطع غودفري أن يقاومه لكونه من ناحية أولى كان يخشى الكنيسة ومن ناحية ثانية كان يخاف أن يغضب البيازنة الذين اعتمد على دعمهم المستمر لأجل سلامة دولته، ولذلك عندما سمع بنزول أسطول تابع للبندقية في يافا سارع إلى الساحل لاستقباله، لأنه لو تمكن من ضمان دعم البنادقة لتمكن من تحرير نفسه من الاعتماد على البيازنة، واتخذ طريقه عبر طبرية وقيسارية، حيث أثبت أمير محلي لهفته لتشريفه كضيف، ودعاه إلى مأدبة، وقد عومل بالاحترام العظيم، كما كان الطعام مترفاً، ثم ودع الأمير ضيفه غودفري الذي كان يشعر بتوعك وعندما وصل إلى يافا أصابه الضعف الشديد. ثم تحسن قليلاً في اليوم التالي، وعندما طلب نقله إلى القدس في محفة، ولدى وصوله ازداد حاله سوءاً وتخوف الجميع من الاسوأ.

ولكنه لم يمت مباشرة، في حين كان ديمبرت ينتظر بفارغ الصبر موته ليتولى تسيير السلطة العليا بنفسه، ورغم ضعف غودفري الشديد، استمر في تسيير عمله اليومي في الحكومة، وأعطى البنادقه امتيازات واسعة النطاق في مقابل دعمهم، ورغم علاقاته الودية مع الأمراء على الساحل، أمر بالهجوم على عكا، وسلم قيادة الجيش لأحد فرسانه وأسمه وارمز أوف غري، وعندما وصل تانكرد من الجليل لينضم للحملة خرجا معاً من القدس، ثم انطلق معهما ديمبرت على أمل ونية استلام السلطة في الجيش، حالما تقع الحادثة المتأجلة والمنتظرة طويلاً في القدس، ولم ينتظر طويلاً، ففي 18 تموز 1100 مات غودفري دي بليون دوق اللورين الأدنى والمحامي عن الضريح المقدس، مات بكل هدوء.

ولو أن ديمبرت كان في المدينة لقبض على فرصته، ومن المشكوك فيه أن أحداً كان قد اعترضه، ولكن الذي حدث هو أن مجموعة من أبناء اللورين

التابعين لغودفري الذين كانوا كارهين للممثل البابوي قاموا بالسيطرة على المدينة، وأرسلوا رسولاً إلى بلدوين صاحب الرها أخي غودفري يدعونه للقدوم بسرعة لتسلم ميراثه الشرعي لقرابته منه، وكانت المسافة بعيدة، والاتصالات بطيئة، غير أنه لم يستغرق وقتاً طويلاً للقدوم رغم أن ديمبرت حاول أن يوقفه في طريقه، ووصل بلدوين إلى القدس وأعلن وراثته لأخيه، ولما لم يكن لديه شك ديني حول صحة دعواه في الملكية، فقد أقسم اليمين يوم عيد الميلاد سنة 1100 بالدفاع عن الضريح المقدس، وتوج ملكاً على القدس.

الفصل الحادي عشر

أزمنة ومواسم

موسم ووقت.... وقت يلد ووقت يموت، وقت للزراعة، ووقت لقطف الثمار،
وقت للقتل، وقت للشفاء.... وقت للحرب، ووقت للسلم.

السفر الكنسي: 3/ 1 ـ 8

حكم بلدوين الأول في القدس لفترة ثمانية عشر عاماً، وقد قام بالكثير من أجل تقوية انتصارات الحملة الصليبية الأولى، ولإقامة الممالك الصليبية فيما وراء البحار كحقائق سياسية أبدية، وعندما خلف أخاه غودفري كانت المملكة الصغيرة التي ورثها غير منظمة تماماً ومفلسة عملياً، يقوم عليها عصبة من الفرسان غير القانونيين من اللورين، ومرتزقة محليين غير أهل للثقة، وكان يحدق بها الأعداء من الداخل والخارج، وكان يعلم أن المسلمين سيصعدون حتماً هجوماً مضاداً في يوم ما، وأن الأمراء المسيحيين الآخرين كانوا حاسدين له، ومصممين على نيل ممالك صغيرة لكل منهم، ولو اضطرهم ذلك لتدبره على حسابه الخاص، على حين كانت السلطة المنظمة في البلاد، وهي الكنيسة يرأسها رئيس الأساقفة ديمبرت الذي كان كارهاً له، وكانت عماده الوحيد، وأثمن ما لديه مواهبه وسمعته الهامة والكبيرة التي نالها لقاء قساوته التامة، وعناده اللذين استغلهما إلى أقصى الحدود.

لقد روع العرب جنوب وشرق القدس بقيامه بغارات ضاربة، واستولى على عدد من المدن الساحلية، وقام بتذبيح سكانهم ليزيد تخويفاً من اسمه،

كما هزم جيشاً مصرياً قوامه أكثر من ثلاثين ألف رجل بمساعدة مائتين وستين فارساً فقط، وبأقل من ألف من المشاة، ورغم أنه خسر حياته ومملكته في مجابهة تالية مع جيش مصري نجده بعد فترة خمس سنوات من تتويجه ملكاً قد استولى على عكا، وضمن ما كان يحتاجه تقريباً: وهو ميناء آمن في كل الأجواء، وبعد تزويد حلفائه الجنوبيين والبنادقة بملاذ آمن لاسطولهم، انطلق ليستولي على صور، وقد اعتمد عليه في الدعم البحري والاتصالات مع أوروبا عبر البحر، وكان ناجحاً في تقوية مملكته، حتى أنه في نهاية حياته قرر غزو مصر في محاولة لتدمير عدوه القوي جداً، ورغم أن حملته بدأت جيدة، لكنه سقط صريع مرض مهلك قبل أن يتمكن من إنجازها، وحاول رجاله العودة به إلى الوطن ليموت، غير أنه مات عند العريش المدينة الحدودية الصغيرة، وأعيد جثمانه إلى القدس ودفن في كنيسة القيامة إلى جانب أخيه غودفري في أحد السعف سنة 1118»، ولدى موته اتسعت مملكته من بيروت شمالاً إلى بئر السبع في الجنوب، ومن نهر الأردن شرقاً إلى ساحل البحر المتوسط غرباً، عدا صور وعسقلان اللتين بقيتا في أيدي أعدائه، وكان ما قام به انجازاً عظيماً بحق.

وخلال حكم بلدوين الأول عاد العديد من الصليبيين الأصليين إلى أوطانهم، غير أن العديد منهم استقروا، وأمضوا بقية حياتهم في الممالك الصليبية فيما وراء البحار، لما كانت لدى مختلف مراتب رجال الجيش حافز قليل، أو لم يكن لديهم على الإطلاق ليقوموا برحلة العودة، ولعل كلمة «استقروا» مضللة، لأن حياة الممالك الصليبية خلال تاريخها، كانت مضطربة، وغير مستقرة، فقد كانت داخلياً تهددها النزاعات على الحكم بين الأسر الحاكمة الكبرى التي كانت تنافس وتحسد بعضها البعض، وغير قادرة على العيش مع بعضها في سلام، بينما كانت خارجياً تعيش على أرضية من الحرب الدائمة مع المسلمين، وقد تركز معظم تاريخ الحملات الصليبية على مجريات محيرة وملتوية للحروب الداخلية والخارجية، كان بالإمكان تجنبها،

والسبب كما أشار رفنسمان أعظم مؤرخ أنكليز حديث لتلك الفترة في كتابه تاريخ الحروب الصليبية: «لأن الحرب كانت الأرضية التي استندت إليها حياة الممالك الصليبية، وكانت نكبات القتال غالباً ما تقرر تاريخها»، غير أن الأحداث القتالية المتكررة في الزمن، كانت بعد ذلك كله ليست أكثر من أساس تلك الحياة التي طورت نموذجاً خاصاً بها مع مرور السنين، ومع ذلك لم يصفها المؤرخون، ولم يكن هاماً بالنسبة لهم كيف عاش معاصروهم عندما لم يكونوا يقاتلون، ولكن المواد المتناثرة خلال المدونات وأدب تلك الفترات فيها نذر يسير من المعلومات التي مكن منها تأليف صورة عن الحياة اليومية في الممالك الصليبية، خاصة تلك المتعلقة بالأسر النبيلة والطبقات المترفة.
المعلومات التي يمكن منها تأليف صورة عن الحياة اليومية في الممالك الصليبية، خاصة تلك المتعلقة بالأسر النبيلة والطبقات المترفة.

وكان الصليبيون الأوائل من الفرنسيين أو النورمانديين تقريباً، كما كانت الدويلات التي تأسست قد أحدثها دون شك، رجال فرنسيون، كان الجميع يتكلمون اللغة الفرنسية مما أدى بإخلاص إلى ظهور الطبقة أو البنية الإقطاعية للمجتمع الفرنسي المعاصر في الممالك الصليبية، في حين حلت الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها اللاتينية محل الكنيسة الأرثوذكسية وطقوسها الأغريقية، وخلال القرنين من وجودها لم تتغير ممالك الصليبيين في تلك المسائل، أما في نوع السبل الأخرى فقد تغيرت طريقة الحياة بشكل عميق بسبب شروط المناخ والطبيعة، وكذلك بسبب المصادر الطبيعية في الأرض، ومع مرور السنين خضع الأفرنج في الممالك الصليبية فما وراء البحار لعملية التشريق البطيئة، وكانت النتائج صدمة منتظمة للقادمين الجدد من الغرب، ولو أنهم كانوا أكثر عدداً مع أساليبهم وعاداتهم الغربية فلربما لم يتغيروا على مر السنين، ولكنهم خلال مجرى تاريخهم الكلي كانوا أقلية صغيرة عرقياً واجتماعياً في البلاد اليت حكموها، وقد قدر أنهم يقاربون ألف فارس مقيمين في مملكة القدس، رغم أن عددهم قد تضخم مع مجيء الزوار الجدد بين

الحين والآخر، وهو شيء حقيقي ينطبق على السكان الفرسان جميعهم لأمارة أنطاكية وكونتية طرابلس والرها، وكات عدد الفرنجة في الجيش الصليبي كبيراً، ومع ذلك فقد تفوق السكان المحليون عليهم بشكل كبير، وتألف هؤلاء من المسيحيين الناطقين باليونانية والأرمن واليهود والمصريين والعرب الذي كان بعضهم مسيحيين أو مسلمين، غير أنه لم يجر أي اتصال اجتماعي كبير بين الأفرنج وأولئك الذين حكموهم، وكان التزاوج بينهم نادراً إلى حد بعيد، حيث مال أفراد المجموعات الأرستقراطية من الأسر الحاكمة للتزاوج فقط من أفراد الأسر المشابهة، رغم أن القليلين تزوجوا من بيزنطين أو أرمن ذوي أصل نبيل وهم جميعاً مسيحيون، فقد كان محظوراً بشدة أي نوع من الاتصال الجنسي مع المسلمين، من زواج شرعي أو غير شرعي، وفي الواقع، أصدر مجلس نابلس سنة 1120 حكماً قضائياً بوجوب تشويه أو قطع أنف من يضبط مذنياً في الذهاب إلى فراش إمرأة مسلمة، في حين أن أفراد الأسر الأفرنجية الأقل رفعة شعروا بحرية الزواج من بنات مسيحيين محليين مهما كانت أصولهم العرقية، وكانت النتيجة مع مرور السنين أن سليلهم الذين عرفوا بالبلديين poulains كانوا غالباً ما يصعب تمييزهم عن أفراد السكان المحليين، وعلى النقيض حافظ البيازنة والبنادقة والجنوية الذين كانوا يمثلون مع مرور الزمن التجار والمقاولين على هويتهم أكثر من معظم الإفرنج، وذلك بسبب أنهم من ناحية كانوا يقطنون معاً في أحياء اتسعت لهم مع أمراء آخرين كانوا يعقدون معهم اتفاقاتهم، ومن ناحية ثانية كانوا يسافرون من والى إيطاليا في مناسباتهم التجارية، وهكذا لم يفقدوا اتصالهم مع مدنهم في الوطن.

أما الحياة في القرى فكانت نفسها مثل تلك في أزمنة «العهد القديم»، أو تغيرت قليلاً، غير أن القليل من الأفرنج استوطنوا، وحيثما كان ممكناً أشادوا أبنيتهم فوق قمم التلال، وذلك بسبب أن هذه المواقع يسهل الدفاع عنها أكثر من المواقع المفتوحة، ولأنها أيضاً كثيرة الرياح، ولذا فهي ألطف في الصيف، وأكثر مناسبة لذر الحنطة في وقت الحصاد، وتعين على الإفرنج

الذين كانوا يقيمون في القرى أن يتحملوا الظروف البدائية التي تحملها القرويون المواطنون، وكان هذا سبب عدم شعبيتهم، في حين تمتع أولئك الذين استوطنوا في المدن بأسباب الراحة أكثر، بحيث كان بعضهم يعيش في بيوت بسيطة ذات طابق واحد، غير أن معظمهم كان لديهم بيوتاً ذات طابقين، وكان الأغنياء في بيوت أفسح كثيراً دعوها بالقصور، وقد بنيت على طراز متوارث من الأيام الأغريقية الرومانية، كما كانت منتشرة في الحضارة العربية في ذلك الجزء من العالم، وكانت عادة تتألف من ساحة مربعة من الغرف في الطابقين تحيط بفناء مركزي، وبمعزل عن المدخل الرئيسي تتفتح جميع الأبواب والنوافذ على الساحة المركزية، كما ينفتح صف من الشرفات في البيوت المترفة جداً، وكانت سقوفها مستوية، وكان الناس ينامون في الطابق الأعلى بينما تبقى غرف الجلوس والطعام والمطابخ في الطابق الأرضي، وبخلاف رعاياهم الشرقيين الذين كانوا ينزعون إلى تناول طعامهم مثل الرومان قبلهم، كان الإفرنج يجلسون حول موائدهم عندما يأكلون، وتغطى المائدة بقماش وتضاء فوقها الشموع، أو مصابيح الزيت ليلاً، وعندما مرت السنون، وانتهت أسباب التحامل والتحيز ببطء، جهزت بأدوات مترفة مثل الملاعق والسكاكين والشوك والمصافق والكؤوس الزجاجية والصحون والأطباق الأنيقة الممتازة، التي أثارت حفيظة وغضب الصليبيين الأوائل، الذين عبروا القسطنطينية حيث شاهدوا آداب المائدة الرفيعة في بلاد ألكسيوس.

وتغيرت عادات الإفرنج الشخصية في عدة نواح أيضاً وليس جميعها، فقد استمر الرجال يرخون شعورهم الطويلة إلى الأكتاف، ويحلقون ذقونهم رغم أن العديد كان يربي شعور ذقونهم مثل تلك التي لدى السوريين واليونانيين، وكان في القدس حي الحلاقين قرب الضريح المقدس يذهب إليه العديد من السكان مرة أو اثنتين في الأسبوع، بينما كان يحلق آخرون عند العاملين في الحمامات العامة، وكان لدى المدن الأخرى أسباب الراحة المشابهة بشكل ظاهر، أما النساء فقد جدلن شعورهن على شكل جديلتين

طويلتين، وزين وجوهن وارتدن ملابسهن المناسبة، وقد بهت رحالة أندلس كان في مملكة القدس سنة 1181 وكان يدعى ابن جبير - بهت برؤية عروس أفرنجية في يوم زفافها في صور وكتب يقول: «وكانت في أبهى زي، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة». ونادراً ما كان الرجال أقل روعة حيث استمروا لفترة من الزمن يرتدون الملابس الأوروبية التي تألفت من الجوارب الطويلة، والقميص ذي الأكمام الطويلة الضيقة، وفوقه سترة قصيرة طات أكمام قصيرة ايضاً، ومهما كانت تلك الملابس مصنوعة من الصوف الرائع أو القطن أو الكتان او الحرير، فقد كانت متنوعة الألوان ومزينة بشكل متألق بخيوط الذهب والفضة، ومع مرور السنين تخلى الفرسان عن الأزياء الغربية، وبعد عودتهم من أي قتال كان قد حظي باهتمامهم في ذلك الوقت، كانوا ينزعون دروعهم، ويرتدون أردية حريرية مزودة بقبعة في الصيف وفي الشتاء الفراء.

ولعل أكبر تغيير في عاداتهم حدث حول مستوى صحتهم الشخصية ونظافتهم، كان الاستحمام في أوروبا مكروهاً. ولكنهم في مناخ الممالك الصليبية بدأوا يناصرون الحمامات العامة الموجودة في كل مدينة، وكانت تشبه الحمامات التركية هذه الأيام، والحمامات الرومانية في العصور القديمة. حيث يخلع المستحم ملابسه ويضع منشفة حول وسطه وفي قدميه قبقاباً (صندلاً) رغم أن بعض الإفرنج كانوا في بعض الأحيان يسغنون عن المنشفة. وكتب الأمير العربي أسامة أحد أفراد أسرة آل منقذ الحاكمة المستقلة في قلعة في شيزر قرب حماة وكان قد ارتحل كثيراً خلال الممالك الصليبية، وأقام صداقات مع بعض الإفرنج، كتب في مذكراته يشكو أن بعض الناس لم يكلفوا أنفسهم عناء لف منشفة حول أوساطهم بل استحموا وهم عراة، وسواء ارتدى المستحم منشفة أو لم فإنه كان يدخل غرفة ساخنة حيث كان يتعرق ثم بعد

تعرقه بشكل كاف كان ينادي على عامل هناك يقوم بدهنه بالصابون على جسمه كله ثم يفركه ويجففه بمنشفة أخرى، وقبل مغادرته يستريح قليلاً في حجرة انتظار مزودة بأرائك حيث يجلس لينال قسطاً من الراحة، ولقد أصبح الاستحمام جزءاً كبيراً من أسلوب حياة كل فرد حتى إنه كان مطلوباً في مناسبات معينة. فمثلاً كان يفرض على الشباب الباحثين عن الأذن ليصبحوا مترهبنين مبتدئين في واحد من التنظيمات العسكرية - أن يستحموا في الحمامات العامة قبل قبولهم رسمياً، كما كانت النساء يستحممن مراراً كالرجال مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً ولا حاجة إلى القول أنهن كن يستحممن بمعزل عن الرجال.

وإذا كان الإفرنج في الممالك الصليبية أكثر نظافة منهم في وطنهم في أوروبا، فإنهم كانوا أفضل طعاماً أيضاً، فلم يكن طعامهم غنياً ومتنوعاً فحسب بل كان يطبخه السكان المحليون الذين كانوا بارعين في المطبخ، وكانت أطباق الدجاج وطيور السماني والحجل والحمام وفية. كما كانت لحوم الضأن والبقر والرت والوعل والغزال والأرانب تطبخ مع الثوب والأعشاب الطيبة وتتبل مع الخردل والفلفل أو تقدم مع الصلصة اللذيذة كما كانت هناك وفرة في أسماك المياه العذبة، بحيث كان الأنقليس يعتبر طعاماً مترفاً، تضمنت مائدة الخضروات المطبوخة الحبوب والبازلاء، والحرفش و(الأرضي شوكي) ونبات الهليون والرز، في حين كان الخيار والخس يؤكلان طازجين، وعندما قدم الإفرنج أول الأمر، دهشوا بالأشياء الجديدة، ولتنوع الفاكهة والثمار التي وجدوها تنمو في كل مكان، والتي لم يسمعوا بها أو رأوها أو أكلوها من قبل، حيث كانت ثمار الموز والبرتقال والليمون والبلح والخروب وثمار شجر الجميز التي دعوها بتين فرعون، ثم العنب والدراق والخوخ والسفرجل والتين العادي، ثم هناك الجوزيات بما فيها اللوز، ونظراً إلى أن تحريم الخمر بالنسبة للمسلمين لم تكن ثمة كروم عنب، ولكن هذا النقص عولج بسرعة، وبعد عدة سنين اصبح الخمر متوفراً، وأغلبه من النوع الجيد، وفي حرارة الصيف كان

يبرد بثلوج لبنان، التي كانت تنقل محفوظة بالقش من الحرارة، وكان الخمر يشرب في البيوت الخاصة أو في الخانات، كما كانت البيرة شائعة، أما عصير الفواكه فكان رخيصاً ومتوفراً.

وفي فترات السلام بين الحروب مارس بعض الإفرنج التجار بضروبها المتعددة، كما كانوا بنائين عظاماً، كما تشهد بذلك كنائسهم قلاعهم، على رغم من أن الكثير من أعمال بنائها قام بها العرب والسكان المحليون الآخرون، وتثبت علامات البنائين الموجودة فوق بعض أحجارهم نشاط الحرفيين الإفرنج، واشتهرت المنطقة المحيطة بصور بفخارها وزجاجها، وقد كشف عن فرن لصهر الزجاج في الضفة الغربية قرب عكا. ولابد أن بعض الصليبيين قد تعلم كيفية نفخ الزجاج من جيرانهم العرب، الذين كانوا يصنعونه منذ الأيام الرومانية وحتى قبلها، ويبدو أن البنادقة الذين استولوا على أجزاء واسعة من صور والريف حولها قد تعلموا أن يكونوا صانعي زجاج هناك، كما ازدهت صناعة المنسوجات في الممالك الصليبية أيضاً وعلى الأرجح استخدم بعض الإفرنج في إنتاج الأنسجة الحريرية والقطنية، وكما هي الحال الآن كانت أكثر الصناعات ازدهاراً هي صناعة الآثار والتذكاريات للحجيج، الذين كانوا يقدمون في أعداد ضخمة لزيارة الأماكن المقدسة بالنسبة للعقيدة المسيحية، ولابد أن الإفرنج المقيمين قد انهمكوا في تلك التجارة الرابحة كثيراً.

وإذا لم يكن الانهماك في التجارة قد عدّ من قبل بعض المواطنين الإفرنج من غير الأرستقراطية عملاً لا يخل بالكرامة، فإن الفرسان قد احتقروها باعتبارها لا تليق بمنزلتهم النبيلة، فقد كانت الحرب حرفتهم وعندما كانوا لا يتقاتلون مع بعضهم البعض أو مع جيرانهم المسلمين، كانوا يمضون أوقاتهم في الصيد، وكانوا يطاردون وهم مسلحون بالرماح على ظهور خيولهم حيوانات صيد مثل الأسود والنمور والذئاب والدبب من أجل المتعة التامة في المطاردة، كما اصطادوا الغزلان وحيوان الرت والوعول والأرانب من أجل

الطعام، وطبعاً تعرض أشخاص منهم للأذى أو القتل لقلة انضباطهم، أما صيد الثعالب فكان يتم بمجموعات كلاب صيادة معدة للقيام بتلك المهمة، واشتهرت بعض أجزاء البلاد بالتفوق الرياضي الذي كان يتم فيها، فكان جبل تابور وغابات بانياس على سفوح جبل الشيخ وسهل عكا، مشهورة بصيد الثعالب، ولعل الرياضة المفضلة لطبقة النبلاء هي البيزرة، وكانت تدفع أسعار باهظة للصقور الجيدة، ووصف أسامة عملية صيد قرب عكا أطلق فيها رجل من جنوة صقره وراء طائر الغرنوق قائلاً: «فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الإفرنج، ومعه باز كبير، وقرنص بصيد كراكي، ومعه كلبة صغيرة، إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه، عضته فلا يقدر على الخلاص منها».

وبعد متعة المطاردة. كانت لقاءات السباق والمنافسات بين الأماكن تقوم، وكانت شائعة بشكل فريد. كما كانت حلقات السباق تنعقد خارج إحدى المدن أو البلدات الكبرى بحيث كان السكان يقدمون من مسافات أميال للاشتراك فيها، بينما يحتشد السكان المحليون لمشاهدتهم، ولذا كانت المباريات دائماً أموراً مبهجة رائعة وتتألف بشكل رئيسي من الألعاب الحربية حيث شاع القتال الفردي بين فارسين متكافئين، أو بين مجموعة فرسان في قتال صوري أيضاً، حيث كان الجانبان المتنافسان يتلاكمان في الهواء الطلق، ويختا الفارس خصمه، وعند إعطاء إشارة الهجوم يبدأ الجانبان في الصراع، وتطرح المدي أرضاً، وعندما يضعف الطرفان يقوم الباقون في المركز بالهجوم الواحد بعد الآخر مرة بعد أخرى حتى يعلن أخيراً الفارس الذي خلع أكبر عدد من الخصوم أنه بطل المباراة، كانت تلك الأحداث ذات فائدة في التدريب على الأعمال الحربية الجدية والخطيرة، وكان ثمة جانب أخف أو ألطف في المباريات أيضاً. فبعضها أقرب للتهريج منها إلى التدريب العسكري، ووصف أسامة في مناسبة أخرى عندما كان حاضراً كمشاهد كيف برز الفرسان لممارسة رياضة بالمدية، ومعهم امرأتان عجوزتان عاجزتان وقفتا فوق صخرة، ثم

جعلت المرأتان العجوزتان تركضان في السباق حيث يرافق كل واحدة فرسان على نحو منفصل يحثانهما على الاستمرار في الركض. وعند كل خطوة تتخذها المرأتان العجوزتان تقومان بالسقوط على الأرض ثم النهوض مرة أخرى في حين يضج المشاهدون بالضحك، وتتقدم إحداهما أخيراً إلى النهاية وتفوز بالخنزير».

وعندما كان الإفرنج لا يخرجون خارج بيوتهم للتسلية والمتعة كانوا يقومون بإمضاء أوقاتهم في البيوت أو بزيارة أصدقائهم، ومع مرور السنين أصبحت بعض منازلهم مترفة إلى حد الدهشة، وفي الواقع كانت مترفة جداً إلى درجة صدمت القادمين الجدد من الغرب فيما بعد، فنظير بيوت البيزنطيين الأغنياء كانت بعض قصور بعض الإفرنج الأغنياء مفروشة بالسجاد الفارسي والستائر الدمشقية، والأرضية الموازيكية، والجدران المرصعة بالرخام والأثاث المحفور من العاج أو من الخشب النادر، أو مزينة بأدوات خدمة المائدة من الفضة أو البورسلين الصيني المجلوب مع القوافل القادمة من الشرق، كما كان أصحابها ينامون في أسرة مريحة مزودة بالأغطية الكتانية الناعمة، وفي بعض المدن الشمالية حيث المياه متوفرة كانت المنازل الكبيرة تحتوي على حماماتها الخاصة مع المياه الجارية، وكان الناس يلعبون لعبة النرد، وكذلك الشطرنج بالإضافة إلى الشرب في البيوت والحانات، وشاعت حالة الإدمان على الخمور، وقام الملحنون العازفون المتجولون بأداء عروضهم، وكذلك كانت أدوار التهريج والتقليد تؤدي في الساحات المفتوحة، وفي المدينة بحيث كان يحضرها الكثير من الشعب، وكان المؤدون للأدوار يعتبرون أدنى في المنزلة الاجتماعية، لكنهم كانوا أحسن قليلاً من بائعات الهوى اللواتي كن منتشرات في شوارع كل مدينة.

ومهما يكن الحال، كانت جميع تلك المهن، حكراً على الذكور، ومن الصعب جداً كشف ما كانت النساء الإفرنجيات يفعلن في أوقات فراغهن، فلا شك أن الجزء الأكبر من حياتهن قد صرف للإعداد للزواج، أو بعد زواجهن

لإنجاب الأطفال، رغم أن القليل من أطفالهن عاشوا إلى عمر خمس سنوات، ولكن الجميع اعتادوا على حقيقة كون الموت يأتي عند أوسط العمر، وقد سلموا بأمر موت العديد من أطفالهن تسليمهن بطريقة ترتيب الزواج لديهن، ولم يكن غريباً على الإطلاق بالنسبة لأطفال الطبقات العليا أن يتزوجوا عندما يبلغون من العمر خمسة أو ستة أعوام على أمل أنه في يوم ما ربما كبروا، وحققوا اتحادهم وأنجبوا بعض الأطفال المرغوبين في السلالة، وربما زوجت الطفلة في ظروف أخرى إلى شخص بالغ كبير جداً كي يتم ضم الأسرتين الحاكمتين في اتحاد سياسي مرغوب، وعلى سبيل المثال تزوج بلدوين الثالث ملك القدس الأميرة البيزنطية الصغيرة ثيودوط البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، بينما كان عمره سبعة وعشرين، وقد قام بذلك لاسباب سياسية تماماً، رغم أنه، كما حدث الأمر، وقع في حبها بعد تلك الحادثة وكان زواجه سعيداً إلى حد كبير طيلة بقائه، الذي لم يدم فترة طويلة لموت [بلدوين] بعد أربعة أعوام، وانطلقت أرملته الشابة لتبرهن أن الزواج وإنجاب الأطفال لم تكونا التسلية الوحيدة المباحة للنساء في الممالك الصليبية. فقد كانت لديها فضيحة مع نبيل بيزنطي وسيم، في متوسط العمر، اسمه أندرونيكوس كومينوس الذي كان مدمناً على مثل تلك الأمور، وقبل التقائه بثيودوار سبق وأغوى ابنة أخ الامبراطور البيزنطي وكانت تدعى يوبوشيا، كما أغوى أخت الأمير فيليبا أخت بوهموند مما أثار غضب أنسبائهما الأقربين.

وبالنسبة لمستوى المعيشة عند الإفرنج في الممالك الصليبية فقد كانت أعلى من أي مستوى عرف في الوطن في أوروبا، وكذلك تمتعوا بمستوى أفضل من العناية الطبية أيضاً. فقد نالوا أطباءهم مع مرور السنين خبراتهم من العرب الذين تقدموا على أطباء الغرب، وفي الواقع وخلال مرور السنين، كان الجميع يستشيرون الأطباء المحليين بالأفضلية على رجالهم في ذلك المجال، وأبدى المؤرخ وليم الصوري كيف «احتقر معاصروه الطب مع ممارسة أطبائنا اللاتينين، وصدقوا فقط اليهود والسامريين والسوريين والمسلمين»، وفي أوج

ازدهارها وقوتها كان لدى الممالك الصليبية على الأغلب مشافي أكثر وأكبر في الحجم من البلدان الأخرى، فكان في القدس وحدها أربعة مشافي، كما كان لمدن عكا ونابلس وعسقلان ويافا وصور مشافيها الخاصة، وكانت تدار أشهر المؤسسات الطبية من قبل الفرسان الاسبتارية في مشفى القديس يوحنا في القدس. وقد كرست حياة هؤلاء الفرسان الرهبان للعناية بالمرضى ومعالجتهم بينما كان يفترض أن تأخذ واجباتهم العسكرية دوماً المكان الثاني، وكانت مهمتهم الرئيسية العناية بالحجاج، وقد بنيت مشافيهم الأولى لتهيئ أسباب الراحة للزوار المرضى القادمين إلى الأراضي المقدسة، واحتوت كل مشفى أربعة أطباء وأربعة جراحين، وقد وضعت قواعد مفصلة للطبقة الكهنوتية حول كيفية تغذية المرضى وترتيب أسرتهم، ومواعيد علاجهم، ونوع المعالجة والدواء الواجب إعطاءهم.

أما الاسبتارية كما أصبحوا يعرفون. فقد نظمهم ناسك يدعى جيرارد كان في القدس عندما حاصرها الصليبيون وكان مسؤولاً عن مشفى مسيحي صغير. وقد قيل عنه فيما بعد أنه ساعد أخواته المسيحيين خارج المدينة بقذفه الخبز إليهم من الأسوار، حينما كانوا في أشد ساعات جوعهم في حين كان يخبر المدافعين المسلمين أنه كان يمطرهم بالحجارة، ومع ذلك كشفت خدعته وقبض عليه واقتيد أمام حاكم المدينة المسلم، ووجهت إليه تهمة الخيانة، وعندما قدمت أحمال الخبز كأدوات جرم تحولت على نحو معجز إلى أحجار، وبرئت ساحة جيرارد وأكسبته القصة شعبية هائلة بعد الاستيلاء على المدينة، وانتهز فرصته ليوسع ويعيد مساهمته في مشفاه، ويجند ناسكين للخدمة فيها، ومنحه غودفري أوف بوليون قلعة ومخبزين في القدس نفسها، ولم تمض فترة حتى أغدق الملوك والنبلاء والأمراء في العالم المسيحي الغربي على جيرارد المنح والممتلكات في مقاطعة بروفانس وفي بلدان أسبانيا وانكلترا وإيطاليا والبرتغال، التي سلمت إليه لتصبح وقفاً على هيئة الاسبتارية، وتدفقت أيضاً جماعات المتطوعين للمنظمة الجديدة، وهم شبه عسكريين وشبه رهبان،

وسدوا الحاجة للعديد من الرجال الذين تاقوا لتكريس أنفسهم للحياة الدينية رغم مهارتهم الوحيدة في العسكرية، والذين تكيفوا بشكل حسن للحياة النشيطة أكثر من الحياة السلبية الكمالية.

وألف في نفس الوقت تقريباً فارس بيرغندي اسمه هيو أوف بينيس جماعة الفرسان عرفوا بالداوية أو الفرسان الفقراء التابعين للمسيح وهيكل سليمان الذي أعطاهم لقبهم الكامل وكالاستبارية، كان هدفهم حماية الحجاج من هجوم المسلمين أو اللصوص في طريقهم إلى القدس والأماكن المقدسة، وفي البداية كانت ثمة ثمانية فرسان أعضاء، ولكن من هذه البداية المتواضعة نمت الجماعة لتصبح قوة غنية بشكل هائل، رغم تكرسها الرسمي للتقشف، وكان لدى الجماعتين الرهبانيتين، الاسبارتية والداوية، نفس التركيب، وكانتا مقسمتين إلى ثلاث طبقات: الفرسان ومنهم يختار مقدم يحكم بسلطات استبدادية، ينبغي أن يكون نبيل المولد، وطبقة ضباط النظام من عائلات أقل غنى ومكانة (أرستقراطية)، وأخيراً طبقة رجال الدين وتمثل القساوسة، وتؤدي المهام غير العسكرية، وبعد قسمهم على التقشف والإحسان والطاعة، أصبح الأعضاء في كل هيئة فيلقاً من الجنود الممتهنين المكرسين كلية والذين لم يكن ينافسهم أحد في العالم في ذلك الوقت، حيث كانوا هيئة ممتازة، وقد عرفوا ذلك، كما أصبحت شجاعتهم مثلاً ونموذجاً بين أصدقائهم وأعدائهم على السواء، وقد وافقوا بكل رضا على الذهاب إلى أي مكان وفي أي وقت وعلى الفور، وقاتلوا بشكل ثابت في أشد الأماكن خطورة، وكاد بعض الداوية والاسبتارية أن يشابهوا في أذهان الصليبيين «الفرسان المثاليين في التصور الخيالي»، ولا حاجة إلى القول بأنهم كانوا قديرين جداً بالنسبة لحكام الممالك الصليبية الذين استخدموهم كالوحدات الخاصة المستخدمة في هذه الأيام، ولسوء الحظ طوروا أخطاءهم الفاضحة التي أفسدت سجلاتهم، فقد تحولت المنافسة الطبيعية بين الهيئتين تدريجياً إلى كراهية مريرة مشتركة، وبذلك بغضت الواحدة الأخرى، كما نمت قوتهما لتميل كلاهما إلى اعتبار

نفسها القانون، وأصبح صالح الهيئة يعتبر أهم كثيراً من الصالح العام، وإذا لم يُعجب أعضاء الهيئة أية أوامر خاصة صادرة عن الملك فإنهم كانوا ببساطة يهملونها.

وبعد أن التحقت هيئة الفرسان التوتون [الألمان] بالهيئة الداوية والاسبتارية، غدوا الهيئات العسكرية الوحيدة لدى الصليبيين إنما ليس الهيئات الدينية الوحيدة، بسبب أن جميع الرهبانيات الضخمة التابعة للكنيسة الكاثوليكية كانت لديها بيوتات هناك، كما كانت القدس مليئة بالأديرة التي منها الأديرة الأوغسطينية على جبل صهيون، وجبل الزيتون، ولعل الدير البنديكتي للقديسة ماري لاتينا كان أهمها، كما كان للبندكتيين كنيسة صغيرة في بيسان ولأتباع دير كلوني كنيسة أخرى على جبل تابو ولأتباع fremonstratensians ثالثة فوق جبل MONTGOIE ولأتباع Carmelles على جبل كرمل. وأتباع cisterians (البندكتيين) في أنطاكية وطرابلس. كما انتشرت أديرة صغيرة أخرى في جميع أنحاء البلاد، بالإضافة إلى العديد من الأديرة الأرثوذكسية واليونانية التي كانت موجودة قبل وصول الحملات الصليبية، أما دور الكنائس المنشقه مثل الكنيسة اليعقوبية والكنيسة المارونية والكنيسة القبطية التي تسامح معها المسلمون، وكانت مباني الكنائس أكثر عدداً من البيوتات الدينية حيث كانت في القدس وحدها سبعة وعشرين مبنى وأربعين في عكا واثني عشر في صور، ولم تكن هذه المدن استثنائية في هذا المجال، حيث كان الدين مركز حياة كل شخص، ولذلك كانت كلمات جيمس أوف فتري الذي كان أسقف عكا في القرن الثالث عشر تقول: «ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة ذات عدد من رجال الدين النظاميين والشخاص الدينيين، والناسكين والزاهدين، والكهنة، والراهبات والعذارى المنعزلات والطاهرات والأرام المقدسات»، وكانت القدس النقطة المركزية لكل هذا التكريس والنشاط الدينيين، ولكن كان يحتفل بعيد الميلاد في بيت لحم، وكانت تلاحظ الاحتفالات العظيمة الأخرى للكنيسة في أماكن مرتبطة معها تقليدياً: مثل

خميس الصعود على جبل الزيتون وأحد العنصرة على جبل صهيون والجمعة الحزينة عند الجُمجُمة (موضع صلب المسيح) (المعجم). وعيد الفصح في كنيسة الضريح المقدس حيث يحتشد الكثيرون سنوياً لمشاهدة «معجزة النار المقدسة» عندما أوقد ألسنتها الرب، لإضاءة مصابيح الكنيسة.

أما في الحياة اليومية فقد كان الإفرنج قادرون على الضراوة المروعة والكرم والشهامة العظيمين، كما كان في الواقع أعداؤهم وجيرانهم المسلمون، ولم تنحصر هذه الحدود القصوى من التصرف في زمن الحرب عند أي من الجانبين، ولنعطي مثالاً واحداً من طراز ضراوة الإفرنج، فقد اعتقل سنة 1332 فارس بريتوني لاتهامه بجريمة قتل ونظراً إلى أن ضحيته كانت معروفة كعدو، لملك القدس الأسمى، فإن بعض الشك قد جاء حول الملك الذي كان يتوق ضمناً لنزع اسمه، واعتقل البريتوني واعترف بذنبه مؤكداً ألا علاقة للملك بالجريمة، ولم يرض ذلك الملك، وأدين الرجل بحكم الإعدام بتقطيع أطرافه ونفذ الحكم في حينه أمام العامة، وعندما قطعت أطرافه الواحدة بعد الأخرى، وبقي رأسه سئل مرة أخرى عما إذا كان الملك مساعداً في الجريمة، فأنكر ذلك مرة أخرى وأقنع ذلك أخيراً معذبيه الذين قطعوا رأسه.

فمثل هذه الوحشية مروعة، لطفتها بين الحين والآخر بعض أعمال الشفقة والشهامة الرائعتين، التي تعطي مثالاً واحداً فقط مرة أخرى، فبعد تتويج بلدوين الأول ملكاً على القدس سنة 1100 علم بخبر قافلة غنية من العرب كانت مرتحلة خلال شرقي الأردن وقرر أن يقوم الهجوم عليها فقاد قوة فرسان صغيرة عبر الأردن وأغار على العرب ليلاً بينما كانوا نياماً في خيامهم، ونجا القليل، أما الأكثرية فقد قتلت في حين ألقي القبض على النساء والأطفال مع كميات كبيرة من الغنائم والأموال، والبضائع الثمينة، وكانت بين النساء الأسرى إمرأة أحد شيوخ القبيلة، التي كانت حاملاً، وعلى وشك الوضع. وعندما علم بلدوين الأول بحالها أصدر أوامره على الفور بوجوب إطلاق سراحها مع خادمتها الخاصة، وإعطائهما جملين وتزويدهما بوفرة من الطعام

والشراب، وولدت المرأة عند جانب الطريق بعد فترة من تحريرها حيث وجدها زوجها هناك، وقد تأثر الزوج بأريحية بلدوين فسارع إلى شكره.

وخلال تاريخهم كله بقي الإفرنج في الممالك الصليبية الجنس الغالب، مثل وضع البريطانيين في الهند خاصة بالنسبة للحكام الأوائل، الذين وجدوا أنفسهم أفضل بكثير في وطنهم الجديد مما كانوا في أوروبا، وذلك كان هناك تدفق مستمر تماماً من القادمين الجدد من الغرب ووصف فاتشر أوف تشارترز الوضع قائلاً: «لحق أقرباؤنا وتابعونا بنا كل يوم تاركين خلفهم، ربما دون رضا، كل ما يخصهم، لأن الفقير هناك يجد أن الرب جعله غنياً في هذه البلاد، وكذلك من كان يملك القليل من المال أصبح يملك قطعاً ذهبية لا حصر لها، ومن لم يملك ضيعة أصبح الآن يتمتع بقرية حباه الله بها، فلماذا يعود المرء إلى الغرب في حين وجد في الشرق مثل هذا؟ لماذا بالحق! ومع مرور الوقت تعلم الإفرنج في عدة نواح أن يعيشوا في شروط ودية مع جيرانهم المسلمين، وفي حين استمرت عملية «التشريق» لتغيير عاداتهم تضاءلت الفروق السطحية بينهم، وترسخت طريقة عيش ثابتة بين الجانبين، وكتب فلتشر أوف تشارتز يقول: «أصبحنا نحن الغربيين شرقيين كما أصبح الشخص الذي كان إفرنجياً، أو رومانياً في هذه البلاد جليلياً أو فلسطينياً، والذي اعتاد أن يعيش في الريمس أو في تشارترز وجد نفسه مواطناً من صور أو عكا، لقد نسينا أماكن ولادتنا، فالعديد منا لا يعلمها، أو لم يعد بأية حال يسمع الناس يتكلمون عنها. حيث لدى بعضنا في هذه البلاد بيوت خدم تخصه مثل حق موروث ، بينما تزوج آخرون زوجات لسن مواطنات، ولعلهن سوريات أو أرمنيات، أو حتى مسلمات رحبن بنعمة التعميد، فأصبح من كان فيما مضى غريباً هنا مواطناً محلياً».

ولكن شيئين منعا هذه العملية الاندماجية البطيئة من الخروج في شكل قبول كامل للإفرنج من قبل جيرانهم غير المسيحيين: حيث لم ينس الملسمون المذابح بحق مواطنيهم من قبل المسيحيين في أنطاكية والقدس، وخلال تاريخ

الممالك الصليبية كان ثمة تدفق ثابت من القادمين الجدد من الغرب الذين كان سؤالهم الأول لدى وصولهم «أين أجد مسلمين أقتلهم؟»، ومرة بعد أخرى يصل فرسان متحمسون متفجرون بالتصميم للقيام بخدمة الرب عن طريق تذبيح بعض أعداء المسيح الذين عقد معهم مواطنو الممالك الصليبية اتفاقية، أو أبرموا هدنة لم تكن لازمة لصالحهم، فحسب بل أحياناً ضرورية لاستمرارهم، ولكن تلك الإجراءات السياسية بدت تقريباً كفراً بالنسبة للمسيحيين البسطاء القادمين من الغرب، ولم يضبطهم شيء عادة ويمنعهم من الاندفاع من الأراضي الواقعة تحت السيطرة المسيحية في فورة وضراوة وإيمان عميق وإصرار جهنمي على سفك الدماء. وكانت حقيقة أنهم غالباً ما جعلوا أنفسهم يقتلون في الإغارات نوعاً من التعزية البسيطة بالنسبة للإفرنج المعذبين الذين تعين عليهم ان يعيشوا مع تعاقب عدواتهم الذي تضمن في الغالب تجديد الصراع مع جيرانهم حيثما رغبوها، ومع ذلك، لم يحاولوا ثني المهاجرين القادمين من الغرب، لأنهم كانوا في حاجة دوماً للقوة البشرية. في حين كانت الإمدادات القادمة من وراء البحار تعوض الشرين التوأمين في نسبة المواليد المنخفضة، وفي نسبة وفيات الأطفال العالية في نفس الفترة، وعندئذ أخفقت الممالك الصليبية. لقد كانت أزمة قدّر لها ألا تحل إلا عن طريق الانقراض النهائي للممالك التي أسسها الصليبيون الأوائل، لأنه في حين كان ما يزال هناك متطوعون قادمون من الغرب راضين للقتال لنصر النصرانية كما فهموها، ازدادت نار الحقد عند المسلمين حتماً، وعندما خبت حماستهم أخيراً ولم يعد مزيد من المتطوعين يقدمون ختم على قدر الممالك الصليبية.

الفصل الثاني عشر

موجة عارمة

هناك تيّار مدّ في أعمال الرحال تصنع السعد عندما تفيض وتغفل رحلة الحياة كلها وتتركهافي العذاب والأطراف على مثل هذا البحر سنطفو ونركب التيار عندما يغذو مناسباً أو نخسر مغامرتنا

وليم شكسبير ـ يوليوس قيصر

بد فترة من التشاحن تلت وفاة بلدوين الأول في سنة 1118 خلفه ابن عمه بلدوين أوف لي بورج الذي اتخذ لنفسه لقب بلدوين الثاني الذي كان أحد الصليبيين الأوائل الذين قدموا مع غود فري أوف بوليون، وعندما جعل بلدوين الأول ملكاً للقدس احتل مكانه في الكونتية في الرها، وقد كانت شجاعته وقدرته العملية بعيدة عن الشك، وهو لم يختر من أجل هذه الميزات، بل إن ميزته الرئيسية كانت في الموقع حيث كان بوستاس أوف بوليون، وهو أخو الملك الأخير وقريبه، قد عاد إلى فرنسا، وكان بلدوين لي بورج ضخم الجسم، جميل الشعر ذا لحية شقراء، بينما ذوقه بسيط، ثم كان متديناً إلى درجة الورع حيث كانت حياته الخاصة فاضلة تماماً، على خلاف سلفه، كما تزوج من سيدة أرمنية مباركة اسمها مورفيا أخلص لها بعمق وصدق.

وفي الوقت الذي توج فه كان قد مات أغلب النبلاء الكبار الحقيقيين الذين لم يعودوا إلى مقاطعاتهم في أوروبا. فقد مات سنة 1105 ريموند أوف تولوز الذي وضع أخيراً هيمنته الصغيرة لنفسه في لبنان وطرطوس عاصمة لها، مات متأثراً من جراحه التي تلقاها قبل أشهر بينما كان يحاول الاستيلاء على

طرابلس. أما بوهموند الذي أمضى سنتين سجيناً لدى الأتراك، فقد عاد إلى أوروبا لدى إطلاق سراحه حيث حاول إقناع البابا بالتبشير لحملة صليبية ضد البيزنطيين، وقد نجح بعض الشيء في ذلك، ولكنه عندما قاد هجوماً ضد القلعة البيزنطية العظيمة في ديراخيوم أو دورازو الحديثة في ألبانيا، هزم تماماً، وبعد هزيمته المخزية وعدم جرأته على العودة إلى الشرق خوفاً من الامبراطور البيزنطي، عاد القهقرى إلى مقاطعته في جنوب إيطاليا، حيث مات في ظروف غامضة سنة 1111، أما تانكرد الذي برهن على كونه محارباً وأكثر الصليبيين قدرة، والذي شابه بلدوين الأول، فقد انطلق كمغامر مفلس ومات بعد سنة قبل عيد الميلاد عن عمر يناهز السادسة والثلاثين عاماً، ولكنه حقق سلطة حقيقية لنفسه كأمير على الجليل، وولي للعد في أنطاكية في غياب بوهموند، وأما ستيفن أوف بليوس الذي دفعته زوجه القاسية أديلا ليعود إلى الشرق، ويرمم سمعته الملطخة، فقد نفذ ذلك بموته في معركة في الرملة، وقد أصاب قدراً مشابهاً هيو أوف فيرماندوس الذي قرر أيضاً العودة إلى الأرض المقدسة، ليحل قسمه بالذهاب إلى القدس، فمات متأثراً من معركة مع الأتراك في طريقه هناك قبل أن يفي بنذره.

ورغم موت الحرس القديم وظهور شخصيات جديدة على مسرح الأحداث في الممالك الصليبية، فقد شعر الإفرنج أنهم نجحوا إلى حد بعيد، وعندما اعتلى بلدوين الثاني العرش، امتد الحكم الأفرنجي من سهول الفرات حول الرها في الشمال عبر أنطاكية ومعظم المدن الساحلية في سورية وفلسطين إلى الخليل وصحراء البحر الميت في الجنوب، وشمل حتى جميع المقاطعات الإسلامية الصغيرة في هذه المنطقة الواسعة، والتي لم يتم إخضاعها بعد، ومع ذلك فقد استقبلت أخبار نجاح الحملة الصليبية الأولى بحماسة شديدة في أوروبا، إلى درجة سببت تدفق حشود صغيرة من المتطوعين الجدد إلى الشرق، وقد قتل العديد من هؤلاء من قبل الأتراك، خلال عبورهم هضبة الأناضول، ولكن الذين وصلوا ساعدوا في تعزيز الإفرنج المقيمين، ولم ينقص موت

الآخرين من الجو العام من الثقة والنجاح اللذين سادا في ذلك الوقت، ولقد كانت ثمة قوى مختلفة محركة في المجتمع الإفرنجي وفي البلدان والامارات الإسلامية المتعددة التي أحاط بها الإفرنج، والتي سرعان ما غيرت بشكل حر ميزان القوى بينهم وبين أعدائهم.

وحتى ذلك الوقت ورغم تشاحن وتخاصم قادة الحملة الصليبية باستمرار بين بعضهم البعض كانوا أوقات الأزمات يقاتلون كتفاً إلى كتف تماماً من أجل حياة عزيزة، وفي نفس الوقت لم يكن خصومهم المسلمون متفرقين في تاريخهم الشامل كما كانوا عندما برز الصليبيون الأوائل في عالمهم، أما تجزئتهم فتعود إلى أسباب عداء عرقية وعاد بعضها إلى المنافسة السياسية وأخرى إلى الطائفية الدينية، وكان العرب الذين فتحوا المقاطعات البيزنطية في سورية ومصر وفلسطين قد كرهوا الأتراك الذين قهروهم بدورهم، واعتبروهم برابراً كما كرهم الفرس في الشمال وقد كان لديهم سبب وجيه أيضاً لكرههم باعتبارهم همجيين غير مدنيين، وانقسم الأتراك إلى قبائل متنافسة تفتقر إلى الحب بينها، كما كان الأتراك السلاجقة متورطين بصراع مع أبناء جلدهم من الدانشمند، ولا حاجة إلى القول أن السكان المحليين في سورية وفلسطين الذين قهروا وغلبوا من قبل العرب[1] والأتراك كانوا يكرهون الطرفين لأن أغلبيتهم من المسيحيين، وحتى أولئك المسلمين بينهم رحبوا بالصليبيين وكانوا مبتهجين بهزيمة فاتحيهم السابقين.

وقد اشتهدت الكراهية العرقية بالمنافسة السياسية الحادة بين الحكام الأتراك في المقاطعات المتعددة ذلك لأنهم كانوا في حالة تباغض شديد بين بعضهم بعضاً فقد ترأستهم طبقة أرستقراطية حكم أعضاءها مدناً هامة مثل حلب ودمشق، وكانوا يتربصون ببعضهم بعضاً مثل الأوشاق في تصميمهم ألا

(1) هذه مغالطة شنيعة فبلاد الشام هي عربية منذ فجر التاريخ، وكان التركمان غرباء، إنما حكموا باسم الإسلام وفي إطار الخلافة العباسية.

يدعوا أحدهم يصبح أقواهم، ويأتي وراءهم عدد من الحكام الصغار والرسميين المتعطشين للسلطة، يقتفون أثر رؤسائهم لأنهم في خصام دائم مع بعضهم، ورغم أن المسلمين كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأعداء للصليبيين، فقد كان الحكام المستقلون، عند الضرورة مستعدين للقيام بترتيبات مع الغزاة، وبذلك تمكنوا من تجنب الأذى في هدف أو هدفين دون منافسيهم المسلمين.

ولعل أسوأ أسباب التجزئة في المعسكر المسلم كان الخلاف الديني بين المسلمين الشيعة والمسلمين السنة، وليس ثمة حاجة لوصف الفروق المبدأية، غير أنهم مزقوا العالم الإسلامي شر تمزيق بنفس الطريقة التي خربت فيما بعد الفروق المبدأية بين الكاثوليك والبروتستانت في العالم المسيحي الغربي، وكما في الغرب كذلك في الإسلام استخدمت الخلافات الدينية بين الفئتين المتقاتلتين من قبل أولئك الذين، سخروا السياسة لزيادة قواهم ولخدمة مصالحهم، ووضع الأتراك السلاجقة الخلفاء العباسيين في بغداد تحت جناحهم في سبيل الاستيلاء على بلاد الفرس، في حين كان العباسيون مسلمين سنة ينافسهم الفاطميون الشيعة في مصر، وأعطى هذا مسوغاً مناسباً للسلاجقة لغزو سورية وطرد الفاطميين. رغم أنها كانت جزءاً من عالمهم لعدة سنين. واشتدت المرارة الناتجة عن العداء بين الحزبين المسلمين إلى أبعد الحدود، وتعقدت الكراهية الدينية بوجود الدروز وهم طائفة غريبة من الناس آمنت بألوهية رجل عربي غريب الأطوار يدعى الحاكم، وكان خليفة يحكم القدس في القرنين العاشر والحادي عشر، كما تعقدت أيضاً بظهور فئة عرفت بالحشيشية اختصت بأعمال الاغتيال كسلاح ديني وسياسي، وهم شيعة أيضاً.

ولو لم يكن هناك تجزئة في العالم الإسلامي فإنه من المشكوك فيه نجاح الصليبيين في فتح تلك الأراضي الواسعة، ولكن بعد أن فعلوا ذلك بدأت الأمور بالتغير، وبعد زوال الضرورة تمكن الأمراء المسيحيون من الانغماس في لجة من التشاحن غير المقيد دون وجوب التوحد ضد عدو مشترك من أجل البقاء، في الوقت الذي بدأ فيه المسلمون يحققون ذلك، فإذا كان عليهم أن

يعيدوا أراضيهم التي خسروها، فإنه ينبغي طرح خلافاتهم جانباً وأن يتوحدوا للقيام بذلك، ولم ينجحوا بين ليلة وضحاها، ولكن شوهدت العلامات الأولى لظهور روح جديدة خارج المعسكر المسلم سنة 1119 بعد سنة من تتويج بلدوين لي بورج باسم بلدوين الثاني في القدس، أما في الشمال فقد كان الإفرنج، تحت قيادة روجر ابن أخ تانكرد الذي ورث أمارة أنطاكية ـ يمارسون الضغط على المسلمين في حلب إلى درجة اضطر المدافعون عن المدينة إلى عقد حلف مع تركي يدعى ايلغازي الذي لم يكن معهم على علاقات طيبة حتى ذلك الوقت، وعلى الفور قدم ايلغازي إلى حلب، ولدى وصوله عقد حلفاً آخر مع الحاكم التركي في دمشق، ونبهت أنباء هذا التقارب بين صفوف المسلمين روجر فأرسل رسله إلى بلدوين يحثه على القدوم لمساعدته لدحر هذا الائتلاف الجديد المرعب، بينما لا يزال هناك متسع من الوقت، رد بلدوين الذي كان في طبرية في ذلك الوقت أنه سيقدم بأسرع ما يمكنه.

لكن روجر لم يكن صبوراً، وقرر عدم انتظاره، رغم تحذير بطريرك أنطاكية له أنه يرتكب مخاطرة غير لازمة، وقاد الجيش خارج أنطاكية لمقابلة ايلغازي رغم أن جيشه كان لا يتعدى أربعة آلاف رجل مشاة، وأقل من ألف فارس، في حين قاد أيلغازي قوة مؤلفة من أربعين ألف مسلم، وأقام روجر معسكره في ريف منعزل على أمل أن ينضم إليه بلدوين قبل وصول أعدائه، ولكن ايلغازي علم عن طريق جواسيسه المتنكرين بهيئة تجار مكانه تماماً، وعدد رجاله، ولم يكن لديه نية لانتظار قدوم بلدوين، بل قاد بدلاً عن ذلك قوته نحو الموضع المسيحي في 27 حزيران حيث وصله بعد الغسق، وحاصر المكان خلال الليل.

وعند الفجر في اليوم التالي قدم بعض الكشافة بإخبار تطيق العدو لهم. وكان في المعسكر بعض المؤن من الطعام والماء وأدرك روجر ألا خيار لديه غير تحطيم الشرك الذي وجد نفسه فيه، وقد كان يوماً حاراً خانقاً مثقلاً بالغبار من رياح الخماسين التي تهب من الجنوب، والتي أزعجت الجميع، وألقى

رئيس أساقفة أفاميا الذي كان مع الجيش موعظة في الجموع المجتمعة، وبعد سماع الاعتراف العام، منح الجميع الغفران، وباركهم حينما تشكلوا لجاهزية الهجوم، ثم هاجم في نظام كامل الطوابير المحتشدة من المسلمين، ولكن هذه المرة كان أعداؤهم متحدين، ومستعدين لهم بينما لم يكن لدى الإفرنج أي أمل في النصر، وتدبر حوالي أربعين فارساً أمرهم لشق طريقهم خلال صفوف المسلمين ووصلوا أنطاكية بأنباء النكبة، وفيما بعد هربت عصبة أخرى من الفرسان رغم إلقاء القبض عليها وأسرها، وقتل الباقون أو سجنوا، ومات روجر محاطاً بفرسانه الذين قتلوا معه بعد أن ناضلوا تحت لواء الصليب المرصع بالجواهر، ومع منتصف النهار انتهى القتال وبدأت الفرق المسلمة المنتصرة بتعذيب أو قتل السجناء، أما أولئك الذين لم يذبحوا بعد القتال، فقد أخذوا وسحبوا إلى حلب حيث جن جنون الناس فرحاً لدى مشاهدتهم يعذبون حتى الموت في الشوارع. وأعفي من ذلك رجل واحد، وكان فارساً اسمه رينالد مازيور، وكان أيلغازي أعجب بشجاعته في المعركة، وقد أجبر هذا الفارس على مشاهدة تعذيب الأسرى من بني قومه في شوارع حلب.

وكانت النتائج في هذه المعركة التي أسماها الإفرنج حقل الدماء ـ هامة، ولعلها كانت اكبر لو أن ايلغازي أتبع نصره بهجوم مباشر على أنطاكية التي تركت دون دفاع بالفعل، ولكنه أضاع فرصته ووصل بلدوين في وقت مناسب لإنقاذ المدينة، ومع ذلك، فقد تبددت أسطورة البأس الإفرنجي، وتعلم المسلمون أنه بإمكانهم هزيمة أعدائهم إذا ما توحدوا ضدهم، واعتدل الميزان جزئياً بعد خمسة سنين عام 1124، عندما استولى الإفرنج على صور بمساعدة أسطول بندقي كبير انضم إليهم منذ معركة حقل الدماء، وكانت صور آخر مدينة ساحلية كبيرة باقية في أيدي المسلمين وكانت خسارتها ضربة عنيفة لهم، ومع ذلك فإحدى تقلبات الحظ التي شكلت خلفية الحياة في الممالك الصليبية كانت أسر بلدوين الثاني مع الكونت جوسلين أوف كورتاني الذي تسلم الحكم في الرها، خالفاً ابن عمه بلدوين هناك، وكان حظاً سيئاً أن

يؤسرا من قبل أعدائهما، ويسجنا فترة من الزمن، ومع ذلك تدبر جوسلين أمره للفرار، وبعد ذلك بفترة قصيرة افتدت مورفيا زوجة بلدوين زوجها فعاد إلى مملكته في القدس.

ولم يعد قبل حدوث حادثتين كانتا ذواتي نتائج بعيدة المدى بالنسبة للإفرنج في الممالك الصليبية، حيث منع بلدوين من احتلال دمشق عندما كادت تسقط في يده وذلك بسبب حادث جوي، حيث كان القوت في شهر تشرين الثاني سنة 1129، خلال هجوم شنه بلدوين في لحظة ضعف من المسلمين، وبدا كما لو أنه لا شيء يستطيع أن يقف بين الجيش الإفرنجي الكبير وسقوط المدينة، عندئذ فتحت أبواب السماء، فتحولت الأرض إلى مستنقع من الأمطار الغزيرة، فانزلق المهاجمون في الأطيان، بينما مادت أرجل الخيول، وكان لابد أن يعترف بلدوين بالهزيمة.

وحدثت الحادثة الأخرى في الشمال وكانت أسوأ، وقامت بين جوسلين صاحب الرها وأمير أنطاكية الجديد ابن بوهموند الذي وصل لتوه من أوروبا ليتسلم الوارثة، حيث لم يتفقا بشكل جيد الواحد مع الآخر، فقد كانا حاسدين لبعضهما على نحو عنيف، وانتهزا كل فرصة من شأنها أن تؤدي إلى التشاجر.

وكانت النتيجة أنه عندما كانت حلب تموج في الفوضى بسبب اغتيال حاكمها، ضاعت فرصة ذهبية للاستيلاء على المدينة برفض القائدين الافرنجيين التعاون معاً بعضاً، وعندما سمع بلدوين تلك الأخبار احتد غير أن التخريب تم، لقد كانت كارثة، ما كانت لتحدث في ظروف أسوأ، لأن نجماً جديداً بدأ في الظهور في الأفق الإسلامي، حيث عين رجل يدعى عماد الدين زنكي أتابك في الموصل من قبل السلطان السلجوقي، ولم تمض فترة حتى زحف إلى حلب، ونادى بها للسلطان، ورحب به المواطنون هناك، ثم اتبع نجاحه بتعامله بخبرة وقسوة مع منافسية المسلمين المحتملين في المنطقة، إلى درجة أن اعترف به سيداً لشمال سورية.

ومن سوء الحظ أيضاً بالنسبة للافرنج في الممالك الصليبية أنه مع بداية عمل زنكي كحاكم صادفت سلسلة من النكبات الشخصية الأمراء المسيحيين، وكان بوهموند الثاني أمير أنطاكية الجديد أول من قاس منها، ففي شباط 1130 انهمك بوهموند في حملة ضد أحد جيرانه الأرمن، عندما فوجئ ببعض الأتراك الدانشمند فقتلوه ورجاله وقطعوا رأسه، ثم حنطه الأمير الدانشمندي وأرسله هدية إلى الخليفة في بغداد، فسر به. وفي آب من السنة التالية 1131 مات بلدوين بعد سقوطه طريح المرض فترة من الزمن، وبعد أسابيع مات ابن عمه وصديقه القديم جوسلين صاحب الرها إثر تلقيه جروحاً خلال حصار قلعة صغيرة قرب حلب، لقد كان بلدوين الأول بين الصليبيين الأوائل فقد حمل الصليب لفترة تقارب أربعين عاماً استجابة لدعوة البابا أوربان، ورحل من أوروبا مع أبناء عمه غود فري أوف بوليوس وبلدوين الأول، ورغم أن جوسلين لم يكن بخبرة بلدوين تماماً، لكنه كان في الممالك الصليبية لفترة ثلاثين سنة تقريباً. بحيث عرف طرقها، وعرف البلدان الإسلامية بشكل جيد، لذلك لم يكن بالسهولة تعويض الرجلين، خاصة في تلك الناحية، وفي حين بدأ المسلمون يتحدون تحت قيادة القائد زنكي، حكم القدر أن يخلف القادة الكبار قادمون جدد جاءوا من الغرب حيث كانوا عدائيين بحماقة، وحمقى في خصوماتهم بين الحين والآخر، وكان قد قدم فولك كونت منطقة أنجوا ورئيس قبيلة أنجوين القوية، إلى الممالك الصليبية بشكل خاص من أجل الزواج من ميليسيندا ابنة بلدوين على أساس أنها عندما تخلف والدها وتصبح ملكة القدس، فإنه سيصبح زوجها وملكاً على القدس معها، وفي أيلول سنة 1131 توجا كما ينبغي في كنيسة الضريح المقدس، وكان فولك أقل إثارة للنكبات بين الجيل الجديد من الحكام، فليس من المغلاة القول أن بعض الآخرين كانوا قذرين.

وبدأ الجزء الأول من فترة حكمه بالاضطرابات، فقد أظهر ابن جوسلين، والذي دعي جوسلين الثاني، كل علاقة تدل على رغبته في عدم

تقديم ولائه الإقطاعي للملك فولك، رغم وضوح أنه كان غير ملائم أن يحكم مخفراً مسيحياً هاماً في الشمال بمعزل عن إخوانه المسيحيين في الجنوب البعيد، وكان هذا رجلاً صغيراً غير جذاب وقصيراً، وأسمر اللون، وغليظ البنية في وجهه بثور، وذا أنف ضخم، وعيون بارزة مثل عيون السمك، وبسبب قرب المكان، ثارت فضيحة ارتبطت باسم زوجة فولك مع صاحب يافا المدعو هيو أوف بيوست الذي كان يعتقد تماماً أن لديها علاقة معه، وانقسمت البلاد إلى حزبين، وشاع شعور متزايد أن ثمة خطر حرب أهلية.

بين أولئك الذين ساندوا كونت يافا، وأولئك الذين اتخذوا جانب الملك، وكان لدى فولك بعض المشاكل في أنطاكية أيضاً، وبعد موت بوهموند الثاني بقيت المدينة دون أمير، ولكن لحسن الحظ ليس دون أميرة، فقد خلفت وراءه أرملة شابة تدعى ألس، وابنته الصغيرة كونتانس التي كانت وريثته، ومنذ ذلك الوقت الذي أرسل فيه رأس زوجها الشاب إلى الخليفة في بغداد، انهمكت ألس في محاولة ضمان الوصاية على المدينة لنفسها خلال طفولة ابنتها، وكان ذلك إجراء أقصى فولك عن شؤون أنطاكيا كلية، ولكنه صمم أن يمنع ذلك عن طريق القانون حيث كان هو المستحق الشرعي للوصاية.

وخلال تلك الأحداث، استفاد زنكي من كل فرصة قدمت إليه في الفوضى عند الإفرنج، لجعل الأمور تسوء أكثر ضدهم، فكان يشن الهجمات ويستولي على القلاع الاستراتيجية، بينما كان فولك مشغولاً في مشاكله الداخلية عن الدفاع عنها، ووصلت نجاحات زنكي في ذلك الوقت إلى ذروتها عندما هزم جيشاً إفرنجياً قرب قلعة رفنية وأسر كونت طرابلس في تلك العملية، وطارد فولك والباقين داخل القلعة التي حاصرها أخيراً، ومن أجل إعطاء فولك راحة واسعة ودهشة مساوية تركه زنكي يغادر مقابل ملكية القلعة رغم اعتبار فولك أنه الكاسب في هذه الصفقة غير أن القائد المسلم عرف، ما كان يفعله حيث كانت قلعة رفنية ذات أهمية استراتيجية عظيمة.

ولا ندري إلى أين كانت مواهب وطموحات زنكي قد قادته لولا أن شؤون الممالك الصليبية وجاراتها لم يعترضها ظهور عامل جديدة وغير متوقع في الوضع السياسي، فلعدة سنين تجاهل الإفرنج والمسلمون الامبراطور البيزنطي وإدعاءاته، كما كان الإمبراطور مشغولاً على الحدود الغربية في تتبع أعقاب الصليبيين، فاستعاد الكثير من الأناضول، وكان ألكسيوس قد مات سنة 118 وخلفه ابنه جون كومينوس الذي كان في الثلاثين من عمره عندما أصبح امبراطوراً، وكان هذا رجلاً صغيراً صارماً ذا شعر وبشرة غامقين، ورغم أنه كان منتظماً ذاتياً ومقتصداً في عاداته الشخصية إلى درجة التقشف، لكنه كان كريماً ولطيفاً مع الآخرين، وحاكماً عادلاً وقادراً، كما كان هاماً جداً لكونه إحدى الشخصيات العامة العظيمة القليلة في ذلك الوقت، بحيث لم يكن لدى أحد ما يقوله ضده، وقد لقبه تابعوه بجون الطيب. لكنه أخته آناكومينا كرهته وغارت منه.

وورث الامبراطور جون من أبيه ألكسيوس أسطولاً بحرياً قوياً، وجيشاً كبيراً منظماً، ومتكلماً بعدة لغات نوعا ما، ثم خزينة مليئة، وفي الحالة السوية كان عسكرياً أكثر منه متودداً، وأمضى السنين الأولى من حكمه يقلص ممتلكات أعداء الإمبراطورية في الغرب، ويتصارع مع الأتراك الدانشمند في الأناضول، وحالما جعل الامبراطورية آمنة من هجوم ما في تلك النواحي، حول انتباهه إلى سورية حيث قصد أن يفرض نفوذه على أنطاكية، والقدوم لمساعدة الإفرنج ضد زنكي، وكانت هذه الأهداف متناقضة جزئياً، ولكن فرضتها على جون حقائق الوضع السياسي، فقد كان على الإفرنج أن يستعيدوا تذكر أن أنطاكية والأراضي الأخرى التي فتحوها كانت أجزاء من الامبراطورية البيزطية لعدة قرون، ويتذكروا أيضاً أنهم اقسموا بأنفسهم أن يكسبوها لصالح العالم المسيحي كتابعين مخلصين للامبراطور البيزنطي، ورغم أنهم نقضوا أيمانهم بوقاحة. لكنهم بقوا مسيحيين، كما بقي جون زعيماً لأقدم وأضخم دولة مسيحية فوق الأرض، وكان ملزماً مبدئياً أن يقدم لمساعدتهم ضد

أعدائهم المسلمين، ولذلك زحف في سنة 1137 على رأس جيش بيزنطي جرار نحو الشرق، بنما كان يحمي جناحه الأيمن أسطوله وعبر منطقة كليكية حيث خضعت له مدنها الواحدة بعد الأخرى، وقلص عدد القلاع الأرمنية التي كانت من الطيش ألا تدعه دون الإعاقة في تقدمه المنتصر، وأجفلت أنباء قدومه زنكي ونبهت الإفرنج الذين كانوا مدركين كثرة عهودهم بالإخلاص لوالد جون، ولكنها نكثت مع السنين.

وكان أمير أنطاكية في ذلك الوقت ريموند أوف بواتيو، وهو الابن الأصغر لدوق منطقة أكوتين الذي هرب إلى داخل البلاد وعمره سبعة وثلاثون عاماً لكي يتزوج الأميرة الصغيرة كونستانس مخادعاً أمها ألس التي كانت لديها خطط أخرى لابنتها، ولم يخطر على بال أحد أن كونستانس كانت ذات تسع سنوات فقط من العمر، وكان ريموند وسيماً ومتحلياً بصفات تجعل الرجل مشهوراً في حين لا تجعله حكيماً، وحين قدم الجيش البيزنطي إلى أسوار أنطاكية كان ريموند بعيداً عنها، فأغلق الأهلون الذين كانوا غير متأكدين ماذا يفعلون في غياب أميرهم، أغلقوا الأبواب في وجه الإمبراطور جون، الذي سارع إلى فرض الحصار على المدينة، وقبل ان يصبح الحصار كاملاً سارع ريموند إلى العودة، وتدبر أمره في الدخول واستلام الدفاع عنها، وعندما بدأت آلات الحصار البيزنطية تدك أسوارها، أرسل الحليف القوي الواقف ضد زنكي، ينصحه الاعتراف بمطالب الامبراطور العادلة، وبنوع من المضض، أرسل ريموند رسله إلى الامبراطور جون يخبره أنه موافق على الخضوع له، وأداء القسم على الولاء له والبيعة أيضاً، فكف جون عن ممارسة أي ضغط آخر عليه، كما لم يلح في دخول المدينة رغم أنه أصدر أوامره برفع الراية الامبراطورية فوق القلعة ليرى العالم كله من السيد الحقيقي هناك.

وحتى عند هذا التاريخ المتأخر، لو قرر الإفرنج التعاون بإخلاص تام مع البيزنطيين لكانت خطط زنكي قد أحبطت، ولربما بقيت الممالك الصليبية مدة أطول مما بقيت، ولكن الغيرة أو الحسد الشخصي، والامتيازات قصيرة

المدى أعمتهم، وعادوا إلى أساليبهم القديمة حالما عاد جون إلى القسطنطينية، وعندما قاد جيشه مرة أخرى داخل سورية في السنة التالية، وكانت هذه المرة لقتال المسلمين وافق ريموند صاحب أنطاكية وجو سلين الثاني صاحب الرها على مساعدته في حملته، وعندما بدأ القتال الفعلي تراجعا مخلفين البيزنطيين الذين انخدعوا بنجاح قريب، لو أن حلفاءهم شغلوا دورهم بإخلاص، ولم يكن ريموند وجوسلين يخشيان إلى حد الكآبة قوة الإمبراطور الكبيرة وموقفه فحسب، بل كانا غيورين على نحو عنيف، وقد صمما ألا يدع أحدهما الآخر يفوز بامتياز العمل مع جون، وبالنتيجة تحققت نجاحات قليلة، وعاد جون أخيراً إلى وطنه.

وفي السنين التي تلت، لم يواجه إلا قلة الأمانة والعداء من قبل ريموند وجو سلين، وقرر في سنة 1142 العودة مرة أخرى وتأديبهما بالقوة إن لزم الأمر، وقبل أن يقوم بذلك مات إثر حادثة سقوط، بينما كان يصطاد دباً وحشياً فجاء موته راحة كبيرة لريموند وجوسلين، حتى أن فولك ملك القدس لم يأسف لسماع تلك الأخبار، ولكن لم تكن راحتهما تعادل راحة زنكي البعيد النظر، الذي أدرك أنه لم يبق شيء يمنعه من الإفرنج، كما تلا موت الامبراطور بعد أشهر موت الملك فولك حيث سقط عن حصانه بينما كان يصطاد أرنباً، ومات في الحال، وتسلمت أرملته الملكة ميليسندا زمام الحكم بأيديها، ولم تسر فكرة حكم المرأة جميع الأمراء في قيادة المملكة، وتوج ابن فولك الأكبر تحت إلحاحهم الجزئي ملكاً بلقب بلدوين الثالث، ولم يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاماً.

ولم يضع زنكي مثل تلك الفرصة الذهبية التي قدمها موت ألد خصمين مسيحيين قويين، وفي الواقع، بادر بعد موت الامبراطور، وقبل أن يقتل الملك فولك إلى الإمساك بمبادرته العسكرية بالقيام بمحاولة للاستيلاء على دمشق، ولكنه ارتكب خطأً فظيعاً لأنه أخاف الدمشقيين جداً إلى درجة أنه رماهم في أيدي أعدائه، الذين كان قد أبرم معهم معاهدة دفاعية، وعندما مات فولك لم

يقم زنكي بأي خطأ وغزا مقاطعة الرها، وحاصر المدينة نفسها في حين كان جوسلين في مكان آخر بعيداً عنها، وحالما سمع جوسلين بالخبر ناشد على عجل من أجل النجدة كلاً من ريموند من أنطاكية والملكة ميليسندا من القدس التي أرسلت جيشاً لمساعدته بينما رفض ريموند الذي كان يكرهه أن يقدم أي مساعدة، وقرر جوسلين أن يبادر إلى علم شيء حتى قدوم الجيش من القدس وكان واثقاً أن أسوار الرها الضخمة ستصمد حتى ذلك الوقت، ولم يحدث ذلك، وبعد حصار دام أربعة أسابيع، وقبل وصول قوات ميليسندا إلى المدينة استسلمت إلى زنكي، وبرهنت المملكة الصليبية الأولى التي أسست أولاً أنها الأولى أيضاً في الدمار.

ولم تكن قوات زنكي أكثر إنسانية من تلك المسيحية بعد الاستيلاء على أنطاكية وسقوط القدس، ففي أمسية عيد الميلاد سنة 1144 تدفقت داخل الرها وذبحت كل من وجدته في طريقها، فانداست رقاب آلاف الرهاويين حتى الموت في ذعر جماعي للنجاة من الجنود المسلمين، وامتلأت المدينة بالجثث، غير أن زنكي كان أقل تعطشاً للدماء من رجاله، وعندما استعاد درجة معينة من السيطرة عليهم، أصدر أوامره بتوفير دماء السكان المسيحيين المحليين في المنطقة، واستثنى من ذلك جميع الإفرنج، وأطيعت أوامره فمحي أثر الإفرنج حتى آخر رجل، بينما بيع الأطفال والنساء في سوق النخاسة.

وفي الأشهر التالية، طهرت معظم جيوب المقاومة في أيدي الإفرنج عند الجانب الشرقي من نهر الفرات، وكان بالتأكيد قد استمر في الهجوم على الأراضي التي لا زالت تحت قبضة الإفرنج غرب النهر وفي شمال سورية، لو لم يقتل في ليلة 14 أيلول سنة 1146 من قبل خصي، كان قد أنبه زنكي بغضب لشربه من كأسه الخاصة، واستقبل نبأ موته بالراحة والسرور من قبل أعدائه، ولابد أنهم كانوا أقل سروراً لو أنهم علموا ماذا قدر لهم أن يعانوا على أيدي ابنه نور الدين، الذي خلف والده بعد فترة اعتيادية من التآمر الأسروي،

والمؤامرات المضادة والجرائم السياسية، لأنه لو أن الكلمات التي نطقها رحبعام بن سليمان، عندما خلف والده على عرش اسرائيل قد خرجت من فم نور الدين، لم تكن معارضة من وجهة نظر الإفرنج حينما قال: «نكل بكم أبي بالسياط، وسأنكل بكم بالعقارب».

الفصل الثالث عشر

«المبشرون والملوك»

«الرب يعطي كلمة. المبشرات بها جند كثيرة.
ملوك جيوش يهربون. ملازمة البيت تقسم الغنائم»

الكتاب المقدس ـ المزامير: 68

أثار سقوط الرها الذعر بين الحكام المسيحيين في الممالك الصليبية، الذين عرفوا نقطة ضعفهم، وكان المسلمون متفوقين عليهم كثيراً في العدد، وأما إخفاقهم الظاهري في إعادة بناء أنفسهم في أعداد كافية لتعويض خسائرهم في الموت فقد شكل مشكلة مقلقة باستمرار، لم تفقها مشكلة أخرى في هذه الآونة، واستمر الحجاج في القدوم إلى الأماكن المقدسة في أعداد كبيرة، وقد أقنع العديد منهم في البقاء لفترة هناك، غير أن ذلك لم يكن ليغير كثيراً من خسائرهم الكثيرة، وعندما عادوا إلى الوطن لم يعد كالعادة معهم إلا القليل من الإفرنج المقيمين كي يروا بلادهم الأم مرة ثانية قبل موتهم، ولولا الإمدادات الهائلة التي أرسلت من الغرب لمساعدتهم لبدا المستقبل فارغاً ومجهولاً، وتقرر إرسال رسول إلى البابا ليحضه على الدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

وعهد بهذه المهمة إلى أسقف منطقة جبلة وكان يدعى هيو، الذي لا يعرف عنه شيء غير كراهته للبيزنطيين، ورغم الحاجة الواضحة للحصول على المساعدة لم يصل إلى إيطاليا حتى بعد سنة من سقوط الرها، ووجد هذا البابا يوجينيوس الثالث، الذي كان قد اعتلى في العرش البابوي في فيتربو وقد أزعجته أخباره بشكل خطير، ووافق البابا مع هيو أسقف جبلة على أن الحملة

الجديدة لن تحقق النجاح وتعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه في الشرق إذا كانت صغيرة، ولكن الحديث عن حملة جديدة كان أسهل من الدعوة إليها، فقد تغيرت الأحوال منذ ايام البابا أوربان، ورغم أن يوجينيوس أصدر بيانا في حينه دعا المؤمنين للذهاب لانفاذ اخوانهم في الممالك الشرقية، فإنه لم يكن من أحد ليعير انتباهاً لذلك، فقد كان الناس في شغل شاغل بشؤونهم الحياتية عن ذلك، وخبا السحر الذي أحاط بفكرة أخذ الصليب في الأيام الماضية بالأنفة والعادة، وبالاضافة، لو أراد شخص قتل عدد من المسلمين فما عليه إلا الاشتراك في حملة صليبية في اسبانيا، فهي أسهل وأقرب من مملكة القدس، وهناك ما يكفي من الأندلسيين المسلمين لكل مسيحي مخلص تاق إلى القيام بالذبح المقدس.

وكان إخفاق دعوة يوجينيوس لحملة صليبية جديدة دليلاً سيئاً، لأنها أكدت افتقاره إلى النفوذ. كما كانت روما نفسها يحكمها جماعة مناهضة للبابوية يترأسها رجل يدعى أرنولد من بريسشا ـ الذي لم يكن يسمح ليوجينيوس بدخول مدينته، كما أنه كان على خلاف مع روجر الثاني في جزيرة صقلية التي كانت مملكة ذات موقع متمكن، يمكنه الاعاقة أو المساعدة في إرسال أية حملة إلى الشرق عبر البحر، وكان روجر رجلاً قادراً فخوراً وعاطفياً غير أنه كالعديد من النور مانديين خلوا من العقل الحضاري، ولم يكن البابا الشخص الوحيد الذي هاجمه بفظاظة أسلوبه، ولحسن الحظ أن يوجينيوس كان على علاقات طيبة مع كوزاد الثالث أوف هوهنزتوفن ملك ألمانيا، ومع ملك فرنسا الورع لويس السابع، الذي إليه كان يوجينيوس قد وجه بيانه في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وكان لويس خائباً مثل البابا نفسه بسبب الاستقبال البارد الذي أظهرته طبقة النبلاء في فرنسا، التي جمعها في بورجيوس عند عيد الميلاد سنة 1145، لسماع البيان، غير أنه كان لديه إحساس ألا يعادي تابعيه بالالحاح في الأمر، بل على العكس قرر الانتظار حتى عيد الفصح ثم المحاولة مرة ثانية مع مساعدة راعي دير كليرفو.

وكان برنارد راعي دير كليرفو في السادسة والخمسين من عمره، وكان في ذروة شهرته، وقد ولد من عائلة نبيلة فرنسية في فونتين قرب إجون في العقد الأخير من القرن الحادي عشر، وأصبح ناسكاً في الثالثة والعشرين من العمر ومؤسساً لدار الرهبنة البنديكتية في كليرفو بعد سنتين، فقد كان ابن عالمه ويومه ورجل العصور الوسطى الأول مع أكبر الفضائل في ذلك الوقت وبعض قيودها، وفوق ذلك كله، كان زاهداً بإخلاص وبكل قلبه مكرساً حياته البسيطة المتقشفة للتعذيب الذاتي، لعله يخصص نفسه لمواصلة التصوف السامي، أما معرفته في الانجيل فكانت هائلة، وكعالم باللاهوت كان صافي الذهن شديد الذكاء، وفوق ذلك فهو متحدث ملتزم باللفظ، ومبشر متألق لامع، وقد جعلته سمعته في القداسة، وقوة شخصيته واحداً من أقوى وأشهر رجال أوروبا في عصره، ولكن ثمة جانب أقل جاذبية في شخصيته أيضاً فقد بدا لعدة مرات أنه عديم الرحمة، وغير محب على الإطلاق، وكان حكمه على ابيلارد من هذا النوع، وعمل على تنفير العديد من المؤرخين فيما بعد بينما لم يؤثر عداؤه المتحفظ لمسيحي الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية إلا قليلاً لتحببه إلى الآخرين، ولكنها كانت أخطاء زمانه ومجتمعه، ومن البلادة في شيء عدم الاعتراف أنه في مقاييس عصره كان رجلاً ذا قداسة كبيرة، وفي مقاييس أي عصر من العصور كان رجلاًمتميزاً له منزلة رفيعة.

ودعا لويس السابع إلى اجتماع آخر وأمر تابعيه بالقدوم إلى فيزلي في 31 آذار 1146، وانتشرت أنباء وجود برنارد هناك بسرعة، فتدفق الناس هذه المرة من جميع أنحاء فرنسا في أعداد كبيرة لإطاعة دعوة الملك، ومثلما أطلق أوربان الدعوة للحملة الصليبية الأولى في كليرمونت، أوضحت الكاتدرائية في فيزلي أنها صغيرة جداً لتتسع لتلك الحشود من الناس التي قدمت لسماع وعظ برنارد، الذي تعين عليه أن يخاطبهم في الهواء الطلق في حقل خارج المدينة، وليس ثمة تدوين لما قاله، ولكن من المعروف أنه قرأ عالياً البيان البابوي في الدعوة لحملة صليبية جديدة واعداً بالغفران جميع من اتخذ الصليب قبل

مخاطبته للحشد بكلماته الخاصة، وحاثاً إياهم أن يستجيبوا لدعوة البابا، وكخطيب كان فريداً لا يضارع. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الناس بالدعوة للصليب، وصرخوا في نشوة حاسة عظيمة كتلك التي أثارها أوربان قبل إحدى وخمسين سنة سابقة، وكان الملك الرجل الأول يحمل الصليب ومعه العديد من النبلاء الذي استمعوا ببرود إلى مناشدة البابا قبل ثلاثة أشهر وتعثروا في مشيتهم ببعضهم البعض في حماسهم لاتباع مثله الملكي، وفي الحال لم يعد هناك مواد يصنع منها الصليب، حيث قدم الكثير والكثير من الناس للاندماج في صفوف جيش المسيح، وبلمحة مثيرة خلع برنارد ثياب نسكه عن نفسه وقسمها صلبان للمتطوعين، وفي الحقيقة كانت الصلبان تصنع من أية مادة موجودة عندما هبط الليل في حين كانت الإثارة التي حركها برناردكبيرة، ومع نهاية اليوم تأكد نجاح دعوة البابا يوجينيوس من أجل حملة صليبية جديدة.

وارتحل برنارد من فيزلي نحو الشمال حيث أثارت الحماسة للقيام بحملة صليبية جديدة حالة هياج هستيري ضد اليهود، ففي ألمانيا استثار ناسك من جماعة هيئة برنارد وكان يدعى رودولف أبناء وطنه ضد اليهود الذين كانوا يذبحون في جميع المدن الكبرى في منطقة الراين، وأمر برنارد البنديكيين المجرمين بالعودة إلى ديره، وأوقف القتل على الفور من قبل السلطات هناك، لكن ليس قبل موت العديد من اليهود، ثم حول برنارد انتباهه إلى جنوب ألمانيا عابراً مدنها الواحدة بعد الأخرى وداعياً مبشراً حيثما تنقل، ورغم أنه تعين ترجمة مواعظه إلى اللغة الألمانية، إلا أنها كانت ناجحة جداً مثل سابقتها، واحتشد الرجال للانضمام إلى الحملة، لكن الملك كونراد كان أقل حماسة وبدون دعمه الفعلي لن يتكون جيش ألماني للصليبيين له أهمية عسكرية أو نفوذ كبير، ولكن شابه في أسوأ الأحوال غوغاء بطرس الناسك. ولذا تقرب برنارد إلى الملك الذي وافق على مقابلته في سبير حيث التزم نظام حمية في عيد الميلاد، وفي ذلك اليوم، ألقى موعظته أمام كونراد بحيويته المعتادة، ولكنه في هذه المرة أخفق في التأثير على جمهوره، ولم يتحرك الملك الألماني،

ومع ذلك لم تكن كلمة هزيمة مفهومة عند برنارد. فبعد يومين ألقى موعظة مرة أخرى أمام الملك وأكد هذه المرة على رجله، فبدأ حديثه بلطافة كافية ولكنه عندما طور موضوعه بدأ توجيه خطابه بنفسه أكثر فأكثر إلى كونراد شخصياً وتحدث إليه على أنه الشخص الذي أسبغ عليه الرب كثيراً من فضله، وفي ذروة الكلام المروع والمثير تجول إلى الملك وتحدث إليه مباشرة صارخاً: «أيها الرجل، ماذا يمكن أن أفعل لك ولم أفعله قبلاً؟» إنها جزء مقتبس من التوبيخ الذي يرتل يوم الجمعة الحزينة في كاتدرائيات وكنائس العالم أجمع، أو توبيخ المسيح فوق الصليب بجحود شعبه، واهتز كونراد متأثراً، ووعد بأخذ الصليب وقيادة حملة صليبية ألمانية ضد أعداء المسيح، وعندما عاد برنارد إلى فرنسا فرحاً بالنجاح الذي أنعم عليه الرب، عندها حذا النبلاء في ألمانيا مثل ملكهم متنافسين مع بعضهم البعض بسرعة لتثبيت الصليب على أكتافهم.

وكان يوجينيوس أقل سروراً بنجاح برنارد من برنارد نفسه. فهو لم يعزم أن يشغل الألمان في الحملة الصليبية الجديدة، لأنه من ناحية خاف من نتائج الحملة تحت قيادة ثنائية لملكي ألمانيا وفرنسا، ومن ناحية أخرى، كان في حاجة إلى دعم كونراد ضد الطموح الجماهيري لأرنولد أوف بريشيا وضد زمرته المناهضة للبابوية في روما، وقد برهنت الأحداث على حكمته.

وكان كونراد أول من زحف لمساعد إخوانه المسيحيين في الممالك الصليبية، وغادر في شهر آيار بعد أن جمع جيشه في ريجينزبرغ. ثم انطلق في الأراضي العالية مع حوالي عشرين ألف رجل في الطريق التي سلكها غودفري أوف بوليون وإخوته، كما غادر الملك الفرنسي متز بجيش أصغر قليلاً بعد شهر من ذلك، وعرض روجر لثاني في صقيلة - رغم عدائه للبابا - نقل الجيشين عبر البحر، ولكن لويس لم يثق به كما فضل كونراد سلوك السبيل المؤدي إلى القسطنطينية حيث اعتلى الغرش الامبراطور مانويل الأول كومينينوس الذي كان حليفاً له.

وخلال ذلك أبحر جيش صغير من للانكليز مع بعض الرجال من البلدان المنخفضة حملوا الصليب، ومن انكلترا إلى الأرض المقدسة في أسطول من السفن الانكليزية. وكقوة عسكرية لم تكن في أهمية أحد الجيشين الكبيرين اللذين سلكا طريق البر، بل كانت قد أتت كبعض دعم بحري مرحب به لو أنها وصلت لشبونة، ولكنها لسوء الحظ، لم تصل. فقد أرغمتها الأجواء السيئة على الالتجاء إلى مصب نهر دورد في البرتغال حيث كان كونت البرتغال في حرب مع مسلمي شبه الجزيرة الايبيرية منذ سنين، وتم هنا إقناعهم بالانضمام إليه بفرض الحصار على لشبونة التي كان يحتفظ بها السملمون، وبمساعدة الرجال الفلمنكيين والانكليز تم استمالة المدينة إلى الاستسلام شرط أن يترك مدافعوها أحياء، ووعدوا بأرواحهم كما ينبغي، ولكن حالما فتحت أبواب المدينة نسي الصليبيون وعدهم وقتلوا أعداء المسيح بكل عنفوان.

وكان عبور الجيشين الصليبيين الكبيرين عبر هنغايا مسالماً، ولن حالما وصل ألمان كونراد الأراضي البيزنطية بدأوا بإثارة القلاقل، وبينما كان الرسل من القسطنطينية يقنعون كونراد أن يقسم يمين الولاء للامبراطور مانوئيل، بدأ جيشه من الألمان يسلب الريف، ويقل من يقف في وجهه، وفي فيليبوبولس قاموا بأعمال الشغب وأحرقوا ديراً وقتلوا جميع الكهنة إنتقاماً لموت واحد من عناصرهم كان قد قتله لصوص، وقرر مانوئيل أن يمنع دخولهم إلى القسطنطينية بالقوة ولكنه أعاد النظر في ذلك عند اللحظة الأخيرة، ووصلوا إليها في بداية شهر أيلول.

وكان الفرنسيون اقل إثارة للاضطرابات مع السكان المحليين رغم أنهم وجدوا أنه من الصعوبة البالغة أن يجدوا طعاماً كافياً للأكل، فد كان الألمان قد استهلكوا معظم الطعام المتوفر ونشروا الرعب عند الجميع بأعمالهم الوحشية إلى درجة أن الفلاحين تجنبوا الجيش الجديد من الصليبيين، وخبأوا ما لديهم من الطعام، ومع ذلك كان البيزنطيون أكثر مساعدة تزويدهم قدر المستطاع، فكانت رحلة فرنسيي لويس خالية من الأحداث حتى اقتربوا من القسطنطينية، وقبل وصولهم المدينة أسرع بعضهم على رأس مجموعة رئيسية على أمل شراء

بعض طعام ألمان كونراد، غير أنهم استقبلوا بنظرات العداء والجفاء، ولم يعهم أحد طعاماً على الإطلاق، واضطروا أن ينتظروا في جوع وامتعاض وصول زملائهم، ورحل بعض الرجال من أرض اللورين مع الألمان وجعل الأمور تسوء أكثر بإخبارهم روايات عن الأساليب الوحشية التي لقوها في رحلتهم، ولم يمض وقت طويل حتى تأزمت العلاقات بين الجيشين الغربيين إلى نقطة الانفجار تقريباً، واتفق الألمان والفرنسيون حول نقطة واحدة فقط: وهي كراهيتهم لمضيفيهم البيزنطيين بشدة، وعدم الثقة بهم على الإطلاق.

ولم يمكث الصليبيون كثيراً في القسطنطينية حيث غادر كونراد أولاً على رأس جيشه إلى نيقة. ولم يكن هذا رجلاً حسن التأثير أو يتحلى بالصفات التي يحتاجها القائد العسكري، وفوق ذلك، لم تكن صحته جيدة فقد تجاوز ربيع سنين عمره، وبسبب العداء المستحكم بين رجاله والفرنسيين قرر اتخاذ طريقه عبر الأناضول على نحو منفصل، وكان قراره متفهماً. ولكن الانقسام بين القوى المسيحية بهذه الطريقة سيؤدي إلى التردي في مكروه، وقد أخبرهم بذلك الامبراطور مانوئيل، ومع ذلك كان كونراد عنيداً فزوده مانوئيل بالمرشدين وأعطاه بعض النصائح المفيدة التي اختار تجاهلها فيما بعد، وحصل بعد ذلك أن ارتكب خطأه الأكبر منذ خروجه من نيقية، قسم جيشه إلى قسمين، القسم الأول أن يسير على طول الطريق الساحلية مع معظم الرجال غير المحاربين، وبعض الفرق المقاتلة، تحت قيادة أسقف منظمة فريزنغ في حين تولى قيادة الباقين قليلي القوة في نية لأخذ الطريق البرية وسط الأناضول. وكان هذا العمل من الحماقة، ولكن يبدو أنه لم يخبر أحداً بذلك، وبعد فترة وجيزة واجهت المجموعة النتيجة المؤكدة.

وجرت الأمور بشكل حسن لفترة عشرة أيام أولى سار خلالها كونراد وجيشه عبر البلاد التي سيطر عليها البيزنطيون، ولكن في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول وصلوا إلى دوريليوم حيث نال الصليبيون الأوائل نصرهم العظيم الأول على الأتراك قبل نصف قرن من الزمن، ومرة

أخرى كان الأتراك في انتظارهم هناك. وكان الألمان في حالة تعب من مسير رحلة النهار، وغير متأهبين تماماً للانقضاض المفاجئ العنيف الذي قام به الجيش السلجوقي، الذي كان فوقهم قبل أن تتمكن قوة المشاة المتعبة من اتخاذ تشكيلاتها للمعركة أو أن يعتلي الفرسان مطاياهم، ونفذ الحكم النهائي المقدر حيث لم يكن ثمة مقاومة منتظمة، وقتل العديد من الصليبيين، في حين دمرت الخيالة التركية الباقين الذين كان لديهم الفكرة والشجاعة لمحاولة الانسحاب بنظام، وتدبر كونراد وبقية صغيرة تدعو إلى الشفقة من جيشه أمرهم في الوصول إلى نيقية بعد عدة أيام، في حين كان الأتراك يحتفلون بنصرهم ويحصون غنائمهم التي استولوا عليها.

وفي تلك الأثناء، وهم غير مدركين بمصير رفاقهم في السلاح سارت مفرزة أسقف منطقة فريزنغ على طول الساحل الايجي حتى تحولوا إلى الداخل إلى فلادلفيا في طريق مختصرة إلى البحر المتوسط عبر الزاوية الجنوبية الغربية من الأناضول، وسارت الأمور بشكل حسن حتى وصلوا إلى لودوشيا حيث هاجم الأتراك أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة، وتدبر الذين نجوا بأنفسهم أمرهم بشق طريقهم نحو الجنوب وإلى الساحل رغم أن العديد مات جوعاً وحرماناً في الطريق، وبعد هجوم آخر من قبل الأتراك في شهر شباط 1148 فقد العديد منهم حياتهم ووصل الأسقف وبعض المتشردين إلى أنكاكية ومنها أبحروا إلى سورية.

وبينما كان الأتراك يهلكون القسم الأعظم من ألمان كونراد، كان لويس يعد نفسه مع الرجال الفرنسيين لمغادرة القسطنطينية، ووصل إلى نيقية في بداية شهر تشرين الثاني وهناك علم بخبر ما جرى لكونراد، وكان لويس شاباً ورعاً غير أهل بالقيادة العسكرية، كما كان لا يقدر كالملك الألماني - في معظم الأحيان - أن يجزم أمره بقرار أمر من الأمور، ووقع نبأ تدمير الألمان كصدمة، ودعا إلى إجراء حل، هو ألا يرتكب نفس الأخطاء، ووفق ذلك، اجتاز بالبقية الباقية من المعسكر الألماني عندما أخذ كونراد قسطاً من الراحة والتقاه لوقت كاف، وقرر الملكان جمع القوتين معاً ثم انطلقا في 8 تشرين

الثاني مع طول الطريق الساحلية التي تذهب جنوباً عبر بيرغامون وأزمير وافسوس. ورغم أنها طريق طويلة إلى جهة البحر المتوسط أثر من تلك التي سلكها أسقف فريزنغ، ولكن معظمها تمر عبر بلاد يسيطر عليها البيزنطيون، ولذا كانت أكثر أماناً من الطريق الأقصر عبر فريجيا.

وجرى كل شيء على ما يرام بشكل محتمل في الأيام الأولى، ولكن مع مضي الوقت وصل الجيش إلى افسوس وفسدت العلاقات بين الألمان والفرنسيين، وبشكل طبيعي ضجر الألمان مما نزل بهم أخيراً، فتخلفوا مسيرة يوم تقريباً عبر الفرنسيين الذين عمدوا إلى السخرية من بطئهم في صراخ قائلين: «توقفوا للألمان ـ توقفوا للألمان» وهي صيغة معينة يحتفظ بها للخيول المصابة بالربو، ولم تزد من تعاطف الألمان تجاه حلفائهم، وفي افسوس سقط كونراد صريع المرض، وتبين أنه لن يستطيع الاستمرار في الرحلة، وتابع الجيش مسيره دونه تاركاً إياه يشق طريقه بالعودة إلى القسطنطينية، حيث رحب به مانوئيل بكل علامات الاحترام والعطف، ولكن الألمان شعروا بدونه بالخسارة الكبيرة أكثر من قبل، وعندما تلاحقت أسابيع رحلتهم الطويلة تطورت كراهيتهم للفرنسيين إلى حد المرارة، ومع عيد الميلاد ظهر الاتراك مرة أخرى وبدأوا بمضايقاتهم بالغارة على المدّ المتطاول من الصليبيين المتعبين.

وفي يوم رأس السنة الجديدة 1148 حاول الأتراك منع الصليبيين من عبور نهر خارج أنطاكية في بسيديا، فأخفقوا، ولكنهم أنزلوا بعض الخسائر في الفرنسيين. وبعد ثلاثة أيام هجومهم مرة أخرى قرب لوديشيا وكانت خسائر الصليبيين أكبر، وبعد ذلك أصبحت رحلتهم كالكابوس، فقد كانوا في حاجة ماسة وإلى حد يبعث على اليأس إلى الطعام والماء، كما ازدادت وعوة الطريق، وساء الطقس إلى حد مؤلم بهبوبّ الرياح الثلجية الباردة من سيبيريا، وهاجم الأتراك أجنحتهم مثل روح منتقمة ملتقطين الضعيف والكبير والمتعب والطائش منهم بقسوة كافية، وكانت بعض سرايا من الحجاج الألمان قد حاولت عبور هذه الطريق قبل أشهر قليلة، ولكن الأتراك استحوذوا عليهم ولم

يسر منظر جثثهم المتعفنة رجال الملك لويس عندما تقدموا بصعوبة باتجاه مرفأ أنطالية على الساحل البحر المتوسط، ومع بداية شهر شباط رغم قلة عددهم وصلوها وتنفسوا عندئذ الصعداء.

ولكن تنفسهم هذا جاء مبكراً، فقد كان المواطنون في عوز إلى الطعام الذي لم يكن ليوفر إلا القليل للفرنسيين، كما لم ثمة متسع لإقامتهم في المدينة، واضطروا للمعسكرة خارج المدينة، وحالما فعلوا ذلك اجتاحهم الأتراك وهاجموهم، ولام الصليبيون وهم غاضبون وخائبون وفي جوع شديد البيزنطيين الخونة، واتهموهم بالخيانة ضدهم، بينما اعتبرهم هؤلاء على نحو مزدر برابرة، فهم لم يدعوهم لغزو مدينتهم في تلك الطريقة بالإضافة إلى إكراه الأتراك على إذلالهم، وكان تبكيرهم في المغادرة قد جلب السرور لسكان أنطاكية وأيخراً غادروا، ولم يكن هناك سفن كافية لحمل الجيش كله، ولذا ركب لويس مع حاشيته والقسم الأعظم من الفرسان، وأبحر إلى سورية حيث وصلها في منتصف آذار، ولحق الباقي والفرسان عبر البحر أيضاً بعد عدة أسابيع، وطلبوا إلى المشاة أن يجعلوا طريقهم شرقاً كأفضل ما يفعلوا، وتم ذلك أخيراً، وبعد رحيل قادتهم وابتعادهم مات العديد منهم في الطريق، كما قتل الأتراك الكثير، ثم إن البقية المحظوظة وصلت بعدتيه إلى أنطاكية في أواخر الربيع في حالة سيئة للغاية من الجوع وضعف المعنويات، ولقد عوملوا معاملة سيئة بشكل لا يصدق، ولكنهم أخيراً وصلوا.

وأستقبل لويس وحاشيته من قبل ريموند صاحب أنطاكية، الذي رافق الركب الملكي إلى داخل المدينة حيث أضافه بما يناسب ويليق بمنزلته، كما نزل الملك والملكة مع النبلاء الرئيسيين وزوجاتهم في كنف مترف، وكان الطقس رائعاً عندئذ، وسرعان مانسي الجميع الرعب والمشاق في رحلتهم، وعندما وصل النقاش حول المستقبل القريب، وأفضل السبل لمهاجمة المسلمين برهن الملك لويس على أنه متردد عندما أرادته كل فئة أن يقوم بأعمال مختلفة، فقد أراد ريموند في أنطاكية أن ينضم الفرسان الفرنسيون الذين لم يعانوا شيئاً فظيعاً مثل المشاة إلى الجيش الأنطاكي في هجوم على

حلب، كما أراد الكونت جوسيلين مساعدة الملك لويس في استعادة الرها، كما ناشده ريموند صاحب طرابلس، ابن عم لويس، مساعدته في استرداد قلعة رفنية الاستراتيجية. وقبل أن يعزم على أمر يتبناه من تلك الخطط ظهر وضع جديد تماماً، فقد كانت زوجته الملكة اليانور ابنة أخي ريموند صاحب أنطاكية، ولأسباب عائلية أو بسبب ظنها أن خطتها كانت الأفضل بين الثلاثة، فقد بدأت بحض زوجها لويس على القيام بما أراد ريموند. والانضمام إلى قواته ضد جيش نور الدين، ودافعت عن قضية عمها بكثير من الحماسة حتى أصبح لويس يغار منه، فلماذا هي مناصرة له كثيراً، ولماذا كانت تمضي وقتاً طويلاً مع عمها؟. إن كل ذلك ليدعو إلى الشك، أيمكن أن يكون شعور أمير أنطاكية نحو إبنة أخيه أحر منه عند عم ما؟، وأزعجته تلك التساؤلات، وأخيراً أعمل عقله في شعور بالاشمئزاز، وأعلن عن نيته في المغادرة إلى القدس على الفور، وأصبحت الملكة اليانور التي كانت تملك من الذكاء ضعفه ومن التصميم أكثر من ذلك، أصبحت في حالة هياج، فكيف يجرؤ على اتهامها بمثل هذا الشيء؟ فإذا أراد الذهاب إلى القدس فلتدعه مهما كلف الأمر يذهب دونها، أما بالنسبة لها فيه ستمكث في أنطاكية وتفارقه، لكن لويس أخذها بالقوة من أنطاكية، وحمّلها في سجن فعلي إلى القدس، أما ريموند صاحب أنطاكية، عمها أو السبب غير الذكي في المشكلة، فكان أيضاً مهتاجاً أكثر من ابنة أخيه، ومنذ لحظة رحيلها الإجباري نذر ألا يتعاون مع لويس مرة ثانية في حال من الأحوال، بل لن يتكلم إليه أبداً.

ولدى وصوله إلى القدس تحلل الملك لويس من نذره كحاج بزيارة الأماكن المقدسة، ورافقه كونراد الثالث امبراطور ألمانيا الذي وصل أخيراً في سفينة بيزنطية إلى هناك، وبعد قيامهما بواجبهما المقدس قبل الأميران دعوة الملكة ميليسندا والملك الشاب بلدوين الثالث لحضور مؤتمر في عكا مع جميع القادة الصليبيين من أجل تقرير ما بعد ذلك، أما ريموند صاحب أنطاكية فرفض القدوم، وكذلك ريموند صاحب طرابلس، واتهمته أخيراً إشاعة بتسميم ابن ريموند صاحب تولور الذي مات متألماً بعد فترة وجيزة من وصوله إلى

الممالك الصليبية ومن المستحيل القول فيما إذا كانت ستختلف الأمور لو أنهما كانا حاضرين. ولكن بالتأكيد كان لدى ريموند أنطاكية فكرةسامية في شخصيته الصغيرة أكثر ما لدى الملكين في رأسيهما، ولعله لم يكن قادراً على التأثير على القرار الذي اتخذه أخيراً، وكان قراراً كله حماقة غير متصورة تقريباً إذ قالوا ستهاجم الجيوش المتحدة للصليبيين دمشق.

وكان سكان دمشق المسلمين الوحيدين الذين بقوا على علاقات جيدة مع جيرانهم المسيحيين. وذلك بسبب وجيه جداً، فقد كانوا متخوفين من طموح نور الدين بقدر تخوف الإفرنج أنفسهم، وتأكد أن القرار الذي اتخذ في عكا كان سيرميهم بين ذراعي نور الدين الذي كان أخطر أعداء الصليبيين، كما دعمه ذلك إلى حد كبير، وأضعف المسيحيين بشكل موافق له، وكان عملاً يتسم بالحماقة والسخافة، وزاد سوءاً بالطريقة التي عوملت فيها الحملة الصليبية من قبل سكان دمشق إلى درجة القنوط.

كان الجيش الذي انطلق في تموز 1148 للهجوم على دمشق أضخم جيش جمعه الإفرنج وقد وصل إلى ضواحي المدينة يوم السبت 24 تموز وهو في حالة ثقة بالنفس كبيرة، وأخذ الحاكم المسلم بشكل مفاجئ، لأن هجوم الإفرنج كان آخر شيء توقعه، ولكنه تمكن بسرعة من جمع رجال كثيرين، وأرسل رسائل إلى نور الدين يطلب منه القدوم لإنقاذه، وفي تلك الأثناء احتل الصليبيون الحدائق والبساتين وغابات الزيتون المحيطة بالمدينة، وعندما وصلوا إلى قرية تدعى بالمزة، حاول جيش المسلمين، كما هو متوقع ايقاف تقدمهم، ولكنه هزم وأجبر على اللجوء إلى المدينة، ولو أن الصليبيين صعّدوا هجومهم على أسوارها لأمكنهم الاستيلاء على دمشق، لأنها كانت في الداخل في حالة فوضى ويأس، ولكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم وفقدوا فرصتهم[1]، وفي اليوم التالي بدأت الإمدادات بالوصول في أعداد متزايدة،

(1) مجرد أوهام تدحضه المصادر من لاتينية وعربية، انظر كتاب د. سهل زكار ـ الحروب الصليبية ط. دمشق 1984.

وقام الدمشقيون بهجوم مضاد، وأجبروا المسيحيين على التراجع عن الأسوار إلى داخل البساتين التي قدموا منها، وبعد يومين آخرين، استمر القتال، وقتل العديد من المسيحيين من قبل المقاتلين بشكل عصابات الذين زحفوا عليهم تحت غطاء أشجار الفواكه والزيتون التي عسكروا بينها، ومن أجل الاختباء من المهاجمين تحرك الجيش إلى سهل مفتوح إلى الشرق من المدينة حيث ليس ثمة ملجأ يختفي فيه فأر، وابتعدوا عن المقاتلين على شكل عصابات، وأملوا أن يجدوا الأمان من أعدائهم. ولكن اختيار الموقع الجديد كان كذلك خطأ فاضحاً قام به القادة الثلاثة لويس وكونراد وبلدوين، حيث كانت الأسوار المقابلة للموقع الجديد أكثر قوة من أي مكان آخر في محيط دمشق، كما كان من الصعوبة إيجاد نقطة ماء في أي مكان قرب المعسكر الجديد، ولذا كان موقعهم لا يدعو إلى الأمل، وفي يوم 28 تموز أي بعد أربعة أيام من وصولهم، وعندما شعرت المدينة بالثقة وتأكدت من النصر المجيد، تراجع الصليبيون في خزي، ولقد أخفقت الحملة ضد دمشق، وأصبح الدمشقيون حلفاء لنور الدين، الذي وصل فرسانه الأتراك في وقت مناسب لإزعاج السميحيين المنهزمين، وصبوا سهامهم عليهم، وللتأكد من أن الطريق التي سلكوها قد غطتها الجثث المتعفنة لعدة شهور قادمة.

وتلت الإخفاق التام اتهامات مزعجة بين الأمراء القياديين، ولم يستقر الرأي على من يلام بالضبط بذلك، فعلى الأرجح أن كونراد ولويس، وكلاهما غريبان بسياسات المنطقة قد ضغطا بقوة على الأمراء المحليين بشأن قرار الهجوم على دمشق، وكان هؤلاء يعلمون كم كانت قيمة تحالفهم مع دمشق، ولكن لم يجرؤوا على الضغط على معارضيهم بقوة كثيراً خوفاً من فقد دعم الملكيين، ولكن هذا مجرد حدس، وفي أوائل شهر أيلول أعلن كونراد بغضب عن نيته لنفض نعله من غبار الممالك الصليبية، والإبحار إلى سالونيكا حيث جدد صداقته مع الامبراطور مانوئيل، ووقع معه اتفاقية وعد فيها الاثنان بمساعدة الواحد الآخر ضد النورمانديين، وخاصة ضد روجر صاحب صقلية،

الذي قام مؤخراً بأعمال انتقامية في جزيرة كورفو، وسلب مدينتي طيبة وكورينثا في أعمال حرب مكشوفة ضد البيزنطيين، ومن أجل تعزيز التحالف تزوج أخو كونراد هنري صاحب النمسا من ابنة أخ مانوئيل ثيودورا، وأقيم الاحتفال بالفخامة البيزنطية المعتادة ولم تمنع روعة هذه المناسبة بعض البيزنطيين من الكتابة إلى والدة الفتاة للتعبير عن خوفهم من منظر هذه الأميرة المتمدنة الفاتنة وهي تشارك الحياة مثل هذا البربري الواضح وعبر عن ذلك أحد الشعراء بقوله: «لقد ضحي بها إلى وحش من الغرب».

وفي أثناء ذلك لم يكن الملك لويس قادراً على حزم أمره فيما إذا كان سيعود إلى الوطن، ومتى سيكون ذلك، ومكث في فلسطين يعالج استياءه المتزايد ضد كونراد ويطيل التفكير بعبوسه مثل طفل المدرسة بالطرق المناسبة لقهر المستقبل، وعندما سمع بخبر التحالف مع مانوئيل شعر بازدراء وغضب أن الملك الألماني قد زحف إليه بالخفاء، وامتد استياؤه ليشمل الامبراطور أيضاً، وساعدته الأخبار ليقرر أمره فقرر تغيير سياسته بالتحالف مع روجر صاحب صقلية، وبالتالي يغيظ كونراد ومانوئيل، وفي عيد الفصح سنة 1149 اعتلى سفينة صقلية متخذة طريقها إلى كالأبريا ومنها سافر إلى بوتنزا حيث استقبله روجر، ولم يجد النورماندي صعوبة في إقناع لويس بمساعدته في تأسيس حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية، وعندما عاد الملك أخيراً إلى فرنسا لم يجد بدوره أيضاً صعوبة في إقناع برنارد راعي كليرفو بالوعظ بعنف وغضب ضد البيزنطيين كما هاجم المسلمين بعنف في السابق ولقد كانت نهاية غير مهذبة للحملة الصليبية الثانية لمسيحيين في الغرب يبشرون بحرب مقدسة ضد مسيحيين في الشرق، ولكنها في عامل الزمن لا شيء، ولم يكن لدى البابا أو الملك كونراد أي شيء يفعله في الحملة الصليبية المناهضة للمسيحية، ولذا سقطت الفكرة، ومع ذلك من سوء الحظ بالنسبة للعالم المسيحي أنها لم تنس على الأطلاق.

الفصل الرابع عشر

قدر وتغيير

قدر. وقت. فرصة. حظ وتغيير.
لهذه الأشياء تخضع الأمور جمعاً شيللي

كان المستفيد الوحيد من الحملة الصليبية الثانية هو نور الدين، فقد سيطر على الرها كما استحوذ على معظم الأراضي شرقي نهر العاصي التي تخص إمارة أنطاكية، ورغم أن الدمشقيين كانوا في خوف من طموحه وقوته، إلا أنهم كانوا على علاقة ودية معه أكثر من ذي قبل بعد الهجوم على مدينتهم، كما كان ريموند أنطاكية الشخص الوحيد الذي رأى وضوح أن نور الدين أخطر الأعداء الذين واجهوا الإفرنج في الممالك الصليبية، ولكن نصيحته رفضت من قبل إخوانه الأمراء، ومن ظلم التاريخ القاسي أنه قدر له أن يدفع جزاء عماهم.

ففي حزيران 1149 بعد فترة من مغادرة الملك لويس الأرض المقدسة سار ريموند إلى إنقاذ إحدى القلاع القليلة المتبقية في حوذته وذلك إلى الشرق من نهر العاصي التي حاصرها نور الدين، وأخذ معه ما يقارب أربعة آلاف فارس وألف رجل مشاة، وعندما سمع نور الدين بقدومه سارع إلى رفع الحصار والتراجع عن المكان، فقد أخبر أن جيش ريموند أكثر عدداً مما هو في الواقع، وقد اعتقد هو نفسه أنه متفوق عليه، ولكن الحقيقة كانت مختلفة فقد تألف جيش المسلمين من ستة آلاف فارس مما جعله أقوى من جيش

المسيحيين، ولم يمض وقت طويل قبل أن يعلم بالحالة الواقعية للأمور، وحالما علم ان ريموند كان الضعيف بينهما، تحول إليه وصمم على تدميره. وفاجأ جيشه الإفرنج في مكان تعسكرهم ليلاً في مضيق، وأحاط بهم قبل أن يدركوا ذلك، وكان موقع الأرض ضد ريموند وهبت الرياح محملة بالغبار في عيون فرسانه عندما حركوا خيولهم لصعود المنحدرات نحو أعدائهم، وقبل منتصف النهار كان جيشه قد خذل، ومات ريموند، وقطع نور الدين الذي لم يتفوق عليه الأتراك الدانشمند الذين أعدموا حما ريموند (والد زوجته) ـ رأسه وأرسله في صندوق فضي إلى الخليفة في بغداد ليضيفه إلى مجموعته، ولم يدون ما إذا كان إمام المسلمين السنة قد ارتفع قدره بذلك أم لا، بنعمة الرب الأخيرة التي أضفاها على جنود الرسول، وليس ثمة من سبب للافتراض أنه لم يكن مسروراً به.

ولم يساعده جوسيلين صاحب الرها، ريموند على الإطلاق، بل أبرم هدنة هشة مع نور الدين، في حين كان يقاتل إخوانه المسيحيين من أجل أرواحهم، وكان دوره التالي هذه المرة أكثر عدالة مما كان في قضية ريموند، حيث بات عليه أن يدفع جزاء أعماله السابقة، فبعد ستة أشهر من موت ريموند نقض بازدراء نور الدين هدنته مع جوسيلين وهاجمه، وبشكل مفاجئ نال جوسلين بعض النجاح أولاً، ولكن في ربيع سنة 1150 أسره بعض الأتراك في وقت عصيب عندما افترق لحظة عن رفاقه، وكان متجهاً إلى أنطاكية، وسلمه آسروه إلى نور الدين الذي سمل في الحال عينيه ورماه في السجن وهناك وفي حالة عمى وحزن نُسي، ثم مات بعد تسعة أعوام.

وتبع موت ريموند وأسر جوسيلين قتل كونت طرابلس على نحو غير معقول في الظاهر من قبل عصبة الحشيشية، وأضاف ذلك طرابلس إلى الأمارات التي بدون حكام، والتي قلق عليها أولئك الذين نجحوا في مؤامراتهم أو مؤامراتهم المضادة، وقد انغمسوا في لعبتهم المألوفة في سياسة القوة الحاكمة، وسارع بلدوين الثالث الذي لم يتجاوز من العمر الحادية

والعشرين إلى السير شمالاً لإنقاذ مدينة أنطاكية من أيدي نور الدين الذي اضطر إلى الرضا بما حاز في ذلك الوقت، ووقعت هدنة، وبالتالي ضمنت فترة تنفس ظهر فيها قادة جدد للدويلات الشمالية، فقد كان لجوسلين الثاني ابن أصبح في المدة الأخيرة حاكماً اسمياً للرها التي توقفت عن الاستمرار بالفعل، ولذا كانت مشكلتها أصغر من الاثنتين الأخريين، كما خلف ريموند في طرابلس ابنه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة وانتقلت حقيقة السلطة إلى أييد أمه، بينما أصبح بلدوين الذي كان نفسه أكبر بخمسة أعوام من الأخير، وصياً عليه، وبالنسبة لحالة أنطاكية التي كانت في ذلك الوقت أهم الأمارات الثلاثة، رغم أنها فقدت بعض أراضيها وعدداً من قلاعها، صعب البحث عن خلف بعد ريموند، وتأجل ذلك طويلاً لأن أرملته الأميرة كونستانس رفضت بإصرار وعناد الزواج من أحد المرشحين المتعددين الذين تقدموا لطلب يدها، ومع ذلك، فبعد ثلاثة أعوام تقريباً من التردد والمراوغة حزمت أمرها، ولكن البحث عن أمير جديد لأنطاكية كاد بصعوبة ينتهي إلى وضع أكثر خطورة، واختارت كزوج لها فارساً كان قد قدم إلى الأرض المقدسة مع لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية. ويدعى هذا رينالد أوف تشاتيلون، (أرناط) وهو شخص بغيض جمع في شخصه الواحد أكبر عدد من الصفات غير المقبولة التي لا توجد في رجل واحد، وإذا كان لديه من سمة تذكر، فإن التاريخ لا يعرف عنها شيئاً، اللهم إلا إذا اعتبرنا طيشه وتهوره شجاعة.

وساءت الفوضى والتشوش لدى الإفرنج أكثر بسبب نزاع عنيف انفجر في ذلك الوقت بين الملكة ميليسندا في القدس وابنها بلدوين، كاد يسبب حرباً أهلية بينهما. ومع السنين، بدأ بلدوين يكتشف سيطرة أمه بشكل متزايد، ومزعج وصمم أن يقطع خيوط سلطانها ويحرر نفسه، وصممت ميليسندا بشكل مساو التشبث بالسلطة دون إذعان لما يمكن أن يقوله أو يفعله، فانقسمت المملكة بين معسكرين: الأول دعم الملكة، والآخر وقف إلى جانب بلدوين، وأخفقت ميليسندا في النهاية في تحقيق غايتها بمحاولتها

إقصاء ابنها عن عرش القدس، ونظراً إلى أنه كان الملك فقد وجد بشكل واضح سبب لتخلي مؤيدوها عنها، وهكذا اضطرت أن تتراجع عن الدور السياسي وتتخلى عنه.

وبعد أن قبض بلدوين أخيراً فعلاً على السلطة في المملكة التي كان فيها الحاكم الإسمي، منذ أن صار في الثالثة عشرة من العمر، تاق إلى أن يثبت نفسه أمام تابعيه أنه قد كبر، وكان قد أصبح رجلاً ضخماً، ذا كتلة شعر ناعمة، وذقن كثة كبيرة، وكان ذكياً وواضحاً، وحسن الثقافة وقد كسب سمعة لنفسه باللطافة والسلوك الطيب، وضعته في المكان الجيد، وأحبه الشعب بكل صفوفه ووافق بشكل جيد كل نماذجه وطبقاته، وبتفكيره بجدية أكثر في أتباعه، نال سروراً حقيقاً في مناقشة الأمور الخطيرة الهامة، فلم يكن مطلقاً شخصاً تافهاً مملاً، بل كان سعيداً أن يرمي النرد للرهان مع صديقه، أو يكون متغازلاً مع فتاة حلوة مثلما كان يتكلم في السياسة إلى شخص ما أو إلى وزرائه، أو يتكلم في الدين مع أسقف.

كان هناك متسع صغير ليبرهن فيه عن قدراته في شمال الممالك الصليبية حيث كان نور الدين قوياً جداً لإغرائه في مغامرة عسكرية محفوفة بالمخاطر، رغم أنه استطاع بل منعه من أخذ دمشق لفترة، بوعده مرة أخرى بمساعدة الدمشقيين، الذين كانوا مستعدين لنسيان سلوك الإفرنج الأخير كما كانوا متخوفين جداً من ابتلاعهم من قبل جارهم المسلم المتفوق في القوة، في حين كانت الخلافة الفاطمية في مصر تعاني وضعاً فوضوياً سيئاً أكثر من الإفرنج، وقدمت نقطة الضعف لدى المصريين إمكانيات مغرية معينة لبلدوين، ونتجت تلك الحالة من السلوك المروع لسلسلة طويلة من الفساد والوزراء عديمي الضمير، الذين قتل كل فرد منهم سابقة، فقط ليقتل بدوره من قبل خلفه، وهم جميعاً حكام ضعاف مترددوا برهنوا أنهم غير قادرين على السيطرة، فقد كانت هناك اضطرابات دموية في القاهرة، وفي إحدى المراحل تقاتل طموحان حول

الملتهبة، وكل أنواع القذائف المهلكة من فوقها إلى داخل الشوارع، وفي إحدى الليالي من شهر تموز سنة 1153 تسللت حامية مصرية بهدوء خارج المدينة، وأوقدت النار في البرج، فاحترق بشدة مثل مشعل كبير، ولكن من سوء الحظ بالنسبة للمدافعين أن هبت الألسنة نحو الأسواء حيث دمرت الحرارة الشديدة للنيران الملاط بين الصخور التي انهارت، وعند الصباح كانت هناك ثغرة، وحصل الفرسان الداويه على مدخل إلى شوارع المدينة بعد عبورهم الثغرة الساخنة، وفي أيديهم سيوفهم، ولم يدخل غير أربعين منهم، ولم يتركوا المجال ليلحق بهم آخرون إلى داخل المدينة. وصمموا على أخذ كل فرصة من أجل الاستيلاء عليها، ورغم أن المصريين اعتقدوا أن كل شيء قد تم فقده، لكنهم سرعان ما تحققوا أنهم قلة قليلة من الرجال الذين تعين عليهم أن يكافحوهم، وتحولوا إلى الفرسان وقتلوهم. ثم كدسوا جثثهم في ثغرة السور حتى يتم إصلاحه. وعلقت جثثهم بازدراء كطبقة مؤقتة في أعمال البناء لتفسد في أشعة الشمس.

وكانت خيبة الأمل مروعة، إلى حد أنه كان هناك بعض الناس في صالح رفع الحصار والاعتراف بالهزيمة، لكن المقدم الأكبر للداوية كان معارضاً لذلك، وأخيراً فعل ما أراد، واستمر فرض الحصار، وبعد حوالي شهر في 19 آب، وبعد تحمل لقصف.

آخر مرهق للأعصاب وشديد، قررت الحامية أخيراً ان ذلك يكفي، وعرض القائد تسليم المدينة إلى بلدوين، إذا أبقى على روحه مع أرواح جنده جميعاً، ووافق بلدوين، وعلى عكس العديد من الصليبيين التزم بكلمته أمامه، وخرج الجنود المصريون ومواطنو عسقلان خارج المكان دون ازعاج، بينما سار بلدوين الثالث إلى الداخل كفاتح للمدينة وهو في الثالثة والعشرين من عمره، فلقد أثبت أنه قادر على دحر خصومه المسلمين في الحرب، كما برهن أنه قادر على مقاومة اغراء القيام بمذبحة وقتلهم عندما كانوا تحت رحمته، فكان ذلك انتصاراً مضاعفاً، ولعل الانتصار الثاني كان الأعظم والأندر

فيهما، في سجلات تاريخ الصراع بين المسيحيين والمسلمين في القرن الثاني عشر في الممالك الصليبية، وكما كان نصر بلدوين عظيماً برهن الاستيلاء على عسقلان أنه شيء مثل الانتصار البروسي (الباهظ الثمن) لأن امتلاك المدينة أغرى خلفاءه على الانغماس في مغامرات عسكرية ضد مصر، في الوقت الذي كانت حاجتهم الحقيقية في التصدي لتهديد وجودهم الذي فرضه نور الدين وحلفاؤه في الشمال، وكان ذلك خطأهم العظم، وينبغي ألا يدع هذا ينقص قدر انتصار بلدوين التوأم، فالأول الانتصار العسكري العظيم، والآخر انتصار للانسانية.

وقدر لسقوط عسقلان أن يكون الانتصار المسيحي العظيم الأخير في الشرق، لكنه أحبط بشكل مفاجئ بانتصار أكبر حققه نور الدين في الشمال، حيث فتحت أخيراً دمشق أبوابها له، وبشكل طبيعي فقد حاكم المدينة، وكان يدعي مجير استقلاله، ولكن المواطنين في المكان لم ينسوا الهجوم الذي قام به الإفرنج على مدينتهم، كما أنهم لم يحبوا سياسة مجير في حفظ ميزان القوة بين الصليبيين النصارى المتغطرسين من جانب وبين الجل الذي اعتبره الاسلام نصير العقيدة من جانب آخر، وأثار عملاء نور الدين في المدينة شعوراً ملتهباً بعدم رضاهم، وفي 23 نيسان وفي أقل من سنة من سقوط عسقلان فتح سكان دمشق أبواب المدينة له ولجيشه، ورحبوا به بطرب، فدخل دمشق في موكب نصر كبير ومن ثم هيمن على شمال سورية كله.

ولحسن الحظ بالنسبة للمسيحيين، سقط نور الدين صريح المرض بشكل خطير بعد فترة وجيزة من استيلائه على دمشق، ثم مات بعد ذلك. وكانت فترة نقاهته بعد المرض بطيئة ولم يستعد كامل صحته السابقة أو تألقه القديم. ولذا منح أعداؤه فترة تنفس لم يكن بإمكانهم أن يترقبوها، وكانت هذه قد تأجلت بسبب حادثة أخرى غير متوقعة، فقد ضرب زلزال سنة 1156 كامل سورية ودمر تحصينات العديد من المدن الرئيسية والقلاع الاستراتيجية، فقد انشغل رجال نور الدين في اصلاح أسوار حلب ودمشق، وعشرات الأماكن الأخرى

لشن حرب عدوانية ضد الإفرنج الذين انشغلوا بشكل مشابه في محاولة اصلاح التخريب الذي حصل في أماكن أخرى خاصة بهم انما لم تعان كثيراً مثل تلك الأماكن في الشمال، ومع ذلك فد كانت مدمرة بشكل شامل، ولكن رجلاً واحداً لم يتأثر بالهدنة المفروضة، بل في الواقع منحته نوعاً من الفرصة ليندفع كالمسعور، مما جعله مسروراً. وبقدر ما كانت النتائج بالنسبة للناس الآخرين مهمة، بقدر ما كان هو غير مهتم، لأنه ما دامت شؤونه قد نجحت فانه كان سعيداً، فقد خطا رينالد أوف تشاتيلون الأمير الجيد لأنطاكية إلى مرحلة جديدة في التاريخ وعليه جاء عمله الأول متصفاً باللامسؤولية والبربرية.

لقد قرر غزو جزيرة قبرص ونهبها، وكان سكانها مسيحيين، لكن ذلك لم يزعجه، ولا حقيقة أنها جزء من الامبراطورية البيزنطية، التي كان الإفرنج في الممالك الصليبية حلفاء لها، وفي حالة سلام معها، وقبل خمسين سنة وعندما كان رجال الحملة الصليبية في جوع عند أسوار أنطاكية، وفيما بعد أيضاً خارج القدس، قدم سكان قبرص لانقاذهم، بارسال كل الطعام الذي تمكنوا من جمعه، ولم يعن كرمهم شيئاً بالنسبة لرينالد، ولكن الشيء الوحيد الذي أعاقه عن شن هجومه على الجزيرة فقره إلى المال، وسرعان ما عالج ذلك بطريقته الفريدة، فقد كان بطريرك أنطاكية رجلاً غنياً يدعى أيمري، وكان رينالد يكرهه إلى حد كبير، ودعاه للمثول أمام حضرته، وأمره أن يعطيه مبلغاً ضخماً من المال له، وعندما رفض رئيس الأساقفة إعطاءه ذلك، ألقاه في السجن وضربه، وفي أثناء العملية جرح رأس ايمري، ولما سمع رينالد بذلك أمر بفرك العسل في الجرح، وأن يعرض البطريرك طوال النهار في أشعة الشمس وهو مقيد ومحبوس لتقنعه الحشرات أن يتخلى عن ماله، وبعد يوم من التعذيب، قرر الرجل البائس ألا فائدة من المقاومة، ووافق على إعطاء رينالد المال الذي يطلبه، وواصل رينالد خططه لغزو قبرص بعد سروره بنجاح خطته الصغيرة.

وبعد اطلاق سراحه، أسرع البطريرك المهان إلى مغادرة المدينة، وسعى

إلى الالتجاء إلى القدس، حيث ارتاع الملك بلدوين لقصته، وأرسل رسالة إلى حاكم قبرص البيزنطي بالسرعة الممكنة ليحذره من خطره، ولكنها وصلت متأخره جداً، فقد سبق أن نزل رينالد إلى اليابسة فوق الجزيرة ومعه نصف جيشه، وقد رافقه في هذه المغامرة أمير ارميني كان في حرب مع الامبراطور البيزنطي، ولذلك لم يؤنبه ضميره للاشتراك في الغزو المسلح على الجزيرة البيزنطية، وتفوقت قوات رينالد والأرمني في عدد الرجال على أولئك الذين كانوا تحت تصرف حاكم قبرص لذلك سرعان ما أبيدو أو أسروا. وقد كانت قبرص في سلام لأكثر من قرن من الزمن، كما كانت خصبة ومزدهرة، وبعد هزيمة القوات المحلية وقعت تحت رحمة رجال رينالد، فلم يوفروا منها شيئاً، وقاموا لفترة ثلاثة أسابيع بنوبة قتل واحراق مبانٍ، وسلبٍ ونهب لا يوازيها تسجيلات بربرية في عهد بربري، فلم يتركوا شيئاً مقدساً. فمن كنائس وأديره وغيرها، سرقت جميعها، كما أتلفت المنازل ونهبت المحال، وسلبت القرى والبلدان، ثم أحرقوا المحاصيل ودمروا البساتين وسرقوا الحيوانات وساقوا سكان الجزيرة إلى الساحل مثل المواشي، وسبيت النساء والفتيات وقطعت حناجر الكبار والشباب وكل من قاومهم. واستمرت الأعمال الوحشية حتى وصلت انباء تفيد باقتراب أسطول بيزنطي، واستعد الإفرنج والأرمينيون لمغادرتها آخذين معهم معظم الأشخاص القياديين في الجزيرة، حتى يستطيعوا أن يفتدوا أنفسهم، أما الباقون بما فيهم بعض القساوسة اليونانيين الذين شوهت أنوفهم بالقطع فقد جمعوا في طرق مختلفة وتركوا ليجدهم البيزنطيون لدى وصولهم.

ولم يقدر لفرار الأمير الجديد في أنطاكية أن يغفر له الامبراطور مانوئيل، كما لم يسر الملك بلدوين في القدس ما قام به أيضاً، فقد كانت وحشية رينالد القاسية سيئة بما فيه الكفاية ولكن عدم مسؤوليته الكلمة كانت أسوأ، وكان مانوئيل لا يزال امبراطور أقوى دولة مسيحية في منطقة شرق البحر المتوسط كلها، وربما أقوى دولة مسيحية في العالم، وليخاصمه ذاك لى نحو

غير مسوغ كان أمراً جنونياً غير مسؤول، تماماً في الوقت الذي اتحدت فيه قوى الاسلام تحت قيادة نور الدين في عزيمة جديدة لطرد المسيحيين خارجاً نحو البحر، ونتيجة لذلك، قرر بلدوين السعي لعقد حلف مع مانوئيل، وبعد حوالي أكثر من عام من المفاوضات وقعت القوتان معاهدة بينهما. ودعم ذلك فيما بعد زواج بلدوين من ابن أخ مانوئيل الصغيرة الأميرة ثيودورا. التي لم تتجاوز عامها الثالث عشر، والتي سرقت قلب بلدوين تماماً، كما كان زواج تناسق سياسي، ووقع بلدوين في حبها في لحظة نظره إليها، وكان حتى ذلك الوقت كثير الاختلاط غير الشرعي، ولم يكن مسرفاً ولا مقتراً مع صديقاته، إلا منذ لحظة زواجه من ثيودورا بقي مخلصاً لها تماماً كما بدت انها أحبته بدورها.

وبموجب هذه الاتفاقية، وافق بلدوين على دعم مانوئيل ضد رينالد أوف تشاتيلون، ولذلك عندما، في خريف 1158، زحف مانوئيل خارج القسطنطينية على رأس جيش هائل مصمماً على تأديب الأرمن الذين ساعدوا في سلب قبرص أولاً ثم أمير انطاكية اللعين، وكان يعلم أنه ليس هناك ما يخيفه من ملك القدس، وسار بسرعة كبيرة ونجح تقريباً في مفاجأة الأرمن الذين كانوا قد تدبروا أمرهم قبل ذلك بقليل في النجاة والهروب من غضبه انتقاماً، كما أخافت أخبار قدومه رينالد، ونظراً إلى أنه لم يستطع أن يمل في وقف الامبراطور أو جيشه، فقد قرر أن يستسلم له، ويطلب غفرانه، حتى لو اضطر أن يتذلل له ويستخدمه. وعندما وصل مانويل والجيش البيزنطي إلى أنطاكية في أواسط سنة 1159، أذلّ نفسه أمامه، وتلقى أخيراً غفرانه الضنين، ثم دخل الامبراطور أنطاكية في فخامة، وانضم إليه بلدوين هناك، وكانت هذه المرة الأولى التي يلتقيان، وأعجب مانويل بسحر الرجل الشاب، وكان اجتماعهما نجاحاً عظيماً، ومع ذلك، فإذا حاول بلدوين أن يستخدم مساعدة حميه (والد زوجته) في الهجوم على حلب كما اقترح غالباً في السابق، فقد أخفق، وبدلاً عن ذلك. وقع مانويل بعد أسبوع هدنة مع نور الدين يكون في شروطها افرنج

الممالك الصليبية في حماية من هجمات القائد المسلم، في حين يطلق يده حرة لقتال السلاجقة في الأناضول الذين كانوا أشد خطراً بالنسبة له من نور الدين.

وبعد أن أعاد ترسيخ نفوه في سورية، وبعد أن أظهر قدرته على التدخل بشكل فعلي هناك لصالح إخوانه المسيحيين عاد مانويل إلى القسطنطينية، ورغم أن بعض الإفرنج اعتبروا أنه قد خانهم بعدم الاستمرار في اعلان الحرب ضد نور الدين، لكن تحقق معظمهم أن الامبراطور البيزنطي أنقذهم منه حين خلق توازناً جديداً للقوة في المنطقة طالما تركهم نور الدين وحدهم، ولم يتدخل مانوئيل أيضاً. ومقابل ذلك سعد الإفرنج بشكل كاف لترك السوريين وحدهم، وخاصة حين بدا أن ذلك يشجعه ليشن حرباً ضد منافسيه الأتراك السلاجقة بدلا منهم أنفسهم، ولا حاجة للقول أن قلة من الناس، أما أنهم لم يفهموا الوضع الجديد، أو إذا أدركوه فقد اهتموا قليلاً، أو أنهم لم يهتموا مطلقاً للصالح العام المصان ما دام ذلك مستمراً، بل هناك حاجة للقول أن رينالد أوف تشاتيلون كان أحدهم، وبعد سنة من ركوعه بتواضع فوق التراب أمام مانويل، ووعده إياه بالتصرف بخير، نكث بكل سرور بوعده، والهدنة الجديدة مع الجيران المسلمين بالاغارة على أراضي نور الدين، والاستيلاء على غنائم من الماشية والجمال والخيول التي كانت تؤخذ إلى مراعيها الشتوية، وربما كانت النتائج خطيرة إلى حد كبير، ولكن هذه المرة هجره حظ الشيطان، وأسر رينالد من قبل بعض رجال نور الدين قبل أن يتمكن من الوصول إلى مقره، ووضع في السجن في حلب. ومنذ ذلك الحين لم يظهر أحد من إخوانه الإفرنج حماسة لافتدائه، وبقي هناك لفترة ستة عشرة عاماً.

وبعد سنتين مرض بلدوين ثم مات، فقد أخذ عليلاً وهو مسافر، وحينما مر بطرابلس عالجه طبيب سوري، ولكنه لم يتحسن واستمر في رحلته حتى وصل بيروت حيث لاقى حتفه في العاشر من شهر شباط 1162 عن عمر يناهز الثانية والثلاثين سنة، وكانت خسارته لا تعوض، فقد كانت أعماله جميعاً

أعمال ملك متمدن وعظيم، فبكاه الناس من حوله بكثرة إلى درجة أن الفلاحين المسلمين في الأرياف التي مر بها جثمانه محمولاً إلى القدس اصطفوا على الطرق لالقاء نظرة احترام أخيرة عليه، وعندما حث أحدهم نور الدين على انتهاز الفرصة التي قدمها موته، بالهجوم على الإفرنج، رفض وقال: إنه من الخطأ الاستفادة من أمه تبكي على موت أميرها العظيم.

ولم يكن لدى بلدوين أطفال فخلفه أخوه الأصغر أمالرك الذي شابهه في عدة نواح، فكان طويلاً بديناً، رغم أن أخاه كان أطول منه، ولكنهما من حيث البشرة والسمات كانا متشابهين إلى حد بعيد، فكان لأمالرك لحية شقراء كثة كبيرة وكذلك شعره أشقر. أما أنفه الروماني فكانت تماماً مثل أنف أخيه، غير أن الأخ الأصغر الذي كان في السابعة والشعرين عندما اعتلى العرش، افتقر إلى سحر أخيه واطمئنانه في عاداته، فكان صموتاً غير اجتماعي إلى حد ما، ويرتبك في عشرة الناس الآخرين، لأنه كان يتعلثم قليلاً، ولم يشارك أخاه في تذوقه للمقامرة، وفضل بدلاً عن ذلك ملء وقته الفارغ بالقضايا الغرامية التي جعلته سيئ السمعة إلى حد ما، رغم أن بعض المتابعة الجدية خاصة في دراسه التاريخ والحقوق جذبته، وأخيراً كان يعاني من مشاكل صحية، ولديه نزعة شديدة إلى المال، ولذلك اتهمه بعض الناس بالجشع، ولكن لم يكن جشعاً مطلقاً بل ساقه ذلك للتأكد من كون خزينته ممونة دوماً بشكل جيد بالنقود، فقد أدرك أنه بدونه سيكون عاجزاً سياسياً، في حين أنه يستطيع بالخزينة المليئة أن يفعل القليل أو الكثير مما يريد في الشؤون الداخلية والخارجية.

وفي وقت اعتلاء أمالرك العرش وقع ظل نور الدين الطويل على طول الإمارات الإفرنجية من أطراف الرها في الشمال عبر أنطاكية إلى القدس في الجنوب، وأدرك أمالرك أن شيئين فقط كان يقفان بينه وبين الدمار: قوة الامبراطورية البيزنطية، وضعف مصر، ولذلك صمم على الحفاظ على علاقات طيبة مع الامبراطور مانويل مهما كلف الأمر فإن ذلك ضروري، كما عزم أيضاً على محاولة مراقبة مصر لأنه خاف إن لم يفعل ذلك فإن ضعف

الخلافة الفاطمية وحالة الفوضى الفعلية في أنحاء البلاد ربما أغرت نور الدين بمحاولة الاستيلاء على السلطة هناك، وإذا حدث ذلك، فسيجد المسيحيون في الممالك الصليبية أنفسهم في وضع خطير للغاية وهذا ما قصد أني منعه إذا استطاع.

وكان الوضع السياسي في مصر دموياً وغريباً جداً إلى درجة أنه يستحق وصفه في تفاصيل قليلة، رغم أنه سيكون وصفاً لأشخاص تقريباً، ففي وقت سقوط عسقلان كان الوزير رجلا يدعى عباس، والخليفة الظاهر وكان للوزير ابن يدعى ناصر بدا أن للخليفة معه قضية لواط شهوانية عميقة، وأغاظت المسألة والد ناصر، ليس لأسباب أخلاقية بل، لأنه خاف أن يضع الخليفة ابنه ضده، وتحققت مخاوفه، فقد رضي ناصر أن يقتل والده، ومع ذلك أقنع أحد الخواص المشاركين في تلك المؤامرة، الشاب ناصر بأنه ربما من الأفضل قتل الخليفة بدلاً من أبيه واستلام السلطة، ووافق ناصر، فدعا الغلام عشيقه إلى فسوق ليلي في بيته، وعندما وصل الخليفة طعنه وقتله، فأعلن والد ناصر الوزير على الفور أن الخليفة قتل بأيدي إخوته الذين اعتقلهم، وحكم عليهم بالموت، ثم نصب الفائز ابن الرجل المقتول ذا السنين الخمسة على العرش، وكان الطفل شاهداً لقتل عمومته لذا لم يكن غريباً أنه عانى من الاضطرابات الشديدة بقية حياته، وحتى ذلك الوقت بدا أن كل شيء سار على ما يرام بالنسبة للوزير وابنه، ولكن الخليفة ترك أربع زوجات لم يكن مسرورات بعبث زوجهن الجنسي مع الرجل الشاب ناصر، ولم ينخدعن بالروايات الرسمية للحوادث التي أخرجها والد ناصر الوزير، ونظمن ثورة عسكرية ضد الاثنين المنتصرين ظاهرياً فهربا خارج البلاد، وعندما كانا يعبران صحراء سيناء، هجرهما الحظ، فالتقيا بفرسان من الداوية قتلوا الوزير عباس، وجعلوا ابنه سجيناً، وعرض على الشاب أن يصبح مسيحياً إذا أبقوا على حياته، ولكنهم تلقوا عرضاً بستين ألف دينار مقابله من قبل الأرامل الأربع المنتقمات للخليفة الأخير في القاهرة، وقرر هؤلاء قبول ذلك العرض، وأعيد ناصر كما ينبغي

إلى مصر، وسلم إلى رحمة وحنان الأرامل الأربع فضاعفن من تعذيبه بطرق مؤلمة بارعة مختلفة قبل أني تم شنقه.

وفي أثناء ذلك، استلم قائد الثورة العسكرية وهو رجل أرمني دعي رزيك، الوزارة تحت السلطة الاسمية للخليفة ذي الخمسة أعوام، وعادت الأمور إلى مجاريها لعدة سنوات حتى مات الغلام الصغير، وحل محله خليفة للبلاد ابن عمه الذي كان له من العمر تسع سنوات، وتزوج هذا أخت رزيك، وفي هذا الموضوع تدخلت إحدى سيدات العائلة مرة أخرى، وأقنعت عمة الخليفة بعض أصدقائها بطعن الوزير رزيك لدى عبوره خلال قاعة القصر، ووافقن على القيام بذلك، ولكن في تلك الحادثة، أفسدن العمل الاجرامي واستغرق رزيك وقتاً حتى مات، وقبل أن يموت دعا قاتلته لتأتي وتراه، وبنوع من الغباوة قدمت، حيث استجمع الوزير المحتضر قوته الأخيرة وقتلها ومات، وخلفه ابنه في منصب الوزارة، ولم يدم في منصبه أكثر من خمسة عشر شهراً قبل أن يقتل بدوره من قبل حاكم مصر العليا شاور الذي هيمن على السلطة لفترة ثمانية أشهر قبل أن يجرده أيضاً من الملكية معاونه درغام العربي، ونجا شاور بحياته، وفر خارج البلاد باحثاً عن ملجأ في سورية في بلاط نور الدين، في حين أعد درغام أكثر من سابقيه في مصر قائمة شاملة بجميع أولئك الأشخاص الذين ربما خلقوا تهديداً لأمنه، وبعد أن أتمها نفذ في جميع من وردوا في القائمة حكم الموت في طقوس تبجيل محكمة، وأدى ذلك إلى حرمان الجيش المصري من جميع ضباطه القياديين.

ولم يكن في الامكان استمرار حالة الأمور الغريبة في مصر لمدة طويلة، وكان كل من أمالرك ونور الدين علىَ علم بذلك، وأنه أن لم يفعل أحدهما شيئاً فيما يخص ذلك، فإن الآخر سيفعل. وكان نور الدين أولهما في التحرك، ففي نيسان 1164 أرسل جيشاً تحت إمرة كردي دعي شيركوه قائده العام المعتمد مع أوامر بإرجاع الوزير السابق شاور إلى منصبه، وهو مدرك أنه حالما

يكون شاور وزيراً فإنه سيضمن أن يصبح عميلاً ثابتاً لنور الدين وتصبح مصر بالتالي حليفة له، وأخذ القائد شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ـ الرجل الذي عرفه الإفرنج وخافوه كصلاح الدين فقط وبالتالي نال أول احترام له في تلك المرحلة من التاريخ، وتحرك الجيش الاسلام بسرعة كبيرة متجاوزاً الإفرنج وأسر درغاماً. وفي شهر أيار مات درغام، وعاد شاور وزيراً مرة أخرى. وحقق شيركوه كل شيء، خرج من أجله، وكان لابد أن يكون ذلك نهاية الأمر، وإذا كان ذلك، فقد نجح نور الدين في تعطيل زحف الملك أمالرك ولكن لم تكن تلك النهاية، ذلك انه حالما وجد شاور نفسه قد عاد إلى السلطة، تبرأ من صفقته مع نور الدين، وطلب من شيركوه أن يعود إلى بلاده، ورفض الكردي، وسار واحتل المدينة المحصنة بلبيس في دلتا النيل شمال القاهرة، وناشد شاور أمالرك من أجل المساعدة، وكان هذا الأخير سعيداً لينال حظه في التدخل، وزحف على رأس جيشه من القدس إلى مساعدة شاور، ولدى وصوله إلى مصر انضم إليه في حصار بلبي، وكان الحصار ينجح تقريباً في النهاية، لولا أن نور الدين صمم على انقاذ ضابطه الكردي، ومن أجل ذلك هاجم امارة أنطاكية مجبراً أمالرك على رفع الحصار والاسراع بالعودة إلى وطنه، كما قرر شيركوه العود أيضاً، وترك شاور في السلطة في مصر، حيث بقي الوضع السياسي متوتراً وفوضياً كالسابق، وفي أثناء ذلك أعاق نور الدين عن الهجوم على مدينة أنطاكية خوفه من البيزنطيين.

وبعد عامين في 1167 أمر نور الدين شيركوه أن يغزو مصر مرة أخرى وأخذ القائد العام الكردي للمرة الثانية معه ابن أخيه صلاح الدين، وقد حاول أمالرك اعتراضه، وكاد الجيش المسلم أن يتدمر في عاصفة رملية مروعة في صحراء سيناء، ومع ذلك وصل شيركوه إلى مصر بسلام وعبر النيل وضرب معسكره قرب الأهرامات في الجيزة على الضفة الغربية للنهر، ووصل جيش أمالرك بعد عدة أيام، وتمركز على الضفة الشرقية قرب أسوار القاهرة حيث

رحب به بحرارة الوزير شاور، وعقد حلف بينهما، ومن أجل ختم الاتفاق جرى اختيار رجلين قياديين من الإفرنج وقد قيدا في موكب مهيب خلال القصر لمقابلة الخليفة، وذهل الرجلان برؤية الروعة كما أدهشهما الترف المتألق للمكان، وكسائه بالرخام، ثم أخيراً قابلا وجها لوجه غلاماً صغيراً أسمر يجلس فوق عرش ذهبي مغطي إلى نصفه بستار ذهبي، ولاضفاء الشرف على الحضور ألح أحد الإفرنج على مصافحة الخليفة، وبعد أن نزع الغلام القفاز الذي كان يرتديه، وهو انتهاك وتخط للآداب والسلوك، ولكن الغلام الصغير بدا أنه غير مبال، ووافق أن يضع يده في يد البربري الزائر، وغادر الإفرنجيان متأثرين بعمق بغنى البلاد الفاطمي.

ولفترة شهر لم يطرأ أي جديد، بل كان الجيشان يحدقان ببعضهما عبر النيل. وجعلت الحشرات المنطقة هناك لا تطاق بالنسبة لجنود المسيح ومحاربي الرسول على السواء، ولكن أمالرك الذي تفوق جنوده في العدد على المسلمين تدبر أمره لعبور النهر لمطاردة شيركوه إلى الحوض الأعلى من النهر عند مدينة المنيا على مسافة 150 ميلاً جنوب القاهرة، حيث التقى الجيشان أخيراً للقتال، ولم يكن الصراع حاسماً، ذلك أنه رغم فوز شيركوه أكثر من الإفرنج، لكن جيش أمالرك بقي الجيش الأضخم عند نهاية اليوم، وبينما أعاد المسيحيون تنظيمهم سار شيركوه وصلاح الدين إلى الشمال مرة ثانية، وعبرا القاهرة واحتلا الاسكندرية حيث تبعهم أمالرك وحاصر المدينة على الفور، وكان المكان واسعاً وتدبر شيركوه معظم جيشه فانسل خارجاً في إحدى الليالي تاركاً صلاح الدين في الداخل مع حامية صغيرة، وفي الحال نشأ وضع جديد يشبه مأزقاً حرجاً، وبعد بضعة أشهر عندما اتضح أنه ليس في امكان أحد الطرفين توقع هزيمة الطرف الآخر، أرسل شيركوه مبعوثيه إلى أمالرك يقترح شروط اتفاق سلام، ووافق أمالرك عليها بعد قلقه على الشؤون في سورية، وشغل صلاح الدين دوراً قيادياً في عملية التفاوض على السلام، وقد قيل أنه لم يجعل له عدداً من الأصدقاء بين الإفرنج في ذلك الوقت فحسب، بل انه

كان محبوباً جداً ومحترماً للغاية حتى أن أحد فرسان الأمراء الإفرنج شرفه برفعه إلى رتبة فاس، وحتى لو أن القصة كانت غير صحيحة فهي تقدير رفيع لصلاح الدين اعتقد به خصومه.

ولو أن أمالرك كان راضياً أني ترك وحده في تلك الفترة، فلربما اختلف تاريخ الممالك الصليبية، وعندما عاد إلى القدس ترك لواءه يرفرف فوق المنارة في الاسكندرية وبقيت حامية من جنوده في القاهرة لحراسة ومراقبة حليفه شاور، الذي كان ملزماً أني دفع مبلغاً كبيراً سنوياً لدعم قواته العسكرية، وبالنتيجة أصبحت مصر محمية افرنجية، ولكنه لم يكن راضياً جداً، وبعد تعزيز تحالفه مع البيزنطيين بزواجه من ابنة أخ الامبراطور العظيمة الأميرة ماريا كومينيا، شعر أنه قوي بما فيه الكفاية لمحاولة فتح مصر كلها، ولو أن الأسطول البيزنطي حاصر مصر من جهة البحر فربما نجح، ولكنه لم يزعج نفسه بالانتظار حتى المساعدة البحرية من حليفه، وحثه فرسان الاسبتارية الذين لم يستطيعوا الانتظار للتثبت من الثروة الأسطورية للفاطميين، وبالاضافة إلى بعض القادمين الجدد من فرنسا الذين كانوا يتوقون لقتل بعض المسلمين، وسار أمالرك في تشرين الأول 1168 عبر صحراء سيناء وفرض حصاراً على بلبيس، ودافع عن المدينة عصبة من الجنود المصريين.

ورغم أنهم قاتلوا بضراوة وشجاعة فاجأتا أمالرك فقد تغلب محرزاً انتصاراً بعد ثلاثة أيام من المقاوم اليائسة، وتلا ذلك مذبحة دموية رهيبة أذهلت أيضاً الإفرنج أنفسهم، وعمل أمالرك ما في وسعه لوقف سفك الدماء، ولكن في الوقت الذي تمت السيطرة على رجاله كان الخراب قد حصل.

وكان بعض المصريين على استعداد للترحيب بالإفرنج كمحررين من اساءة استعمال السلطة في الخلافة الفاطمية، وكان المسيحيون خاصة مسرورين بوصول إخوانهم المسيحيين، وبعد المطبحة في بلبيس ارتدت مصر كلها في غضب وردة فعل قوية ورفضتهم. لأن القتل هناك كان شيئاً غير شرعي، فقد ذبح المسلمون والمسيحيون الأقباط رجالاً ونساء وأطفالاً

وشيوخاً بنفس التقدير المروع وغير المميز، وبعد عدة أيام وصل المسيحيون الذين قدموا حديثاً من أوربا إلى مرفأ تنيس الذي كان سكانه أقباطاً جميعاً تقريباً، فكان هناك مذبحة أخرى رهيبة حيث انقلب المصريون الذين كانوا في جانب الإفرنج إلى جانب نور الدين، ودعا الخليفة شيركوه لامتلاك القاهرة حيث مات بعد عدة أسابيع من التخمة، وخطا الرجل الذي قدر له أن يكون سوط عذاب للإفرنج إلى مسرح الأحداث، وهكذا أصبح صلاح الدين حاكم مصر.

الفصل الخامس عشر

دولاب الحظ

وانتهكت حرمة المعبد، ونهب الذهب، واكمل دولاب الحظ دورته، وانتشرت الأشواك والأعشاب ثانية فوق الأرض المقدسة.

جيبون ـ انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية.

عندما أصبح صلاح الدين وزيراً في مصر في آذار 1169 كان في سن الحادية والثلاثين، ولم يكن أحد يعلم عنه الكثير، وكان والده أيوب كردياً، وأحد ضباط نور الدين العسكريين، ولفترة من الوقت تولى حكم منطقة بعلبك، ونقل فيما بعد إلى بلاط دمشق حيث نشأ صلاح الدين وتثقف في أشهر وألمع مركز للتعليم الإسلامي خارج القاهرة، وقد ربي ليصبح مسلماً تقياً بل متعصباً، وتميز كثيراً كضابط شاب بمهارته في لعبة «البولو»، وكان مظهره لا يوحي بأي تعبير، كما لا يعطي أي إشارة عن رجل نادر وهام كما قدر له وكان، كان قصيراً ذا وجه متورد قليلاً، ويرى بعين واحدة، وورث صلاح الدين منصب عمل صعب للغاية كوزير في مصر بعد موت عمه، واستاء البلاط الفاطمي من حكمه، وتآمر سراً مع بلاط أمالرك في القدس لطرده، بينما عاد إلى سورية غاضباً، بعض إخوانه الضباط الذين كانوا أعلى منه في الخدمة وحتى في المكانة الاجتماعية، واستاؤوا من ترقيه إلى السلطة، ولو أن الإفرنج هاجموه بعد اعتلائه الوزارة لكان من الصعب جداً هزيمتهم[1].

(1) يلاحظ لجوء المؤلف إلى عبارة «لو» في كثير من الأحيان، علماً أنه لا وجود لهذه العبارة في التاريخ، فالتاريخ يسجل ما حصل لا ما يتمناه كاتب ما أو أي إنسان لو حصل.

ورغم أن الامبراطور مانوئيل والملك أمالرك أدركا بوضوح كاف، أنه مع وجود صلاح الدين في السلطة في مصر، وفي تحالفه مع نور الدين في سورية، فإن ميزان القوى بين الجانبين تبدل بشكل حاد، ولم يكن أمالرك مستعداً لمهاجمة مصر، ووافق مانويل على إرسال أسطول بيزنطي لحصار الساحل، ولمساندة الجيش الإفرنجي إذا غزا أمالرك مصر ثانية، وكانت قوات الإفرنج قد عانت كثيراً في الحملة الأخيرة، كما استغرقت وقتاً قبل تمكنها من مباشرة القتال، حتى كان شهر تشرين الأول أي بعد ستة أشهر من اعتلاء صلاح الدين السلطة في القاهرة، حيث زحف الجنود المسيحيون نحو الجنوب، أما الأسطول البيزنطي الذي كان في انتظار لفترة أسابيع في قبرص من أجل الإبحار، فكان يحرس جناحهم، وتوجهت هذه القوة الضخمة ماشرة إلى القلعة الضخمة التي كانت تحمي الفرع الرئيسي من النيل، أي إلى مدينة دمياط، وكان صلاح الدين يتوقع هجوماً آخر على بلبيس، ولذا فوجىء، وأخذ على حين غرة، لكن المدافعين عن دمياط نشروا سلاسل ضخمة عبر النيل لمنع الأسطول البيزنطي من الإبحار إلى الداخل، لكي يوقف الإمدادات المصرية من الوصول إلى المدينة من الجنوب كما كانت أسوار المدينة ضخمة جداً إلى درجة أن أمالرك تردد في الانقضاض عليها، أما صلاح الدين الذي لم يجرؤ على مغادرة القاهرة خوفاً من عصيان في المدينة، فقد أمر بحشد العديد من القوات قدر المستطاع لترسل في مساعدة مدينة دمياط، ومع مرور الأيام تعاظمت قوة الحامية أكثر فأكثر، واستمر قدوم الكثير من الرجال من الجنوب.

وفي أثناء ذلك عظم التوتر والخلف بين الإفرنج والبيزنطيين، وتعين على الأسطول أن ينتظر طويلاً حتى يستعد الجيش الذي استهلك كثيراً من الطعام الذي زود به قبل إبحاره من القسطنطينية، كما كانت قبرص غير قادرة على سد النقص عندما أبحرت أخيراً السفن إلى مصر، وبدأ البحارة يعانون من نقص المؤن والطعام، كما كانوا يتوقون بشكل موافق للقيام بهجوم على المدينة غير أن أمالرك استمر في رفض المخاطرة بأرواح رجاله في انقضاض حتى يستعد

لذلك، في حين كان يرفض في تجهم مساعدة حلفائه بإعطائهم بعض مؤن رجاله، واتهم بعض الإفرنج بغضب شديد البيزنطيين برغبتهم بالمشاركة في غنائم المدينة على حساب أرواح الإفرنج، وبعد مرور بعض الوقت توضحت الأمور أكثر، في أنه لا غنائم لأي منهم، فقد كانت المدينة قوية وأخفقت الحملة.

وفي كانون الثاني بدأت الأمطار بالهطول، وأصبح المعسكر مستنقعاً، وحان وقت العودة إلى الوطن، وبعد بضعة أيام من البرد والبؤس أحرق الجيش معدات الحصار، وسار نحو الشمال ليصل إلى عسقلان في حالة تعب وخوف في ليلة عيد الميلاد، ولم يأسف أحد لوداع البيزنطيين، كما لم يهتم أحد لوصول أنباء عن تعرضهم لنكبة حيث أصابت الأسطول عند ساحل فلسطين عاصفة رهيبة، فغرقت عدة سفن مع خسائر جسيمة في الأرواح، وخلال موسم عيد الميلاد ألقى اليم جثث البحارة الموتى على طول ساحل الأرض المقدسة، حيث افترستها الكلاب المسعورة وغزتها المجموعات المتنازعة من طيور النورس، لكن مما لا شك فيه أنها لم تجد فيها ما يكفي من غذاء لأنها كانت نحيفة جداً.

ونتج عن إخفاق الحملة كما هو متوقع اتهامات مضادة بين الجانبين، لكن الإفرنج والبيزنطيين، كانوا في حاجة إلى بعضهم البعض، ولذلك لم ينقض التحالف، وفي أثناء ذلك أزاح صلاح الدين كل معارضة لحكمه في مصر تماماً، ووطد نفسه هناك بشكل أمين إلى درجة أن نور الدين بدأ يقلق من النوايا المحتملة لضابطه المتفوق في القوة، وقام صلاح الدين بغارة أو أكثر ضد أهداف في الجزء الجنوبي من مملكة أمالرك ليظهر عداءه للعدو المشترك، كما تصرف في نواح أخرى أيضاً بانضباط كامل، ولكن نور الدين أصبح أكثر شكاً في نواياه، ففسدت العلاقات بينهما، ثم انصلحت لفترة، عندما وافق صلاح الدين على إبطال الدعوة للخليفة الفاطمي في مساجد مصر، وأجل

محلها الدعوة لصالح الخليفة في بغداد. وقد سر كثيراً عندما مات الخليفة الفاطمي بعد ذلك بقليل، وكان انتصار السنة على الشيعة أقرب دوماً إلى قلبه، وبدت بعد ذلك مؤكدة، ولم تمض فترة طويلة قبل أن تعود وتتنبه شكوكه، ففي سنة 1171 قام صلاح الدين بإحدى غاراته في الأراضي الصليبية وحاصر القلعة العظيمة في الكرك في الصحراء الصخرية الحارة جنوب البحر الميت، وقرر نور الدين أن يقدم لمساعدته، وسار جنوباً لينضم إليه، وحالما سمع صلاح الدين بقدومه رفع الحصار وعاد نحو الجنوب بحجة الذهاب لمساعدة أخيه الذي احتاج إلى نجدته في مصر العليا، واغتاظ نور الدين متهماً تابعه بالخيانة، وتنبه لذلك صلاح الدين، فدعا مستشاريه إلى جلسة وكان معظمهم في صالح التحدي والوقوف ضد نور الدين، غير أن والد صلاح الدين الذي كان مع ابنه في ذلك الوقت، أشار عليه القيام بالاعتذار المباشر، ووبخ ابنه للتفكير الكامل في العمل على العصيان، وتقبل صلاح الدين نصيحة والده، وترك نور الدين نفسه لفترة من الزمن لتهدأ، ولكن تكرر حدوث نفس الشيء تقريباً في السنة التالية عندما تقهقر صلاح الدين بسرعة حالما بدأ نور الدين هجوماً على الإفرنج في الشمال، ولم يعرف غضب الرجل الأكبر حدوداً له، ولم يعد يستطيع الشك في أن ضابطه المستقل تماماً كان ممتعضاً أن يرى دمار الإفرنج الذين يقعون بشكل ملائم بين سورية ومصر، وبالتالي كانوا يوفرون دولة فاصلة بينه وبين سيده الكثير المطالب.

وفي أثناء ذلك، كانت إحدى النتائج المفاجئة لدمار الخلافة الفاطمية ارتماء طائفة الحشيشة في أحضان الإفرنج، وكانت هذه الطائفة صغيرة لكنها مرعبة ومتمركزة في جبال النصيرية بين حماه والساحل السوري، والتي مارست أعمال الاغتيال السياسي لتزيد من حدودها وهي قريبة إلى الشيعة من حيث المبدأ والتعاطف أكثر منها إلى السنة في بغداد، وأذهلتهم أعمال صلاح الدين في مصر. وكان شيخها في ذلك الوقت رجلاً هاماً دعي راشد الدين سيان،

الذي أصبح يعرف بالنسبة للإفرنج فيما بعد بشيخ الجبل، وفي سنة 1173 كتب إلى أمالرك يقترح عقد حلف بينهما يعارض نور الدين وضابطه صلاح الدين في مصر، ووافق أمالرك مسروراً لاستقبال أية مساعدة في مواجهته لمصاعبه المتزايدة، ولكن فكرة قيام معاهدة مع الحشيشة أغضبت فرسان الداوية لسبب أناني وتافه فردياً، فقد كانت إحدى قرى الحشيشة تدفع ضريبة سنوية كأموال للحماية، وكانوا سيفقدونها إذا أصبح الحشيشة حلفاء لهم، ولذلك عزم المقدم الكبير للداوية على تحطيم اتفاق راشد الدين مع أمالرك. ونصب كميناً مع عدد من فرسان الداوية لمبعوثي راشد الدين حينما كانوا عائدين من الاجتماع مع ملك القدس وقتلهم، وغضب أمالرك إلى درجة أنه لم يسرع الحصانة ضد الاعتقال التي تمتع بها أعضاء الداوية، وألقى القبض على الرجل المسؤول بكل شدة وألقاه في السجن، حتى أنه أمل في سؤال البابا أن يحل جماعة الداوية مرة واحدة وإلى الأبد، واعتذر بكل تواضع إلى راشد الدين مؤكداً له أن المجرم قد لاقى عقابه، وتقبل هذا اعتذاره، وعادت الأمور إلى التحسن مرة ثانية، وفي الواقع لم تبد الاحتمالات السياسية في صالح المسيحيين لفترة طويلة، فهم قد ربحوا القليل، ولكنهم خافوا كثيراً من التحالف المسلم ضد الحشيشة، وبنشوء الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين كان خصماهما الرئيسيان منهمكين جداً بخلافاتهما الشخصية، عن أن يتحدا ضد جيرانهما الإفرنج.

وأتت سنة 1174 بتغييرات جوهرية بالنسبة للعسكريين، حيث مات نور الدين في الربيع، كان موته خسارة عظيمة بالنسبة للمسلمين، الذين وحدهم في جبهة واحدة تقريباً ضد المسيحيين في الجهاد، فقد كان رجلاً عنيداً، نادراً ما يبتسم، وعندما تقدمت به السنون أصبح كثير الانعزال عن العالم في مراقبة واعتكاف ديني، ومع ذلك فقد احترمه تابعوه إلى حد كبير وبعمق، واعتبروه كالقديس، ولم يكن ثمة شك في أنه كان حاكماً عظيماً، وخلفه ابنه الصالح

الذي لم يتجاوز السنة الحادية عشرة من عمره. ونشأ صراع من أجل الوصاية، أدى بالعالم الإسلامي إلى الانغماس في التجزئة والفوضى اللتين لم تشاهدا لفترة سنين، ولم يكن أمالرك بالرجل الذي يضيع مثل تلك الفرصة الطيبة للهجوم على أعدائه، وزحف ضد مدينة بانياس جنوب دمشق، وقبل أن يصل إليها خرج حاكم المنطقة لملاقاته، وعرض إقامة حلف معه ضد صلاح الدين وأحرز أمالرك على الأرجح امتيازات أكبر، ولكنه لم يشعر بتحسن كبير، ووقع على الاتفاقية المقترحة بالسرعة الممكنة، وقفل عائداً إلى وطنه.

وفي وقت وصوله إلى القدس أصابه مرض الزحار، واستدعي بعض الأطباء المحليين وسألهم أن يفصدوه ولكنهم رفضوا. فقد كان ضعيفاً بحيث لا يمكنه أن يصمد لمثل تلك المعالجة كما أخبروه، ولذا دعا طبيباً فرنسياً لم يكن لديه مثل ذلك التردد والحيرة، فاستخرج له دمه بالحال بالعلق، وبعد بضعة أيام في 11 تموز 1174 مات، وكان دور الإفرنج هذه المرة في انغماسهم في شجار انقسامي كان يتبع موت كل ملك عادة، وسرعان ما ضاهت تجزئتهم تجزئة أعدائهم المسلمين، وخلف أمالرك الذي كان في الثامنة والثلاثين عندما مات، ابنته في الرابعة عشرة، وابناً أصغر منها بسنة، وعدة أخوات ما زلن صغيرات، ولم يكن هناك سؤال فيما يتعلق بمن سيخلفه، وتوج ابنه ذو الثلاثة عشرة ربيعاً كملك باسم بلدوين الرابع، بعد أقل من أسبوع من وفاة والده، ولكنه كان صغيراً جداً ليأخذ على عاتقه أمور السلطة، كما كان مصاباً بالجذام، واقتضى الأمر تعيين وصي على العرش، وكان إلحاحه إلى وصي سبباً دفع المملكة للانخراط في صراع حربي حاد. كان أشد وقعاً من موت أمالرك وأعظم ضرراً بالنسبة للصالح الصليبي.

واضطر الامبراطور مانويل سنة 1176، أن يحول انتباهه إلى الأتراك السلاجقة في الأناضول الذين كانوا يحكمهم سلطان له طموح كبير ومقدرة عظيمة وكان اسمه قلج أرسلان الذي كانت طموحاته مقيدة عندما كان نور الدين على قيد الحياة، لأن اقلائد السوري لم يكن لديه نية في تركه يتعاظم

قوة، ولكن حالما مات نور الدين بدأ قلج أرسلان هجومه على جيرانه الواحد بعد الآخر، مستوعباً ممتلكاتهم، وكان أخوه أحد ضحايا عدوانه، كما كان الأتراك الدانشمند منهم أيضاً، وسرعان ما أصبح مع ذلك الوقت أقوى حاكم تركي بين سورية وبحر الفوسفور، وأدى ذلك إلى اصطدامه مع البيزنطيين، ولخوفه على سلامة خطوة المواصلات خلال الأناضول قرر الإمبراطور البيزنطي تلقينه درساً، وحرك جيشاً كبيراً جداً، وانطلق ليهاجمه آخذاً معه قافلة من آلات الحصار الضخمة يقهر بها أية مدينة في الطريق تختار مقاومته، ورغم أن هذه المعدات الثقيلة أبطأت من سرعة خطواته في مسيره، إلا أنه اعتقد أنها ستكون ثمينة جداً فيما بعد في حملته.

وسار الامبراطور من القسطنطينية جنوباً حتى وصل نهر مياندر ثم تحول إلى الداخل سيراً في وادي النهر، ثم التف حول بحيرة أغرديز نحو الجنوب. وبدأ بالصعود البطيء على سلسلة جبال هائلة مشهورة باسم سلطان داغ قرب أنطاكية «البيسيدية»، والتفت الطريق بشكل مرهق صعوداً إلى ممر كان في السابق تحرسه قلعة المرزبان، وهي الآن أنقاض، حيث كان الجيش السلجوقي منتظراً على الطريق في صخور الجبل، وكانت الطريق ضيقة، وناشد مستشار ومانويل الأكثر خبرة الإمبراطور ألا يجتاز بجيشه المرهق ذلك المعبر حيث كان العدو ينتظر لينقض عليه، ولكن مستشاريه الأصغر والأقل حنكة اعتبروا مثل تلك النصيحة هزيمة وجبناً، وحثوا الإمبراطور وهم تواقون للمجد بتجاهل الأخطار والمتابعة في القتال، وسمح لنفسه بأن يقتنع، وتقدمت طليعة الجيش البيزنطي الكبير نحو الممر، وبدأت تشق طريقها خلال المعبر الضيق، وتراجع الأتراك أمامهم، وبدا أنه كما لو أن الأمور تسير على ما يرام، ولكن حالما لحق الجسم الرئيسي للجيش بطليعته المنتصرة كرّ الأتراك من الجانب، وهجموا عليهم من التلال المجاورة، وجبن الجنود البيزنطيون كثيراً إلى حد أنهم كانوا بصعوبة يتحركون، كما أدت آلات الحصار الثقيلة الضخمة إلى عدم القيام بأية محاولة مستحيلة التحقيق، وقيل إن الامبراطور كان أول من هلع

وفزع وربما كان ذلك، وسرعان ما تحول الجيش كله إلى حشد قتالي مؤلف من رجال فزعين يحاولون بيأس إنقاذ أنفسهم قدر الإمكان، غير أن القليل منهم استطاع القيام بذلك، واستمر الأتراك في تذبيحهم حتى غياب الشمس، فخيم الظلام الرحيم على الجثث والدماء هناك وفر مانويل مع بقية من جيشه، وبعد حلول الليل انضمت إليه الطليعة المنتصرة فكانت نتيجة ذلك تدمير الجيش البيزنطي الكبير تماماً مثلما حصل به تقريباً قبل قرن من الزمن في معركة منازكرد وأدت نكبة المرزبان بكل تأكيد إلى الدمار النهائي للإمبراطورية البيزنطية.

واستغرق وصول أبناء المعكة بعض الوقت لتصل إلى الإفرنج الذين لم يحزنوا أول الأمر بها على الإطلاق، فقد كانوا دوماً يكرهون البيزنطيين ويبغضونهم أما حقيقة أن الامبراطور المتغطرس جرى إذلاله. فقد أدت نوعاً ما إلى دهشتهم أكثر من إفزاعهم، ولم تكن سورية يحكمها غير غلام ليس أكثر، كما كانت إمبراطورية نور الدين غارقة في بحر الفوضى التامة، ولذا لم يكن لديهم ما يخافون منه من تلك الناحية، . كما أن صلاح الدين لم يظهر بعد نفسه مروعاً بقدر ما أصبح فيما بعد، وبالنسبة لصلاح الدين نفسه، فعلى الأرجح أنه كان الرجل الوحيد الذي حقق تغييراً أساسياً معيناً أحدثه في توازن القوى، لقد أزال موت نور الدين الذي تلاه موت أمالرك أيضاً أكبر عقبتين في تحقيق طموحاته، كما أن دمار القوة العسكرية للامبراطورية البيزنطية في مريوسيفليوم قد ترك الإفرنج تحت رحمته، وفوق ذلك، كانوا في نزاع دائم مع بعضهم ومتجزئين إلى حد يبعث على اليأس، ولذلك في خريف سنة 1177 وبعد سنة من معركة المرزبان زحف صلاح الدين نحو الشمال، متصدراً جيشه في اتجاه عسقلان.

وكان بلدوين الرابع الابن المجذوم لأمالرك لا يزال في الخامسة عشرة، وقد مرض مؤخراً ايضاً، ولكن مع قدوم أخبار اقتراب صلاح الدين أسرع إلى

عسقلان مع كل القوات التي تمكن من حشدها، في حين كانت جماعة الداوية متمركزة في غزة، ووصل الملك بلدوين إلى عسقلان قبل صلاح الدين بمقدار ساعة أو ساعتين من الزمن تقريباً، ووصل صلاح الدين فترك قرب عسقلان قوة صغيرة خارج المدينة لاحتواء بلدوين وفرسانه، في حين استمر منطلقاً يريد القدس، وكانت العاصمة لا دفاع فيها، غير أن بلدوين تدبر أمره بطريقة ما بإرسال رسالة إلى جماعة فرسان الداوية في غزة يأمرهم بالانضمام إليه، وعندما اقترب المسلمون حاول بلدوين محاولة يائسة كسر الحصار على المدينة، والخروج رغم أن الموانع ضده كانت واسعة، وبشجاعة وحماسة أثارتها حدة حالة الطوارئ، نجح أخيراً، وانضم إلى قوات فرسان الداوية، وأخذ طريقه شمالاً بجهد قدر المستطاع قبل أن يتحول إلى الداخل لقطع الطريق على عبور صلاح الدين، وفي 25 تشرين الثاني كان يتقدم جيش صلاح الدين مطمئناً إلى أنه لا يوجد عدد يقف بينه وبين هدفه، وتقدم بكل إهمال، وعدم مبالاة على طول الطريق إلى القدس حتى كان قرب الرملة عندما انقض بلدوين وفرسانه كالصاعقة من جهة الشمال، لقد كان الهجوم غير متوقع على الإطلاق، حيث انطلق بعض رجال صلاح الدين يغزون بينما كان الباقون غير منظمين، وخفيفي التسلح، فانهزموا ولاذوا بالفرار تحت الوقع العنيف للهجوم المنظم لفرسان مدرعين بالفولاذ، وتفرقوا مثل قطيع من الخراف أمام مجموعة ذئاب متآزرة بإحكام، أما صلاح الدين نفسه فكاد ان يقع في الاسر، ولكن قلة أفضل قواته وأكثرها تمرساً احتفظت بمواقعها، وكانت الجائزة الوحيدة التي نالوها لقاء شجاعتهم هي تصفيتهم حتى آخر رجل تقريباً، أما بالنسبة للجانب المسيحي فقد أبلى الملك الشاب بنفسه بلاء حسناً في زحمة القتال، وكذلك فعل عضوان من عائلة إيبلين التي أصبحت أقوى القبائل في الممالك الصليبية وفي ذروة القتال قدم القديس جورج المساعدة وشوهد وعرف من قبل عدد من الأفراد المقاتلين كتفاً إلى كتف مع إخوانهم المسيحيين، وفر صلاح الدين مع

قلة من رجاله ووصل إلى مصر بعد رحلة رهيبة عبر صحراء سيناء، حيث تبلل ورجاله إلى جلودهم بأمطار الشتاء المتواصلة، كما لاقوا البؤس من برد الشتاء والهجمات المتكررة من قبل رجال البدو المعادين.

وسدد انتصار بلدوين ضربة مدمرة لسمعة صلاح الدين، ولكنه لم يغير شيئاً في ميزان القوى التي كانت ترجح بثقل لصالحه، ولم تمض فترة طويلة قبل أن يحشد جيشاً مصرياً آخر، ويكون مستعداً للقتال مرة أخرى، وفي أقل من سنتين بعد هزيمته على طريق القدس التقى ببلدوين وهزمه بعنف في وادي الأردن حيث كان يطارد المسيحيون بعض المسلمين، الذين كانوا يغيرون على ضواحي بيروت، وكان بين السجناء الذين أخذهم معه في تلك المناسبة المقدم الأكبر لجماعة الجاوية الذي مات بعد أسره، ولم يُتبع صلاح الدين نصره على بلدوين بهجوم عام ضده، رغم أنه استمر في مضايقته بإزعاجات مختلفة هنا وهناك وفي كل مكان، وعندما كان متوقعاً على الأقل ـ حتى أواخر صيف سنة 1180، عندما رتبت بين الطرفين ودامت سنتين. ووافق صلاح الدين عليها بسبب معاناة سورية كلها من آثار قحط رهيب في أوائل تلك السنة، فقد كانت المجاعة محتملة الوقوع، ومن الجنون المخاطرة في تدمير تلك المحاصيل الضئيلة بالاستمرار، في حرب سيكون فيها الهدف الرئيسي النسبة للطرف المعادي، أما بالنسبة لبلدوين فقد كانت الهدنة هبة مرسلة من الرب، واحتاج بشكل معوز للبحث عن المساعدة لدى أوروبا الغربية وبلاط الإمبراطور مانويل، لأنه دون إمدادات جديدة من وراء البحار، فإن قدر الممالك الصليبية سيختم عليه إلى النهاية، ورغم إرساله السفراء إلى الغرب لشرح مأزق المسيحيين في الشرق، فإن أحداً لم يرد على مناشدته من أجل المساعدة، فقد كانوا في شغل شاغل في قضاياهم وشؤونهم، كما أن الحماسة للقيام بالحملات الصليبية تضاءلت، وفي أثناء ذلك، انصرف البيزنطيون أيضاً إلى مشاكلهم الخاصة، وبدأت شؤون القسطنطينية بدوْها على وشك التحول إلى الأسوأ أيضاً.

ومرض الامبراطور مانويل لفترة من الزمن، ومات في 14 أيلول 1180، وقد اتبع سياسية ودية دوماً تجاه الغرب الذي كان يعجب به بإخلاص، وكان موته ضربة بالنسبة للإفرنج في الممالك الصليبية، رغم أنهم لم يقدروا دوماً صداقته، وخلفه ابنه وهو غلام في الحادية عشرة، واتخذ لقب أكسيوس الثاني كوفينوس، بينما تولت أم الغلام الإمبراطورة ماريا تلقائياً شؤون الوصاية، وكانت هذه الإمبراطورة ابنة ريموند صاحب أنطاكية الذي وضعت جمجمته في صندوق فضي وأرسل إلى الخليفة في بغداد، ولكونها أميرة غير لاتينية كرهها شعب القسطنطينية، كما وجه اللوم إليها بسبب سياسة زوجها الميالة للغرب التي كانت غير شعبية أكثر منها نفسها، وساد الامتعاض بشدة وعنف في فترة وصايتها، ولم ينس ـ سكان المدينة رعونة الصليبيين وأعمالهم الوحشية عندما عبروا خلال عاصمة العالم البيزنطي، كما كانت أعمال سلب جزيرة قبرص حية في ذاكرة كل شخص، وكان وجود مستعمرة صغيرة ولكنها موسرة من التجار الايطاليين الذين أعطوا امتيازات تجارية خاصة، وما بلغ مجموعه في الحي الاحتياطي من المدينة، شيئاً مثيراً باستمرار، ويذكر بالبرابرة الغربيين المكروهين الذين كان معظمهم من الجنوبيين والبيازنة والبنادقة، وكانوا يتصرفون بعجرفة عدوانية وغالباً ما كانوا يبدون للعيان بشكل مجموعات صغيرة من الناس المميزين عرقياً، يعيشون في بيئة معادية لهم، وقد اعتزلوا الناس، وتجنبوا أي احتكاك مع الشعب المحلي الذي كان يكرههم علناً.

وحالما أصبحت وصية، عمدت الامبراطورة ماريا أيضاً إلى معاداة سكان القسطنطينية بجعل فرد مغمور في عائلة كوفينوس دعي أيضاً ألكسيوس، مستشارها الخاص، وقال بعضهم عنه إنه عشيقها، وبعد فترة من الوقت كشفت مؤامرة لقتله وفر اثنان من الخونة من أجل الأمان إلى كنيسة أيا صوفيا حيث سعيا إلى الحرم هناك، ولكن ضحيتهما المستهدفة سحبتهما من المبنى، وألقت القبض عليهما، وكان عملاً يتصف بالعبادة إلى أقصى الحدود لأنه انتهاك

صارخ لحق قديم ومحترم جداً للرجال في الالتجاء إلى بيت الرب، وذهل سكان المدينة وغضبوا في أنه كان على ماريا أن تعتذر إلى المتهمين، وتتابع المزيد من المؤامرات. وبعد سنتين من موت مانويل قرب بعض المتآمرين فرداً آخر من الأسرة الحاكمة وهو أندرونيكوس كوفينوس، وطلبوا إليه أن ينقذ الإمبراطورية من الإمبراطورة اللاتينية البغضية وأكدوا له أنه ليس من أحد في العاصمة يقدم الدعم لها غير التجار الإيطاليين الآثمين وكان أندرونيكوس أميراً بيزنطياً وسيماً مغرماً بالعلاقات الغرامية، وقد أذهل إلى درجة عميقة الإفرنج قبل سنين عديدة بإغرائه الأميرة فيليبا صاحبة أنطاكية، وقد طرد خارج المدينة من قبل أخيها الساخط بوهيمند الثالث، ثم رحل جنوباً وفرض حصاراً على الملكة الشابة والأرملة حديثاً ثيودورا في القدس، واستولى على قلعة عفتها دون إبداء مقاومة من جانب السيدة نفسها، ومرة ثانية غضب أصدقاؤها وتأزمت علاقاتها مع الآخرين، ووافق أندرونيكوس على قيادة ثورة مسلحة ضد الإمبراطورة ماريا وابنها ألكسيوس الثاني، وفي أواخر صيف عام 1182 حشد جيشاً وزحف إلى القسطنطينية، وانتشرت أنباء قدومه كالنار في الهشيم خلال المدينة، وأطلقت انفجاراً عنيفاً من الكراهة ضد التجار الايطاليين، فلعدة سنوات كانوا يتيهون في الطرقات بوقاحة وحشية وبزهو مفرط، في حين كان البيزنطيون مضطرين لكظم استيائهم الشديد، ونفظ صبرهم فهاجموا أولئك الحمقى البرابرة القادمين من ايطاليا وذبحوهم عن آخرهم، ولم يكن الرعاع ينفذون القانون دائماً بأيديهم، ولكن عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يفعلونه بقسوة لا تصدق، وقد أذهلت بعض الأعمال التي مارسوها تجاه الايطاليين، قبل أن يموتوا، أذهلت العديد من أهالي القسطنطينية أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا قادرين على أن يوقفوا سفك الدماء والقتل الجماعي، وإذا قيلت الحقيقة فإنهم على الأرجح كانوا مسرورين كالآخرين الذين رأوا مدينتهم قد نظفت من القادمين من إيطاليا، وحتى لو أنهم استهجنوا الأسلوب الوحشي الذي نفذ العمل به.

ودخل أندرونيكوس المدينة منتصراً بعد عدة أيام. وشرع بإفناء كل شخص ثبت أنه من منافسيه. ورمي بالوزير المحبوب في السجن حيث قلعت عيناه، ومات المتآمران اللذان عفت عنهما ماريا في ظروف غامضة، وأخيراً أجبر الغلام الصغير، ألكسيوس الثاني، على توقيع وثيقة الموافقة على إعدام أمه، وشنقت الإمبراطورة ماريا في جو هادئ. ثم جعل أندرونيكوس مشاركاً في الحكم للطفل البائس الذي أصبح يتيماً في ذلك الحين، وبعد شهرين تم قتل الغلام، وعندما تزوج أندرونيكوس أرملته البالغة من العمر اثنتا عشرة سنة، الأميرة أجنيس من فرنسا.

أصبح الحاكم غير المنازع في العالم البيزنطي، وهي الفترة الزمنية غير المنيرة من التاريخ البيزنطي.

وكان أندرونيكوس في الثانية والستين عندما تولى السلطة في القسطنطينية، ولعله كان قد بقي في أمان على العرش، لو أنه لم يكن رهيباً جداً ولما كان قد تخلص منه بعنف، فقد رأى منافسيه والمتمردين عليه في كل مكان، وأصبح مجنون اضطهاد أكثر فأكثر مع مرور الوقت، وأطلق العنان للحكم الارهابي الفعلي ليس في العاصمة فحسب، بل عبر طول واتساع الامبراطورية أيضاً، فكان يتم القاء القبض على الناس في أعداد كبيرة، حتى لم يعد أحد يشعر بالأمان، كما كان أفراد عائلة كومينوس في خطر مفرط، رغم أنهم عاشوا في حالة غموض عدة سنوات، فإن العديد منهم قد تم تنفيذ حكم الموت فيهم دون محاكمة، وحتى دون أي ادعاء للالتزام بالقانون، لا لشيء إلا لأنهم ببساطة كانوا من عائلة كومينوس، وأصبحت حالة أحدهم فظيعة جداً بالنسبة لمواطني القسطنطينية ليحتملوها، فنهضوا في ثورة مكشوفة وعنيفة واعتقل اسحق انجلوس ابن عم الامبراطور الرجل الغامض الكبير والطبع، ولكنه تدبر أمر فراره والتجأ إلى كنيسة أياصوفيا حيث منحه الأمان رجال الدين هناك، ولكن أندرونيكوس أمر رجاله باعتقاله مرة ثانية، وكان هذا فظيعاً جداً حتى أن رجال حرسه الخاصين هجروه، ونهضت المدينة ضده

أيضاً، واعتقله بعض رعاع المدينة عندما حاول الفرار إلى الخارج، ومرة أخرى أظهر سكان مدينة القسطنطينية مواهبهم وقدراتهم المغمورة النادرة في الوحشية والعنف، فحطموا أسنانه، ونتفوا لحيته وشعره وقلعوا احدى عينيه، وقطعوا احدى يديه، قبل تقييده إلى ظهر جمل أجرب، ووفق ما قال المؤرخ اليوناني المعاصر نيستياس: «ضربه بعضهم على رأسه بالعصي، بينما وضع بعضهم الآخر الروث في أنفه، وعصر آخرون أيضاً اسفنجاً مشبعاً بالغائط فوق وجهه، وبصق آخرون على أطرافه، وضربه آخرون بالحجارة، بينما أتت احدى المومسات بوعاء فيه ماء مغلي من مطبخ وأفرغته في وجهه، وقد تحمل كل ذلك بشجاعة لا تصدق دون اظهار أية علامة شكوى واحدة، رغم أنه كان يصلي باستمرار قائلاً: «أيها الرب ارحمني! لماذا تحطم القصبة المرضوضة؟» وأخيراً أخذ إلى مضمار السباق حيث علق من قدميه على عارضة، وأنفذ أحد الشهود سيفه داخل فمه وأقحمه بجهد كبير فيه ونحو الأعلى في رأسه فقتله، وخلفه كامبراطور الرجل الذي أغاظ اعتقاله الرعاع، وهو اسحق أنجلوس الذي برهن أنه غير مؤثر وغير كفء، وتوقفت الامبراطورية البيزنطية عن أن تكون قوة عالمية، فكان انهيارها كسباً سياسياً عظيماً بالنسبة لصلاح الدين كما كان أفضل جزء من الحظ لديه منذ موت نور الدين.

وبينما كان هذا يجري في العالم البيزنطي، انغمس الحكام الصغار من الإفرنج في بعض النزاعات العنيفة التي هددت في وقت واحد باغراقهم في حرب أهلية، ولم تتحسن شؤونهم بتحريرهم من الأسر الذي لا يمكن وصفه، الذي قام به رينالد أوف تشاتيلون الذي أزيح عن المسرح السياسي لفترة ستة عشر عاماً ربانياً بسبب ايداعه في سجن اسلامي في حلب، وكان حاكم المدينة قد أعطاه حريته في لحظة كرم عرفاناً لمساعدة تلقاها من جيرانه الإفرنج، وكانت زوجة رينالد الأميرة كونستانس قد توفيت خلال الأعوام التي قضاها في السجن، ولدى عودته تزوج من وريثة مقاطعة فيما وراء الأردن بعد أن ترك أنطاكية في أيدي ابنة المتبني يوهمند الثالث الذي ورث المدينة بعد موت أمه،

وضبط نفسه لفترة من الزمن، ولكن ممارسة أي كبح لنزواته وأمنياته الشخصية كان يناقض طبيعته، وقد اغتاظ تحت تأثير القيود التي فرضتها عليه الهدنة الموقعة مع صلاح الدين سنة 1180، ولعل ارجاء الحرب كان ضرورياً بالنسبة للصالح العام، وحتى في الحقيقة بالنسبة لبقاء اخوانه المسيحيين، ولكن يبدو أن مثل تلك الاعتبارات لم تخطر على بال رينالد، وكان أحد ضروط الهدنة أكد على وجوب استطاعة المسيحيين والمسلمين عبور بلدان الطرف الآخر بكل حرية ودون خوف من أي ازعاج، ولكن رؤية قوافل العرب الغنية تتحرك بحرية خلال أراضيه، كان شيئاً كثيراً بالنسبة لرينالد، فنصب سنة 1181 كميناً لزمرة من التجار في طريقهم إلى مكة، وجردهم من كل شيء كان لديهم، وبالمقابل أسر صلاح الدين زمرة من الحجيج المسيحيين في طريقهم إلى الأرض المقدسة، وأخبر الملك بلدوين أنه سيطلق سراحهم عندما يعيد رينالد البضائع المسروقة، ورفض رينالد مباشرة أن يقوم بعمل أي شيء فيه حماقة من هذا القبيل فكان قدوم الحرب شيء حتمي.

ورغم تفوقه في القوة أخفق صلاح الدين في بادئ الأمر في احراز أي كسب حاسم، وتلا ذلك في شهر كانون الأول وفاة ابن نور الدين «الصالح»، وهو الثامنة عشرة بسبب ألم مغص الذي عزاه العديد من الأشخاص إلى السم، فحول صلاح الدين مباشرة كل انتباهه لفتح سورية بدلاً من إخضاع الإفرنج، وفي حزيران من السنة التالية أقصى جميع منافسيه عن السلطة، فدخل حلب منتصراً، وكسلطان على سورة ووزيرا لمصر امتدت امبراطوريته من رمال النيل الأعلى في الجنوب إلى سهل الفرات في الشمال ووجد الإفرنج أنفسهم لأول مرة محصورين بين جبهتين معاديتيهن متوحدتين، تحت قيادة حاكم واحد بدلاً من كونها مقسمة بشكل متهور بين خلفاء متنافسين.

ومن خلال استعادة الأحداث التاريخية الماضية، يمكن بسهولة كافية تحديد بعض النقاط والعلامات في تدهور حظ الإفرنج السياسي، في حين كان صلاح الدين يزداد قوة بعد قوة، وبلا شك أن اللحظة التي كسب فيها صلاح

الدين امبراطورية نور الدين كانت فترة منذرة، ومثقلة بالاحتمالات بالنسبة للمالك الصليبية، ولكن من الصعب جداً معرفة كيف كان شعورهم حول ذلك، ومن المسلم به أنهم استمروا في حياتهم، وفي بناء أبنيتهم، وحرث أراضيهم والزواج من نسائهم، وانجاب الأطفال، وإقامة شؤون معيشتهم، وفي شرابهم والصلاة ضد خلفية الخداع السياسي، ونشوب الحرب المؤقتة، وهو الحال بالنسبة للجانبين، كما لم يكن هناك وسائل للاعلام والاتصال حيث تنتشر الأخبار ببطء، فقد كانت ثمة فترات، وفي بعض الأحيان لعدة سنوات تكون خالية من الأحداث على المسرح السياسي، وخلالها كانت حياة تستمر بالشكل المسلم به يومياً دون التفكير في الاحتمالات العصبية لعهدهم، وفوق ذلك فان تلك الأزمنة التي كان تسودها الحياة العادية والسلام، كانت أيضاً مهملة من قبل المؤرخين، كما هي منسية من قبل أولئك الذين قرأوا أعمالهم، بالاضافة إلى أنها كانت غير ذات اهمية بالنسبة لمؤرخي الأحداث في ذلك الوقت، وإلى أبعد من ذلك أيضاً، لابد أن العديد من المواطنين المسيحيين العاديين في الممالك الصليبية، قد عانوا من هواجس الغضب الذي قدم إليهم، عندما وصلتهم الأنباء أن صلاح الدين قد وحد أعداءهم المسلمين، في مصر وسورية تحت قيادته.

ولم يخضع رينالد أوف تشاتيلون إلى أي نوع من تلك النذر والهواجس، بل شجعته الأخبار، لأن صلاح الدين كان منهمكاً في الشمال، ليثير الاضطرابات في الجنوب، ومن المشكوك فيه فيما إذا تمكن شخص ما من التفكير في شيء، هو ممكن أن يثير أعداء الإفرنج كالخطة التي وضعها قيد العمل، فقد بنى عدداً من السفن الصغيرة، ونقلها مفككة في شكل قطع على ظهور الجمال وحيوانات الجر الأخرى إلى رأس خليج العقبة، حيث هاجم ميناء ايلات واستولى عليه من أيدي حاميته المسلمة رغم صمود قلعة كانت على جزيرة بعيدة عن الشاطئ ضده. وبعد جمعه السفن هاجم المسلمين هناك، ثم أرسلها جنوباً مع أوامر بالإستيلاء على المدن الساحلية، وعلى سفن

التجار التي واجهوها، وبنهب قوافل الحجاج في الطريق إلى مكة، وأخيراً، بالهجوم على المدينة المقدسة نفسها، وتخلف مع الباقي لحصار قلعة الجزيرة، وتميز تقدم هذه الحملة القرصانية بنهب المدن الصغيرة الآمنة المسالمة، والهجوم على الحجاج العزل من أسلحة الدفاع وحرق السفن في الميناء وإغراق غيرها في البحر، وعندما انتشرت أخبار تلك الحوادث ذهل العالم الاسلامي، وبدأ حاكم مصر في الحال العمل على الانتقام لتلك الاهانة البربرية والحمقى تجاه الاسلام، وأصدر أوامره إلى البحرية المصرية بمعاقبة الأشخاص المسؤولين عن ذلك، وانطلق ضابط بحري برتبة أمير الماء دعي (بشكل غير مناسب وغريب بالنسبة للأذن الغربية) لؤلؤ في مطاردتهم، فأعاد الاستيلاء على ميناء إيلات، وطارد الأسطول المسيحي ودمره، وفر رينالد، ولكن جميع رجاله أسروا، وأخذ آخرون إلى مكة ليعدموا بشكل علني هناك، في حين قطعت رؤوس الباقين في القاهرة، وأقسم صلاح الدين قسماً عظيماً أنه سيجعل رينالد في يوم ما يدفع جزاء ما ارتكبه من الجرائم.

ولم يحدث شيء حتى أواخر صيف 1183 حين قام صلاح الدين بتحركه التالي، فجمع جيشاً قرب دمشق ثم خرج به نحو الجنوب، وغزا جبال الجليل بطولها، فأصاب الإفرنج خسائر بالغة، وقد ساءت صحة الملك بلدوين كثيراً إلى درجة أنه اضطر إلى مراقبة جسمه يموت ببطء، وكتب وليم الصوري حول ذلك يقول «كان جذامه حاداً بحيث أضعفه، ولم يعد جسمه يساعده، كما هجر الابصار عينيه، وبدأت يداه وقدماه بالتشقق»، ولذلك فإنه لم يعد بإمكانه أن يبقى حاكماً للمملكة والقيام بحاجاتها. ونتيجة لذلك، قرر أن يوكل السلطة إلى صهره وهو نبيل فرنسي دعي (غاي) أوف لوسيغنان وقد كان خياراً سيئاً للغاية.

وعندما اقترب صلاح الدين منهم، دعا الإفرنج كل رجل مقاتل في البلاد لحمل السلاح بما في ذلك بعض الزوار من أوربا، صدف وجودهم هناك في ذلك الوقت، ووضعوا جميعاً تحت أمرة غاي من أجل لقاء صلاح الدين،

وعندما التقى الجيشان برهن غاي على عدم لياقته وتردده الشديد إلى درجة أنه اتهم بالجبن، وعزل عن منصبه الجديد، وعاد بلدوين لاستلام القيادة مرة ثانية رغم صحته الضعيفة الميؤس منها، وعين ابن أخيه هو في السادسة من العمر كبلدوين آخر أيضاً وكوريثه النهائي، وأقرت هذه التنقلات السياسية من قبل النبلاء القياديين في المملكة.

ولم يشغل رينالد أوف تشاتيلون أي دور في كل ذلك، لأنه كان يحتل مكاناً آخر، وكانت السيدة التي تزوج بها بعد عودته من فترة طويلة من الأسر في حلب، وهي الوريثة لما وراء الأردن قد تزوجت قبل ذلك مرتين أيضاً. وفي وقت غزو صلاح الدين كانت تعد العدة لزواج ابنها الأكبر من زوجها الأول، وهو غلام كان في السابعة عشرة يدعى همفري أوف طورون من الأميرة الصغيرة إزابيلا صاحبة القدس التي لم تتجاوز الحادية عشرة. ونظراً إلى أن همفري كان الوريث النهائي لصاحبة ما وراء الأردن، فإن الزواج كان سيتم في أبهة، ووفق المراسم في قلعة الكرك العظيمة في الصحراء الشرقية من البحر الميت، وكان هذا المقر والحصن الذي خرج منه رينالد وأغار على قوافل الحجاج المسلمين التي ترتحل بين سورية ومصر، وحتى في وقت الهدنة التي لم تكن تعني بالنسبة إليه شيئاً، وهناك كان يعد وزوجته معه لاستضافة ضيوف الزفاف في أروع أبهة ممكنة، وقد بدأ في خلال شهر تشرين الثاني كله وصول الطبقة الغنية (الارستقراطية) الاقطاعية في الممالك الصليبية مع بعض الأمراء البيزنطيين والنبلاء الزائرين من أوروبا، بدأوا في القدوم إلى القلعة، وكذلك قدم حشد من المغنين والمضيفين والمشتركين في الحفل من كل الأنواع المتعددة، ولكن قبل أن يشرع في حفل الزفاف سمع انذاراً مفاجئاً. لقد تقدم صلاح الدين وجيشه من جهة الشمال.

ولم يكن لدى الضيوف وقت للمغادرة، ونجح رينالد فقط في النجاة بأمان والالتجاء إلى القلعة قبل أن يطوقها الحشد المسلم مثل موجة حول صخرة، وربما كان رجال ونساء العصور الصليبية قادرين على القيام بأعمال

وحشية، ولكن كان لديهم أيضاً احساس مدهش بتلك المناسبة، وعندما كانوا يرغبون في القيام بذلك كانوا يستيطعون التصرف بنوع من الرفعة المهيبة والشجاعة المتهورة التي تأخذ الأنفاس، وفي تلك المناسبة كان رد فعلهم لرؤية نيران معسكر صلاح الدين حول القلعة، وصوت القذائف من آلات حصادة تدل أسوارها في مشهد معنويات لا تقهر ولا مبالاة رائعة، واستمروا في الأعداد لحفلة الزفاف كما لو أنه لم يحدث أي شيء ذو أهمية، وكان الجنود المسلمون الذين كانوا يعسكرون في الصحراء حول الكرك ـ يستطيعون سماع صوت الحان وغناء كل ليلة، في حين كان ضيوف حفل الزفاف يأكلون من الموائد ويرقصون حتى الساعات الأولى من الصباح، وأرسلت أم العريس السيدة الوريثة لما وراء الأردن شخصياً بعض الأطباق من مائدتها إلى صلاح الدين، مرفقة برسالة تقول فيها أنها لو علمت أنه سيقدم لكانت أعدت شيئاً خاصاً جداً لضيف نبيل، وبشكل لم يتفوق عليه أحد، إستعلم صلاح الدين الذي كان بطبيعته رجلاً متسماً بالفروسية والكياسة عن الجزء الذي يسكنه الزوجان العروسان من القلعة. وأصدر أوامره بعدم قصفه، بينما استمرت آلات المنجنيق تقصف الصخور الكبيرة على الأجزاء الأخرى، واستمر واضطر حتى الرابع من كانون الأول عندما قدم بلدوين الرابع رغم مرضه محمولاً على محفة على رأس جيش القدس لتحرير إخوانه المسيحيين في الكرك، واضطر صلاح الدين إلى التراجع.

ويوضح حصار وتحرير الكرك أهمية القلاع في الصراع في تلك الأيام، وكان الصليبيون الأوائل بنائين مهرة للقلاع، ولكنهم لم يكونوا مهرة بقدر البيزنطيين، ومع مرور السنين تعلم الإفرنج في الممالك الصليبية قدراً كبيراً من فنون التحصين من المهندسين العسكريين للإمبراطورية البيزنطية، وتنوعت القلاع المستقلة كثيراً في الحجم والقوة، وتدرجت من الحصون الضخمة مثل حصن الأكراد إلى أماكن أقل بعشر حجمها، وكانت قلعة حصن الأكراد في الجزء الشمالي من مقاطعة طرابلس، وتشرف على أراضي المسلمين هي من

المراكز الرئيسية لجماعة فرسان الاسبتارية، وقد دعاها العرب باسم حصن الأكراد، وحرفها الإفرنج أول الأمر لتصبح: لكرات. ثم بتعديل بسيط إلى كيراك ثم كرك التي صارت تعني[1] قلعة. وبسبب امتلاك فرسان الاسبتارية لها اصبحت كرك الفرسان، وقد قال عنها ت. س. ر. بوس وهو باحث من جامعة اكسفورد ومؤرخ للفنون: وكما البارثنون بالنسبة إلى المعابد الاغريقية، وتشارترز بالنسبة للكاتدرائيات الغوطية فإن كرك الفرسان هي في الأهمية بالنسبة لقلاع العصور الوسطى، مثال رفيع، واحدى أعظم المباني في زمانها» ويوضح موقعها دوافع بنائي القلاع في ذلك العصر، حيث تقع على طرف تلة منحدرة على ارتفاعها 2,300 قدم، وتشرف على امتدادات واسعة من بلاد المسلمين في أيام الفرسان، وقد تمت السيطرة عليها تماماً، وكتب الرحالة المسلم ابن جبير عندما زار حمص: روما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره، ويتعهد إذا كل يوم مغارة» ودعاها مؤرخ آخر مسلم وهو ابن الأثير غصه في حنجرة المسلمين بينما وصفها المسيحي اندرو أوف هنغاريا «مفتاح إلى الأراضي المقدسة»، فهي تستطيع الاتساع لألف حصان، وخمسة آلاف رجل، ومع ذلك فقد استسلمت أخيراً للسلطان بيبرس المملوكي، ولم تكن تؤخذ بالقوة لأنها قوية جداً، كمل لم يكن ثمة غازٍ على علم بأنه بامكان جيش العسكرة داخل أسواها وأبراجها المنيعة ويجرؤ على ممارسة الضغط على الأراضي المعادية ويتك قوة كهذه خلفه، ورغم أن الكرك كانت أضخم قلاع الصليبيين فإن القلاع قد رصعت كل أراضي الصليبيين وأمسكت جميعها بذرا الأرض من حدود سورية في الشمال إلى الصحارى جنوب البحر الميت، فكانت بعضها الآخر قلاعاً بارونية صغيرة،

---

(1) كذا وهو غير مقبول، فأهالي بلاد الشام هم أساتذة التاريخ في فنون البناء، خاصة العسكري منها، يضاف إلى هذا أن عبارة «كرك» هي عبارة سريانية تعني حصن، وبالتالي لا علاقة لأصل هذه العبارة بالفرنجة.

وبعضها هائلة وواسعة مثل الكرك نفسها. ونادراً ما كانت تبتعد عن بعضها أكثر من مسافة مسيرة يوم، وكان بإمكان العديد منها وهي تقف مثل المخافر في البذراً العالمية والقمم الصخرية التلالية أن تنذر بعضها البعض باستعمال الاشارات في الليل، كما كانت مزودة بأحواض لتخزين الماء وأنفاق أو سراديب تذهب بعيداً في باطن الأرض إلى الينابيع الخفية، أو صهاريج محفورة في الصخور، وكان بإمكان بعضها الصمود لحصار يدوم سنة أو أكثر، فقلعة الشوبك الضخمة عند الحافة الشمالية للصحراء العربية وأيضاً الكرك، لم تسقطا حتى حوصرنا لفترة سنة ونصف السنة، وبعد أن فقد نصف رجالهما عيونهم لفقرهم إلى الملح أو هكذا قيل في ذلك الوقت، وتزود هذه القلاع بنظام دفاعي في العمق الذي نادراً ما كان تضاهيه القوة والاستعداد، والتي مكنت الإفرنج حينما كانوا محاطين بالمسلمين الذين تفوقوا عليهم في العدد من البقاء لفترة قرنين من الزمن.

وبعد أن رفع صلاح الدين الحصار عن الكرك أصبح القتال متفرقاً ومتشتتاً. فكانت هناك غارات وغارات مضادة، وعندما حاول صلاح الدين أخذ الكرك مرة ثانية في الخريف التالي برهنت أنها منيعة جداً بالنسبة له، وفي ربيع سنة 1185 مات بلدوين أخيراً عن عمر يناهز الرابعة والعشرين، وكان مرضه الجذام قد أنهكه تماماً إلى درجة لم يبق منه شيء ليدفن في الأرض، كما كان تابعوه يعانون أيضاً من بدايات المجاعة وشحت الأمطار في ذلك الشتاء، فكان من الضروري بالنسبة للمسيحيين القيام بعقد سلام. ومن حسن الحظ كان لدى صلاح الدين بعض المشكلات في سورية ومصر، وظهرت أقاويل من الحسد بين بعض تابعيه كما كان أمير الموصل يهدد بالتمرد، ولذا وافق على هدنة مدتها أربع سنوات مع الإفرنج. أما من جهتهم فقد عقدوا السلام معه بشكل ملؤه الشكر.

وعادت ببطء حالة الازدهار إلى الممالك الصليبية، وتجنبت المجاعة المهددة عندما تدفق الطعام إليها من البلاد الاسلامية المجاورة التي كان

تجارها تواقين لتجديد تجارتهم مع جيرانهم المسيحيين، وعبرهم إلى أوروبا، وحتى أنها تطلعت إلى بعض الأيام الذهبية كما لو أن السلام يمكن أن يكون دائماً، فقد أصيب صلاح الدين بمرض على نحو خطير، وظن الإفرنج أنه سيموت، ولكن حظهم انتهى وانكشف، وعلى النقيض خلف بلدوين الرابع ابن أخيه في الثامنة من العمر في ربيع 1185، وتوج الغلام الصغير كبلدوين الخامس، ولكنه مات بعد عدة أشهر من جلوسه على العرش في صيف 1186، ومع الحتمية المحزنة لعهد تال مظلم تلا موت الملك الصغير نزاع عنيف بين النبلاء والإفرنج القياديين، وقاربت الحرب الأهلية تغمر دنياهم، ولحسن الحظ بالنسبة لمن يهمه الأمر، تمسك صلاح الدين بالهدنة ولم يقم بعمل ما لخرقها، وبعد تجرع مرارة الوضع، توجت أخت بلدوين الرابع سيبيلا ملكة على القدس، وتوج زوجها غير المشهور غاي من لسيغنان بإسم الملك غاي معها، وعندئذ قرر الزوجان الملكان عدم القيام بعمل من شأنه تعريض السلام للخطر، ولم يدخلا في حسابهما رينالد أوف تشاتيلون (أرناط).

ومرة أخرى، بدأت التجارة بين مصر وسورية فكان التجار المسلمون ينتقلون بحرية عبر الأراضي الأفرنجية تحت حماية شروط الهدنة، ولكن منظر عبور الأموال عبر تلك الأراضي كان شيئاً كثيراً بالنسبة لاقطاعي منطقة ما وراء الأردن، ففي أوائل سنة 1187 هاجم قافلة كبيرة كانت مرتحلة من القاهرة إلى دمشق ترافقها مجموعة جنود مصريين للدفاع عنها من غارات البدو، فقتل الجنود المصريون بسرعة وسهولة. وأخذ رينالد التجار ونساءهم وأطفالهم إلى قلعته في الكرك حيث احتفظ بهم من أجل الفدية، وقد سر رينالد كثيراً بالغنائم لأنها كانت كبيرة. وعندما أخبر صلاح الدين بما حدث أرسل مبعوثيه إلى الكرك للمطالبة باطلاق سراح الأسرى، ودفع التعويض المناسب للخسائر التي تكبدوها ولكن رينالد رفض أيضاً استقبال الرسل، فاضطر للذهاب إلى القدس لوضع شكواهم أمام الملك غاي، الذي حاول حمل رينالد على القيام بما طلبه صلاح الدين، ولكن رينالد لم يهتم له كما لم يهتم برسل صلاح الدين، ولم

يعزز غاي أمره فقد كان رجلاً متردداً، كم لم يستطيع صلاح الدين تحمل الأمر أكثر من ذلك وتحتم القيام بحرب تالية.

وربما لم يصل الأمر إلى أسوأ اللحظات بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا متجزئين إلى أقصى الحدود وقليلي العدد بشكل مقنط فحسب، بل كان أمير أنطاكية، وكونت طرابلس فزعين جداً من عدم اللامبالاة من جانب رينالد إلى حد أنهما رفضا أول الأمر القيام بعمل ما في حرب سببها خرق رينالد للهدنة، وتركت مملكة القدس تواجه وحدها قوة العالم الاسلامي، ولكنهما غيرا أفكارهما فيما بعد، ومع ذلك، وبعد أن حشد المسيحيون كل رجل قادر في جيش بقوة ثمانية عشر ألف رجل، بقوا ضعافاً أكثر من صلاح الدين، رغم أن جيشهم كان بضخامة جيشه تقريباً لم يتمكنوا من وضع أكثر من اثني عشر ألف فارس ثقيلي التسليح وأربعة آلاف فارس بتسليح خفيف، وكان تحت امرة صلاح الدين اثنا عشر ألف رجل فارس العديد منهم أكراد مثله[1].

وعبر هذا الحشد الاسلامي الأردن في الأول من تموز 1187 عند نقطة جنوب بحيرة طبرية، وهاجم مدينة طبرية فسقطت في الحال، وصمدت القلعة فيها حيث دافعت عنها حامية صغيرة، وكانت فيها كونتة طرابلس زوجة ريمون صاحب طرابلس الذي كان في جيش عكا، وقبل أن تصل أنباء استيلاء صلاح الدين على المدينة إلى عكا، كان هناك جدل حام بين القادة المجتمعين هناك، فقد كان كونت طرابلس في صالح الدور السلبي الدفاعي بالنسبة للمسيحيين على أساس أن الجيش الذي قام بالمسير والهجوم في الحرارة الشديدة للصيف سيكون في وضع غير موات، ولذلك تعين على الإفرنج الانتظار حتى يضطر صلاح الدين إلى التقهقر تحت وطأة افتقاره إلى الماء والمؤن، ولن يكون قادراً

(1) كذا ويحسن العودة إلى كتاب حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ـ تأليف د. سهيل زكار. ط. دمشق 1984.

على الاحتفاظ بجيش ضخم لفترة طويلة في حرارة وغبار الصيف الفلسطيني، ووافق أغلب الناس على فكرة ريموند، ولكن رينالد أوف تشاتيلون اتهمه بالجبن، وأيده المقدم الأكبر للداوية في وجوب خروجهم لملاقاة المسلمين، وتناقشوا من جديد ولم يدرسوا الوضع الدفاعي على نحو هادئ. ووافق الملك غاي الذ كان يكره ريموند، وأصدرت الأوامر اللازمة لذلك، وفي المساء التالي، 2 تموز وصل الجيش الصفورية في منتصف الطريق إلى طبريا، وعسكر هناك حيث كانت كمية وافرة من الماء، وأصبح وضع الفرنجة قوياً، فلو هاجم صلاح الدين فسيبذلون أفضل جهودهم في المعركة التالية، وفي تلك المرحلة وصلت رسالة من كونتة طرابلس حاملة أخبار الحوادث في طبرية. ونشأ مرة أخرى جدال حاد، وحاول ريموند مرة أخرى أن يجادل بقوة لصالح البقاء حيث كانوا، وأن المسير خلال تلال الجليل في حرارة تموز خدم مباشرة عدوهم صلاح الدين، بينما يعود عليهم بالضرر، وكالسابق، وافق معظم الناس على فكرة ريموند، وتم القرار على البقاء في وضع دفاعي في الصفورة، غير أن المقدم الأكبر للداوية تحدث سراً إلى الملك المتردد دوماً بعد حلول الظلام، وأقنعه بالعدول عن الفكرة.

كان اليوم التالي حاراً وعديم الرياح، وانطلق المسيحيون قبل الفجر، ولكن قبل منتصف النهار بدأ الرجال والخيول يكابدون مشقة الحرارة والعطش بشكل مروع، وكان الأفق مصفراً، وليس ثمة ظلال فوق تلال الجليل الجرداء التي كانت صخورها حارة الملمس، كما غطى هباب الغبار أرجل الرجال عدا أولئك في المقدمة، وفي أثناء ذلك، صب المناوشون المسلمون سهامهم على صفوف وأرتال المسيحيين، عامدين إلى الفرار قبل أن تتمكن ضحاياهم من الانتقام، وبعد الظهر وصل الجيش تلة صخرية ذات قمتين توأمتين تعرف «بقرني حطين» حيث قرر غاي أن يعكسر في تلك الليلة، وناشده بعض الفرسان الاستمرار في المسير حتى بحيرة طبرية على مسافة أميال من المكان، . لكنه

رفض وعندما سمع ريموند بقراره هتف قائلاً: «يا رب خسرنا المعركة واننا ميتون» وبين أن البئر التي عسكر حولها الجيش جافة، وقال مؤرخ أحداث مسلم عن الليلة التي تلت «وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك، واستبشر رضوان».

وعندما استيقظ المسيحيون في الصباح، وجدوا أنفسهم محاصرين تماماً بجيش صلاح الدين، وأضرم بعض المسلمين النار في الأعشاب الخفيفة اليابسة على جانب التلة، وكانت تهب الرياح فتحمل معها الدخان إلى عيون الإفرنج فتعميهم وتخنقهم، ولم يكن لديهم فكرة غير فكرة واحدة كانت عن الماء، فشنوا هجوماً على أعدائهم في محاولة لخرق صفوفهم والوصول إلى البحيرة التي كان بإمكانهم رؤيتها عن بعد إلى الأسفل، ورغم عنفوانهم وحيوتهم في التحرك إلى مسافة خمسة أميال، إلا أن جنود صلاح الدين وألسنة النيران دفعتهم للرجوع، وقتل العديد منهم، وكالعادة قاتل الفرسان بكل ما أوتوا من الشجاعة التي لا تصدق في هجوم بعد آخر على فرسان الأعداء مكبدين أفدح الخسائر في الجانب الكردي، وعندما استمر القتال خلال الصباح كله دون إرجاء أو تأجيل لحظة واحدة ارتفعت الشمس في كبد السماء الزرقاء في منتصف صيف ناري في فلسطين، ملقية بحرارتها إلى الدروع الثقيلة، حتى أصبح الفولاذ ساخناً لا يحمل كما أرهقتهم الحرارة، فقتل أو أسر العديد من قوة المشاة، وتبعثرت جثث القتلة فوق الأرض، واضطجع الجرحى بشفاهم وألسنتهم المنفخة التي تحولت إلى سمرة من العطش يرجون أن يموتوا، وكان واضحاً أنه لم يكن ثمة وقت كثير يسمح بقلب الحال في المعركة، إذا كان في الواقع في الإمكان تحويل ذلك، ولذلك أمر الملك غاي، ريموند صاحب طرابلس بقيادة فرسانه في محال أخيرة للخرق، فنزلوا التلة مثل انتقام الرب في هجمه مرعبة، وأفسح العدو طريقاً أمامهم وفتحوا بين صفوفهم وتسربوا منها، ولكن حالما عبر الإفرنج أغلق المسلمون صفوفهم مرة أخرى، ووجد الفرسان أنفسهم غير قادرين على الانضمام إلى إخوانهم

المسيحيين، ولم يكن ثمة شيء في امكانهم أن يقوموا به غير الفرار بحزن من المعركة، وبعد فترة أخرى خرقت مجموعة من الفرسان أيضاً، وكان آخر في الفرار فقد قربت النهاية إلى البقية الباقية.

وعندما قربت النهاية وجد جنود صلاح الدين، الملك غاي فوق قمة تلة قرني حطين محاطاً بفرسانه الذين لم يقوموا بالخرق للخروج مع ريموند صاحب طرابلس أو قتلوا، وكان معظمهم مستلقياً على الأرض دو حراك أو منكب على وجهه، بينما كان بعضهم قتلى وآخرون جرحى والباقون منهكين جداً إلى درجة لا يستطيعون فيها الحراك، وسيق الملك ونبلاؤه القياديون بما فيهم رينالد أوف تشاتيلون والراعي الأكبر للكنيسة إلى خيمة ضربت فوق ساحة القتال لصلاح الدين، فاستقبلهم صلاح الدين بلطافته المعتادة، ودعا الملك غاي للجلوس إلى جانبه، ولما رأى عطشه أعطاه وعاء ماء بارد، وبامتنان وشكر تناول الملك الوعاء وشرب منه، وعندما كان على وشك تسليمه إلى رينالد أوف تشاتيلون، قال صلاح الدين لمترجمه: «ذكر الملك أنه لم أكن أنا بل هو الذي أعطى الاناء لذلك الرجل»، لأن عادة مشاركة الطعام والشراب مع سجين، كانت تعني انقاذ حياته، وبعد دقيقة أو دقيقتين تحول صلاح إلى رينالد ووجه إليه التهمة بعدد من الجرائم، ولكن رينالد كان فظاً غير خجول ورد عليه بصوت عال وبوقاحة، فكان هذا كثيراً جداً بالنسبة لصلاح الدين، فجرد سيفه وقطع رأسه، ووصف مؤرخ أحداث عربي ما حدث بعد ذلك. فقد كان الملك غاي متوقعاً أن يكون القتيل التالي، واقشعرت أطرافه، ولكن السلطان هدأ من روعه وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده».

كانت معركة حطين نكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين في المالك الصليبية فقد هزم جيشهم، ولم يترك من الرجال المقاتلين غير أولئك المنتشرين فوق الأرض في الحاميات وفي المدن والقلاع، وبدأ صلاح الدين يطهر البلاد من بقاياهم بشكل منهجي، وفي أوقات الفراغ. وفي هذه العملية أسر العديد

من الصليبيين إلى درجة أنهم أصبحوا فيضاً في أسواق النخاسة في العالم الاسلامي. وكانت قيمتهم التجارية تهبط إلى مستوى منخفض. حتى أن رجلاً قايض رقيقاً منهم لقاء زوج من الأحذية، واستسلمت مدن وقرى الممالك الصليبية الواحدة بعد الأخرى إلى السلطان المنتصر، وكانت طبرية أولاها وتلتها عكا ونابلس ويافا. أما صور حيث التجأ معظم أولئك الذين نجوا من حطين، فقد صمدت لهجومه الأول على أسوارها العظيمة، وظن أنها غير جديرة بضياع أرواح عديدة لاخضاعها، وبدلاً عن ذلك مر بها إلى صيدا التي استسلمت على الفور، وسرعان ما لحقت بها بيروت، أما مسيحيو القدس فلم يفتحوا بوابات المدينة التي مات فيها المسيح للمسلمين، واضطر صلاح الدين لفرض الحصار عليها، وقد دام الدفاع أقل من أسبوعين حتى الثاني من تشرين الأول 1187 أمام قواته التي أضعفتها واحتلتها، لكن لم تكن هناك مذبحة لأن صلاح الدين أصدر أوامره الصارمة بعدم مضايقة المسيحيين، وأطيع في ذلك تماماً، وقد أفسح لهم المجال ليفتدوا أنفسهم بدفع مبالغ مالية متفاوتة لقاء أسراهم: فللرجل عشرة دنانير، وخمسة للمرأة، وواحد للطفل، رغم أن العديد منهم كانوا فقراء، ولم يثبتوا مقدرتهم على الافتداء، غير أن صلاح الدين برهن عن كونه منتصراً كريماً، حيث أطلق سراح العديد من أولئك دون فدية.

وفي الخريف قدمت الأمطار، فسرح صلاح الدين قسماً من جيشه، وأعاد الرجال إلى أوطانهم ومزارعهم، وعاد الشرق مرة أخرى اسلامياً، لقد انتقم للهزائم المروعة التي سددها الصليبيون للاسلام، وذلك بالتصرف العدل والانسانية والكرم، وجعله ذلك ينال شرف النصر المعنوي الذي كان أكثر أهمية من نصره العسكري، فقد كان الاسلام قد دخله لعدة قرون الفساد بالابتزاز غير المشروع والأنانية والكذب، ونوع من اساءة الحكم والاجرام التي دمرت الدولة الفاطمية في مصر، والتي أصبح لديها الآن قائد برهن بنفسه أنه أهل ثقة تماماً، وأنه الرجل الذي لم يعرف عنه أنه نقض عهده لصديق أو

عدو، وكان ذلك شيئاً غير عادي في معايير ذلك العصر، وقارب أن يكون غير مصدق حيث فاز باحترام هائل بين اخوانه المسلمين وبين خصومه المسيحيين، وإذا كان قد فاز باعجاب العالم ورد الأراضي الاسلامية إلى الاسلام، فإنه لم يكسب أخيراً الفوز في الصراع مع الإفرنج، لأنهم تدبروا أمرهم في التمسك بثلاث مدن، وخمس قلاع ضخمة، وصمدت صور وأنطاكية وطرابلس ضده، وكذلك فعلت شقيف أرنون والقصر الأبيض (صافيتا) والمرقب وطرطوس وحصن الأكراد، وقد أعطت تلك المواقع المسيحيين موطئ قدم أو موطئين فوق الأراضي في الشرق، واعتبرها صلاح الدين على الأرجح غير هامة، فسيكون قادراً أن يتعامل معها فيما بعد، عندما يختار أن يقوم بذلك، غير أن التاريخ برهن خطأ ذلك.

الفصل السادس عشر

التجارة والملوك

الحرب هي تجارة الملوك
دريادن ـ الملك آرثر

عندما وصلت انباء النكبة في الأرض المقدسة إلى أوروبا، استقبلت بالفزع، ولبس ملك صقلية المسح علامة على الحزن، ومات البابا أوربان الثالث الذي كان رجلاً مريضاً، واحتشد الناس في كل مكان في الكنائس والكاتدرائيات للصلاة لاستغفار الرب، فلا شك أن شعبه قد أثم في حقه، وبعد هذا سيرونه أسفهم الشديد، وكان رعبهم يطفح بالصدق، ولم يصدقوا مثل تلك الفاجعة المروعة كان يمكن أن تحصل في المجتمع المسيحي كله في الممالك الصليبية، وفي تلك المفاجأة والسرعة، ففي لحظة كان يعود المسافرون بروايات عن قوة وروعة مملكة القدس، وعن الحياة المترفة التي كان ينعم بها مواطنوها، ثم في اللحظة التالية، أخبروهم بسقوط المدينة المقدسة نفسها في أيدي الكفار وبضياع صليب الصلبوت، أنه من المستحيل التصديق بأن الصرح الضخم كله الذي بني بالألم والجهد عبر سنين من قبل الصليبيين تحطم في أيام فاجعة قليلة، وأن خطط قلة من اللاجئين في صور وأماكن أخرى هم الذين تدبروا أمرهم في الإبقاء على حياتهم.

وخلف البابا أوربان، البابا غريغوري الثامن، وهو زاهد طيع، أصدر مباشرة استغاثة للقيام بحملة صليبية جديدة، واعداً جميع أولئك الذين أخذوا الصليب بالصفح عن ذنوبهم، وإنهم ذاهبون إلى الجنة إن قتلوا، وقد مات في

أقل من شهرين، بينما كان يحاول إقامة سلام بين البيازنة والجنويين كي تتحرر المدينتان مما بينهما، وتضمنا إلى الحملة الصليبية، وقد نصب كليمانت الثالث رجل الاصلاح الذي ولد في روما، في مكانه، ولم يكن ثمة أحد بحاجة إلى طبيعة استرضائية أكثر منه، ولم يكن البيازنة والجنويون الشعب الوحيد في أوروا في قتال مع بعضهم البعض، بل كان الناس في جميع أجزاء أوربة في نزاع مع بعضهم بعضاً وحتى يمكن إقناعهم بإقامة السلام لم تكن ثمة فائدة كبرى في محاولة إقناعهم بالذهاب إلى مساعدة المسيحيين المحاصرين في الممالك الصليبية أو بما ترك منها، وكان ملك صقلية في حرب مع البيزنطين، ولم تكن هذه ذات أهمية كبيرة مقارنة مع مأزق انكلترا وفرنسا، لأن هنري الثاني في انكلترا كان في حرب مستمرة تقريباً مع فيليب أوغسطس في فرنسا، وكرئيس لاسرة بلانتا جينت حكم هنري جزءاً كبيراً من فرنسا أكثر مما حكمه الملك فيليب أوغسطس، ولقد كان دوق مناطق نورماندي وبريتاني وأكويتين، وفي منصب كونت لمناطق أنجو والماين وبواتو والمانش واوفرن، وهذا وحده جعل العلاقة بين الرجلين صعبة جداً، ورغم فترات السلام بينهما، راقب كل منهما الآخر بشك عميق، لأن كلاً منهما عرف أن الآخر سيغزو أرض الآخر في لحظة ما، إذا منح أبسط مسوغ للقيام بذلك. كما لم يكن ليفاجئ أحدهما لو حطم منافسة المعتدي دون أي مسوغ على الإطلاق، وساءت الأمور أكثر بسبب ولدي هنري: ريتشارد وجون اللذين كان ولاؤهما ولنقل أقل قدر ممكن أقل من أن يوصف، فقد كان ريتشارد ميالاً بشكل خاص لتغيير مواقفه مع الأطراف المتحاربة، والقتال بحياد مدهش فأول الأمر مع والده ضد الملك الفرنسي ثم، وعندما كان يناسبه ذلك، مع فيليب أوغسطس ضد والده، وحتى بعد وفاة هنري الثاني سنة 1189 كان ملكا انكلترا وفرنسا على استعداد للانضمام إلى حملة صليبية جديدة.

وسرعان ما استعد الامبراطور الألماني فريدريك بربروسا وكان في أواخر الستين من عمره حيث كان على العرش لفترة تنوف على ثلاثين سنة،

ورغم أنه لم ينعم بحكم مسالم وفي الوقت الذي تم فيه نصر صلاح الدين في الشرق، فقد الكبير هنري الأسد، دوق ساكسوني وبافاريا وهدأ الوضع في مدن لومبارد التي ثارت ضده. ومات البابا ألكسندر الثالث الذي كان في نزاع معه منذ زمن طويل، وقد احترم فريدريك كثيراً لكونه أكبر رجل دولة في أوروبا وكرجل شاب حير معاصريه لأن بدأ أنه متحلٍ بجميع الفضائل، فقد كان شجاعاً إلى نقطة الجسارة وذكياً وحاسم القرار وممتلكاً طاقة لا تنضب، بينما كان من الناحية الجسمانية ممتلىء الجسم وجذاباً وذا بشرة شقراء وشعر أحمر متجعد وذا لحية ووجه مبتسم باستمرار، ورغم أنه كان في السبعين من العمر وقت الحملة الصليبية الثالثة، فإنه لم يفقد شيئاً من جاذبيته وكان لا زال في نشاط العديد من الرجال الذين كانوا في منتصف عمره، وأكثر من أي ملك أوروبي غربي آخر، منذ شالمان، جسد فكرة ومثالية الملكية في العصور الوسطى، وعندما أخذ الصليب في ربيع عام 1188 سرت موجة هائلة من الحماس في أنحاء أوروبا، واندفع رجل انكليزي يدعى وليم من نيوبرغ كثيراً متأثراً بذلك إلى درجة أن أشير إليه «بامبراطورنا».

وقام فريدريك بالاستعدادات للحملة الصليبية بعناية. فكتب رسائل إلى ملك هنغاريا والامبراطور البيزنطي والسلطان السلجوقي الذي عبر أراضيه قصد المسير وتلقى أجوبة مهذبة منهم جميعاً، كما كتب إلى صلاح الدين الذي رد عليه رداً مهذباً بشكل مساو، ولكنه أوضح وضوحاً تاماً أنه لم يكن خائفاً من وصول الامبراطور الألماني. وعندما انطلق في 11 أيار 1189 تحدث معاصروه عن رهبة قوة عدوهم التي فاقت، كما اعتقدوا، المائة أو المائة والخمسين ألف رجل، وعلى الرغم من أنها كانت مبالغات فقد كان جيش الحملة أضخم جيش غادرها مع ذلك الوقت حيث تألف من عشرين ألف فارس، وربما كان رجال المشاة ستة أو سبعة آلاف تابع من المعسكر، ولم يكن جيشاً كبيراً فحسب بل حسن التجهيز والتنظيم، وكان المسير خلال هنغاريا مسالماً وخلواً من الحوادث، وحالما دخل الجيش الأراضي البيزنطية

ظهرت بعض المشكلات، ففي غياب حاكم قوي في القسطنطينية كان قطاع الطرق واللصوص الذين هاجموا الصليبيين يجتاحون ريف الصرب كلما سنحت لهم الفرصة، فأصابوهم ببعض الأضرار، ورغم أنهم قتلوا بعض المتشردين غير أن الألمان لاموا البيزنطيين وسرعان ما ظهرت العداوة تجاههم، وكان الامبراطور اسحق أنجلوس رجلاً ضعيفاً وأحمق، وعندما علم أن الامبراطور الألماني كان يزحف نحو العاصمة على رأس جيش ضخم، قد جعلته الاشاعات أضخم مما كان في الحقيقة، أنهار من الفزع الذي ازداد سوءاً عندما احتل فريدريك مدينة فيليبو بوليس، وعندما أرسل الامبراطور الألماني سفراءه إليه للقيام بالترتيبات اللازمة لعبور الجيش البوسفور إلى آسيا، قبض إسحق عليهم ورماهم في السجن.

وقد كان هذا عملاً يتصف بالغباء والجبن، لأنه أكد لفريدريك بأنه عدوه، وقرر الأخير دعوة أسطول من ألمانيا لشن هجوم موحد من البحر والبر على القسطنطينية، وكذلك التطلع إلى بركات البابا على حملة ضد البيزنطيين، وعندما سمع إسحق بهذه الخطط ازداد خوفه كثيراً، وبعد تردد قليل أطلق سراح السفراء وعقد سلاماً مع فريدريك، وفي ذلك الوقت قدم الخريف، وقرر فريدريك أنه من التهور محاولة المسير عبر الأناضول حتى وقت الربيع، فإن الرياح الثلجية الباردة التي كانت تهب من روسيا في الشتاء عبر سهلها الأجرد، وتلالها القاحلة كانت خطيرة جداً، لذا أقام في فصل الشتاء في أندرنيوبل، وانتظر قدوم الربيع.

وفي آذار 1190 عبر الجيش مضيق الدردينل إلى آسيا من نقطة قرب غاليبولي، وبالتالي تجنب البوسفور حيث ربما تعرض لبعض المشاكل مع سكان القسطنطينية، وسار فريدريك بعد ذلك جنوباً إلى فلادلفيا ومنها إلى لوديسيا قبل التحول إلى داخل البلاد التي يحكمها السلطان السلجوقي الذي وعده ورجاله بالمرور الآمن عبر مقاطعته، وسرعان ما بدأ رجاله بمعاناة الشمقة نفسها في الطعام والماء كما تحملتها جميع الحملات الصليبية السابقة،

ولم تطل الفترة قبل اكتشافهم أن وعد السلطان السلجوقي بعبورهم الحر والمطلق عبر أراضيه، لم يكن له قيمة، ذلك أنه بعد مرورهم بمنطقة معركة ميريوسيف اليوم، حيث كانت لا تزال عظام أولئك الذين ماتوا هناك قبلهم منتشرة ظهر النشابة الأتراك الفرسان وبدأوا يكبدونهم الخسائر في المشاة، وفي الحقيقة لم يكن على السلطان أي لوم رغم أنه من الطبيعي بما فيه الكفاية أن يعتقده الألمان الغاضبون مسؤولاً، لقد كان إبنه قطب الدين الذي صادف أيضاً أنه ابن حمي صلاح الدين، هو الذي رخص بالهجمات، وكلما تعمق المسيحيون ودخلوا في أراضي أبيه كلما انحاز عليهم الأتراك وتحملوا أكثر الكثير، وفي 18 أيار 1190 التقى الجيشان خارج قونية وتلت ذلك معركة ضارية وتعززت القوات النظامية لقطب الدين بقبائل من البدو التركمان الفرسان على خيول آسيوية صغيرة قوية، ولكن قواته المتحدة لم تكن تضاهي الجنود الألمان المنظمين، وكسب فريدريك نصراً باهراً، وعندما أخبر السلطان أسرع للاعتذار عن ابنه وعقد هدنة مع فريدريك، ثم إن بقية رحلة الصليبيين عبر مقاطعته كانت خلوة من الأحداث، وعندما دخلوا الأراضي التي سيطر عليها الأرمن المسيحيون بدا لهم أن مشاكلهم انتهت، ولكنهم لم ينتهوا منها فعلاً.

ومع بداية حزيران بدأ الصليبيون نزولهم الطويل في جبال طوروس على السهل الساحلي في كليكية، وتقدم فريدريك على رأس الجيش مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء والحرس، ووصل إلى ضفاف نهر سالف. Saleph قبل أن يصله الآخرون، ولم يعرف أحد بالتأكيد ما حدث بعد ذلك، ولعل الامبراطور قد سقط عن حصانه في النهر وفقد وعيه، أو لعل التيار قد جرفه بعيداً عندما حاول أن يشرب الماء. وقد منعه وزن درعه من السباحة بأمان، وكل ما عرف عنه بالتأكيد أنه غرق، وكان موته بمثابة ضربة قاتلة لأعصاب تابعيه، وكتب رجل من كولونيا في يأس «في هذه المرحلة وفي هذه الأنباء المحزنة سكت قلمنا، وانتهت قصتنا»، وانتهت أيضاً الحملة العظيمة، فمع موت قائدهم كان الألمان أشبه بالخراف دون راعٍ، وعاد البعض إلى وطنهم في الطريق التي

قدموا منها، وأبحر آخرون إلى فلسطين حيث شكل القليل منهم فيما بعد نواة جماعة الفرسان التيوتونيين، وحاول ابن فريدريك قيادة ما بقي من الجيش إلى سورية، وأصابته الحمى في السهل السبخي الحار في كليكية الشرقية، وتعين تركه وراءهم. وبينما بدأ الجيش يتفسخ إلى رعاع غير منظمين، وحملوا جثة فريدريك المعالج بالخل معهم وهم متشبثون بمآثر الملك الميت الأخلاقية، ولكنها لم تأت إليهم إلا بالحظ القليل، وهاجمهم الأتراك، وضربوهم بوحشية عندما عبروا الجبال إلى سورية، وعندما وصل الباقون إلى أنطاكية في منتصف حزيران، كان من الصعب الاعتقاد أنهم كانوا قسماً من أحسن الجيوش الصليبية التي غادرت أوروبا، وسرعان ما اكتملت حالة تفسخهم الأخلاقي الذي كان متطوراً إلى حد بعيد عما مضى، في بيوت الدعارة في أنطاكية، وأثناء ذلك، ورغم وجود الخل في جثة الامبراطور فقد بدات بالتفسخ والانتان، ودفنت بسرعة في الكاتدرائية، بينما شكر صلاح الدين ربه لموته كتحرير اعجازي من عدو قوي، وحاول المسيحيون في صور إخفاء خيبتهم المرة في إحباط آمالهم.

ومن حسن الحظ بالنسبة للمسيحيين في وقت انهيار الحملة الصليبية العظيمة، ملكي فرنسا وانكلترا كانا في طريقهما نحو الشرق، وكان فيليب أوغسطس في الرابعة والعشرين في ذلك الوقت رجلاً بليداً وخالياً من التأثير يرى بعين واحدة، وغير أنيق شخصياً ولا يحب الحرب وجباناً أكثر منه شجاعاً ويكره التباهي، ولم يكن لديه تذوق للفنون وقد عاش حياة بسيطة غير طموحة، وكرجل سياسي كان أكثر حكمة ودهاء من منافسه الانكليزي، أما ريتشارد الذي كان في الثانية والثلاثين فقد كان على النقيض منه، وأكثر أفراد عائلته الموهوبة موهبة، واجتمع له الوراثة والحظ ليمنحاه تكويناً جليلاً مع مجموعة من القدرات، وبتشبيه لإله اغريقي كان طويلاً وقوياً جداً ذا شعر أشقر، ووسيماً جداً إلى درجة أنه فتن أصدقاءه وأعداءه، وفي نفس الوقت أسر الجميع بسحر أسلوبه وشجاعته، كما كان قائداً جيداً ذا طاقة غير محدودة

ومحباً للفخامة والأبهة في المنصب الملوكي، ونصيراً متحمساً للشعر والموسيقى، كما كان رجلاً ذا تقلب نفسي معين وميالاً للتنقل من تطرف عاطفي، إلى آخر أكثر تطرفاً، وأوحى بعض الناس بأنه ربما كان لوطياً رغم أنه أقرب وأبرز مؤرخ معاصر له في تلك الفترة قد تقدم للاقتراح بمثل هذا الشيء، وتعين عليه أن يقول إن أذواق، ريتشارد لم تتجه إلى الزواج». التي لم تتضمن بالضرورة الشيء نفسه، وبالطبع تزوج ببرنغاريا Berengaria، أما أخطر أخطائه فكان مزاجه الذي دفعه إلى القيام أحياناً بأعمال عنيفة ووحشية بصلابة مناقضة لسماحة نفسه وكياسته الطبيعيتين، وعلى الرغم من أخطائه خلال حياته وبعدها أيضاً، فقد كان بطلاً مفضلاً بين الشعراء والشعراء الغنائيين، وقد اعتبره رجال من مختلف الجنسيات ـ انكليزيين وفرنسيين والمان وأتراك وعرب ـ الرجل الأقرب لتجسيد المثالية الرومانسية لفروسية العصور الوسطى، بينما حسد صلاح الدين أنبل وأكرم صورة في القصيدة الاسلامية. وهناك بعض الحقيقة في تلك النظرة العامة للرجلين.

وبعد أن تم عقد سلام بعد موت هنري الثاني وافق فيليب صاحب فرنسا وريتشارد صاحب انكلترا على الذهاب في حملة صليبية مشتركة معاً، وقد قاما بذلك علناً لأنه لم يكن أحدهما يثق بالآخر في الحفاظ على السلام أو في الإحجام عن غزو مملكة منافسه إذا ذهب أحدهما نحو الشرق بينما بقي الآخر في وطنه، ولذلك انطلقا معاً من فيزيلي في الرابع من تموز 1190 للمسير إلى ليون حيث افترقت سبيلهما، وأخذ فيليب الطريق المؤدية إلى جنوة حيث كان الايطاليون قد رحبوا بنقله وجيشه بطريق السفن إلى الأرض المقدسة، وبينما سار ريتشارد جنوباً إلى مارسيليا حيث تعين على الأسطول الانكليزي الذي كان لديه أوامر بملاقاته، وكان الملك وليم في صقلية الذي تزوج أخت ريتشارد جوانا قد دعا الطرفين معاً لجمع قواتهما في الجزيرة، ورغم حقيقة أن وليم قد مات حديثاً، فقد قرر فيليب وريتشارد الاجتماع في ميسينا كما خططا لذلك في الأصل، وفي أثناء ذلك، خلف وليم ابن عمه تانكرد الذي كان حقيراً

ومكروها وسرعان ما اكتشف أن ميراثه لم يكن وظيفة عاطلة، وجاءت وراثته بسبب أن وليم لم يكن لديه أطفال من زوجته جوانا.

ووصل فيليب أولاً إلى الجزيرة وحط رحاله في مدينة ميسينا في أوائل شهر أيلول وجعل طريقه بأبهة إلى القصر الذي وضعه تانكرد تحت تصرفه، ووصل ريتشارد بعد ذلك بعد أيام في مزاج سيء كلية بعد رحلة مرهقة قادماً إلى الشاطئ في ميسينا في شكل مغاير لفيليب، وفي أسلوب ملتو، وأخذ طريقه إلى قصر آخر خارج أسوار المدينة انضمت إليه أخته جوانا التي كان مكرساً نفسه لها، ولكن وصولها عمل على زيادة مزاجه السيء فقط بسبب القصة المزعجة التي أخبرته بها، فقد قالت له أنها بعد وفاة زوجها عاملها تانكرد معاملة سيئة بشكل مقيت، وأغلق عليها غرفتها كالسجينة وجردها تانكرد من مهرها بدلاً من رده لها، واستولى على عدد من الأشياء التي كان الملك الأخير وليم تركها لحميه (والد زوجته) هنري الثاني ملك انكلترا، والتي اعتبرها ريتشارد بالطبع من خصوصياته بعد موت والده.

وفي حين كان ريتشارد يعمل بنفسه على إثارة المشاعر والحنق ضد ذنوب تانكرد العديدة في ارتكاب الجرائم واللامبالاة، كان الجنود الانكليز يتصرفون بشكل سيء تماماً في المجينة من مضايقة للنساء، وقتل كل من تجرأ على اعتراضهم، وأصبح الوضع متفجراً، وفي الأول من تشرين الأول وبينما كان ريتشارد منا يزال في مزاجه الغاضب القاتم، ويطيل التفكير في الاهانات التي وجهت إلى أخته، ظهر عصيان مناهض للانكليز، وسمعت خلاله مجموعة من الصقليين الغاضبين تقوم بترويج بعض ملاحظات تحامل وازدراء عن ريتشارد نفسه، الذي أخبر بها فزادت من تعكر مزاجه، ونفذ صبره فأمر قواته بالهجوم على المدينة التي استولى عليها في كلمات الشاعر الانكلونورماندي امبروا «في وقت أقل من أن يستغرقه قس في غناء مزمور» لقد كانت جزءاً من قرصنة مطلقة أزعجت الملك فيليب وروعت تانكرد الذي وافق في الحال على تسليم مهرجوانا ومبلغ كبير من الذهب عوضاً عن الميراث الذي

خص هنري الثاني، وعرض في نفس الوقت توقيع معاهدة مع الملك الانكليزي ريتشارد الذي كان يحب الذهب، لذا وافق على توقيع المعاهدة في حينها.

وبعودة السلام وتحسن مزاج ريتشارد قرر الملكان قضاء الشتاء في صقلية، ولم يبحرا إلى الممالك الصليبية حتى ربيع 1191 حيث غادر فيليب في نهاية آذار، وبعد عشرة أيام تبعه ريتشارد، وكانت رحلة الملك فيليب هادئة وخلوة من الحوادث، ووصل إلى صور في منتصف نيسان حيث ابتهج الجميع بوصوله الذي غرس فيهم الشجاعة من جديد، فقد تعين عليهم الانتظار فترة طويلة لوصول النجدة في الوقت الذي كان الاخفاق الألماني العام بعد موت فريدريك بربروسا خيبة مروعة، وأخيراً وصلت النجدة التي صلوا من أجلها، وبدأ الناس يعتقدون أن الحظ ربما قرر أخيراً أن يبتسم لهم مرة أخرى بعد أن علموا أن ريشارد كان في الطريق إليهم.

أما رحلة ريتشارد فكانت بعيدة عن كونها هادئة، ودامت فترة أطول من غيرها، وبعد أن أبحرت إلى ما وراء جنوب اليونان غيرت عواصف عنيفة الحياة وجعلتها غير مريحة مطلقاً لعدة أيام، وكان ريتشارد بحاراً ضعيفاً رقيق الصحة في البحر إلى حد مروع، وغرقت احدى سفنه بينما ضلت الأخرى وخرجت عن طريقها إلى قبرص، وكان على ظهر احداها أخت ريتشارد، جوانا وابنه ملك نافار، الأميرة برنغاريا التي عزم الزواج منها، وكان يحكم قبرص آنذاك مطالب بالعرش البيزنطي، اسحق كومينوس الذي كان في عصيان ضد الامبراطور غير الشرعي اسحق أنجلوس الذي تدبر أمر ترسيخ نفسه إلى حد ما في الجزيرة رغم عدة محاولات خائبة من قبل الحكومة في القسطنطينية لاخضاعه، وانزعج تماماً عندما وصلت أنباء عن اقتراب عدد من السفن، وعندما نزل إلى بر الجزيرة بعض رجال ريتشارد رماهم في السجن، ولم يرس في الجزيرة المركب الذي يحمل الأميرة برنغاريا والملكة جوانا بل جرى إلى مرفأ في خليج لماسول حيث أرسل قائد المركب إلى الشاطئ يسأل ماء ومؤناً،

ورفض اسحق كومينوس على نحو قاطع أعطاءهم أية مساعدة على الاطلاق، ومنع الجميع في السفينة من النزول إلى البر.

وعندما وصل ريتشارد بعد عدة أيام كان يتميز غيظاً، أما ميله الطبيعي إلى العنف لم يكن ليستقر أبداً وقد انفجر مثل بركان هائل من الغضب العدواني ونزل رجاله إلى الشاطئ وهاجموا ليماسول التي استسلمت على الفور. وفر اسحق إلى مكان آمن ومن هناك عرض أن يتفق مع ريتشارد، والتقى الرجلان كما ينبغي ووافق اسحق على كل شيء طالب به ريتشارد، ولكنه عاد وتنكر لاتفاقه حالما غادر المعسكر الانكليزي، ولم يستطع أن يرحل بسهولة عندما تعززت يد ريتشارد كثيراً بوصول زمرة من الفرسان من الممالك الصليبية، الذين قدموا ليعرضوا ترحيبهم مع الأسطول الانكليزي، ولكونه متأكداً من تفوقه بعد هذا، لم يسارع لتأديب اسحق، وقبل ذلك تزوج برنغاريا في جو فيه أبهة كبيرة بقدر ما سمحت الظروف وتوجت ملكة، ثم شرع في فتح الجزيرة وأبدى اسحق بعض المقاومة التي لم تأت بالفائدة الكثيرة، ومع نهاية أيار أصبح سجيناً لدى الملك الانكليزي، ويبدو أنه لم يخطر في بال ريتشارد أن قبرص جزء متمم للامبراطورية البيزنطية، أو أن سكانها مسيحيون، وبعد انتزاعه غنائم كثيرة منهم عين رجلين انكليزيين كحاكمين في الجزيرة، حتى يقرر كيف يتصرف بها، فهي بالنسبة له بلاد مفتوحة ليس أكثر.

وبعد مضي سبعة أسابيع على قدوم فيليب أوغسطس من فرنسا، وفي بداية حزيران، وصل ريتشارد إلى خارج ساحل الممالك الصليبية ليجد أن الجيوش المجتمعة تحاصر عكا، وكان ذلك بعد أربعة سنوات تقريباً من معركة حطين، وقد نجح المتبقون من تلك النكبة في التشبث في صور حتى قدوم النجدة الجديدة، وقد قادهم بشكل رائع ابن عم الملك الفرنسي، كونراد أوف مونتفرات الذي كان وصوله إلى المدينة في الوقت الذي كان في الانتصار العظيم لصلاح الدين، وصل بتدخل من العناية الالهية، وكان ذلك رجلاً قادراً بشكل كبير، ثم كان عديم الرحمة وقوي التصميم، وعندما استعرض صلاح

الدين الذي كان قد أسر أباه في حطين الشيخ الكبير عند أسوار عكا، مهدداً بقتله أن لم يسلم كونراد المدينة، أجاب أن والده عاش كثيراً بما فيه الكفاية، وأن الأجدر به أن يموت بأية حال، وانضم إلى كونراد عدد كبير من القادمين الجدد من الغرب الذين لم ينتظروا الملوك ليوقفوا الصراع بينهم قبل الشروع في مساعدة إخوانهم المسيحيين المضطهدين، وقبل موته أرسل الملك وليم صاحب صقلية مساعدة إلى الرجال المحاصرين من قبل صلاح الدين في صور، وأبحر فيما بعد بعض الرجال الهولنديين وبعض الايطاليين وبعض الفلاندريين إلى اليمناء هناك ليقدموا خدماتهم كجنود للصليب، وتلاهم فرقة انكليزية سنة 1189، ومع مرور السنين أطلق صلاح الدين سراح أكثر الأسرى شهرة في مقال دفعات مختلفة الأنواع من الفدية، وعزز هؤلاء أيضاً البقية المقاتلة والصغيرة من الجيش المسيحي الذي لم يدمر على تلة قرني حطين.

وفي أثناء ذلك وفي صيف سنة 1188 أطلق صلاح الدين سراح الملك غاي، وبعض النبلاء في مملكته على شرط أن يغادر البلاد، ووعد غاي كما ينبغي بالرحيل إلى فرنسا وحالما حصل على حريته سأل الكنيسة أن تحله من قسمه، ونظراً إلى أنه صار الأمر إلى المسلمين وليس إلى المسيحيين قامت الكنيسة بذلك مضطرة وغير مترددة، وعندما تقدم غاي إلى احدى بوابات صور، ورفض كونراد أوف مونتفرات الذي أنقذ المدينة، ودعي منذ ذلك الوقت بقائدها دخوله، بل ذهب إلى أبعد من ذلك في الواقع، حيث رفض أن يعترف به ملكاً، فكانت النتيجة، أن عداوة مباشرة ودائمة برزت بين الرجلين. ومنذ ذلك الوقت انقسم المجتمع المسيحي المتبقي إلى حزبين متعاديين بعنف ومكرسين أنفسهما لتدمير بعضهما البعض أكثر من قتال عدوهما المشترك صلاح الدين، وكان ذلك تطوراً مفجعاً وحتى غاي الذي لم يكن أكثر تفكيراً أو أحكم فكرة بين الرجلين، أدرك بعد فترة من الوقت أن بقاءه عند أسوار صور دون مساعدة، وفي حالة غضب مثبط لم يكن يخدم القضية المسيحية، وحرك مؤيديه وقام بزحف مفاجىء وصاعق على عكا التي حاول الاستيلاء

عليها بعملية انقضاض، وأخفق ولم يثنه ذلك عن عزمه وعسكر عند أسوار المدينة وشرع بفرض حصار حولها، وأخفق صلاح الدين في طرده من المكان، وعليه وبدلاً من ذلك، حاصر الجيش الأسلامي الإفرنج المحاصرين، ومع مرو الوقت انضمت إلى غاي بعض الامدادات الجديدة حتى أن كونراد أوف مونتفرات قدم إلى نجدته في الهجوم على المدينة، وعزز وصول الملك فيليب أوغسطس ملك فرسا الجيش المسيحي كثيراً هناك، وتم الترحيب بوصول ريتشارد عن طريق البحر ومعه خمسة وعشرون سفينة بالابتهاج والفرح من قبل الصليبيين وبالانذار من قبل المسلمين الذين رأوا وصول المراكب محملة بالرجال بينما كان الجميع عند الشاطئ ينفخون الأبواق والمزامير ويقرعون الطبول ويوقدون النار في المشاعل للترحاب بهم.

وكان لدى فيليب أوغسطس عدد من أسلحة الحصار الكثيرة والفعالة جداً، وقد أطلق الجنود لقبين على اثنين منهما. مقلاع الرب، والجار الشرير، ولكن فيليب لم يكن بالشخص العدائي، ولم يفد وجوده كثيراً في إثارة جنوده، ولم يكن ريتشارد هناك لفترة يوم قبل أن يغرس في الجميع الشجاعة من جديد بوجوده المحض بينهم، ولسوء الحظ، سقط ريتشارد وفيليب صريعي المرض بعد وصول الأول التي التزم الراحة في سريره لفترة من الوقت، وامتلأ فمه وحنجرته بالقرح والألم، ولكنه استمر في ادارة العمليات من خيمته، وتولى قيادة الجيش المسيحي في الزحف على عكا، ولم يتساءل الجميع عن حقه في القيام بذلك، وخلال مرضه تبين بوضوح أنه من الحكمة قبول قيادته، لأنه طارد أعداءه بنشاط أكثر في سرير مرضه مما فعل فيليب اوغسطس عندما كان في كامل صحته، وكانت آلات الحصار تضرب حجارتها وتدك ليلاً ونهاراً وتقذف صخوراً كبيرة على الأسوار وإلى داخل المدينة. فكان يتلو وقع خبطها تحطيم وسقوط المباني واثارة غيوم من الغبار، كانت تتضخم ببطء في الهواء مثل تفتح أزهار صفراء كبيرة، وبذل رجال صلاح الدين ما كان في وسعهم للتدخل في ذلك القصف. وقد دون الشاعر اميروا ملاحظة عن بعض

المجابهات التي نتجت عن ذلك، فقد كانت حرباً شخصية جداً، وكتب يصف احدى الحوادث الصغيرة الحية قائلاً: «صدف وجود فارس في أسفل حفرة خارج المعسكر لشأن خاص لا يمكن أن يقوم به عند أحد من البشر، وعندما وضع نفسه هكذا، افترق عن زملائه أحد الأتراك في أحد مواضع العدو الخارجية التي لم يلق إليها هذا انتباهاً، ودفع التركي حصانه للتقدم إلى الأمام، وكان شيئاً خسيساً وحقيراً أن يسعى لمفاجأة الفارس بينما هو يحتل المكان هكذا، وكان التركي قد ابتعد لتوه عن أفراد مجموعته متقدماً إلى الفارس وفي يده مدية لذبحه وعندما صرخ رجالنا «اركض سيدي اركض!» ولم يكن لديه وقت للنهوض، حيث تقدم التركي بعدوة سريعة كاملة معتقداً أنه سيكون قادراً على ادارة حصانه والعودة به إلى الوراء إذا احتاج إلى ذلك، ولكنه لم ينجح والحمد لله. فقد رماه الفارس إلى أحد الجانبين ورفع حجرين في يديه وأصغى إلى كيف يكون انتقام الرب، وعندما تفحص التركي حصانه ليعود به، ورآه الفارس بوضوح بينما كان ينسحب قريباً إليه الطمه بأحد الحجرين على صدغه فسقط التركي صريعاً، وأخذ الفارس حصانه وقاده من لجامه».

وبينما كانت مثل تلك الحوادث تجري يومياً. سادت في مناسبات أخرى روح قتالية مختلفة، وروى مؤرخ أحداث مسلم هو بهاء الدين، كيف اعتاد الجانبان على رؤية بعضهما البعض وفي بعض الأحيان توقف الجنود المسلمون والجنود الإفرنج عن القتال للتحدث إلى بعضهم بعضاً، حيث يختلط الحشدان يغنون ويرقصون مع بعضهم بعضاً ليعودوا بعد ذلك إلى القتال، وقالوا مرة لقد كنا نتقاتل لفترة طويلة دعونا نتوقف لفترة ونفسح المجال لأولاد المعسكرين يرونا ماذا يستطيعون أن يعملوا، وهكذا نافسوا زمرتين من الغلمان الذين تصارعوا مع بعضهم بحماسة شديدة، وقد رفع أحد الشباب المسلمين شاباً كافراً فوق الأرض ثم رماه إلى الأسفل حيث جعله أسيره. وتقدم أحد الإفرنج المشاهدين وافتدى الأسير لقاء قطعتين من الذهب، وقال الإفرنجي للشاب

المنتصر «إنه اسيرك»، ولكن بعد تلك الفترات الفاصلة كان يعاد القصف، وحيثما يحصل خرق في السور مهما كان صغيراً تحاول كوكبة من الصليبيين الدخول واقتحام المدينة، ولكن الاشارات من المهاجمين كانت دوماً تأتي بالثأر المباشر من عند صلاح الدين كان يشن هجوماً مضللاً على مؤخرة المسيحيين، وبذلك يتم التخلي عن محاولاتهم عند الأسوار، ومع نهاية حزيران وبينما كان ريتشارد لا يزال مريضاً جداً عاجزاً عن الاشتراك في الهجوم، قام الفرنسيون بانقضاض مماثل مركزين على ثغرة كبيرة أحدثتها المناجيق، ولكن المدافعين قاتلوا مثل المردة وأعطت اشارة إلى صلاح الدين الذي هاجم المعسكر المسيحي، وعند المساء اضطر الفرنسيون إلى التراجع حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم، وفي ذلك الوقت بدأ يتملك الجانبين يأس مر، فقد قاتلوا دون عطاء أو توقع شكر. وأحرق بعض القادمين الذين وصلوا مع روبرت، ايريل منطقة ليستر واندر وأوف شافعني سجيناً حيا على مشهد قرب الأسوار، واتخذت الحامية على الفور ثأرها باحراق أسير صليبي على خازوق.

وازدادت سوءاً ورطة الستة آلاف مسلم المحبوسين في عكا في كل يوم. فمع قدوم الأسطول الانكليزي حوصروا تماماً من جهة البحر، وزادت الحاجة إلى الطعام إلى درجة أن الحمام الزاجل قد استعمل، وأرسلت رسائل إلى صلاح الدين مع نهاية شهر حزيران. ولم تكن شجاعتهم قد انهارت، ولكنه أصبح من الواضح أن الشجاعة وحدها لن تنقذهم، فنشأت الخلافات بينهم، كما بدأ الكلام في داخل المدينة عن تسليمها رغم أنه لم يكن ذلك شيئاً في عامل الزمن، فقد أساء إلى معنويات المدافعين، وخلال ذلك السباق، حدث هجوم آخر أيضاً على المدينة في الثاني من تموز. ورد صلاح الدين بهجوم معاكس بكل رجل استطاع جمعه، كما حاول ابن أخيه تقي الدين محاول ضارية لخرق الصفوف المسيحية، ولكنه أخفق، وبعد عدة أيام قام الجيش الانكليزي وهو متعطش لصنع المجد وجائع لنيل الغنائم بمحاولة للاستيلاء

على الموقع، بينما احتل الفرنسيون مكاناً آخر. وأخفقوا أيضاً، وقد اقتربوا كثيراً إلى النجاح حينما قرر المدافعون كفايتهم من القتال، وتطوع رجل للسباحة خارج الميناء مع طول الساحل حتى أصبح بمعزل عن خطوط المسيحيين، ومن هناك لينقل رسالة إلى صلاح الدين، ويخبره أنهم لم يعد بامكانهم الصمود أكثر من ذلك، وفي 12 تموز تقدموا بعرض للاستسلام بناء على الشروط التالية: الابقاء على أرواحهم، وبالمقابل يسلمون المدينة سليمة إلى الصليبيين، ودفع مبلغ من المال من الذهب واطلاق سراح 1,500 أسير بما فيهم عدد من النبلاء، واعادة صليب الصلبوت الذي استولى عليه فوق تلة حطين، وعندما توفى جميع هذه الشروط يطلق سراحهم. ووافق ريتشارد وانتهى الحصار.

وجزع صلاح الدين لذلك، وعندما وصل إليه السباح قرأ رسالته وأخره بالعودة إلى المدينة وإخبار المدافعين أنه لم يوافق على تلك الشروط التي عرضوها، ولكن بينما هو يتكلم صعق بمنظر المشاعل فوق سور المدينة ويرفع رايات وصلبان الإفرنج فوق أبراجها ومتاريسها، فقد سقطت عكا، وأن أية مساعدة أخرى من صلاح الدين ستأتي متأخرة جداً، ولكونه الرجل الذي كان يقدر المسؤولية قرر أن يوافق على الاتفاق الذي صنعه ضباطه رغم أنه لم يرق له، وفي تلك المرة نفذ المسيحيون جانبهم من الاتفاقية أيضاً، وسمح للمسلمين بمغادرة المدينة دون ازعاج، وفي الحقيقة شاهدهم المنتصرون يخرجون بشيء من العطف بينما خرجوا. من المكان إلى الأسر، لأن شجاعتهم كانت باسلة جداً إلى درجة أنهم فازوا بالاحترام وبشيء شبيه بالتعاطف من قبل أعدائهم، وقد كانوا هزيلين مغبري الشعر يتضورون جوعاً ومتسخين، وألبستهم رثة، ولكنهم غير مطاطئي الرؤوس، الشيء الذي أعجب الصليبيين.

وكالسابق، حالما فاز الصليبيون في المعركة، بدأت المشاجرات بين بعضهم بعضاً، فقد كان نزاعهم حول الأسبقية وحول من ينبغ أن يعيش هناك،

كما بدأوا يناصرون بعضهم ضد البعض الآخر، فأيد ريتشاد الملك غاي، وساند فيليب كونراد أوف مونتفرات، وكألماني أكبر رغب دوق النمسا أن يتعامل بالتساوي مع الملكين الفرنسي والانكليزي، ورفع الراية أقرب إلى جانب ريتشارد، وعندئذ سحبها بعض الجنود الانكليز مباشرة ورموها بشكل حقير في الخندق عند السور، واعتبرها الألماني إهانة لم يغفرها ولم ينسها، وقام التجار الذين كان لديهم ممتلكات في عكا قبل سقوط المدينة في أيدي المسلمين بكل شيء ممكن لاعادة ملكيتهم في عكا مرة ثانية على حساب القادمين، الجدد الذين قاتلوا معهم كتفاً إلى كتف خلال زمن الحصار، وخفت حدة الأمور عندما حلت مسألة الملكية في القدس، وذلك بتأييد غاي في المنصب طيلة حياته، ووعد كونراد أوف مونتفرات بالملك بعد موت غاي، وتحرروا من القلق أيضاً عندما قرر دوق النمسا وهو لا يزال يقطب غضباً ويداوي كبرياءه المجروح، العودة إلى الوطن الأم، وتبعه في ذلك الملك الفرنسي فيليب الذي لم يكن يحب الحرب، أو ريتشارد أو الأرض المقدسة حيث مرض تقريباً باستمرار منذ وصوله، فهو قد قام بواجبه كمسيحي وكان ذلك كافياً، ولكن ريتشارد الذي كان خائفاً مما يمكن أني قوم به فيليب في الأراضي الانكليزية عندما يصل إلى وطنه فرنسا، حاول أن يقنعه بالبقاء، ولكنه كان عنيداً وفي 31 تموز أبحر خارجاً من عكا في أول مرحلة من رحلته عائداً إلى برنديزي.

وبعد رحيل فيليب أصبح ريتشارد دون منافس. وكانت مهمته الأولى التأكد من وجوب حفاظ صلاح الدين على الوعود التي صنعها باسمه آمر الحامية في عكا. وهو الشيء الذي كان السلطان على استعداد لعمله، فإنه لم يكن بالرجل الذي ينقض كلمته، وأرسل ريتشارد سفراءه إلى معسكره حيث استقبلهم صلاح الدين بلطافة. وأطلق سراح بعض الأسرى الإفرنج ودفع القسط من الذهب الموعود به كذلك، وأبرز صليب الصلبوت للسفراء كعلامة على الجوانب النهائي بعد أن نفذت جميع الشروط الأخرى من التسليم، ولكن

ريتشارد اشتكى أن الأسرى المطلقين السراح لم يتضمنوا النبلاء الذين وعد بإطلاق سراحهم الحاكم المسلم في عكا، وطالب بإطلاق سراحهم في الحال مبدياً رفضه لاطلاق سراح الأسرى لمسلمين بالمقابل حتى يقوم بذلك، ورفض صلاح الدين القيام بذلك فقد كان لا يثق به، وأمر ريتشارد بكل برودة اعصاب بإعدام الأسرى المسلمين بعد اعتباره ذلك التصرف من جانب صلاح الدين خرقاً لشروط التسليم، وسيق خارجاً إلى السهل ألفان وخمسمائة رجل مع زوجاتهم وأطفالهم إلى داخل حظيرة من الأغطية المعلقة فوق حبال، وذبحوا على مشهد كامل من اخوانهم سكان الريف في المخافر الأمامية لصلاح الدين، وشنق بعضهم وقتل بالسيف آخرون، بينما هاجم الفرسان المسلمون في جنون غاضب محاولين الاختراق إلى مسرح أحداث الإعدام، ولكنهم أخفقوا وتمت المذبحة وغادر الجنود الانكليز تاركين وراءهم جثث القتلى فوق الأرض الملطخة بالدماء ليقبرها المسلمون، والتفت الشاعر امبروا بأفكاره إلى الماضي، وحمد الرب على تلك المذبحة.

وبعد أن تخلص بنفسه من أسراه المسلمين في نهاية شهر آب قاد ريتشارد رجاله خارجاً ضد صلاح الدين، وسار نحو الجنوب، بينما كان الأسطول الانكليزي يحمي جناحه الأيمن، وعلى الطرف الأيسر كان العدو يضايقه قدر استطاعته، وكان الجو حاراً بحيث سقط بعض الجنود الانكليز أو فقدوا وعيهم من تأثير الحرارة بحيث قتلوا مباشرة من قبل الفرسان المسلمين، وبين الحين والآخر كان بعضهم يصرخ في صلاة مسموعة «أنجنا أيها الضريح المقدس!» بينما يؤيدهم آخرون لترتفع الصلاة في تفجر صوت يتردد متموجاً مع طول الرتل الزاحف، ومروا بحيفا وجبل الكرمل واجتازوا مجهدين خلال حرارة الصيف إلى قيسارية. تارة معسكرين منذ وقت مبكر من النهار وأحياناً آخر مستريحين طوال اليوم كله، واستغرق وصولهم إلى أرسوف فترة أسبوعين رغم أن المسافة لم تتجاوز ستين ميلاً من نقطة البداية عند عكا. حيث وجدوا جيش صلاح الدين ساداً طريقهم. وانسحب المسلمون عبر السهل الساحلي وكان

لديهم فرسان أكثر من المسيحيين ولكنهم خفيفو التسليح ومعتلون خيولاً عربية صغيرة سريعة، بينما كان الفرسان المسيحيون رغم قلتهم مسلحين بكثرة وراكبين لخيول تشبه أطرافها الثخينة جذوع الأشجار: وهي أسلاف الخيول الانكليزية الضخمة في انكلترا وخيول بيرشيون في فرنسا، ورتب ريتشارد رجاله في تشكيل محكم ملتزمين إلى بعضهم بعضاً، ومزودين بالحراب والرماح مثل قنفذ فولاذي هائل، وكان معزم الفرسان في الوسط والنشابون في المقدمة بينما كان فرسان الاسبتارية في أقصى الجناح الأيسر وفرسان الداوية في الطرف الأيمن قرب البحر، وكان فيليب أوغسطس قد ترك القسم الأكبر من الجيش الفرنسي من الصليبيين خلفه عندما أبحر إلى فرنسا، فبقوا مع ريتشارد تحت أمرة هيغ أوف برغندي كما كان فيهم غاي ملك القدس أيضاً، ولذلك كان هناك خليط بعضه من نورمانديين وبعضه من بريتونيين ومن فلاندرز، وعندما وجد الجميع في المكان تقدم ريتشارد ودوق برغندي على طول الصفوف ليثبت عزيمة رجاله وليشجعهم على الثبات فليس لأحد أن يخرج عن الرتل أو يخرق الوصية حتى أعطاء الأوامر.

وانتظر الجيش المسيحي مجفلاً دون حراك ليهاجم العدو عندما ارتفعت الشمس عالياً في السماء الذهبية وتحول ندى الصباح إلى بخار من حرارتها، وكان رجال الجيش صامتين لادراكهم كنه المعركة التي هم جميعاً على وشك الانخراط فيها. وكانت الضوضاء الوحيدة المسموعة هي نباح الكلاب من مسافة بعيدة، وصهيل متقطع لحصان متململ، وبعد ذلك في الساعة التاسعة وبشكل مفاجئ تماماً تمزق سكون الصباح بهتاف وصراخ مشاة المسلمين، عندما اندفعوا إلى الأمام ليصبوا وابلاً من السهام وليطلقوا رماحهم على المسيحيين المنتظرين، وكان القتال ضارياً، ودخل الرجال المشاة الذين تحملوا أوجاعها في فوضى لفترة من الوقت. غير أن الفرسان خلفهم لم يبدأوا أية حركة بعد، في حين كانت ترتد سهام ورماح العدو عن دروعهم بصوت يشبه مطارق فولاذية تضرب على السندان كما وصفها لسان مؤرخ أحداث كان

حاضراً آنذاك، وتوزعت الهجمات على شكل موجات، ولكن بعد فترة انتشر رجال المشاة المصريون والبدو فجأة ليفسحوا المجال للفرسان الأتراك ليحموا على عدوهم، وكانت سيوفهم وفؤوسهم تومض في أشعة الشمس عندما كان يعدون ويندفعون ضد حشد المسيحيين، وتمت ممارسة ضغط شديد على جماعة فرسان الاسبتارية الذين تحموا العبء الرئيسي من الهجوم، في حين لم ينحرف الصف المسيحي في الطرف الأيسر، وبعد كل هجمة من جانب الأتراك كان النشابون الانكليز يعيدون تشكيلهم، ويكبدون فرسان الأعداء ضريبة باهظة لقاءها أما الأسهم المنطلقة من أقواسهم فكانت تخترق دروع المسلمين الخفيفة كما لو كانت قشرة بيض، وكانت سرعة تقدمهم هائلة، وعندما أصبح النهار أكثر حراً بدأ التعب والارهاق يظهر على الفرسان الأتراك، ومع ذلك لم يعط ريتشارد أوامره بالهجوم، وشيئاً فشيئاً بدأ قواده الثانويون يرجونه أن يقوم بذلك، كما ناشده مقدم الداوية مرة بعد مرة أن يصدر أمره، ولكن ريتشارد أخبرهم أن ينتظروا. غير أن هناك حداً للصبر الانساني وكبحه، وتولى اثنان من فرسان الداوية اللذين وصلا إلى ذلك الحد، الأمر بأيديهما دون انتظار أمر من ريتشارد، وهاجما العدو في لحظة، وعلى الفور لحق جميع الفرسان خلفهما، متصورين أن الأمر بالهجوم قد أعطي لهم، ثم انطلق بقية الفرسان الآخرين إلى ساحة القتال للتقدم إلى الأمام والهجوم مخلفين وراءهم سحابة غبار كبيرة، ولما أرى ريتشارد عدم قدرته على ايقاف رجاله لكز حصانه متقدماً في عدو للانضمام إليهم متولياً قيادة مركز الهجوم.

إن الحملة الشديدة وزخم ألف أو ما يزيد من الفرسان المدرعين بالفولاذ، ومع كل منهم رمح في حجم سارية الهاتف، وقد اعتلى كل منهم أيضاً حصاناً مرتدياً فولاذاً يزن طناً، هي أشياء صعبة الاستعادة في الخيال، وبرهنت في الوقت نفسه أنها شيء كثير بالنسبة للمسلمين المرهقين المرتعدين، ففر البعض أمام الاندفاع الفولاذي الذي يمكن أن يحطم عظامهم في حين أن أولئك الذين استبسلوا وصمدوا، سحقوا وتحطموا، وفي لحظات كان الجيش الاسلامي

مولياً الأدبار، وأصبحت ساحة القتال لصالح ريتشارد، وهكذا مضى اليوم.

كان ذلك نصراً مناسباً بالنسبة للمسيحيين ولكنه ليس حاسماً. لأن صلاح الدين استجمع رجاله من جديد وتبين أن خسائره كانت أقل مما كان يخشى، كما كانت خسائر المسيحيين قليلة ايضاً ولم يتغير ميزان القوة العسكرية بين الجانبين كثيراً في المعركة، ولكن وقعها المعنوي كان هائلاً لأنها المرة الأولى التي التقى فيها الجيش المسيحي مع صلاح الدين منذ معركة قرني حطين، واندثرت أسطورة عدم قهره هذه المرة وإلى الأبد، في حين أن سمعة ريتشارد لم تقف عالية فحسب بل اتخذت لها مكاناً في الكلام الشعبي الاسلامي أيضاً، مثل الملك الجبار العظيم، وتعززت معنويات المسيحيين بشكل لا يقاس في حين دفعت قوات صلاح الدين الثمن باهظاً، وقلت ثقتها بسلطانها.

وبعد القتال سار ريتشارد نحو الجنوب من أرسوف إلى يافا حيث أعاد تحصيناتها، وتأكد من قوة قاعدته على الساحل حيث سيكون أسطوله في أمان، وقاد صلاح الدين الذي توقع أن يقوم ريتشارد بهجمة على القدس، قاد رجاله إلى الرملة على الطريق إلى العاصمة، وانتظر هناك لقتاله، بنما أمر مهندسيه بتقوية دفاعات المدينة قبل وصول ريتشارد، وعندما سمع أن المسيحيين استولوا على يافا دفع بعض قواته إلى عسقلان مصمماً على عدم سقوطها أيضاً في أيدي الإفرنج مرة أخرى، ودك المدينة حجراً حجراً رغم الالتماسات الموجعة من سكانها، ونقل عن صلاح الدين أنه قال: «أشهد الله أني لأفضل أن أفقد ابنائي جميعاً عن إلقاء حجر من أسوارها، ولكنه أمر ضروري» ولذا استعجل العمل على تدمير احدى أكثر مدن البلاد ازدهاراً، لأنه خشي أن يزحف ريتشارد نحو الجنوب ويهاجمه قبل أن يتمكن من إتمام دمارها.

ولكن كان لدى ريتشارد مشاكله الخاصة، فرجاله متعبون، وسيتعرض للاتهام في سلطته ونفوذه في القيادة لاقناعهم باتباعه لو أنه حاول حملهم على

النزول إلى القتال مرة ثانية مباشرة بعد إجهادهم وبذلهم الأخيرين، فقد كانوا يجدون متعة في أسباب الراحة والمرح في يافا حيث توفر الطعام والشراب، ونقلت المومسات من عكا، وأوضحوا تماماً عن تطلعهم ليوم عطلة طويل في المدينة حيث لا مكافأة مناسبة لاتعابهم، وفوق ذلك كان هنالك اضطرابات سياسية في كل من قبرص وصور، حيث كانت ميول كونراد أوف مونتفرات ضد ريتشارد تزداد قوة، المهم أن الوقت صار مناسباً للصلح، لذلك أرسل ريتشارد مبعوثيه إلى صلاح الدين، فوافق على مناقشة احتمال إقامة هدنة، وانتدب أخاه العادل ليتحدث باسمه.

واتصفت المفاوضات التي تلت بالتأجيل والمراوغة ودامت لمدة سنة، وقد أديرت بلطافة جمة في جو مناسب لأوبرا هزلية في بعض الأحيان، أكثر مما يدعوه الألمان السياسة الحقيقية، فقد أصبح ريتشارد والعادل صديقين يحبان بعضهما البعض خلال سير مفاوضاتهما الطويلة، حتى إنه في أحد الأوقات ألمح ريتشارد إلى أخي صلاح الدين بوجوب زواجه من أخته الملكة الأرملة جوانا صاحبة صقلية رغم أنه لم يكلف نفسه عناء إعلام السيدة نفسها عن هذا المشروع قبل مناقشة الفكرة، وعندما علمت به إنتابها الفزع، وعلى الفور أخبرت أخاها أنه ليس ثمة شيء يغريها في الزواج من مسلم، ويبدو أن صلاح الدين تناول العرض كنكتة، وأجاب أخوه عندما سئل عما إذا سيفكر في أن يصبح مسيحياً لكي يتزوج جوانا، فأجاب بلطافته المعتادة أنه سيجد صعوبة في أن يصبح مسيحياً جيداً، ومن أجل ألا يظهر شعوراً سيئاً استضاف ريتشارد إلى حفل عشاء في اللد في عظمة وسخار كبيرين، وفي وقت متأخر من ذلك المساء، اشترك الملك المسيحي والأمير المسلم في توكيد التعاطف والاحترام المتبادل الذي بدا غريباً إلى حد بعيد بالنسبة لأي شبح من الصليبيين الأوائل، الذي ربما كان واحد منهم يحوم متململاً ولا يرى في قاعة المأدبة العادل ولكن من وجهة نظر ريتشارد، تشوهت هذه الاتصالات الودية لأن العادل كان يجري مفاوضات سلام منفصلة مع كونراد أوف مونتفرات الذي لم يزعج نفسه

بإخبار الملك الانكليزي بما كان يفعل، بينما كان أخو صلاح الدين مثل دبلوماسي حاذق جداً، التزم السرية في اجتماعاته مع كونراد أيضاً.

وبينما طالت هذه المحادثات المتنوعة أقبلت أمطار الشتاء، وسرح صلاح الدين نصف جيشه، ورفض ريتشارد أن يتقهقر بسبب أحوال الطقس. وفوق ذلك سار إلى القدس في تشرين الثاني ولكنه لم يعد عليه بالفائدة الكثيرة لأنه اعترف بخطاه بعد أن عانى رجاله من البؤس وعدم الراحة في الطقس المثلج والرطب، وسار بامتعاض برجاله عائداً إلى الساحل مرة أخرى، ووجه رجاله لاعادة بناء عسقلان، وأثناء ذلك الوقت، أصبحت المنافسات السياسية بين أحزاب الحكم المتعددة سيئة للغاية في عكا، إلى درجة اتجه معها البيزيون والجنويون فعلاً إلى القتال مع بعضهم البعض، ووقف البيزيون إلى جانب الملك غاي ضد كونراد أوف مونتفرات الذي ناصره الجنويون، وأصبح الوضع ملحاً باطراد، وتعين تهدئة النزاع بين الرجلين خاصة منذ تلقى ريتشارد أنباء من الوطن في ذلك الوقت مفادها أن أخاه جون لاكلاند كان منهمكاً في مفاوضات خيانية مع ملك فرنسا، وعرف أنه لم يعد في إمكانه البقاء أكثر من ذلك في الممالك الصليبية، إذا رغب في الحفاظ على تاجه في انكلترا، وكشف النقاب عن أن التأييد لصالح كونراد اتسع بعدما ماتت زوجة غاي سيبيلا بينما تزوج كونراد أختها الصغرى ايزابيلا وأصبح لديه إدعاء بالمطالبة بالعرش أكثر من غاي، وكان ريتشارد قد سانده في السابق، ولكنه الآن قرر على توكيد مزاعم كونراد بدلاً عن ذلك، ومن أجل أن يعوض عن ذلك لغاي، عرض عليه ملكية قبرص رغم أنه تعين عليه شراءها من فرسان الداوية الذين باعهم إياها سابقاً، وسر الجميع لهذا الحل للمشكلة التي جزأتهم لفترة طويلة من لزمن، وتوبعت قدماً الاستعدادات لتتويج كونراد في جو مريح ممتع، ولكن قدر هذه السعادة العامة لم يدم طويلاً.

ووفق ما ذكره مؤرخ الأحداث ايرنول تأخرت زوجة كونراد ايزابيلا عن العشاء بعد أن بقيت في الحمام فترة طويلة، وقرر كونراد أن يتناول عشاءه مع

صديقه اسقف بيو فايس، لكن عندما وصل كونراد، كان الأسقف قد انتهى من طعامه، ورغم أنه عرض عليه أن يتناول وجبة أعدت لزائره غير المتوقع، ما كان كونراد إلّا أن رفض، ولم يرد أن يكون مزعجاً، فكان سعيداً تماماً في أن يعود إلى بيته مرة أخرى، وفي طريق عودته، وعندما التفت عند زاوية بادره بالكلام رجلان. وفي حين لفت أحدهما انتباهه، كان الآخر قد طعنه، وهكذا حمل إلى قصره ميتاً، وكان المجرمان من الحشيشية الذين اعتدى عليهم كونراد بطريقة ما في الماضي، وقد أمر بقتله شيخ الجبل، سنان، وقد قتل فيما بعد أحد المذنبين في البقعة نفسها واعتقل الآخر الذي اعترف بأنه من جماعة الحشيشية ويذنبه في الجريمة، ولكن بعض الأشخاص رفضوا تصديقه واضعين اللوم بدلاً منه على ريتشارد نفسه، وقد نوقش الموضوع بشكل مسهب من قبل المؤرخين الطين استمر بعضهم في اتهام ريتشارد بالجريمة، ولكن هذا الشيء بعيد عن أن ينطبق عليه تماماً، كما أنه ليس هناك سبب للشك في براءته.

وبوصفها ابنة الملك أمالرك الأول، أرملة كونراد، كانت إيزابيلا الوريثة للملكة في ذلك الوقت، ورغم حقيقة أنها تزوجت مرتين، فقد كانت في الحادية والعشرين ولها كل الأوصاف، وجميلة بشكل فاتن. ولأسباب سياسية واضحة تعين عليها بشكل هام وخطير أن تختار زوجاً آخر بالسرعة الممكنة، وضمن أسبوع وفاة كونراد. فتزوجت هنري أوف ترويس، كونت أوف شمبانيا، وهو رجل صاحب عدة مواهب وسحر عظيم، كما كان ابن أخ لكل من ملك انكلترا وملك فرنسا، ورغم أنه كان زواجاً ذا طبيعة سياسية فقد برهن أنه كان زواجاً سعيداً، فقد وقع هنري بحماسة شديدة في حب زوجته، ووجدت ايزابيلا فيه تغييراً مرحباً به بعد زواجها الأخير، الذي كان في متوسط العمر، ورهيباً إلى حد ما.

وعلى الرغم من أن هنري لم يتخذ لنفسه لقب ملك، فإن زواجه من إيزابيلا حل المشكلة التي أوقعت المملكة في الارتباك والحيرة لفترة طويلة من الزمن، وشعر ريتشارد بحريته في العودة إلى شيء واحد وجد فيه المتعة حقاً:

ألا وهو الحرب، ولذا في نهاية شهر أيار قام بالاستيلاء على مدينة الداورن جنوب غزة، في هجوم خفيف فاجأ به الحامية المسلمة، وبعد أسبوعين وفي السابع من حزيران انطلق خارجاً من عسقلان على رأس جيشه ليسير إلى القدس مرة ثانية، وبعد خمسة أيام وصل إلى بيت نوبة، النقطة التي تحول عنها وعاد في الشتاء الماضي وتوقف هناك مرة ثانية، وكان تقدمه أكثر من ذلك فيه الخطر التام، حيث كان لديه علم بحاجته إلى الماء، كما أن المدينة تقيم فيها حامية عسكرية قوية موجود فيها صلاح الدين شخصياً، وحتى لو تقدم ريتشارد إلى المكان واحتله، فإن من المشكوك فيه ما إذا سيقدر الإفرنج في الممالك الصليبية على التشبث بها بعد عودته إلى انكلترا، لذا مكث الجيش حيث كان، وأقنع نفسه بإرسال دوريات لإزعاج جنود مسلمين ربما يلتقون به في البلاد بين بيت نوبة القدس، وفي إحدى تلك الحملات بينما كان حصان ريتشارد يعتلي تلة قرب عمواس بعيداً إلى الجنوب الشرقي عبر أرض رخامية مرقطة بأشجار الزتون والرمان، كانت القدس واقعة على مسافة منه بقبابها وأبراجها المتألقة تحت أشعة الشمس.

وبقي الجيش في بيت نوبة لفترة ثلاثة أسابيع دون الإتيان بأي عمل، وتاق العديد من الرجال للتقدم إلى القدس مهما تكن الأخطار، ولكن ريتشارد لم يكن جندياً سيئاً كيلا يدرك أن القيام بهجوم على المدينة سيعود بالنفع القليل، أكثر من أن يرضي الحماس الخيالي في قلب كل رجل دون أن يخدم هدفاً عسكرياً مفيداً ورفض أن يصدر أوامره للتقدم، ولكن هذا السكون المزعج انتهى في 20 حزيران عندما أتت الأنباء إلى المعسكر عن دنو قافلة ضخمة محملة بالمؤن إلى صلاح الدين قادمة من مصر كانت تشق طريقها ببطء نحو الشمال خلال صحراء صعبة جنوب الخليل حيث تنحدر التلال الصخرية إلى البحر الميت في قفار جرداء من الصخور والتراب ووفق ما أورده بهاء الدين الذي سمع فيما بعد روايات الناجين من القافلة فإنه «عندما نقل ذلك بعض العرب إلى ملك انكلترا لم يصدقه، لكنه اعتلى فرسه وانطلق مع العرب

ومجموعة مرافقة صغيرة، وعندما بلغ القافلة تنكر في زي عربي وطاف حولها. وعندما رأى الهدوء قد ساد في المعسكر، وأن الجميع غطوا في نوم عميق عاد وأمر رجاله أن يمتطوا جيادهم، وروى مصدر آخر أن بعض الخفراء المسلمين الحارسين للمعسكر اعترضوا ريتشارد، ولكن أحد زملائه البدو، أجاب بعد أن أومأ إليه بالسكوت بالعربية دون أن يتفحص حصانه، وسرعان ما ابتلع الظلام الزمرة الصغيرة. وعندما عاد ريتشاد مع جيشه لم تستطع القافلة مع حاميتها الصغيرة من الجنود المصريين أن تباري الصليبيين الذين تفوقوا عليهم في العدد بعد أن استولوا على جميع التجار والجنود مع كل السلع والمؤن، وآلات حربية موجهة إلى صلاح الدين، بالإضافة إلى أكثر من ألف حصان، ومثلها من الجمال التي أصبحت جميعها في أيديهم، وقد أسعدت الكميات الضخمة من الغنائم الرجال، وخففت من خيبة أملهم لدى عودتهم إلى بيت نوبة، وعندما أقلع ريتشارد أخيراً عن فكرة الهجوم على القدس أمر جيشه بالتراجع إلى يافا.

وبعد حملته المخفقة ضد القدس، عاد ريتشارد إلى استئناف المفاوضات للسلام مرة أخرى، ولكن مستقبل مدينة عسقلان التي دمرها صلاح الدين وأعاد بناءها ريتشارد، برهن أنه عقبة لا يمكن تذليلها في الاتفاق، وبدا صلاح الدين مستعداً للموافقة على عدة أشياء ولكن ليس ضم عسقلان إلى الممالك الصليبية، وتأجلت المناقشات واستعد ريتشارد للإبحار إلى الوطن الأم حالما يتوصل إلى اتفاق مع السلطان وتنقل إلى عكا بكل سهولة، وفي 27 تموز رأى صلاح الدين الذي كان يستشعر الألم لفقد الدارون ولهزائمه الأخيرة في عكا وأرسوف، رأى فرصته للأخذ بالثأر، لذا وبعد أن تحرك بسرعة إلى الساحل من القدس شن هجوماً مفاجئاً على يافا، وأخذت الحامية على حين غرة تماماً رغم قتال الجنود المسيحيين بشجاعتهم المعهودة، ولكن النزاعات الشديدة كانت ضدهم فاستسلموا بعد ثلاثة أيام، وعنما سمع ريتشارد بذلك قام بالرد على ذلك بحملة من السرعة والحذر والجرأة الطموحة التي كانت لديه نموذجية كأفضل ما يكون، وبمساعدة الجنوبيين والبيازة أبحر

على الفور من عكا، في حين سار جيشه نحو الجنوب بالسرعة الممكنة حيث وصل بعد أربعة أيام، ولدى رؤية سفنه حملت الحامية المسيحية أسلحتها مرة ثانية وشنت هجوماً عنيفاً على رجال صلاح الدين الذين قاوموا بشعور من الغضب وكانوا متفوقين في العدد على الإفرنج، وبدأت الأمور تبدو كما لو أنهم ينوون السيادة مرة أخرى ، ولكن في تلك المرحلة، قفزقس من سور المدينة، ونزل إلى البحر وأبحر إلى سفينة ريتشارد التي كانت سهلة التمييز لأنها ملونة بلون أحمر براق، كما كان في مقدمتها قيدوم منحوت على شكل رأس تمساح، ولدى وصوله، اعتلى السابح ظهرها وأخبر الملك أن القتال في المدينة، يجري على نحو سيء بالنسبة للمسيحيين، وكانت تلك المرة الأولى التي سمع فيها ريتشارد عن قتال في المدينة، وقرر في الحال أن يتقدم لمساعدتهم رغم حقيقة أن لديه عصبة من الفرسان ومئات من رجال المشاة، وليضفي صفة الشرف على البحارة أمرهم تجديف سفنهم نحو الشاطئ وسحبها وحالما شعر أن عارضة سفينته قد احتكت فوق الرمال قفز إلى الماء وخاض فيه في مقدمة رجاله إلى البر، وفوجئ المسلمون بذلك، وهاجم ريتشارد بعنف واندفاع مقاتلاً بشخصه في مقدمة قوة الهجوم حتى هزم رجال صلاح الدين هزيمة منكرة فانتشروا خارج المدينة لاذين بالفرار للنجاة بأرواحهم، ولم يتوقف القتال حتى ابتعدوا داخل البلاد.

كانت إعادة الاستيلاء على يافا هي آخر مآثر ريتشارد في الممالك الصليبية تقريباً، ولكن صلاح الدين فرض معركة أخرى عليه وأثبتت أنها معركة بارزة وجديرة بالذكر، فبعد أن لاذ رجاله بالفرار في فوضى خارج يافا، سرعان ما علم صلاح الدين صغر قوة ريتشارد التي كانت تحت تصرفه أثناء المعركة، ونظراً إلى أن الجيش الصليبي الرئيسي ما زال لم يعبر قيسارية فقد قرر صلاح الدين شن هجوم على الملك الانكليزي، قبل أن نتمكن تلك الإمدادات من الوصول إليه بالفعل، وفي ليلة الرابع من آب قاد الجيش الاسلامي بهدوء قدر الإمكان إلى مسافة ضاربة عند معسكر المسيحيين خارج أسوار يافا، وهناك

رتبهم للقيام بهجوم في فجر اليوم التالي، ولكن لحسن الحظ أن رجلاً جنوياً كان يجوب خارج المعسكر قبل شروق الشمس تماماً، فسمع أصوات صهيل خيول ورجال يتحركون بالقرب من المكان، وعندما بدأت السماء تضيء من جهة الشرق شاهد وميض الفولاذ، وسمع صليل المعدن فوق المعدن على مدى طول الميدان، وركض الرجل عائداً إلى معسكره ليرفع الانذار، وهكذا عندما ارتفعت الشمس وتحرك صلاح الدين للهجوم وجد الانكليز والفرنسيين والايطاليين في انتظاره.

ولم يكن لدى ريتشارد غير خمسة وأربعين فارساً، وخمسة عشر حصاناً وما يقارب ألفي رجل مشاة بما فيهم بعض الايطاليين وفرقة من النشابين الانكليز بأقواس عقارة. وكان ذلك كل شيء، لكنه رتب المشاة في نصف دائرة محكمة الشكل بحيث وضع بين كل زوج من الرجال نشاباً واحداً، وطلب إليهم أن يغرسوا ترستهم في الأرض أمامهم كسياج فولاذي مرتجل، كما جعلت أوتاد الخيم في الأرض أمام ذلك السياج في ارتباط من أجل خيول صلاح الدين، وأخيراً دق كل رجل قصبة رمحه في الأرض في زاوية يكون فيها رأسه الحاد موجهاً نحو العدو. وبذلك أحيطت جبهة جميع المسيحيين بالفولاذ.

وبدأت المعركة بهجوم فرسان صلاح الدين في موجات كل منها ألف رجل، ولكن الصف المسيحي تماسك بثبات، ومرة بعد مرة هاجموا ومرة بعد مرة ردوا إلى الوراء، ودام القتال طوال الصباح، وعند الظهيرة بدا المسلمون مرهقين، وعندما شنوا هجوماً آخر أيضاً، أمر ريتشارد النشابين الانكليز الذين وضعهم احتياطاً بالتغلغل خلال رجال المشاة المرهقين، وبإطلاق وابل من السهام على العدو، وتحت هذا الوابل من القذائف، توقف المسلمون عن تقدمهم وشبت الأحصنة وعارضت بعناد في فوضى بحوافرها وأطرافها مسقطة معتليها بين الجثث، بينما نمزق الهواء بصراخ الجرحى ، وبعد إصدار أوامره بالتراجع، قام ريتشاد بقيادة رجاله من على حصانه الوحيد المتبقي في هجوم

مفاجئ ضد العدو الواقع في فوضى والذي راقب في إعجاب ودهشة الشجاعة التامة لخصمه، وفي الحقيقة أثارته روح ريتشارد الباسلة عندما قتلت فرس ملك الأنكليز تحته فأمر صلاح الدين أحد ساسة الخيل بقيادة زوج من الخيل خلال المعركة تحت راية الهدنة لإعطائها لريتشارد مع تحياته له، فكان ذلك إيماءة خالدة في طريقها بقدر بسالة ريتشارد. وفيما بعد، وتحت ستار الفوضى في المعركة تدبر بعض رجال صلاح الدين أمرهم للتسلل خلسة حول الجناح المسيحي والوصول إلى المدينة حيث أدارت بعض السفن الجنوية مؤخرتها صوب الشاطئ ولاذت بالفرار بحثاً عن ملاذ لها، ولكن قبل استغلالهم فرصتهم، أسرع ريتشاد مع عصبة من الفرسان لنجدة المدافعين عن المدينة، ومع حلول المساء اكتفى صلاح الدين بما قام به ولم يعد في إمكانه العمل أكثر من ذلك، فأصدر أوامره بالتقهقر إلى القدس بعد أن خلف وراءه قتلاه في ساحة القتال مقتنعاً أن الملك ريك الرهيب صاحب الشعر الذهبي رجلاً لا يقهر

وبعد المعركة بفترة قصيرة مرض ريتشارد في حمى شديدة، فلزم خيمته مقللاً من خططه في العودة إلى الوطن حيث جعل تآمر أخيه مع الفرنسيين وجوده هناك ضرورة عاجلة. وعندما تقدم صلاح الدين بنفس الشروط التي اقترحها قبل المعركة خارج يافا لم يتمكن ريتشارد من تقديم فترة أخرى من المساومة فوقع معاهدة سلام لمدة خمس سنوات يكون فيها له المدن الساحلية حتى يافا جنوباً ولكن ليس عسقلان التي تعين تدميرها مرة أخرى . وأن يسمح للحجاج بالقدوم إلى الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة، وبذلك انتهت الحرب، وبعد شفائه من المرض أبحر ريتشارد من ميناء عكا في 9 تشرين الأول 1192، وتحطمت سفينته قرب أكويليا في أول البحر الأدرياتيكي في أراضي البندقية، وفي محاولة لتجنب انتباه ليوبولد المعادي بعنف تنقل متنكراً خلال النمسا، ولكنه عرف عندما عبر فيينا وأسر هناك، وبقي سجيناً أول الأمر لدى ليوبولد الخامس في النمسا، وفيما بعد لدى

الامبراطور الألماني هنري السادس حتى ربيع 1194 عندما عاد إلى إنكلترا بعد أن دفع فدية كبيرة، ولم يبق طويلاً هناك حيث سافر مباشرة إلى فرنسا للدفاع عن ممتلكاته الإقطاعية، ولفترة خمس سنوات وذلك بمهارته وشجاعته المعتادتين حى آذار سنة 1199 عندما جرح بسهم في مناوشة صغيرة مع تابع متمرد، والتهب الجرح وتغنغر ثم مات ريتشارد في 11 نيسان، ومات صلاح الدين قبله في دمشق في 3 آذار 1193 عن عمر يناهز الرابعة والأربعين، وبعد مغادرة ريتشارد الأرض المقدسة، وبرحيله فقد العالم الإسلامي أعظم نصير له، كما فقد العالم المسيحي أنبل خصم له.

الفصل السابع عشر

مكان رائع

كل الذين لم يروا القسطنطينية من قبل، يحدقون بها، فاغري الأفواه لدهشتهم، ذلك أنهم لم يتصوروا من قبل وجود مكان رائع كهذا في الدنيا كلها - ولهارديمون - فتح القسطنطينة.

كانت الحملة الصليبية الرابعة من بنات أفكار البابا أنيوسنت الثالث الذي تقلد منصب البابوية سنة 1198 وهو في السابعة والثلاثين، وكان ابناً لستراسيموندو دي كونتي، كونت منطقة سجني، أما أمه فمن أفراد أسرة رومانية عريقة دعيت سكوتي، لذا أتي معه بميزات المحتد النبيل، ولم يكن ذلك كل شيء فقد كان لديه فكر لامع وموهبة في الفكر السياسي والمبدأ السامي في واجبه، وكان طموحه الأكبر جعل العالم أجمع يعترف بسيادة كنيسة روما، ليس في القضايا الدينية فحسب بل في الشؤون الدنيوية، كما كتب في ذلك إلى بطريرك القسطنطينية: «إن الرب ترك لبطرس السيطرة ليس فقط على الكنيسة بل على أنحاء العالم كله»، وكيلا يقع الملوك أنفسهم تحت ضلال تفوق منصبه على مناصبهم، كتب إلى ملك إنكلترا جون: إن الرب قد وضع «شخصاً واحداً فوق الجميع وعينه نائباً عنه في الأرض، قاصداً نفسه، بينما ذكّر فيليب أوغسطس صاحب فرنسا أنه «بالنسبة للأمراء أعطيت القوة في الأرض، لكنه بالنسبة للقساوسة فإنها تعزى إلى السماء، أما هو نفسه فنائب عن الذي له الأرض وما يملؤها، ومنه العالم كله وجميع ما يقطنه»، وبالنسبة

للبابا شخصياً، كان رجلاً صغيراً وسيم المنظر رغم وضع عينيه القريبة الواحدة من الأخرى وشكله الفولاذي الحاد قليلاً. كما كانت حركاته سريعة تعطي انطباعاً أنه في عجلة من أمره دوماً، بالإضافة إلى أنه متحدث بليغ ومقنع، وقد درب ليكون فيلسوفاً وقانونياً.

ولم يكن بابا قبل أسابيع من تكلمه عن الحاجة إلى حملة صليبية جديدة حيث كانت بعض دوافع رغبته الحقيقية في مساعدة المسيحيين في الشرق، ولكن الجزء الأخر منها كان أقل غيرية وإيثاراً. فقد رغب في إعادة تأسيس المملكة اللاتينية والكنيسة في القدس كي تفرض سلطته روما احترامها مرة ثانية هناك، وفوق ذلك، فما من شك أنه أراد أن يجعل الحملة الصليبية الجديدة تحت نفوذه دون غيره، وألا يقوم ملوك أوروبا في نظره، بأي عمل فيها على الإطلاق، إن الحملة الصليبية الوحيدة الناجحة كانت الأولى حيث لم يشارك فيها ملوك، أما الحملة الثانية والثالثة، قد قادها ملوك، ولم يعد منها إلا القليل إلى الوطن. حتى أن هناك مثالاً أخيراً عن عبث الحملات الصليبية التي قادها ملوك. فبعد رحيل الملك ريتشارد عن الممالك الصليبية حشد هنري السادس إمبراطور ألمانيا حملة صليبية خاصة وصلت إلى الأرض المقدسة في أوائل الصيف سنة 1197 لتنهار مباشرة في شهر أيلول عندما مات هنري فجأة واستولى الألمان على صور وصيدا، قبل أن يتفسخ الجيش لدى تلقيهم نبأ موته، ولم يغير ذلك كثيراً من الرأي الرديء والحقير للبابا الجديد عن الحملات الصليبية التي أشرف عليها الملوك.

وهكذا فإن حقيقة أن الزعماء المتوجين في السلطة كانوا في حالة شجار مرة أخرى مما وافق إينوسنت بشكل شديد، فقد كانت تعني أنهم منهمكون كثيراً في الاهتمام بدعوته لحملة صليبية جديدة، ففي إنكلترا ورث الملك جون الذي خلف أخاه ريتشارد في العرش، ورث نزاعاته مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا، بينما تورط فيليب صاحب سوابيا في حرب أهلية ضد أوتو أوف برنسويل من أسرة ولف من أجل التاج الإمبراطوري، وبذلك كانت الطريق

واضحة بالنسبة للبابا لتجنيد نوع من الرجال رغب فيهم من أجل حملته في الشرق، وأرسل مبشريه إلى فرنسا وألمانيا لإقناع البارونات لأخذ الصليب، وقد نجحوا ولكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً لإعادة تطويع أعداد كافية من الرجال لجعلها حملة ممكنة في الواقع، ورغم حشده جيشاً مناسباً، كانت ثمة مشكلات ينبغي حلها، ففي غياب الملوك ازدادت الحاجة إلى الأموال لدفعها للسفن لتنقل الجيش الجديد إلى الممالك الصليبية، وفيما يتعلق بتدهور القوة البيزنطية فإن الطريق القديمة عبر الأناضول لم تعد مفتوحة، ونظراً إلى أن النبلاء الذين أخذوا الصليب لم يتملكوا أسطولاً من السفن، فقد اضطر الصليبيون للتحول بنظرهم إلى البندقية وعلى الرغم من أن البنادقة كانوا مستعدين لتوفير السفن الضرورية، فإنهم أرادوا كميات كبيرة من المال لقاء ذلك، ولم يعلم أحد من أي مكان يمكن توفيرها، ونظراً إلى أنه ليس هناك من وسيلة، فقد عقدت صفقة معهم خلال صيف سنة 1202، أي بعد تسع سنوات من وفاة صلاح الدين بدأ الجيش الصليبي الجديد بالتجمع في البندقية فوق جزيرة سان نيكولو في الأرخبيل بين مورانو والليدو.

وكان هناك قدر كبير من الجدل حول هدف الحملة الصليبية. فبعض الناس حثوا على القيام بحملة أخرى أيضاً لمساندة الإفرنج في عكا، بينما أراد آخرون أن يهاجم الجيش مصر، فقد بدأ أبناء صلاح الدين بعد موته وهم سبعة عشر شخصاً، بدأوا القتال من أجل ميراثه فدب الفساد في إمبراطورية السلطان القديم، ولم تبقيها طويلاً وحدة الإسلام التي فعلت الكثير لأن تتقدم بسرعة، واعتبرت مصر أضعف نقطة في دفاعات المسلمين، وتم الاتفاق في النهاية على وجوب توجيه المحاولة إلى أرض النيل، ولكن لم يكن البنادقة متحمسين مطلقاً للهجوم على مصر حيث كان سفراؤهم يحاولون أثناء ذلك إجراء مفاوضات لعقد اتفاق تجاري على السلطان وذلك بينما كان الدوج، إنريكو دوندولو Enrico Dandolo يساوم الصليبيين حول كلفة الرحلة رغم أنه لم يخبر بالطبع أن وكلاءه في القاهرة، وكان هذا الدوج رجلاً كبيراً مخادعاً، ومع ذلك

عندما أخبره الصليبيون أنهم آسفون لوضعهم، وليس في إمكانهم دفع المبلغ الكامل من المال الذي وعدوا به، رأى أنها فرصته وتظاهر بأنه غير مسرور على الإطلاق، قائلاً لهم إنه لن يزودهم بأية سفن على الإطلاق ما لم يدفع له المبلغ بالكامل، وهدد بقطع المؤن عن الجيش في سان نيكولو، وكان الصليبيون عاجزين، فأخبرهم أن شروطه لتزويدهم بالسفن أن يساعدوه قبل الإبحار إلى مصر في الاستيلاء على ميناء زارا على الطريق من البحر الأدرياتيكي، وكان البنادقة في حرب مع ملك هنغاريا حيث تقع في أراضيه زارا منذ فترة من الزمن، وبعد أن فقدوا المدينة أرادوا أن يستعيدوها مرة أخرى،و لكن هنغاريا كانت بلداً كاثوليكياً عندما سمع إينوسنت بالمشروع حرمه، وكان هذا رهيباً بالنسبة للصليبيين، ولكنهم لم يكونوا في وضع للنقاش مع الدوج، ولذا وافقوا على القيام بعمل ما سئلوا متجاهلين طلب البابا.

وأبحر الأسطول في الثامن من شهرتشرين الثاني 1202، وتم شن هجوم على زارا بعد يومين، وكان الهنغاريون أقل عدداً من الصليبيين فسقطت المدينة بعد أربعة أيام من القتال الضاري فقط لتسلب من قبل الصليبيين المتنصرين، وفي الوقت الذي الذي انتهوا من نهب وسلب المكان كان الوقت متأخراً من السنة للمغامرة في الإبحار في رحلة طويلة، ومكث الجيش لقضاء الشتاء في المدينة المحتلة، وعندما سمع أينوست بما حدث صعق بالمفاجأة وروعته عدم الإطاعة الصريحة لرجال جملته الصليبية، فحرمهم كنسياً، ولما أخبر بعد فترة قليلة أنه لم يكن لدى الصليبيين خيار آخر في ذلك الشأن عفا عنهم، واستثنى من ذلك البنادقة.

وخلال الشتاء أرسل فيليب أوف سوابيا مبعوثيه إلى الدوج مع اقتراح. فقد كان فيليب قد تزوج في سنة 1197 ابنة الامبراطور البيزنطي إسحق أنجلوس وهي الأميرة إيرين التي كان لها أخ اسمه الكسيوس، وتبين أن الإمبراطور إسحق كان ضعيفاً وغير فعال بشكل يائس، فبعد أن تسامح البيزنطيون معه لفترة عشرة سنوات، لم يكونوا غير مسرورين عندما خلعه

أخوه، وكان يدعى ألكسيوس، عن العرش واغتصبه منه، ورمي به في السجن وجعله يفقد بصره، وفر ابنه من القسطنطينية مع أخته للبحث عن ملجأ، وسأل فيليب أوف سوابيا الدوج فيما إذا سيكون راضياً، قبل الذهاب إلى مصر، بالقيام بالتفاتة مع الجيش الصليبي نحو طريق القسطنطينة، وأن يضع هناك ابن حميه الأمير البيزنطي ألكسيوس على العرش في مكان مغتصب عرشه، وقال إن اللكسيوس سيكون ممتناً لو أن أنريكو دوندولو سيفعل ذلك، وفي الواقع حالما يصبح إمبراطوراً في مكان المغتصب سيدفع للبنادقة المال المدينون به للصليبيين، وسيزودهم بكل ما يحتاجونه في حملتهم ضد مصر، ويضع فرقة طوارئ بيزنطية تحت تصرفهم من أجل الحملة العظيمة ضد المسلمين. وأكد للدوج أن الإمبراطور المغتصب كان غير محبوب بين سكان القسطنطينية إلى درجة أنهم سينهضون في ثورة ضده كهبة رجل واحد حالما يسمعون عن وصول الوريث الشرعي للعرش ألكسيوس بن اسحق أنجلوس.

وابتهج دوندولو الذي أحب المال، وكره البيزنطيين، للفكرة غير أن بعض الصليبيين كانوا بعيدين عن السعادة بفكرة التدخل في شؤون أمة مسيحية أخرى، ورفض قلة منهم الذهاب أكثر من ذلك مع القسم الرئيسي من جيش الحملة الصليبية جاعلين طريقهم نحو الشرق إلى الممالك الصليبية، وأقدمت الأغلبية منهم بفكرة أن البيزنطيين كانوا خونة وغير جديرين بالثقة. فقد وقفوا سداً منيعاً في طريق الصليبيين في الماضي، كما لقنوا أن يعتبروهم بمثابة مسيحيين مرتدين فقط نظراً لأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة نفوذ البابا. وفي الواقع منذ الحملة الصليبية الأولى كانت الكراهية ضد البيزنطيين تتعاظم في الغرب. وقد غذاها الحسد لأغنيائهم، وطريقة إغاظتهم التي ازدروا بها المسيحيين الغربيين واعتبروهم كبرابرة، وبنوع الاحتقار الغاضب الذي شعر به أبناء الريف نحو قاطني المدينة المتكبرين والمخنثين، ونضجت الكراهية في شكل بغض وإياءة تفاهم وانعدام الثقة المتبادلة، بالإضافة إلى أن فكرة الانقضاض على القسطنطينة قديمة، فقد فكر فريدريك بربروسا في الانقضاض

على المدينة، وخطط أخيراً هنري السادس من ألمانيا للهجوم عليها، ولكن البابا أثناه بالعدول عن ذلك، ولذا لم تستغرق فترة طويلة بالنسب للدوج والقادة الآخرين في الحملة الصليبية الذين كانوا في صالح تبني اقتراح فيليب أوف سوابيا لإقناع معظم الصفوف والأرتال للموافقة على الخطة الجديدة.

وكان من الصعب إقناع إينوسنت بإعطاء موافقته على ذلك. ولكنه أخبر أن الصليبيين سيضعون ألكسيوس الوريث القانوني في العرش في القسطنطينية، وأن الرجل وعد بإنهاء الانشقاق بين الكنيسة الأرثوذكسية وكنيسة روما حالما يصبح إمبراطوراً، وبدا ذلك حسناً، ولم يعد بإمكان البابا معارضة مثل هذا البرنامج، ولكن مع ذلك بدا أن لديه شكوكاً فيما يتعلق بشيء أكثر من مجرد حملة إلى القسطنطينية، فقد أعلن أنه لن يؤيد أي هجوم على المسيحيين، واصبحت عندئذ خطط الصليبيين تامة، وعندما انضم إليهم ألكسيوس في زارا في أواخر نيسان 1203 أعطي الأمر باعتلاء سفن الأسطول البندقي، وأبحرت قوة الأسطول العظيم.

وسافروا في وجهة جزيرة كورفو حول رأس مايا Malea عند الانحراف الجنوبي من اليونان، ثم شمالاً خلاله بحر ايجه للنزول في جزيرة أندوس التي قاموا بسلبها، ثم شقوا طريقهم شمالاً إلى الدردنيل حيث نزلوا في ميناء أبيدوس على الطرق الساحلي الآسيوي، ومكثوا هناك لفترة أسبوع ليفسحوا المجال من جهة أولى للتائهين منهم بإدراكهم، ومن جهة ثانية لسرقة المحاصيل بما أنها حصدت مؤخراً، وبذلك يستكملون ما نقصهم ويزودون عنابر سفنهم بالطعام لأسابيع القادمة. ووصف غودفري أوف فيلها ردوين، مؤرخ الأحداث الكبيرة للحملة الصليبية الرابعة، رحيل الأسطول في نهاية الأسبوع:

«بدت مضائق القديس جورج إلى الشرق مع الأعداد الكبيرة من السفن الحربية وسفن الشحن والنقل كما لو أنها ناشطة، وفي الواقع كانت تجربة مدهشة أن يرى المرء منظراً رائعاً كهذا، فقد تقدمت السفن في المضائق حتى

وصلت في ليلة القديس يوحنا المعمدان إلى كنيسة القديس ستيفن وهودير على بعد أربعة أو خمسة أميال من القسطنطينية حيث كان يرى منظر المدينة بالكامل من فوق السفن، وهنا دخلت السفن الميناء وألقت مراسيها، وإنه بإمكاني التأكيد على دهشة جميع أولئك الذين لم يشاهدوا القسطنطينية من قبل حين حدقو بإمعان إلى المدينة ولم يتصوروا إلى هناك مكاناً رائعاً مثل هذا في العالم، ولاحظوا أسوارها العالية وأبراجها الشاهقة تحيط بها، وقصورها المترفة، وكنائسها الكبيرة الكثيرة، التي لم يكن بإمكان المرء تصديق أنها حقيقة لو لم يرها بأم عينيه، وينظر إلى اتساع وعرض تلك المدينة التي تفوقت على غيرها، وليس هناك امرؤ في الواقع مهما كان شجاعاً وجريئاً إلى درجة أن جسده لم يرتجف لرؤية هذا المنظر ويدهش له، لأنه لم يقم بمثل هذا المشروع الضخم من قبل أي شعب منذ بدء الخليقة في العالم».

وألقى الأسطول مراسيه بعيداً عن شالسيدون chalcedon في 24 حزيران حيث اتجه العديد من الفرسان إلى الشاطئ، واحتلوا أحد قصور الإمبراطور بينما ضرب آخرون خيامهم فوق أرضه، وفيما بعد ترجل آخرون في كريسوبوليس، ولم يبد مواطنو القسطنطينية أية إشارة عن خروجهم جملة للترحيب بألكسيوس على اعتباره ملكهم الشرعي، أو بالتحول ضد عمه مغتصب العرش الإمبراطوري، كما قادل ألكسيوس الجميع إلى الاعتقاد بأنهم سيرحبون به، وعلى العكس من ذلك، كانت هناك علامات واضحة عن استعدادات عسكرية على الساحل الأوروبي، وتضاءلت الآمال في دخول سلمي إلى المدينة، ولذا بعد مضي أيام من التأخير والاستعدادات هاجم الصليبيون غالاتا Galata في 17 تموز واستولوا عليها دون أية صعوبة تذكر، ثم تقدموا عبر مصب القرن الذهبي، ثم ألقى أسطولهم مراسيه عند أسوار القسطنطينية. وقرر الامبراطور المغتصب أن الحياة الهادئة قريبة إلى ذوقه أكثر من إبداء المقاومة البطولية. وتسلل خلسة وبهدوء مع ابنته المفضلة حاملاً معه ثروة كبيرة منقولة قدر استطاعته، وأخيراً بحث عن لجوء سياسي لدى بلاط

سلطان الروم السلجوقي، وبعد تخلصهم من إمبراطورهم، استعاد ضباط القصر الإمبراطور المنفي الأعمى والضعيف اسحق أنجلوس من سجنه وقلدوه العرش مرة ثانية، وحالما قبض على وضعه الجديد أرسلوا رسالة إلى ابنه ألكسيوس أنه يستطيع إيقاف القتال، وفوجئ ألكسيوس تماماً ولم يعرف كيف يتصرف ولكن الصليبيين عرفوا كيف فقد ردوا بالجواب أنهم سيوقفون القتال حالما يصبح ألكسيوس إمبراطوراً شريكاً مع والده، ولكن ليس قبل بذلك، ووافق بحكم الحاجة والظروف، البيزنطيون الذين لم يكونوا في وضع للمناقشة والجدل، وفي الأول من شهر آب توج الشاب كما ينبغي باسم ألكسيوس الرابع أنجلوس في كنيسة آياصوفيا بينما كان القادة الصليبيون يراقبون الوضع.

وبعد أن قاموا بما أتوا من أجله ظاهرياً كان في إمكانهم الرحيل عند تلك النقطة، لولا أنهم احتجوا بالوعود التي قطعها ألكسيوس، ولإنصافه فقد حاول الوفاء بها، ولكن سرعان ما اكتشفت أن الالتزام بكلمته كان أصعب كثيراً من إعطائها، وأمر رجال الدين بالاعتراف بسيادة البابا، وعندما رفضوا لم يكن هناك من سبيل غير اللجوء إلى الضغط عليهم لإطاعته، وحاول جمع الأموال التي كان قد وعد بها البنادقة ولكن لم يكن في خزينة الإمبراطورية أموال كافية لسد ديونه، واضطر أن يطلب إلى الدوج أن ينتظر لفترة من الوقت بينما يتمكن من جمع المال عن طريق فرض ضرائب إضافية، أما فيما يتعلق بجيش من الجنود البيزنطيين كان قد وعد به للمساعدة على غزو مصر، فإنه حتى لو وجد رجالاً مدربين بشكل كاف في تلك اللحظة فإن إخلاصهم لن يكون مؤكداً إلى درجة أن الصليبيين سيبدون حمقى لأخذ هؤلاء معهم، وبالطبع فإن إخفاق ألكسيوس في الالتزام بوعده قد قلل من تحببه إلى الصليبيين الذين ضاقوا بازدياد منه، ولم يكن ضيقهم يعد شيئاً بالنسبة إلى الكراهية التي كسبها عند شعب القسطنطينية الذي كان تكريسه للبابا، بالإضافة إلى سياسة ألكسيوس المؤيدة للغرب وسياسة فرض الضرائب الجديدة المعادية لهم جعله عندهم شخصاً ملعوناً وبغيضاً، ولكن استياءهم من الصليبيين الذين

عسكروا خارج المدينة تماماً كان الشيء الوحيد الذي تجاوز مقتهم للامبراطور الجديد حيث جعلت زمر البنادقة والفرنسيين السكارى الوضع صعباً بل مستحيلاً تقريباً بالنسبة لنسوة القسطنطينية في أن يغامرن في الخروج إلى الشوارع، والسير فيها بحيث لم يبق حانوت أو سوق آمن من أيديهم السارقة، وفي مجال الكراهية الدينية قام بعض الصليبيين بإحراق جامع بني للزوار المسلمين، وقد دمرت النيران التي خرجت عن سيطرتهم حياً كاملاً في المدينة، وتصاعد التوتر في المدينة كثيراً إلى درجة خطيرة وثار الشعب بعنف في شهر شباط، وخلع ألكسيوس الملعون وشنقه، واستولى أحد النبلاء واسمه موزر وفلس على العرش، وقد اشتهر بميوله المناهضة للغرب وأنقذ الإمبراطور القديم اسحق أنجلوس من المتمردين ومن قتله من قبلهم بإماتته ببطء في الحزن في السجن الذي رمي فيه مرة أخرى.

واتضح أن الثورة استهدفت ألكسيوس والصليبيين الذين أتوا به إلى المدينة ووضعوه على العرش بالقوة، لقد كان تمرداً مناهضاً للاتينية والغرب والبابا، ولم يكن لدى الصليبيين نية في السماح لها بالنجاح، بل كان هناك كلام لفترة عن الرغبة عن تعيين أحدهم على العرش الإمبراطوري، وعن تقسيم الإمبراطورية البيزنطية بينهم، وبدا مثل هذا الإجراء بعد خلع ألكسيوس وقتله ليس مرغوباً فيه فحسب، بل ضرورياً، ذلك أنهم لم يقدموا جميعاً في تلك الطريقة ليروا إحباط خططهم بثورة في القصر ساندها رعاع المدينة، وقرروا الهجوم على المكان بالقوة. ووصف ذلك غودفري أوف فيلها رودين:

ففي يوم الخميس بعد أحد الصوم الكبير (أي 5 نيسان 1204) ركبت جميع القوات السفن. وأستطيع أن أؤكد لك ـ عزيزي القارئ ـ أن منظر الأسطول وهو يتخذ تشكيل المعركة في نسق متسع من طرف الحلف الفرنسي كان رائعاً، وفي صباح الجمعة، اقتربت السفن الحربية وسفن النقل والمراكب الأخرى إلى المدينة في ترتيب مناسب، وبدأت في شن انقضاض عنيف ومحدد، ونزل الصليبيون إلى البر في عدة أماكن وتقدموا إلى الأسوار كما

قربت سلالم التسلق فوق السفن إلى أماكن أخرى عند الشرفات فوق الأسوار، وتصالبت الرماح والأبراج بإحكام، واستمر الهجوم في السرعة وبشكل متلاحق في أكثر من مائة مكان حتى حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ولسوء الحظ فإن قواتنا ردت في ذلك الهجوم، أما أولئك الذين هبطوا من السفن والناقلات فقد تقهقروا إلى السفن مرة ثانية، وينبغي أن أعترف أن جيشنا في ذلك اليوم خسر كثيراً، الأمر الذي أبهج الأغريق كثيراً».

وكانت المعركة نكسة خطيرة ولكن خسائر الصليبيين لم تكن خطيرة كي تعوق القيام بهجوم آخر، وبعد ستة أيام عادوا إلى الهجوم مرة أخرى، وكان هدفهم خرق السور البحري حيث ينخفض إلى حافة المياه عند القرن الذهبي قرب حي المدينة المعروف بلاشيرنة، وسرعان ما أدرك البيزنطيون ما حاول هؤلاء القيام بعمله، وكنت قبلها ردوين «كان خوف سكان القسطنطينية عندئذٍ أقل من خوف قواتنا في وقت هجومنا الأول، وفي الحقيقة كانوا في حالة ثقة كاملة بحيث لم يكن يرى على طول الأسوار، فوق الأبراج غير الناس، ثم بدأ هجوم عنيف وضخم حينما تقدمت كل سفينة نحو هدفها مباشرة، وأحدثت الصرخات الصاعدة في جو المعركة جلبة قوية إلى درجة بدت كما لو أن الأرض كلها تزلزل لتتحطم على شكل قطع صغيرة.

لم تكن كل الأشياء في صالح الصليبيين حيث قذف البيزنطيون بمراكبهم المسلحة، وقاتلوا من أجل منعهم من الوصول إلى الأسوار، غير أن القدر والرياح كانت ضد المدافعين».

وتابع فيلها ردوين روايته: «واستمر الهجوم لفترة لا بأس بها، عندما سيطر قائدنا على جهة دعيت بورياس Boreas التي جعلت السفن تندفع أكثر إلى الشط، وتقدمت سفينتان مترافقتان معاً دعيت الأولى (الحج) والثانية (الجنة) قريباً إلى برجين على الطرفين، وعندما ساقهما الرب والرياح إلى الأمام حتى ارتبط سلم سفينة الحج بالبرج، شق على الفور رجل بندقي برفقة فارس فرنسي دعي أندرو دوربوا طريقهما إلى الداخل، وبدأ بقية الرجال

باتباعهما، وفي النهاية هزم المدافعون هزيمة منكرة وطردوا بسرعة رأى فيها الفرسان فوق سفن النقل ما حدث، فترجلوا ورفعوا السلالم إلى الأسوار وصعدوا واستولوا على أربعة أبراج أخرى، ثم شرعت بقية القوات بالقفز خارج السفن وسفن النقل والمراكب في فوضى وسرعة، وحطموا ثلاث بوابات ودخلوا المدينة.

وتدفق الجيش إلى الداخل على الرغم من أنه لم يكن هناك قتال في الشوارع والساحات، وما أن اخترقت الأسوار الخارجية حتى انهارت مقاومة البيزنطيين، ومع المساء أصبحت القسنطيطينية في أيدي الصليبيين، وفر مورزوفلس والقادة الإغريق الآخرين، وانتصر البنادقة والفرنسيون».

وفي اليوم التالي بدأت مذبحة تجل عن الوصف، ففي فترة ثلاثة أيام تجول عشرون ألف رجل مسلح في عصابات وهم ثملون وفاقدوا السيطرة تماماً يسلبون وينهبون ويقتلون حيثما توجهوا بحيث عم الدمار الكبير، فلقرون سبقت جلبت أعمال الفن من جميع أنحاء العالم إلى القسطنطينية واكتنزت فيها حيث كان يندهش الزوار بروعة المكان وجماله، وخلال نهب المدينة سرقت مفاخر تاجية عديدة منها من قبل البنادقة. ودمر الفرنسيون أكثرها حيث كانوا في حالة مزاج للقيام بأعمال عنف وتدمير، كما سرق الكهنة الكنائس، وهدد رئيس الرهبان البندكتيني مارتن أوف بايرس في الألزاس بقتل كاهن إغريقي في كنيسة في بانتو كراتو ما لم يُره مكان الآثار المقدسة، وعندما دل عليهم شمر عن ساعديه وملأ غفارته (رداء الكاهن) بأجزاء من الصلب الحقيقي، أو رسم دم المسيح وهو جزء كبير من ذراع القديس جون والذراع الكاملة للقديس جيمس، وقدم القديس كوزمس وسن للقديس لورنس وقطع وبقايا لثمانية وعشرين قديساً وثماني قديسات نقلها جميعاً في فرحة انتصار، وفي كنيسة أيا صوفيا العظيمة مزق الجنود الستائر الحريرية ونزعوا الفضة عن الحاجز الأيقوني، وشربوا السائل الكحولي من الأوعية المقدسة في المذبح، وأجلسوا مومساً فوق عرش البطريرك حيث غنت أغنيات فرنسية فاحشة، بينما أدخل

آخرون خيولهم وبغالهم إلى الداخل لتبول وتتغوط فوق أرضها، أما في الشوارع فلم يوفروا أحداً، فجردت الراهبات وعربن من ملابسهن، وانتهكت اعراضهن، وأجبرت النساء والفتيات على البغاء والفحش بشكل لا يوصف، وحطمت رؤوس الأطفال مثل قشور البيض في ضربها على الجدران وضربها بأعقاب أحذية الجنود، وسعرت النيران التي أوقدت في أنحاء شتى من المدينة دون السيطرة عليها لتملأ أجواء جميع الضواحي بالدخان والسواد، وتركوها تختنقهم بين الأنقاض، وكتب مؤرخ الأحداث البيزنطي نيستاس الذي أنقذت حياته من قبل صديق بندقي، مرثاة حول سقوط المدينة، فيها اشتكى بمرارة من أن المسلمين كانوا أرحم من هؤلاء الرجال القادمين من الغرب، الذين يدعون بكونهم مسيحيين، إلا أن فيلها ردوين ينهي وصفه حول الاستيلاء ونهب المدينة بمصداقيته الكاملة بوصفه مدى ابتهاد الجميع بنصرهم وفرحهم بالغنائم والأموال التي كسبوها حيث كتب: «ابتهج الجميع كثيراً وقدموا شكرهم لربنا للشرف والانتصار اللذين منحهم إياهما، وبذلك عاش أولئك الذين كانوا فقراء في غنى وترف، واحتفلوا بأحد السعف وعيد الفصح وقلوبهم مليئة بالفرح لما أسبغ عليهم الرب والمخلص من مساعدة».

ولم يبق غير شيء واحد هو الاستحواذ على الجسم المريض للامبراطورية البيزنطية واقتسامها بين المنتصرين، وضمن البنادقة الذين كانوا أكثر مكراً وخداعاً من الفرنسيين، حصة الأسد فيها ونصب رجل فرنسي دعي بلدوين أوف فلاندرز امبراطوراً، وتوج في كنسية أيا صوفيا وفق الطقوس اللاتينية في 16 أيار 1204، لكي تتويجه هذا لم يمنحه غير صورة شكلية كاذبة للسلطة التي تمتع بها أيضاً سابقوه البيزنطيون، وخضعت اليونان ومعظم البلاد الأوروبية في الإمبراطورية البيزنطية للبنادقة أو النبلاء الفرنسيين الذين حكموها في استقلال فعلي عن الإمبراطور الذي سمح له أن يحتفظ بمنطقة تراقية ويبقيها تحت نفوذه الشخصي بينما كان الجزء الأكبر من الأناضول في أيدي السلاجقة، ورغم أن البيزنطيين فقدوا القسطنطينية فقد صمدوا ضد الصليبيين

في مركزين للمقاومة في جهة الشرق، ففي طرابزون وطد الكسيوس كوفينوس وأخوه اللذين كانا حفيدين للامبراطور غير المحبوب وغير المحظوظ اندرونيكس، وطدا نفسيهما في الساحل الجنوبي من البحر الأسود حيث أسسا دولة حاكمة دامت ثلاثة أمثال الفترة التي ظهرت فيها الامبراطورية اللاتينية المقلقلة التي أقامها الصليبيون في العاصمة، في حين أقامت ابنة الكسيوس الثالث العم المغتصب المحمي من الصليبيين، مع زوجها بلاط مملكة لمت شعث القادة البيزنطيين الذين دانوا لها بالاحترام كمركز حقيقي للامبراطورية حتى تتحرر القسطنطينية.

وجن جنون الجميع في الغرب عندما وصلت أبناء انتصار الصليبيين إلى هناك، حتى أن اينوسنت الذي كان قد حرم كنسيا البنادقة للهجوم على زارا سمع بسقوط عاصمة العالم البيزنطي برضى تام، لأنه كان يعني اتساع رقعة نفوذه الديني كخليفة للقديس بطرس على جميع الكنائس الغربية المنشقة، وكتب رسالة حماسية ملؤها التهنئة إلى الامبراطور الجديد بلدوين، منح فيها استحسانه وتأييده التأمين لكل ما قاموا، وعندما سمع البيزنطيون باستحسان البابا ذلك، لم يعرف شعورهم المر حداً يقف عنده، وانصافاً له، فقد ارتاع عندما وصلته أنباء نهب المدينة ووحشية الصليبيين ولكن في ذلك الوقت تم الدماء، وسمع قلة من البيزنطين ـ إذا كان ثمة من أحد ـ بأفكار البابا الثانية.

وكان البيزنطيون يكرهون الإفرنج ويحتقرونهم كبرابرة قادرين على القيام بجميع الأعمال الوحشية والحقيرة، وقد اعتقدوا تماماً على سبيل المثال أنهم «كانوا ينصرون أطفالهم بنبات القصعين (الناعمة) ويأكلون لحم الذئاب، ويشربون بولهاويغسلون سراويلهم المتسخة في قدور الطبخ». ولكن عندما وصل البيزنطيون إلى الاعتقاد أن البابا قد منحهم بركاته لقيامهم بسلب مدينتهم وبتنفيذهم مذبحة في حق سكانها، اتخذ بغضهم للغرب بعداً جديداً دامت عواقبه لعدة قرون.

الفصل الثامن عشر

أطفال الرب

لا تقترف إثماً، لا تتفوه بكلمات غاضبة،
فانتم يا اطفال الرب تنتسبون إلى يسوع.

س. ف. الااكسندر

كاد الانحراف الملعون للحملة الصليبية الرابعة أن يجلب إلى الحركة الصليبية سوء السمعة أو حتى أن يقتلها، ولكن لم يحدث ذلك، ففي أوائل القرن الثالث عشر برزت الحملات الصليبية، أو على أية حال حملات مسلحة دعيت بالحملات الصليبية ضد المسلمين في اسبانيا، وضد الهراطقة (المنشقين) البجنسيين في منطقة لانكودك في فرنسا وعلى الرغم من أن الحرب ضد البجنسيين انحطت لتتحول إلى صراع سياسي صريح، فقد بشرت بحماسة دينية شديدة إلى درجة التساؤل فيما إذا بدأ الهدف الصليبي بالهاب مشاعر إناس آخرين في ذلك الوقت أكثر من قبل، وفي الحقيقة، كان ذلك الوقت وقت حماسة دينية هائلة في كل مكان، إنما مختلفة عن تلك التي أثارت رجال الحملات الصليبية الأولى، لقد كان الصليبيون الأوائل قد حلموا في أن يصبحوا جنود المسيح كما اعتقدوا أنفسهم بدعوة الرب لهم لتحرير الأماكن المقدسة من الحكم المعادي والمعتدي، بقوة السلاح، وساروا شرقاً وهم على ثقة بقوة رب الحشود في جعلهم جميعاً من العظماء في القتال، وعندما أقصى اينوسنت عن قصد الزعماء المتوجين للعالم المسيحي الغربي عن صفوف حملته الصليبية مؤكداً حقيقة عدم إمكانية وجود قائد آخر للحملة الصليبية غيره

نفسه، قام بذلك لأنه اعتقد أن نفوذ منصبه الروحي سيكون سلاحاً قوياً لاخضاع المسلمين أكثر من قوة الملوك الأوروبيين الدنيوية، وحمل آخرون فكرة اينوسنت بعداً أوسع من ذلك، وقاموا بالتبشير عن قوة الفقير الطاهر روحاً، اللطيف الحليم، ألم يقل المسيح أن الضعفاء سيرثون الأرض؟ ألم يقل الجندي العظيم للمسيح، القديس بولس، أن قوة الرب جعلت كاملة عند الضعف؟ وبالتالي أليس ممكناً أن إخفاق الصليبيين الأوائل جاء لاعتمادهم على رجال هذا العالم الأقوياء، ولم يعتمدوا على الضعيف الفقير الذي يتقد بقوة الرب الموثوقة؟ وفتن مثل هذا التخمين عدداً هائلاً من الناس، وخلق جواً أوجد فكرة غير عادية سببت قيام حملة الأطفال ولولا ذلك لما ازدهرت ولم تعتنق بجدية.

كان هناك سابقون لذلك النوع من التفكير، فبعد إحراق الكاتدرائية في تشارترز في ليلة العاشر من حزيران 1194، اجتاحت موجة حماسة دينية بين الناس في فرنسا. وكانوا قد صمموا على إقامة دار مجيدة للعذراء المشهورة في تشارترز، وكان من بين أولئك الذين تدفقوا على المدينة لتقديم المساعدة في إنجاز المهمة العظيمة بالسرعة الممكنة، جماعات من الأطفال، قادهم فتيان ادعوا امتلاكهم مواهب خاصة من الرب، وشارك في أكثر الحركات التكفيرية أيضاً مجموعات من الأطفال، واعتقد آنذاك أن العديد منهم صانعو معجزات، ولذلك لم يفاجأ أحد بشكل خاص عندما ظهر غلام راعٍ في الثانية عشرة من العمر اسمه ستيفن قدم من مدينة صغيرة في كلويس على مسافة ثلاثين ميلاً جنوب تشارترز، ومعه مجموعة من الأطفال ظهر في دير القديس دنس حيث كان الملك فيليب أوغسطس يعقد بلاط قصره مدعياً استلام رسالة من المسيح بنفسه، يأمره فيها بالتبشير لحملة صليبية جديدة، ولم يتأثر رجال البلاط كثيراً بقوله، وأخبرهم أوغسطس أن يكونوا عقلاء، وينطلقوا إلى بيوتهم. غير أن ستيفن لم يتزحزح عن اعتقاده بأنه كان مرسلاً لمهمة ربانية، وشرع في التبشير خارج بوابات الدير بين أطفال المدينة.

ومن (القديس دنس) تنقل ستيفن حول فرنسا يبشر حيثما اتجه، ويعد بقيادة أطفال المسيح إلى الأرض المقدسة، فإن البحر سيجف أمامهم، كما حدث عندما قاد موسى أطفال إسرائيل خارج أرض مصر، وسيضع الرب القدس بين ايديهم، ألم يقل المسيح أنه ما لم يصبح الناس مثل الأطفال الصغار، فإنهم لن يتمكنوا مطلقاً من دخول مملكة الجنة؟ ولذلك كان واضحاً بالنسبة للأطفال فقط أن بوابات المدينة السماوية ستفتح لهم، فلندعهم يثقوا بالرب ويتبعوه، وسيقودهم إلى النصر في قوة روح القدس، ولا بد أن ستيفن قد منح قوة غير (؟) في الكلام، لأن أطفال فرنسا تبعوه في حشود هائلة، كما تأثر به بعمق العديد من البالغين الراشدين، رغم شكوك الكنيسة، وقام ببعث الحياة في روح أطفال آخرين، ليخرجوا ويبشروا بالحملة أيضاً، ورتب أموره للقائهم جميعاً في فندوم، في نهاية شهر حزيران، وتكلم الناس في دهشة عن اجتماع ثلاثين ألف طفل في المدينة، وعلى الأرجح أن العدد كان أقل من النصف، وحتى لو لم يكن أكثر من عشرة آلاف طفل، فإن ذلك بحد ذاته ما زال عدداً كبيراً.

ومن فندوم قاد ستيفن الصليبيين إلى مارسيليا، ولم يتجاوز الفرد منهم الثانية عشرة في حين كانت الرحلة طويلة ومرهقة إلى درجة أنه تعين عليهم أن يسألوا مساعدتهم في الطعام، وقد مات بعضهم في الطريق بينما وجل وارتعد آخرون من مشقة الرحلة، وفكروا بالأمر ككل بشكل أفضل وعادوا أدراجهم إلى بلادهم، وهي رحلة لم ينجح الجميع في إيجاد غايتها، وعندما وصل البقية إلى مارسيليا تصرف سكان المدينة اتجاههم بلطف، وانتعشت أرواحهم من جديد، وسارت الأمور بعد ذلك على ما يرام، وفي صباح اليوم التالي هرعوا جميعاً في ابتهاج وإثارة شديدين إلى الميناء متوقعين أن ينشق البحر على الفور أمامهم، وعندما لم يفعل اشتدت خيبة أملهم، وبدأ بعضهم يصب اللوم على خداعهم، ولكن الأكثرية هدأت، وجلست تنتظر أن يبت الرب في الأمر، ولم يخطر على بالهم أنه لن يقوم بذلك، غير أن المعجزة التي كانوا في انتظارها

كانت بطيئة التحقيق، وعندما تقدم تاجران محليان بعرض لتزويدهم بسبع سفن لنقلهم مجاناً إلى الأرض المقدسة تقبل الأطفال عرضهما بامتنان، وشكروا الرب لهذه المعجزة التي لم تكن قليلة الإثارة، في عالم تجاري صعب، وتبرز المصادر أن اسمي التاجرين كانا هيغ الحديدي ووليم الخنزير، وركب الأطفال السفن دونما تأخير وأبحرت بهم، ولم يسمع بعد ذلك عنهم أي خبر لمدة ثمانية عشر عاماً.

وكانت حماسة ستيفن معدية، فبعد فترة قصيرة من إبحاره من مارسيليا قام غلام ألماني من أراضي الراين باتباع خطوته ومثله، وبدأ يبشر بين أطفال ألمانيا للقيام بحملة صليبية، وكان اسمه نيكولاس، ومثل ستيفن نجح بشكل مدهش في إقناع الأطفال الآخرين باتباعه، وكذلك أيضاً مثل ستيفن وعدهم بجفاف البحر أمامهم، وبهداية الرب لهم للوصول إلى الأرض المقدسة بكل انتصار، وفوق ذلك وعدهم ليس باكتساب انتصارات عسكرية رائعة على المسلمين فحسب بل وعدهم بهداية هؤلاء إلى المسيحية، وثارت مشاعر أطفال آخرين بخطبته، وانطلقوا وحدهم يبشرون في أجزاء أخرى من البلاد، وتجمع جمهور من الشباب في كولونيا بعد عدة أسابيع، ومرة أخرى تكلم مؤرخو الأحداث عن مجموعة ثلاثين ألفاً، ومن الصعب مرة أخرى، البت في عددهم كما كان آنذاك على الرغم من أن العدد بالتأكيد كبير، وبعد انقسامهم إلى مجموعتين اتخذوا طريقين مختلفتين، وقاد نيكولاس المجموعة الكبيرة التي اعتقد أنها في ذلك الوقت تجاوزت عشرين ألف طفل عبر سويسرا إلى شمال إيطاليا، عبر ممر جبل سينييس وقد كانت رحلة موت حيث كان اثنان من كل ثلاثة أطفال يسقطان على طرف الطريق ليموتا، أو ليلاقيا قدراً آخر لا خبر عنه، أما أولئك الذين وصلوا إلى جنوة فقد عوملوا معاملة لطيفة، وعندما رفض البحر مرة أخرى أن ينفلق أمامهم بأعجوبة، قرر العديد منهم قبول عرض السلطات المدنية بالترحيب بهم كمواطنين جنويين، ورفض نيكولاس الاعتراف بالهزيمة، وسار ببطء وتثاقل مع بقية تابعية إلى بيزا حيث أثبت البحر

بشكل مساو أيضاً عدم تعاونه، ثم استمروا في مسيرهم إلى روما حيث رحب بهم البابا بلين ولطف، وأخبرهم أن عليهم الذهاب إلى بلادهم، وحاولوا اطاعته غير أن قلة منهم نجحت. وقيل أن أحد أولئك الذين لم يستمروا في الرحلة كان نيكولاس. وألقي القبض على والده من قبل بعض أهالي أطفال آخرين هلكوا، واتهموه بتشجيع ابنه في التمادي في جنونه، وبالتالي فهو مشترك في سبب موت أطفالهم، فشنقوه.

وكابدت المجموعة الثانية من الأطفال الألمان مشاقاً وخيبات أمل مشابهة، فقد عبرت جبال الألب عند ممر القديس غوتارد إلى انكونا حيث لم ينشطر البحر العنيد مرة أخرى، وساروا بأقدام غيرهيابين إلى برنديزي حيث أخفقت المعجزة مرة ثانية في مساعدتهم، وكان وقع ذلك عليهم عظيماً وعلى الرغم من أن قلة منهم اتخذت طريقها في سفينة إلى الأرض المقدسة فقد شرع معظمهم في القيام برحلة العودة إلى الوطن، ولم يعرف قدر أولئك الذين أبحروا إلى الممالك الصليبية، كما كان الأمر نفسه بالنسبة للأغلبية العظمى من الأطفال الذين حاولوا العودة إلى قراهم الأصلية، غير أن قلة نجحت بشكل مثير للشفقة في الوصول إلى بلادهم.

وكان قدر الأطفال الفرنسيين، إذا كان ثمة. قدر سيئاً أكثر من قدر الأطفال الالمان، فقد وصل إلى فرنسا سنة 1230 قس يحمل قصة مرعبة، وأخبر الناس المسحورين والمرعوبين في فرنسا، إنه كان أحد الأفراد الشباب من القساوسة الذين شعروا بواجبهم في مرافقة الأطفال عندما أبحروا من مارسيليا، ولم يبتعدوا كثيراً عندما هبت عاصفة على ساحل سردينيا وتحطمت سفينتان وضاع جميع ركابها، أما السفن الخمسة الأخرى فقد نجت من العاصفة وتابعت الإبحار ليجد الأطفال أنفسهم محاطين بعد يوم أو يومين ببعض سفن حربية آهلة بالمسلمين من إفريقيا، وقد حذرهم بلطافة التاجران المارسيليان هيغ الحديدي ووليم الخنزير، ثم أن السفن الفرنسية التجأت إلى ميناء جزائري حيث بيع العديد من الأطفال في سوق النخاسة وأمضوا بقية

حياتهم في عبودية، بينما نقل آخرون إلى مصر حيث بيعوا بأسعار أفضل، ووصل إلى بغداد قلة قليلة فقط. وهناك رفض ثمانية عشر شاباً منهم إنكار إيمانهم المسيحي، واستشهدوا وقد نجا الرجل الذي أخبر بهذه القصة من قدر الأطفال أنه كان، ككاهن، رجلاً متعلماً، فقد أخذه الوالي المسلم مع آخرين مشابهين إلى داره كمترجمين ومعلمين، وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وفي آخر الأمر ولسبب ما أفسح المجال لهذا الرجل للعودة إلى بلاده ليخبر بقصة ضياع الأطفال، وعلى الأرجح أن وليم الخنزير وهيغ الحديدي لم يوجد ليحاكما على الرغم من أن اسطورة متأخرة بعد تلك الفترة ذكرتها بدل رجلين شنقا لجريمة مختلفة.

الفصل التاسع عشر

في مصر

«ويكون أن كل الرجال الذين جعلوا وجوههم
للدخول إلى مصر ليغتربوا هناك يموتون بالسيف والجوع والوباء»

أرميا: 42/ 17

في الوقت الذي كان فيه الأطفال يقومون بمحاولتهم المحزنة كان البابا اينوسنت يخطط لحملة مسلحة عظيمة أخرى إلى الأماكن المقدسة، غير أنه لم يعش طويلاً ليرى تحقيق خططه حيث مات في بيروجيا في 16 تموز 1216، وخلفه هونوريس الثالث الذي كرس نفسه لفكرة حملة صليبية جديدة مثل اينوسينت نفسه وقام بعمل كل شيء ممكن لإثارة الحماسة لدى العالم المسيحي الغربي، من أجل عمل عسكري ضخم آخر في الشرق، ومع ذلك سرعان ما اتضح عدم توقع مساعدة كبيرة جداً من فرنسا، حيث كانت الحرب ضد الهراطقة البيجنسيين لا تزال تشغل معظم الناس، ولحسن الحظ، فإن الاستجابة لنداء الحملة الصليبية في هنغاريا والنمسا كانت كافية لتؤلف رد فعل فاتر عند الفرنسيين، وحمل الملك الهنغاري الصليب، وحذا حذوه الدوق ليوبولد السادس في النمسا الذي وعد بالانضمام إلى الحملة الصليبية مع جيش ضخم عندما يحين الوقت، وكالعادة تبين أنه من الصعب إيجاد سفن كافية لنقل قوة الحملة الجديدة إلى وجهتها، كما رفضت كل من البندقية وجنوة وبيزا التي كانت ترتاب الواحدة بالأخرى للاشتراك في أية مغامرة لئلا تزحف إحداها خلسة على الأخرى أثناء ذلك، وأخيراً وجد ليوبولد وسيلة لنقله، ووصل إلى

الممالك الصليبية في أيلول 1217، وتبعه ملك هنغاريا اندرو مع قوة صغيرة في سفن قليلة رضيت القيام بنقله مع قوته إلى عكا، التي وصلها بعد وصول ليوبولد بفترة قصيرة، وانضم إليهما ملك قبرص هيغ بن ملك القدس املريك الثاني الذي خلف غوي الذي لم يكن له ابناء، وقد جلب هؤلاء الثلاثة معهم جيشاً صغيراً لم يتجاوز تعداده على الأرجح أكثر من خمسة آلاف رجل.

ولم يتأثر الإفرنج في الممالك الصليبية بقدومهم كثيراً، كما لم يسروا برؤيتهم بشكل خاص، فمنذ وفاة صلاح الدين انشغل المسلمون في شن الحروب أما بين بعضهم بعضاً، من أجل السيطرة على امبراطوريته، أو من أجل التجارة مع جيرانهم المسيحيين، ونتيجة لذلك ازدهر الجانبان بحيث كانا تواقين لعدم اهمال بركة هذا السلام، الذي نعما به لعدة سنوات مقابل أمجاد الحرب الفظيعة، ولذلك ذهل القادمون الجدد بشدة بمجرد فكرة العيش بسلام مع الكفار، وكانوا يتحرقون بشدة للخروج وقتل العديد منهم حالما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كما دهش القادمون الجدد لحالة الغنى والترف التي تمتع بها الإفرنج في المماليك الصليبية، كشيء اعتيادي، وكذلك لملابسهم وعاداتهم الشرقية، وكان من غير المحتمل أن المسيحيين الذين اتخذوا الصليب، ونذروا أن يحروا الأماكن المقدسة من نير الكفرة قد أصبحوا فاسدين ومنحطين كثيراً إلى درجة أمكنتهم من العيش في خمول وانغماس في الفسق، جنباً إلى جنب مع أعداء الصليب، دون إبداء إشارة عداء ضدهم.

وليس ثمة شيء محير أكثر من محاولة تحليل العلاقات العائلية المتشابكة للبيوتات الملكية المتعددة في الممالك الصليبية، لأنها تعقدت إلى حد جعلت فيه الأشخاص في أجيال متعاقبة يأخذون نفس الأسماء والألقاب، وبذلك ففي كل فترة من تاريخ الحملات الصليبية تسمى الرجال بأسماء مثل هيغ وبوهمند وكونراد وبلدوين، وهؤلاء يبدو أنهم تزوجوا بنساء دعين بماريا أو اشيفا أو إيزابيلا أو أليس، وفي زمن الحملة الصليبية الخامسة كان ملك القدس رجلاً مسناً دعي جون أوف بريين، وكان قد تتوج بتاج الملك بفضل

زواجه قبل فترة سنوات من فتاة في السابعة عشرة، دعيت ماريا، كانت ملكة للقدس بحق وراثي بعد أمها الملكة إيزابيلا، التي أنجبتها من زواجها الثاني من كونراد أوف مونتفرات. وماتت هذه بعد فترة قصيرة من زواجها إلى جون عن عمر يناهز الحادية والعشرين، وبالتالي تولى جون وحدة مقاليد الحكم، وعندما وصل أندرو من هنغاريا وليوبولد من النمسا وهيغ من قبرص إلى أرض عكا، رحب جون بهم في الأراضي الصليبية، وفي الواقع كان هيغ ابن حميه المتبنى، حيث كان والده أملريك الثاني الزوج الرابع والأخير للملكة إيزابيلا، ونظراً إلى أنه لم يستطع أن يثنيهم عن الاندفاع إلى القيام بذبح قلة من المسلمين اقترح إنشاء حملة موحدة تحت إمرته باعتباره ملك القدس.

ورغم أن القادمين الجدد لم يكونوا كثيري العدد، بسبب أنهم لم يضطروا لترك عدد منهم وراءهم بسبب الحاجة إلى السفن التي جعلت رحلتهم طويلة من أوروبا، على كل حال كان الجيش الذي باشر القتال في خريف سنة 1217 تحت قيادة جون أوف برين، فقد كان مروعاً أكثر من أي جيش حشده المسيحيون منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، وأما العادل أخو صلاح الدين، الذي كان قائداً لخصومهم، فقد تراجع أمامهم بشكل تكتيكي، وبعد أن خسر جيش جون فرصته في تحقيق معركة حاسمة، قام بتحقيق إنجاز بسيط، فقد انطلق دون أية فكرة معينة عما كان يجري هناك، كما كان عديم التنظيم بشكل تطلعت فيه كل فئة إلى قائدها، ولم تعط أية أهمية ولو قليلة لجون نفسه، وبعد الاستيلاء على مدينة بيسان ونهبها طاف الجيش في جهة الشمال حول بحيرة طبرية دون القيام بتحقيق أي شيء جديد، وعاد أخيراً إلى عكا، وكانت النتيجة الملموسة الوحيدة لتلك الحملة التي لا طائل تحتها، بصرف النظر عن خرق الهدنة القائمة بينهم وبين العادل، عبارة عن آنية خزفية كبيرة اعتقد أنها أحد الأباريق التي استعملت في الزواج في كانا في الجليل، عندما حول المسيح بأعجوبة ما فيها من ماء إلى خمر، وابتهج الملك أندرو بنيل هذا التذكار، فرحته كما لو أنه استولى على القدس نفسها.

وشنت غارتان أخريتان مخففتان داخل أراضي المسلمين جرتا أثناء الشتاء، ولم تنجح إحداهما في تحقيق شيء جديد بانفاق الوقت لأجله، كما ضجر من الحياة في عكا ملك هنغاريا، وتلقى بترحاب أنباء إعداد بوهمند الرابع صاحب إنطاكية للزواج من الأخت غير الشقيقة لهيغ صاحب قبرص في طرابلس، وسعى بسرور للانضمام إلى حفل الزفاف الذي قام هناك، ولكن تلك المهرجانات توقفت فجأة بعد بدء السنة الجديدة بسبب موت هيغ المفاجئ وغير المتوقع، وكان ذلك جليلاً بالنسبة للملك اندرو، فعاد إلى عكا وجمع رجاله، وبعد أن رتب أموره مع سلطان سلاجقة الروم للعبور الآمن خلال أراضيه، قام بالمسير بهم في اتجاه الوطن مرة ثانية عبر الأناضول. بينما قرر ليوبولد البقاء في الأراضي الصليبية. وعلى الرغم من مساعدته للإفرنج، فإنهم لم يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بهجوم آخر على المسلمين، وأمضوا الشتاء في أعمال تقوية تعزيزاتهم في قيسارية بينما أقام رجال فرسان الداوية قلعة منيعة أخرى في عتليت على الساحل، حيث تستطيع حراسة طريق الحج الرئيسي، ولم يحدث شيء حتى وصول دفعة كبيرة أخرى من الصليبيين في شهري نيسان وأيار سنة 1218، وكان معظمهم من الألمان والهولنديين مع قلة من الاسكندنافيين وصلوا إلى أسطول من السفن الفريزية بحيث أمكن التخطيط لمغامرة عسكرية جديدة.

كانت مصر الهدف التالي بعد ذلك حيث كانت قلعة المسلمين، فإذا تم الاستيلاء عليها، فإن جميع مناطق فلسطين الجنوبية، بما فيها القدس ستسقط في أيدي المسيحيين دون أي قتال، وسيضطر اعداؤهم إلى الانسحاب إلى حصونهم في الشمال، في دمشق وحلب، وكانت خطة القتال تقضي بأن يتم الهجوم، والاستيلاء على ميناء دمياط في دلتا النيل، والانتظار هناك فيما بعد لقدوم الامدادات من أوروبا، حيث تم الاعتقاد بأن جيشاً كبيراً من الفرنسيين حشد هناك، فعندما تصل الامدادات سيقوم الجيش الصليبي بغزو جميع مناطق الدلتا والاستيلاء على القاهرة، في حين يسيطر أسطولهم على النيل. ووضع

ليوبولد صاحب النمسا والقادة الهنغاريون الذين لم يعودوا إلى الوطن مع الملك أندرو، وكذلك النبلاء الكبار في المنظمات العسكرية، وضعوا أنفسهم تحت أمرة جون أوف بريين لكونه ملك القدس، وجندياً قديماً خبيراً وممارساً، وفي عيد الصعود ركب الجيش السفن وأبحر خارج ميناء عكا.

وانقسم الاسطول خلال الرحلة، ووصلت بعض قطعه، إلى مصب بنهر النيل قبل يومين من بقية السفن، وفي 29 أيار، وبعد خمسة أيام من ابحارهم وصل جميع الأسطول ورسا بعيداً عن الشاطئ ونزل الجيش على الضفة الغربية من النيل، وكما حدث في أيام هجوم الملك أملريك على المدينة قبل خمسين سنة، نشرت سلاسل كبيرة عبر نهر النيل عند المدينة، لمنع السفن من الوصول إلى أسوار المدينة،ووضع خلفها جسر من الزوارق، وأقيم برج صغير معزز بقوة لحماية المكان كله فوق جزيرة على الضفة الغربية، وبعد أن تمت استعدادات الصليبيين هاجموا البرج، ولكنهم ردوا على أعقابهم عدة مرات حتى قاموا بشن هجوم بوساطة قلعة طافية بنوها فوق سفينتين مثبتتين معاً، وكانت هذه القلعة قد غطيت بصفائح من النحاس والجلود لحمايتها من الهجوم بالنار الاغريقية، أما في أعلاها فكان هناك جسر متحرك يمكن تحريكه إلى الأسفل ليصل إلى دفاعات العدو عندما تصطف السفن قريبة إلى أسوارها، وقد صمم هذه القلعلة مدير مدرسة ألماني دعي أوليفر.

أصبح فيما بعد أحد المؤرخين الرئيسيين لهذه الحملة الصليبية، وقد أثبتت تلك الوسيلة فعاليتها التامة، ودافع المصريون عن البرج بعناد كبير، ورشقوا اعداءهم بألسنة من النيران حالما وصلوا ضمن مداها، وبعد قتال عنيف قام جنديان فلمنكيان بطعنهم من الخلف بحراب طويلة، ولي الجسر إلى الأسفل، واعتليا البرج إلى الأعلى، وكانا رجلين أمام العديد منهم، غير أنهما قاتلا المصريين بضراوة مرعبة بسيوف حديدية تشبه المنشار، قاتلاهم إلى درجة لم يتمكن أحد من الصمود أمامهما، وسرعان ما انضمت إليهما دفعة من الجنود الآخرين، وطرد المدافعون من أعلى البرج، وقد قاتلوا ببسالة لمنع

الصليبيين من هبوط درجات البرج إلى داخل القلعة، ولكن خسائرهم كانت بالغة واستسلمت عصبة منهم حين تركوا احياء، وحالما تم الاستيلاء على البرج سحبت السلسلة الضخمة المنشورة عبر النهر إلى الشاطئ، وأصبحت الطريق مفتوحة وواضحة بالنسبة للسفن الفريزية لتبحر مباشرة إلى أسوار دمياط.

وأفزعت أنباء الانتصار المسيحي العالم الإسلامي، حتى أن السلطان العادل، أخا صلاح الدين، الذي كان في أواسط الستينات، مات بتأثير الصدمة، وتوقع العالم الإسلامي كله سماع سقوط دمياط في أية لحظة، وبدا أن الله قد تخلى عن جنوده، ولكن الإفرنج قرروا عدم القيام بممارسة هجوم مباشر على المدينة، لعلمهم بقدوم الإمدادات في الطريق إليهم، ولم يرغبوا في المخاطرة في الصد بعد انتصارهم العظيم الأول لفترات سنوات، فإن الإخفاق سيسيء بشكل حاد إلى معنويات القوات، وبدا أن اتخاذ الحذر أفضل سياسة، وبالتأكيد أخطأ الصليبيون في قرارهم، فلو أنهم استولوا على المدينة، لربما استمروا في فتح جميع بلاد مصر، في حين كان أعداؤهم ما زالوا تحت تأثير صدمة هزيمتهم، ،غير مستعدين بعد لتلقي هجوم آخر، كما كانت المدينة في ذلك الوقت غير منيعة، لكنهم أضاعوا الفرصة ومر الوقت سدى.

وعندما قعدوا بدلاً من حصار المكان، قرر بعضهم إنهاء واجبهم، وبدأ سيل هزيل ولكنه متواصل من الرجال المغادرين مصر لشق طريق العودة إلى الوطن، في حين دب السأم والضجر بين أولئك الذين بقوا هناك، ومع مرور الأسابيع انتشرت إصابات بمرض الزحار في المعسكر، وأخذ المرض يشغل دوره المعتاد، ومع قدوم أمطار الشتاء أصبحت الحياة غير محتملة، بشكل متزايد، فهبطت معنويات الرجال، لكنها انتعشت بعد ذلك قليلاً، عندما وصل جيش بابوي جديد زاد صفوف المسيحيين ضخامة، ولكنه لسوء الحظ كان تحت إمرة رجل متعصب عنيد دُعي الكاردينال بيلاغيوس، الذي منحه البابا سلطات مطلقة ولم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن من بذر الشقاق بين

الجميع، والنزاع مع الملك جون محدثاً انقساماً في الجيش، الذي تحول إلى حزبين متعاديين، وأصر على استلام قيادة العمليات العسكرية رغم عدم أهليته كرجل ديني، لكنه كان محظوظاً رغم افتقاره إلى الخبرة وعدم شعبيته المتزايدة بين القادة الآخرين، وعندما هاجم ابن أخ صلاح الدين السلطان الكامل معسكر الصليبيين أصيبت قوات المسلمين بخسائر فادحة، ويعود ذلك إلى يقظة جون أوف بريين، وبعد عيد الميلاد قرر بيلاغيوس إمكانية استعادة معنويات الرجال بالعمل، ولذا أصدر أوامره إليهم في شباط لمهاجمة قوات السلطان الذي كان يقاسي شتاء سيئاً مثل أعدائه، وقبل قيامهم بذلك وصلت أنباء فرار الكامل وجيشه فجأة، ويبدون أنه سمع بإعداد مؤامرة ضده من قبل بعض الأمراء القادة، فاستسلم للفزع وانطلق بعيداً بحثاً عن الأمان، وعلى الفور احتل الصليبيون معسكره، واستولوا على غنائم كثيرة، وأتموا عزلة دمياط التي أصبحت في ذلك الوقت مقطوعة من جميع المؤن.

وما أن أكمل الكامل معالجة قضية المتآمرين حتى، كان مستعداً لاستئناف الهجوم ضد المسيحيين الذين كانوا متخذين موقفاً دفاعياً حسناً إلى حد بدا فيه أن قدر دمياط محتوم، أما من وجهة نظر المسلمين فقد بدا الأمر كما لو أن البحث عن السلام قد بدأ، وفي أثناء ذلك عندما استمر القتال، ومرت أيام الشتاء والربيع القصير الأجل، وسرعان ما حلت متاعب وأمراض صيف مصيري حار محل أيام البؤس والرطوبة، واستضاف الصليبيون في ذلك الوقت زائراً غريباً في معسكرهم هو فرانسيس أوف أسيسي أول الفرنسيسكانيين الذين سافروا إلى جهة الشرق في محاولة لكسب عقول الناس هناك، وذلك بالوعظ وإعطاء نفسه مثالاً عن التقشف لكسبها في رؤية الرب الذي نادراً ما يشارك سيوف المسيحيين في أيديهم، وطلب إذناً لزيارة السلطان، وبعد تردد سمح لبيلاغيوس القيام بذلك وبعث إلى معسكر المسلمين عبر خطوط الدفاع تحت راية الهدنة وهناك وفي كلمات ستيفن رانسيمان Runciman «شك الحراس المسلمون في الأمر بادئ ذي بدء، ثم سرعان ما قرروا أن شخصاً

مثل هذا بسيط وقذر، لا بد أن يكون مجنوناً وعاملوه باحترام مناسب لرجل فيه مس من قبل الرب»، واستقبله الكامل بلطافته البالغة، ورغم رجاء القديس له أن يصبح مسيحياً لم يفكر هذا في القيام بذلك لحظة، وبدلاً عن ذلك أصغى بأدب إلى ما قاله ضيفه وعرض عليه بعض الهدايا الرائعة التي رفضها، ثم عاد إلى المعسكر المسيحي تحت حراسة وتشريف.

في تلك السنة انخفض فيضان النيل، ومع نهاية الصيف واجهت مصر مجاعة، واستوردت طعام من أماكن أخرى، ودفع هذا الحال السلطان إلى المناشدة من أجل السلام، وقام بذلك في شهر أيلول، وعرض التخلي عن القدس وفلسطين وطبرية، وبإعادة صليب الصلبوت إذا جلا المسيحيون عن مصر، وبحسب الظواهر كان عرضاً مدهشاً، حتى أن العديد من الإفرنج كانوا في صالح قبوله في الحال، ولكن بيلاغيوس رفض حتى مجرد التفكير فيه، واستهجن مبدأ أن يأتي السلام على أساس شروط مع المسلمين، ويدو أن أيضاً تأثر ببعض النبوءات الكاذبة التي راجت على الألسن، تتوقع انتصار الحملة الصليبية، وانهيار الإسلام، وأيدته جماعات الفرسان العسكرية التي اقتنعت بعدم إمكانية الدفاع عن فلسطين أو طبرية بشكل ناجح ما لم تسلم القلاع في شرق الأردن أيضاً التي رفض الكامل بتسليمها، لأنه تعين عليه الحفاظ على الطريق بين مصر وسورية مفتوحة، والتي تمر خلال شرقي الاردن، ولذا رفض العرض وضاعت الفرصة، وإذا كان بعض الصليبيين قد شعر بمرارة خيبة الأمل، فإنهم سرعان ما نسوا استياءهم، ذلك أن دمياط سقطت أخيراً بعد يومين أو ثلاثة أيام، في 5 تشرين الثاني 1219، واستسلمت دون قتال لأن حاميتها كانت مرهقة كثيراً إلى درجة أن المدافعين توقفوا ببساطة عن نشر الرجال عن أسوارها، ودخلها الإفرنج، وكانت تلك ضربة مروعة للمصريين، وزادت آمال بيلاغيوس كثيراً إلى درجة أنه أصبح أكثر تأكداً من أن أيام العالم الإسلامي كانت معدودة، وأن القوات المناهضة للمسيحية على وشك الانهيار.

ومع ذلك لم يقوموا بعمل من ذلك القبيل، وانسحب المصريون إلى المنصورة في أعلى النيل، بينما استوطن بيلارغيوس ورجاله في دمياط، وكما كان الوضع غالباً في السابق، تشاجر الصليبيون بين بعضهم بعضاً بعد الانتصار، وضاعت سنة 1220 في أعمال الخداع والخلافات، واختلف جون أوف بريين مع بيلارغيوس حول مستقبل المدينة المحتلة، وأبحر الأول إلى عكا في حالة غضب، وتفاقم الحسد بين المجموعات المتعددة الأوطان، وزادت الحالة حدة إلى درجة أنهم كبحوا أنفسهم بصعوبة عن قتال بعضهم بعضاً دون العدو، وبعد ثمانية عشر شهراً انقضت على هذه الحال انتعشت معنويات الصليبيين قليلاً بعدما انحدرت إلى نقطة الفناء، وذلك بوصول بعض الألمان تحت قيادة الدوق لويس أوف بافاريا، وفي تموز 1221 قرر هذا وبيلارغيوس القيام بالهجوم على العدو آخر الأمر، وقاد الجيش خارج دمياط وسارا في اتجاه المصريين، وهما في حالة ثقة كاملة، ولكن النيل كان في حالة فيضان في ذلك الوقت، ووضع بيلارغيوس رجاله في موضع تعين عليه تقبل إجراءات المسلمين، في فتح قنوات لإغراق أعدائهم، واضطر بيلارغيوس أن يناشد من أجل السلام، أو أن يموت ورجاله، ومنح السلام بناء على شروط السلطان فقط، واضطر الإفرنج إلى التخلي عن دمياط في مقابل هدنة مدتها ثمانية أعوام، وإعادة الصليب الحقيقي، لكن لم يكن بالإمكان إيجاد الصليب الحقيقي، وانتهت الحملة الصليبية الخامسة بهزيمة مخزية وشائنة للصليبيين بالتراجع إلى عكا بعد إخفاقهم في إنجاز شيء محدد.

وكان لذلك ذيول، فقد كان أشهر المتغيبين خلال الحملة كلها على مصر الإمبراطور فريدريك الثاني أوف هوهنستاوفن الذي كان قدومه متوقعاً في الغالب، ولكن تأجل مرات عديدة، وكان هذا رجلاً يعتبر خليطاً بين النورماندي والألماني، نشأ في المملكة النورماندية في جزيرة صقلية التي كانت عربية يونانية في الثقافة والروح، وفي وقت إخفاق الحملة الصليبية الخامسة، كان في الثلاثين من العمر، معتدل الطول، يميل إلى السمنة قليلاً

وذا شعر أحمر، بدأ فيه الصلع بشكل حفيف، كما كان فمه حساساً وعيونه خضراء، وقال احد المسلمين بجفاف عنه لو أنه عرض في سوق النخاسة. لكان بخس الثمن، وإذا كان غير هذا من انطباع مؤثر جسمانياً، فإنه كان يتألق ذكاء ويتحدث لغات مختلفة من الفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية والعربية بطلاقة، كما كان لديه معرفة جيدة في عدة مواضيع تتدرج بين الفلسفة والطب، وكان أيضاً فاسقاً وماكراً واستبدادياً، وصديقاً خواناً وعدواً خطيراً، كما كان من جماعة «لا أدري» في الدين، فقد كان نزاعاً إلى الشك الذي صعق معاصريه الورعين بعدم احترامه المبتذل للآداب الدينية، وبافتقاره الواضح إلى الإيمان الكامل دون اعتراض، وقد كان الباب الينوسنت وصياً عليه والبابا أنوريس مرشده الخاص، ومع ذلك فقد تشاجر مع الباباوات الواحد بعد الآخر، لأنه لم يكن يخفي عدم احترامه سلطتهم الروحية.

وانتظره الإفرنج في الأراضي الصليبية لأنهم علموا أنه حمل الصليب منذ سنة 1215، ولم يتمكن أحد من فهم سبب إصراره على خلق الأعذار في عدم الوفاء بيمينه، فإن الحملة إلى مصر قامت وانتهت، ولم يقم فريدريك بالإبحار إلى الشرق، ولكن في 1225 أعادت رؤيته إلى الآمال الحياة من جديد بشكل كبير حينما تزوج ابنة جون أوف بريين ذات الأربعة عشر ربيعاً، من ملكة القدس، يولندا، وكانت زوجته السابقة الأميرة الإسبانية قد ماتت قبل سنتين، وكان تحالفه الجديد نفعياً من الناحية السياسية من وجهة نظر الجميع، وقد تعززت مملكة القدس به كثيراً في حين أضاف تاجاً ملكياً إلى تلك التي سبقها وملكها، وفي حقيقة الأمر كرهت يولندا الصغيرة ذلك العمل كله وأخبرت أباها جون وهي تبكي أن زوجها الجديد أضل واحداً من أبناء عمومتها في شهر عسلهما، ولم يكن بإمكان أحد عمل شيء حول ذلك الأمر، وأمضت بقية حياتها القصيرة في بالومو، حيث أرسلها فريدريك حالما أصبحت حاملاً، وماتت هناك بعد عدة أيام من منحها ابنها الحياة، وكانت قد خدمت هدفها الموجز، ويبدو أن موتها لم يهم فريدريك كثيراً عدا أنه أضعف

إدعاء بعرش القدس، وعندما كانت حية كان حقه في الملكية دون شك أو اعتراض، لكن موتها لم يمكنه من المطالبة بالسلطة بل كوصي على الابن الذي ولدته، باعتباره الوريث الشرعي.

وجاءت نهاية نفور فريدريك اللا نهائي كما في الظاهر من الوفاء بيمينه كصليبي، بعد فترة قصيرة من موت يولندا، عندما ركب مبحراً في برنديزي مع جيش ضخم إلى الأرض المقدسة، ولكن ما كاد الأسطول يغادر المرفأ حتى تفشت الحمى على ظهر السفينة، ووقع أحد القواد التابعين للامبراطور وهو النبيل لاندغريف أوف ثورينجيا مريضاً ثم مات، ثم تلاه فريدريك حيث استسلم إلى المرض، وفي حين أمر الأسطول بمتابعة الإبحار دونه نزل في أوترانتو ولزم فراش مرضه، وكان ذلك عملاً معقولاً تماماً، ولكن عندما نقل خبر مغادرته الأسطول إلى البابا غريغوري التاسع، تأكد البابا الروماني أن الأمر لا يعدو خدعة أخرى من جانب فريدريك للتهرب من الوفاء بيمينه كصليبي، وبناء عليه حرمه كنسياً.

وفي حين أن هذا الأمر وضع الامبراطور في وضع رهيب للغاية بسبب ردة فعله، فإنه أظهر نفسه خصماً لدوداً، وأصدر حكماً أعطى الوصف الحقيقي للحقائق، موضحاً للجميع أن البابا شوه الحقيقة كي يوجد مسوغاً لإهانته، واتبع انفجاره الكلامي في الاستمرار في طريقة الأرض المقدسة حالما تحسنت صحته، رغم حقيقة أنه لم يكن بإمكان شخص محروم كنسياً الذهاب بشكل شرعي في حملة صليبية متجاهلاً بالتالي سلطة البابا والحكم المفروض من قبله، ودهش غريغوري وغضب كثيراً، ولكن لم يكن بإمكانه عمل شيء أكثر من ذلك بعد أن استعمل سلاحه الأخير.

ونزل فريدريك في عكا في السابع من شهر أيلول سنة 1228، ورحب به أمراء الأراضي الصليبية في شعور مختلط، فسر بعضهم لرؤيته من أجل القوة العسكرية الإضافية التي جلبها إلى الملكية، ولكن جماعتي الاستبارية والداوية مع رجال الدين لم يكن لديهم الكثر من التأييد ليتفقوا معه، لأنه كان رجلاً

محروماً كنسياً، ولم يكونوا وحدهم في شكوكهم الدينية. غير أن عامة الشعب رحبوا به بحرارة، وذهب شاعر دعي فريدانك في ذلك الوقت إلى اقتراح أن البابا كان على خطأ في حرمانه من السر المقدس، غير أن الشعبية لم تكن بديلاً جيداً عن القوات المدربة، وأنه بدون الجماعات العسكرية لم يكن الإمبراطورية يستطيع الاعتماد على أكثر من أحد عشر ألف رجل، وهو رقم بحد ذاته لم يكن كافياً للهجوم على المسلمين، وعليه إذا تعيين عليه تحقيق أية مكاسب، فإن ذلك سيتم بالطرق الدبلوماسية، أكثر منه عن طريق قوة السلاح.

ولحسن الحظ، كان المسلمون الذين توحدوا لإنزال الهزيمة بالحملة الصليبية الخامسة في حالة شجار مرة أخرى بين بعضهم بعضاً، وبالنتيجة تاق السلطان إلى عقد صلح مع فريدريك كما كان بارعاً لتحقيق أمر مذهل يربك ويخزي به البابا، وكانت هذه الحالة من الأمور عبارة عن إجراء تغييري للتغلب على الحركة الصليبية منذ أول أيامها، أما فكرة تعامل امبراطور محروم كنسياً في طريقة ودية مع حكام مسلمين، بينما كان البابا في روما يصلي من أجل إخفاق جهوده، فقد كانت حالة لا يمكن وصفها، أو التفكير بها في أيام غودفري أوف بويلون، بقدر فكرة سؤال الشيطان لمركز البابوية، ولكن الأسلوب الدبلوماسي وافق فريدريك أكثر من الحرب، رغم تساوي الوضع التفاوضي بين الجانبين تقريباً في الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات الحذرة، وزادت النزاعات في العالم الإسلامي سوءاً مسببة ضعف موقف السلطان، ومحسنة فرص الاستفادة لدى فريدريك، وبالنتيجة عرض الكامل في شباط 1229 شروط اتفاق سلام قبلها الامبراطور، وسلمت إليه مملكة القدس مرة أخرى وبيت لحم والناصرة وجزء كبير من الجليل وبلاد حول صيدا التي بقيت في أيدي المسلمين ولكن قبلة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس أصبحتا مقاطعتين إسلاميتين في المملكة المسيحية، وسمح للحجاج المسلمين بالقدوم الحر إليهما، وأرسل جميع أسرى الحرب إلى بلادهم ليدوم السلام فترة عشر سنوات.

وكان ذلك انتصاراً لفريدريك الذي كان محروماً كنسياً في حين كان يصلي البابا من أجل إخفاق مهمته. ولكن نجح في الفوز في إعادة الأراضي المقدسة إلى العالم المسيحي، حيث أخفق عديدون تحت صفة كاملة من القداسة، ومع بركات البابا، بالإضافة إلى ذلك أنه قد قام بذلك دون إراقة قطرة دم من المسلمين أو المسيحيين، وبعيداً عن شكره استهجن المتدينون في كلا الجانبين الاتفاقية بشدة، واتهم المسلمون المتعصبون السلطان بخيانة الإسلام، في حين ذهل المسيحيون المتحمسون لعلمهم أن موضعين مقدسين لدى المسلمين في القدس تركا في أيدي مؤيدي أعداء المسيح، وبشكل مقبول أكثر، استهجنت الاتفاقية من الناحية العسكرية في إشارة إلى عدم إمكانية التمسك بأراض محتلة جديداً لا يمكن الدفاع عن حدودها بشكل جيد، وأصبح هذا الاستهجان عالمياً تقريباً عندما أعلن فريدريك عن نيته الذهاب إلى القدس وتتويجه ملكاً هناك، لأنه لم يكن ملكاً بل ولياً للعهد، وأباً للملك الشرعي، كما أنه كان رجلاً محروماً كنسياً، وهدد بطريرك القدس بوضع المدينة تحت الحرمة إذا استقبلت الكافر الألماني غير المحتمل، وأرسل رئيس، أساقفة قيسارية إلى القدس ليرى تطبيق أوامره، وعندما وصل رئيس الأساقفة وجد فريدريك في المدينة منذ فترة يومين، وفي غياب قس لم يرضى عن تأدية المراسم، قام فريدريك بتتويج نفسه ملكاً على القدس في كنيسة الضريح المقدس بوضع التاج فوق رأسه.

وكان ذلك انتهاكاً أخيراً، رغم أنه لم يكن تاماً، وبعد تتويج نفسه استضاف فريدريك رجال حاشيته إلى مأدبة طعام دعا إليها عدداً من القادة المسلمين الذي بقوا في المدينة، وتكلم إليهم بالعربية بطلاقة مسلياً نفسه بالتأكيد، وأصر بعد الطعام على زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية فقاده قاضي القدس في طريق عبر طريق دولو روسا إلى منطقة المعبد القديم حيث أبدى إعجابه بقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وفي عدم رغبة منه في جرح مشاعر زائره المسيحي الشهير أخبر القاضي مؤذن المسجد الأقصى ألا ينادي المؤمنين

إلى الصلاة في وقت وجود الامبراطور في القدس، ولكن فريدريك سأل عند المساء عن سبب صمت المنارات، وعندما أخبر بالسبب احتج أن هدف قدومه إلى المدينة كان من أجل سماع دعوات المسلمين إلى الصلاة، وطالب بعدم وجوب تغيير عاداتهم من أجله، وفيما يتعلق بإبراز احترامه لهم عندما رأى قساً مسيحياً تبعه إلى داخل الحرم الإسلامي تحول إليه بغضب وحذره ألا يتجاوز تلك الحدود مرة ثانية وأنه في المستقبل سيعاقب بالموت لمثل هذا التجاوز أو الإثم، وأصغى المسلمون المندهشون في صمت إليه، فإن فريدريك شخص مسيحي مختلف عنهم، ولكنهم لم يعجبوا به رغم تقديم تحياته، ولكنهم مؤمنين ومسلمين مقتنعين، لم يكن في الإمكان أن يفهموا ويعجبوا بمسيحي مؤمن ومقتنع، ولا حتى يدركوا أو يثقوا بهذا الإمبراطور الألماني الصغير السمين، ذي العيون الفاترة، والذي استخف بدينه وعبث بدينهم، دون أن يسلم به، كما لم يكن من هؤلاء أو أولئك، فما الفائدة من ذلك؟

وسرعان ما وصلت أنباء غزو جيش بابوي مقاطعة فريدريك في إيطاليا، فقرر هذا العودة إلى الوطن، وفي الأول من أيار سنة 1229 غادر الأراضي المقدسة متنقلاً إلى الميناء في عكا قبل حلول الفجر كي يتجنب انتباه الناس غير المرحبين به في المدينة الذين تعلموا أن يشمئزوا منه في ذلك الوقت، ولكن شخصاً نشر رحيله في المدينة وفي شارع الجزارين الذي تعين عليه عبوره، وكان مزدحماً بالناس الذين أطلقوا أصوات استهجان ورجموه بقطع من الروث وكتل من الفضلات، وبعد أن سمع بعض البارونات ما اعتقدوا أن يصبح شغباً بالهبوط إلى مسرح الأحداث لاستعادة النظام، ولكن فريدريك علم أن وراء وجوههم الرقيقة وابتساماتهم المهذبة كراهيتهم له، وعندما ودعوه وداعاً لطيفاً قام بشتمهم وجهاً إلى وجه.

وبرهنت أعماله أنها سريعة الزوال، ولكن عندما وصل إلى إيطاليا كان لديه اقتناع بإلحاق هزيمة منكرة بالجيش البابوي، وإجبار البابا على عقد سلام فعلي بالشروط التي يرغبها، فقد كان بارعاً بما فيه الكفاية ليسمح لغريغوري

بحفظ ماء وجهه، ومع ذلك كانت صياغة معاهدة سان جرمانو التي وقعها الاثنان محترمة بشكل مدروس للجلالة البابوية، وفي المقابل رفع غريغوري حكمه بحرمانه كنسياً، وهكذا عاد المستبد الألماني اللامع والغريب وغير المستساغ إلى حد ما، الذي لعنته الكنيسة لتسلمه القدس، من أيدي المسلمين، عاد ورحب بعودته إلى صدرها الفسيح مرة أخرى على أنه «ابنها المحبوب»، واحتفل فريدريك بعودته إلى حالة العفو وذلك بإجراء قداس عظيم للشكر في الكاتدرائية، ألقى الموعظة فيه نيكولاس أوف باري الذي مجد الإمبراطور وامتدحه كرجل مقدس، وأعرب عن رأيه بوجوب معاملته ككائن فوق أي شيء ذي خاصية مشابهة للرب، وتشير الدلائل إلى أن فريدريك وافقه على ذلك بشكل عام.

الفصل العشرون

صوت الفرسان

«من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة.
دخلوا الغابات وصعدوا على الصخور»

إرميا: 4/ 29

في الوقت الذي كان يصعد فيه نجم صلاح الدين فوق العالم الإسلامي كان ثمة نجم آخر على وشك الظهور على مسافة آلاف الأميال فوق أقصى بلاد في أواسط آسيا وأكثرها عزلة. ولكنه نجم مشؤوم قدر له أن يزداد بريقاً بشكل مطرد، حتى سيطر وبعث الرعب في امم العالم بين بحر الصين إلى المحيط الأطلسي، وفي سنة 1167 ولدت زوجة زعيم مغولي صغير اسمها يسوغاي Yesugai ابنها في مخيم في مكان ما على نهر أونون شرقي بحيرة بايكال، وشمال صحراء غوبي، أما والده فكان في ذلك الوقت يقاتل قبيلة في مناطق التتر التي كان رئيسها تيموجين، وبعد أن فاز في القتال، وقتل غريمه عاد تحت جناح الانتظار ليخبر بمولد ابنه، وعندما ذهب ليراه كان الطفل يقبض على علقة دم في يده، ولسبب غامض اعتقدت يسوغاي أن في ذلك تأكيداً رمزياً لانتصاره على التتار، وقررت تسمية الغلام تيموجين بعد موت الرجل، ولكن هذه الأخبار على الأقل رواية تقليدية، ونشأ الطفل في عالم متقشف بين الرعاة البدو في هضاب آسيا حيث شاعت حالات الفقر والبؤس وحياة الحروب القبلية، وكانت سياسة بقاء الأصلح حقيقة من حقائق الحياة. وعندما أصبح الغلام في التاسعة تسمم والده، ولكن الشكر يوجه لعناية أمه حتى كبر وأصبح

يتولى شؤونه بنفسه، وتابع القيام بأعمال تتسم بالفعالية الوحشية والقاسية حتى حقق في خلال سنين قليلة سياسة همجية ساد بها القبائل المغولية، وأخضعها في سلسلة حروب مشتغلة، وفي ذلك الوقت أصبح في التاسعة والعشرين عندما نُصّب خاناً على كل المغول واتخذ لنفسه لقب جنكيز.

وأطلق على جنكيز خان لقب نابليون الهضاب، فمن الناحية الجسمانية كان رجلاً طويلاً ذا عيون تشبه، كما قبل، عيون القطة، كما كان جندياً ورجل إدارة لامع وعبقري، وقد وهبته الطبيعة على ما يبدو قدرة هائلة وقوة عظيمة على الثبات والتحمل، كما كان لديه نوع من النفوذ يسحر به ويسيطره على رجال زمانه الذي امتلكه أيضاً الاسكندر المقدوني وعشرات آخرون خلال العصور، وهم أولئك الذين كانوا ـ من حسن حظنا ـ قلائل، ويكمن معيار إنجازاته أنه أنشأ إحدى أوسع وأكبر إمبراطوريات شهدها العالم، وقد قام بذلك خلال إحدى وعشرين سنة فقط، وربما كانت الإمبراطورية عملاً بطولياً فذاً بالنسبة لحاكم دولة منتظمة جداً، ولها تاريخ طويل حافل بالبراعة العسكرية غير أن المغول كانوا بداة برابرة يفتقرون إلى حكومة مركزية وإلى التنظيم بالإضافة إلى أن تاريخهم الطويل حافل بالحسد القبلي المجزأ، أما صفتهم الوحيدة فهي القساوة لأن حياتهم كانت قاسية مثل الهون قبلهم كانوا يعتلون خيولهم القصيرة بفظاظة ويسوقون قطعان ماشيتهم وأغنامهم التي اعتمدوا عليها المعيشة إلى مراعيهم القديمة إلى الشمال صيفاً، وباتجاه الجنوب شتاء عابرين الصحاري والجبال في طرقهم في شكل حياة تتسم بقلة الراحة والطعام وقلة الهدوء والسكينة لكبح جماحهم، وبعد أن وحد تلك القبائل المغولية في أمة واحدة تحت سلطته عمد جنكيز إلى استخدامهما في السيطرة على قبائل بدوية أخرى وعشائر مختلفة حوله التي كانت معظمها تركية مثل قبيلة كرايت والنيمان والايغور التي قاومت الخضوع والفتح والاستبعاد، ولكنها رضخت واحتفظت لنفسها بتنظيمها القبلي الوراثي تحت سلطة زعمائها في حين كانت تابعة لنفوذ الخان العظيم نفسه، كما أصبح يدعى.

وكان جيشه في أوج زمانه ضخماً حيث اعتاد المؤرخون التحدث عن ضمه نصف أو ثلاثة أرباع المليون رجلٍ غير أن معظم الباحثون هذا اليوم يعتبرون تلك الأرقام مبالغ فيها، وحتى لو كان ذلك فإنه على الأرجح يقارب ثلاثمائة أو أربعمائة ألف رجل قبلي تركي مغولي، معتلين خيولهم الصغيرة السريعة ومسلحين بالرماح والأقواس، وانتظموا في مجموعات من عشرة آلاف رجل يشكلون وحدة تعمل مستقلة بسرعة وحركة دون اعتبار كامل للخطر، أو لا مبالاة بالموت أو دون رحمة، فقد كانت جماعات مرعبة ومنيعة فعلي لعدة سنوات، وكتب المؤرخ النيوزيلاندي ج.ج ساوندرز: «وحتى اليوم، وبعد انحطاط فترة سبعة قرون فهي لا تزال شيئاً رهيباً ومثيراً للرهبة حول هذه القبيلة الأكثر رعباً من جمع الهجمات البدوية على المجتمع المتمدن. . ، إنها سلسلة أحداث عنيفة أنجزت في خلفية مروعة من الدماء والدمار لم يشهدها العالم منذ أيام المذابح الآشورية كما لم تر مرة ثانية حتى قدوم ممثلي الإبادة الجماعية النازيين الذين قتلوا ملايينهم في عهدنا الكئيب[1]»، وليست هذه مبالغة، ففي حزيران 1222 قوضت بعد حصار مدينة هراة الكثيرة السكان، والكبيرة في أفغانستان التي نهضت في ثورة ضد أمرائها المغول، وذبح جميع سكانها البالغين عدة مئات من الألوف رجالاً ونساء وأطفالاً كتحذير ضد التمرد أو ثورات أخرى ممكنة واستمر القتل أسبوعاً، ولم يدع جنكيز خان نفسه «سوط الرب» عبثاً حيث كانت قسوته جزءاً من سياسته المدروسة في نشر الرعب أمامه، ولذا خاف الناس الذين هاجمهم بمجرد ذكر اسمه وكانوا مستعدين للخضوع قبل ذلك أيضاً.

وبعد أن عزز حكمه بشكل فعلي على جميع القبائل البدوية في آسيا الوسطى، حول جنكيز انتباهه إلى شمال الصين وفي سنة 1215 فتح الامبراطورية الصينية وعاصمتها بكين، وأخضع في السنين التالية بقية

(1) يقتضي الحال إضافة المذابح التي قامت بها الصهيونية في فلسطين والشرق الأوسط.

المقاطعات والدويلات الصغيرة في آسيا الشرقية، وفي سنة 1219 تحول إلى الغرب وقام بغزو الامبراطورية الإسلامية للأتراك الخوارزميين، التي امتدت من نهر الهندوس شرقاً إلى الخليج العربي غرباً وخوزستان جنوباً وروسيا شمالاً، ورغم حقيقة أن الأمير المسلم محمد شاه تمكن من وضع أربعمائة ألف رجل في المعركة، إلا أن جنكيز هزمه هزيمة تامة، وبعث سقوط هاتين الامبراطوريتين رعشة خوف سرت خلال العالم، وخاصة في العالم الإسلامي، فإذا كانت مثل تلك الدول التي كانت تعتبر كل منها دولة تامة القوة، غير قادرة على الدفاع عن نفسها فأي أمل بالخير للناس كباراً وصغاراً؟ وحاول المسيحيون التأكيد لأنفسهم ألا خوف عليهم لأنه سرى الاعتقاد أن المغول - إن لم يكونوا مسيحيين فهم على الأقل يحتقرون بشكل مرضٍ المسيحيين، ولكن عندما غزوا مملكة جورجيا المسيحية في أوائل السنة الجديدة من 1221، وهزموها تماماً أصبح المسيحيون خائفين مثل أعدائهم المسلمين، وقبل أن يموت، أرسل جنكيز جيشه في غارة عدائية ضخمة إلى أعماق روسيا الجنوبية، حيث دمرت جيشاً روسياً كبيراً على ضفاف نهر الكلكا، ونهبت الكثير من الغنائم من الأوكرانيين والكريميين قبل تقهقرها، وحاول الناس مرة ثانية التأكيد لأنفسهم أنها مجرد غارة فريدة لا يمكن أن تتكرر، وعندما جاء خبر موت جنكيز في سنة 1227 شعروا بعد ذلك مباشرة أن الوضع السيء قد انتهى، غير أنهم كانوا على خطأ.

وبعد سنتين من التنافس الحكمي على التوالي أصبح أحد أبناء جنكيز واسمه أوكتاي امبراطوراً (خاناً) عظيماً مكان أبيه، واتضح مباشرة للجميع أنه قاصد في تبني نفس سياسة والده في التوسع الإمبراطوري، وأنه لن يفسح مجالاً للحريات أن تجري مع سلطته، وفي الحال عاقب بعض المتمردين الصينيين واضطهد بوحشية تامة الأتراك الخوارزميين الذين استغلوا فرصة موت جنكيز للثورة، وفي 1237 غزت الجماعات المغولية روسيا الجنوبية مرة ثانية، وبعد عدة أعوام إجتاح المغول أوكرانيا وبولندا وقاموا بأعمال قتل ونهب

وتضييع ثروات، ووصلوا إلى لاينتز Liegnetz في سليسيا غرب بريسلوا على مسافة خمسة وستين ميلاً حيث هزموا القوات المشتركة لملك بولندا وفرسان التيوتون في شرق ألمانيا، حتى لم يعد بينهم وبين أوروبا الغربية شيء يذكر، غير أن المغول تحولوا إلى جهة الجنوب ودمروا مورافيا وهنغاريا أوكرانيا حتى ساحل البحر الأدرياتيكي، حيث أنقذ موت أوكتاي المفاجئ بقية أوروبا من قدر مشابه. وعندما هدأ الغزو المرعب أخيراً تراجع ضجيج الفرسان المغول إلى داخل آسيا، وتركت روسيا الجنوبية تحت سيطرة الجماعة الذهبية، مذكرة بقية بلاد أوروبا بالقدر الذي نجت منه تقريباً إلى حد ما.

أما الدين الرسمي للمغول فقد كان دينا بدائياً هو عقيدة الكهنة والرهبان الشامانيين الذين اعتقدوا أن العالم آهل بأعداد كبيرة من الأرواح الشريرة والخيرية التي يمكنها السيطرة على العالم بالسحر عن طريق أولئك الكهنة، أما المسيحيون النساطرة فقد انتشروا بشكل واسع خلال آسيا خلال القرون السابقة، وقد نال العديد منهم مناصب هامة في الإمبراطورية المغولية، وشجت النسطورية كبدعة في القرن الخامس لادعائها بمبدأ يقول إن للمسيح طبيعتين الأولى ناسوتية والثانية لاهوتية بينما دافع بقوة رجال الكنيسة التقليدية (الأرثوذكسية) عن المسيح في أنه شخص واحد له طبيعتان ربما تكون الأولى مغفوراً لها لأجل التفكير في أن هذا الاختلاف اللاهوتي بين النساطرة الأوائل وخصومهم التقليديين (الأرثوذكسيين) هو أكثر من قضية تعريف لفظي منه إلى المادة أو البنية الخطيرة، ولكن لم يفكر أحد مثل ذلك في ذلك الوقت، ولذا كان النساطرة مضطهدين بشكل خطيرة، ومع ذلك فإنهم وجدوا في آسيا ملجأ لهم من معذبيهم، وتطورت الكنيسة النسطورية، ومال جنكيز نفسه إلى تأييد المسيحيين النساطرة والتعاطف معهم كما تزوج بعض أبنائه أميرات نسطوريات من قبيلة تركية دعيت الكرايت التي تحولت إلى الديانة المسيحية قبل قرنين من الزمن، وكان حاكم الكرايت في أيام جنكيز رجل دعي طغرل، وبدا في ذلك الوقت أنه اتخذ لقب أون خان، ولعلها تحريف عن جوهان Johann الذي

أحدث أسطورة برستوجون Presterjohn الملك الشرقي المسيحي القوي العظيم الذي زحف نحو الشرق، لإبداء المساعدة لإخوانه المسيحيين في صراعهم ضد الإسلام.

وليس في الإمكان المبالغة في تأثير أسطورة بريستر جون، بسبب أنها كانت ما أراد المسيحيون في الغرب أن يؤمنوا به، كما كان من الصعوبة بالنسبة لأي شخص الشك في وجود إمبراطور مسيحي يساعدهم في تدمير العالم الإسلامي في مكان ما بعيد ومجهول في أعماق آسيا، وكتب أسقف من عكا إلى البابا حول هزيمة الأتراك الخوارزميين يخبره أن الحرب في آسيا الوسطى تستعر من «قبل ذلك الذي يناديه الناس برسترجون»، وتقبلت تدريجياً مع مرور الأيام فكرة احتمال موت بطل الأسطورة، وبقي الإيمان في الحقيقة المستمرة لقوة مسيحية عظيمة في آسيا ثابتة كالسابق، وفي الواقع كانت فكرة هامة جداً إلى درجة أنها كانت أحد الأسباب الرئيسية للحملة الصليبية التالية التي حدثت من جهة أولى على الأقل كيلا تضيع فرصة الهجوم على العالم الإسلامي في الوقت الذي كان يتوفر فيه ذلك الحليف القوي لتقديم المساعدة في دماره، كما لم يكن لويس التاسع صاحب فرنسا مستعداً وراضياً لأخذ الصليب فحسب بل تواقاً أيضاً للقيام بتأدية الشكر لشفائه من مرض خطير، وأن الوقت قد حان لذلك دون شك، وفي آب 1248 أبحر من أجيوس ـ مورتين إلى الغرب من كامارجس بينما ركب جيشه المؤلف من خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف رجل من الميناء القديم في مرسيليا وهم ينشدون نشيداً صليبياً قديماً تحت عنوان الروح الخالق.

ومضت ما يقارب عشرين سنة منذ رحيل الامبراطور فريدريك هوهنستاوفن وترك الأرض المقدسة وسط الملاحظات الساخرة والإهانات من قبل الشعب في عكا، وكانت تلك الفترة عبارة عما دعي بـ «الفوضى القانونية»، ضاعت خلالها عشر سنين من السلام ضمنتها معاهدة فريدريك مع السلطان في حرب أهلية، وانفجرت بعدها حرب جديدة مرة أخرى بين الإفرنج

في المماليك الصليبية وجيرانهم المسلمين، ودعمها وجود جيش ضخم من الأتراك الخوارزميين الذين نجوا من تدمير المغول، وفي صيف عام 1244 اجتاح عشرة آلاف فارس تركي بلاد الجليل وهاجموا القدس التي سقطت في أيديهم بعد صراع قصير، فنهبوها بدون رحمة، وتبع سقوط القدس وقوع معركة مفجعة في غزة عندما هزمت قوة من المصريين والخوارزميين الجيش المسيحي بشكل مزعج، ولحسن الحظ أنه كان لدى المنتصرين مشاكل خاصة بهم، وأنقذ النزاع المرير في المعسكر الإسلامي، المسيحيين من خذلان تام، وتراجعوا إلى داخل مدينتهم الساحلية المحصنة حيث كانوا قادرين على الصمود في الوقت الذي تحول فيه أعداؤهم من الهجوم عليهم إلى قتال بعضهم بعضاً.

وكان لويس التاسع ابناً للويس الثامن وحفيداً للملك فيليب أوغسطس مات والده عندما كان في الثانية عشرة، وأصبحت أمه الملكة بلانش أوف كاستيل التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصية على العرش خلال سن قصوره، وقد نشأ ليصبح رجلاً دينياً بشكل عميق ومخلص حتى إن فولتير اعتبر الاعتراف المتعاقب به كنسياً أمراً مسوغاً، وكان في الرابعة والثلاثين عندما أبحر إلى الشرق، واتصف بطول جسمه النحيف وشعره الأشقر، وضعفه قليلاً، ولكنه كان ذا قوة شخصية هائلة، ووصف بأنه أكثر ملوك العصور مثالية، فقد كان فارساً بارعاً مغواراً في القتال، وبطلاً عنيد العداوة غير متحيز عند تأكده من عدالة قضيته، وناسكاً مكرساً نفسه لخدمة الرب كأكثر الناسكين والزاهدين، كان يصوم بانتظام، ويحب الخطب والمواعظ كما كان يستمع إلى قداسين يومياً، وجميع الطقوس الدينية الأخرى، وينهض عند منتصف الليل كل ليلة ويهيء للصلاة Mattins في كنيسته ويطوف بنفسه حتى عند الارتحال على ظهر دابته يغني مع الكهان كل الساعات، أما في الصيف فهو لطيف وساحر بالنسبة لأصدقائه حيث يتقرب إليه الرجال بسهولة، ورغم جميع هذه الفضائل والمزايا فإن لديه جانباً آخر من شخصيته كان لا يروق كثيراً للآخرين، فهو بين الحين

والآخر كان يصب جام غضبه في شكل ثورة غاضبة، وربما بلغ من الصرامة إلى نقطة لا تحتمل مع أولئك الذين اعتبرهم أشراراً، وفوق ذلك كان أباً مستبداً بالنسبة لأطفاله وزوجاً قمعياً بالنسبة لزوجه مرغريت أوف بروفنس، ذات الروح السامية والمرحة كثيراً.

ولعل مرغريت كان لديها شعوراً بالمرح بالنسبة لزوجها، ويخبرنا جوان أوف جونيفيل مؤرخ الأحداث الرئيسي للحملة الصليبية السادسة بقصة تبدي كثيراً من هذا الجانب:

«لا بد أن تعلم ـ عزيزي القارئ ـ أن الملكة سمعت أني كنت في رحلة طويلة للحج، وقد جلست معي بعض الآثار المقدسة وأرسلت لها مع أحد الفرسان أربع قطع من قماش مخملي (قماش ناعم من الحرير ووبر الجمال) اشتريتها من أجلها، وعندما دخل الفارس جناحها ركعت على الأرض أمام قطع القماش التي رزمت بقطعة قماش من الكتان الأبيض، وجثا الفارس عندما رأى الملكة تفعل ذلك على ركبتيه فوق الأرض، وقالت له: «انهض أيها الفارس الطيب إنه ليس من اللائق أن تجثو على الأرض وأنت حامل هذه الآثار» وأجابها الفارس «سيدتي! إنها ليست آثار مقدسة بل قطع من قماش مخملي أرسلها سيدي» ولدى سماع الملكة ذلك الكلام انفجرت ومعها بقية السيدات في الضحك، وصرخت قائلة: «ليأخذ الشيطان سيدك لجعله إياي أركع من أجل رزمة قماشي مخملي ناعم».

ولكن هذا الحس الفكاهي لدى مرغريت لم يكن الشيء الوحيد الذي جعل زواجها من لويس صعباً. فقد كانت والدة الملك الملكة بلانش حماة لا تطاق كما اعتقد جوان أوف جونيفيل.

«وكانت الملكة بلانش تعامل الملكة مرغريت بقساوة حادة جداً إلى درجة أنها لم تسمح لابنها في رفقة زوجه.. وكان القصر الذي أحب الملك الشاب وزوجه العيش فيه في بونتوا. وهناك كانت غرفة الملك في الطابق

الأعلى أما غرفة الملكة فتحتها تماماً، وقد رتبا أمرهما بحيث كلما رأى الحاجب الملكة بلانش تقترب من مكانهما يسارع إلى قرع باب الملكة بأعصيتهم المميزة وبذلك يولي الملك الأدبار بسرعة ليصعد إلى غرفته، وهكذا تراه والدته هناك. ومرة كان الملك إلى جانب زوجه في وقت خطير بسبب الجروح التي أصابتها في الولادة فقدمت الملكة بلانش إلى غرفتها وأخذته من يده وقالت له: «ابتعد من هنا أنه ليس من شأنك أن تتواجد هنا» «فصرخت الملكة مرغريت لدى رؤيتها الملكة بلانش تبعد الملك قائلة: «سواء أكنت حية أو ميتة فإنك لن تدعيني أرى زوجي».

أبحر لويس والأسطول الفرنسي إلى قبرص التي وصلها في منتصف أيلول وكان وضع خططه بعناية تامة وجمعت كميات هائلة من الخمور والحبوب في الجزيرة في انتظار وصوله، ووصول جيش الممالك الصليبية الذي قدم لملاقاته هناك، ولم يستغرق وقت طويل ليقرر لويس والأمراء القادة أن هدفهم العسكري فتح مصر التي كانت أضعف عقدة في سلسلة دفاعات العالم الإسلامي كما كانت جائزة ثرية بما يكفي لإغراء أي فاتح، وقد رغب لويس القيام بالهجوم عليها مباشرة، ولكنه اقتنع بعدم المخاطرة في ركوب البحر في الوقت الذي ما زال يحتمل فيه هبوب عواصف الشتاء وتوقف الجملة كلها من أجل تمضية الشهور القليلة القادمة في قبرص، وقبل حلول عيد الميلاد ابتهج الجميع بوصول مبعوثين من القائد المغولي في الموصل حاملين رسالة مليئة بالتحيات وتعابير التأييد للحملة المسيحية ضد المسلمين، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يحصل يها الاتصال مع المغول، فقد أرسل انيوسنت الرابع الذي أصبح بابا سنة 1234 سفيره مع راهب دومينيكاني جون أوف بيان الكاربيني إلى بلاط الخان العظيم كي يهديه إلى العقيدة المسيحية الحقة، وبعد تكبد رحلة مغامرة عبر روسيا وهضاب آسيا وصل إلى قراقورم حيث رحب به الرجل العظيم نفسه بكل لطافه. ولكن حالما كشفت محتويات رسالة البابا إليه صرف جون من المكان بأسلوب فظ، محملاً إياه رسالة إلى البابا تأمره

بالاعتراف بالخان العظيم كسيد له، وتخبره بالقدوم وأداء البيعة له، وبسبب تلك السابقة غير المشجعة قام لويس بالترحيب بالسفراء المغول بحرارة. وأرسل في الحال مبعوثه إلى بلاط الخان العظيم مع توجيهات السعي لحلف عسكري معه، وعين راهب دومينيكاني دعي أندور من لونجومير كان يتكلم العربية بطلاقة كسفير أول، وانطلق هذا كما ينبغي في رحلة طويلة تفوق مسافتها أربعة آلاف ميل إلى صحراء غوبي، ولكن نجاحه لم يكن بأعظم من جون أوف (بيان الكاربيني) واستقبل بكل لطافة، كما قبلت هداياه بشكل لبق، وعاد برسالة تقترح إمكانية رغبة لويس في إرسال أتاوات إلى الخان العظيم سنوياً، وخاب أمل الملك بشدة ولم يتخلى عن أمله في استخدام مساعدة المغول في حرب ضد الإسلام في المستقبل، وفي أثناء ذلك حان الوقت بالنسبة له لمغادرة قبرص والإبحار إلى مصر.

ولم يكن الأمر سهلاً كما توقع لأنه كان ثمة نقص في السفن ومع منتصف سنة 1249 جمعت مراكب كافية لنقل الجيش إلى مصب نهر النيل، غير أن عاصفة بحرية شتتهم خلال مسير رحلتهم ووصل الملك مع بعض رفاقه قبل أن يتمكن الأسطول من التجمع ثانية وترقبهم الجنود المسلمون المدافعون عن الساحل ورفض لويس انتظار الجيش الرئيسي قبل محاولة الترجل إلى البر، وترجل من السفن مع رجاله وخاضوا إلى الشاطئ للاشتباك مع العدو، فنشأت معركة عند الساحل ورغم قتال الإفرنج بدون طائل، كان لا يزال البعض يتخبط في مياه البحر، ،صد الانقضاض القوي الأول للفرسان المصريين، وتدبروا أمرهم بإقامة رأس جسر ساحلي، ورغب لويس في قيادة هجوم معاكس مباشرة غير أن رؤساء أشد هدوءاً نصحوه بالعدول عن ركوب مخاطر غير لازمة وسرعان ما برهنت الأحداث صحة نصيحتهم، وكان فخر الدين ابن الشيخ، القائد المسلم، صديقاً للإمبراطور فريدريك الثاني، وقد كبر قليلاً عن القيادة العسكرية في المعارك، رأى إخفاق هجمات فرسانه فأمر رجاله بالانسحاب في سلام من أسوار دمياط، وعندما وصل المدينة وجد المواطنين في حالة فزع

وبدلاً من شحذ همتهم من جديد، قرر التخلي عنهم وعن المدينة وتركهم لقدرهم.

ولما رآه سكان المدينة يخرج مبتعداً استنتجوا أن كل شيء خلفه وراءه إلى خسارة، ونقلوا معهم أكبر عدد من ممتلكاتهم مخلفين جسراً من الزوارق فوق نهر النيل سليماً دون أذى، وعندما وصل الإفرنج بعد ساعات وجدوا المدينة مهجورة وأبوابها مفتوحة، فكادوا لا يصدقون ما رأت أعينهم. هذا واستغرق صليبيوا الحملة الخامسة أربعة عشر شهراً للاستيلاء على دمياط، وكان كل ما تعين على هؤلاء عمله أن ساروا عبر الجسر للاستيلاء على المدينة، ولم يكن مدهشاً لدى دخلوهم المكان قيامهم بغناء أنشودة فيها تأدية تسبيحة الشكر لانتصارهم.

كان لويس محظوظاً لكنه لم يكن لديه نية في ارتكاب غلطة بيلاغيوس في غزو مصر بينما كان النيل في حالة فيضان، ولذا مكث في دمياط في انتظار انخفاض النهر، وكان هذا قراراً صائباً غير أنه ترك الجيش تحت رحمة العطالة ووطأة صيف مصر، ولم يقم الصليبيون بأي شيء مفيد في حين كان الطعام إلى نقصان متزايد، كما أخذ المرض دوره وتضررت معنويات الجنود، وعندما بدأت مياه النهر بالانخفاض بدأ شعور بالراحة وزاد لدى إعطاء الأوامر في منتصف تشرين الثاني بالتقدم نحو القاهرة، ووصلت أمدادات جديدة كان من بينها جيش صغير من الصليبيين الإنكليز تحت قيادة ايريل منطقة سالسبري، وأعداد أخرى من الفرنسيين تحت قيادة أخي الملك الأصغر الفونسو أوف بواتو وبذلك ارتفعت معنويات الجميع عندما زحف الجيش خارجاً من دمياط، جاء ذلك مرة أخرى ليبرهن عن مشاركة الرب فقد مات السلطان المس بعد ثلاثة أيام، وكان أحد أحفاد صلاح الدين وحمل اسم العائلة «أيوب» ولم يكن رجلاً محبوباً، ولكنه كان حاكماً قديراً، وكان فقدانه عبارة عن نكبة فاجعة للمصريين لولا الاجراء المباشر من زوجة الأرملة السلطانة التي كانت أصغر من زوجها الأخير، وقد كانت أمه أرمنية الأصل، أما اسمها فكان شجرة الدر

وبتستر من بعض موظفي القصر ووزراء الدولة بما فيهم فخر الدين أخفت حقيقة موت السلطان، وبقي المماليك يقدمون ويذهبون كالعادة ووقعت المراسيم، وأجيب عن المطالب واستمرت أعمال الحكومة تصرف يوماً بعد يوم كما أن السلطان ما زال حياً يرزق، ولم يحرز أحد خارج نطاق الدائرة الصغيرة من أصدقاء السلطانة أن أيوب المسن في قبره، وعندما انكشف أخيراً سر شجرة الدر كانت مع فخر الدين قابضين على السلطة بقوة وبشكل متين، وتم حل الأزمة التي كانت ستحدث بسبب موت السلطان، ومع ذلك فعندما سمع الصليبيون بموت أيوب رأوا أن يد الرب قد زالت عن قائد حشود الشيطان.

كان تقدم لويس حذراً لأن طريقه كان متشابكاً بالقنوات، ولم يعتزم أن ينخدع حرسه عندما عبر الجيش تلك الطرق المائية الواحدة بعد الأخرى، ووراء معظمهم العدو والبحر الصغير، وهو فرع من النيل نفسه، وعندما وصل الإفرنج إلى المكان قبل عيد الميلاد أصدر لويس أوامره إليهم بإقامة معسكر فوق الضفاف المقابلة لمدينة المنصورة، وحاول الصليبيون لفترة ستة أسابيع إقامة سد على النهر يُمكنهم من عبوره غير أن المصريين أمطروهم بالقذائف والحجارة الكبيرة، والنيران الإغريقية في وقت عملهم، ورغم أنهم انتقموا بشكل بسيط غير أن بعض التقدم تم وأجفلتهم النيران الإغريقية كثيراً، ووصف جوان أوف جونيفيل طيرانها خلال الهواء «مثل علبة كبيرة ذات ذيل طويل في طول الرمح، وبدت وهي تصدر ضجيجاً مثل الرعد، مثل التنين. . . أما في الليل فتنشر ضوءاً قوياً إلى درجة تمكن من رؤية الأهداف في معسكرنا بوضوح كما في النهار»، وكانت النيران الإغريقية تحدث دماراً هائلاً في آلات الحصار الخشبية، وتنزل افدح الخسائر وتعين التخلي أخيراً عن محاولة إقامة سد عبر النهر، وإيجاد وسيلة أخرى للهجوم على العدو.

وقد أتى بها شخص مصري قدم إلى المعسكر وعرض على الصليبيين أن يريهم مخاضة عبر البحر الصغير إذا دفعوا له خمسمائة قطعة ذهبية مسبقاً،

وكان الرجل صادقاً في كلمته، وعند فجر يوم الثلاثاء الموافق 8 شباط 1250 قاد لويس القسم الأكبر من جيشه عبر النهر في حين قام بحراسة المعكسر دوق برغندي، وتم العبور ببطء، ورغم الأوامر الصارمة ألا يتم الهجوم على العدو حتى يعبر الجيش كله قرر أحد إخوة لويس واسمه روبرت أوف ارتو تجاهلها، وعلى أمل أن يتخذ المبادرة تجاه العدو، قاد هجوماً من ألف وخمسمائة فارس ضّد المعسكر المصري في الوقت الذي كان فيه باقي الصليبيين يخوضون القناة، وبدأ الهجوم أول الأمر ناجحاً بشكل باهر، فقد كان المصريون غير متيقظين تماماً كما كان بعضهم ما زال نائماً بينما كان آخرون متجردين من بعض ملابسهم، كما كان فخر الدين يخضب ذقنه بالحناء بعد حمام الصباح، عندما خرج فرسان فرنسيون وفرسان الداوية وايريل أوف سالسبري ورجاله في قفزة كبيرة بين ظهرانيهم، وقتل فخر الدين وفر أولئك الذين نجوا من نفس القدر في حالة فزع في اتجاه المنصورة بحثاً عن الأمان.

ولو أن روبرت أوف ارتو انتظر أخاه لويس لينضم إليه عند تلك النقطة كما حثه على ذلك المقدم الأكبر للداوية ووليم أوف سالسبري لكان تاريخ الحملة الصليبية شيئاً مختلفاً تماماً، غير أن رفض وبدلاً عن ذلك اتهمهما بالجبن وانطلق خلف المصريين الناجين وتبعه فرسان الداوية وسالسبري، وكان ذلك خطأً فادحاً. وعندما تدفق الفرسان المسيحيون إلى داخل الأزقة الضيقة في المنصورة أصبحوا أهدافاً لأعدائهم الذين قذفوهم بقطع الأثاث وأوعية الزيت والخمر وأي شيء وقع تحت أيديهم على رؤوسهم، بينما هاجمهم آخرون في مكان محصور من الأزقة الضيقة في المدينة حيث قاومت بعناد، وتراجعت الخيول وصهلت عالياً من الخوف، ولم يعد لديهم مجالاً للمناورة، حتى لم يبق من المئتين وتسعين فارساً غير خمسة فقط، وقتل وليم أوف سالسبري وجميع رجاله الانكليز وحبس روبرت أوف ارتو ورجاله المقربون إليه في منزل حيث قاتلوا مدافعين بكل ضراوة وشجاعة، غير أن الأعداء كانوا أعظم وهزموا وذبحوا عن آخر رجل منهم.

ونقلت أنباء هذه الهزيمة الفاجعة في شوارع المنصورة من قبل رجل باق مجروح في المعركة. أما كونت بيتر أوف بريتاني فقد عاد الوقت المناسب بالنسبة للملك الذي رتب جنده فوق ضفاف البحر الصغير في استعداد لمقابلة هجوم محتوم منتظر كثيراً، وهجم المماليك تحت غطاء من وابل من السهام التي جرحت أو قتلت عدداً كبيراً من الرجال الفرنسيين الذين صمدوا وأمر لويس بهجوم معاكس من قبل الفرسان المسيحيين المدججين بالسلاح، وانحسر القتال في النهار ولم يكن لدى أحد أية فكرة عمن فاز ومن خسر، وترك جوان أوف جونيفيل الذي قاتل في تلك المعركة وصفاً حياً للقتال مثل سلسلة من صور ملونة بحبر داكن:

«وأصاب فريدريك أوف لوبي رمح دخل بين كتفيه وقد أحدث جرحاً بليغاً تدفق من أثره الدم فوق جسده مثل ثقب في برميل، كما أصابت ضربة من سيوف العدو منتصف وجه ايرارد أوف سايفيريري. فقطع أنفه الذي تدلى فوق شفتيه. وفي تلك اللحظة خطرت إلى بالي فكرة عن القديس جيمس فصليت له.. كان المسلمون يضربون ويجرحون المسيحيين بالسيوف والقضبان الشائكة وبدأوا يضطرونهم إلى التراجع إلى النهر، وكانت الهزيمة تامة إلى درجة أن عدداً كبيراً من رجالنا حاولوا السباحة عبر النهر للانضمام إلى دوق برغندي، ولكنهم لم يقدروا على فعل ذلك لأن خيولهم كانت مرهقة، كما غلب عليهم الشعور بالحرارة الهائلة، وهكذا عندما كنا نهبط مجرى الماء باتجاههم رأينا النهر محملاً بالرماح والترسة والرجال والخيول غرقى في المياه.. يتقدمون باتجاهنا في الوقت الذي كنا نمسك بالجسر، وقدم الكونت بيتر أوف بريتاني الذي قطع سيف أنفه وجرى الدم إلى فمه وهو معتل ظهر جواد صغير لطيف ولكنه قذف بلجامه فوق القربوس الذي كان يقبض عليه بكلتا يديه خوفاً من أن يخرجه رجاله الذين كانوا يتبعونه قريباً منه من أجل الراحة، وعندما عبر الجسر الضيق. بدا أنه متضايق منهم لأنه عندما بصق الدم خارج فمه ظل يصرخ «أيها الرب الطيب! أرأيت من قبل مثل هذه الحثالة».

وعند نهاية النهار ادعى كلا الجانبين النصر حيث ادعى المصريون الذين تقهقروا في ترتيب جيد إلى داخل المنصورة، بفوزهم بتكبيد أعدائهم خسائر فادحة ومنعهم من الاستيلاء على المدينة، في حين اعتبر الصليبيون أنفسهم منتصرين لأنهم قتلوا فخر الدين وكثيرين من رجاله ودمروا معسكرهم وفازوا بموطئ قدم عبر البحر الصغير، غير أن الوقت كان في صالح المصريين وعندما مضت بضعة أسابيع اتضح أكثر فأكثر أنه حتى لو لم يخسر الصليبيون معركة المنصورة، فإنهم على الأقل في خطر خسارة الحرب نفسها، ولم تتحقق الثورة المنتظرة ضد حكم المرأة في حكومة السلطانة في القاهرة التي ترقبها الصليبيون وشاركوا فيها، وفي شباط ظهر في المعسكر المصري ابن السلطان الأخير والوريث وهو شاب اسمه تورانشاه الذي كان يمثل نائباً للسلطان السابق على مسافة ثمانمائة ميل في الجزيرة في وقت موت والده بعد أن نودي به سلطاناً دون إحداث شجار مع زوجة أبيه شجرة الدر.

وأثار وصوله نشاطاً في المصريين، ونظمت بسرعة موانع للمنبسطات المنخفضة في نهر النيل كما دمرت معظم الزوارق التي كانت تنقل المؤن إلى معسكر لويس، أو تم الاستيلاء عليها، وعلى الرغم من أن عدداً قليلاً وصل إلى الداخل لكن الطعام بدأ يقل، وفي شهر آذار تم الاستيلاء على قافلة تزيد على ثلاثين سفينة، ولم يتمكن أحد من الفرار، واتضح إنه إذا بقي الصليبيون حيث كانوا فسيكابدون الجوع، وفي الواقع كان هناك شيء شبيه بالمجاعة في المعسكر وسرعان ما تلت ذلك أزمات أمراض الزحار والتيفوئيد، وفي نسيان اضطر لويس إلى الاعتراف بالهزيمة ويبدأ التراجع عن المنصورة، وحالما رأى المسلمون أعداءهم يغادرون المعسكر عند أسوار المدينة انطلقوا في مطاردتهم. وكانت الرحلة بالنسبة للصليبيين كابوساً مزعجاً فمعظمهم مرهقون جداً أو مرضى لا يستطيعون القتال. ورغم أن لويس أبلى بلاء حسناً في قيادة مؤخرة الجيش التي كانت موضع خطر كبير بعد مسير الأيام الأولى فقد سقط مريضاً ولم يعد باستطاعه التحمل في اليوم التالي. وبقي ثمة سبيل واحد

مكشوف بالنسبة لأولئك الذين تولوا القيادة مكانه هو الاستسلام فاستسلموا.

ولم يكن غريباً أن السلطان الشاب تورانشاه ومعه الملك لويس والجيش الصليبي كله كسجنائه، كان متباهياً بنصره، وفي الحقيقة فقد كان لديه كثير منهم إلى درجة أنه لم يدر ما يفعل بهم، وكان الشعور بهذا الحشد الهائل من الأسرى أمراً محيراً، وقد حل مشكلة العدد الأكبر منهم باللجوء إلى حيلة بسيطة بقطع رؤوس ثلاثمائة شخص كل يوم، ورغم أن الملك نفسه ونبلاء آخرون قد هددوا بانتظام بالموت ما لم يوافقوا على مختلف المطالب المرفوعة إليهم، وكان تورانشاه حذراً في تنفيذ حكم الإعدام بالرجال العاديين الذين لا وزن لهم، في حين أبقى على أولئك الذين يمكن أن يفادي بهم لقاء مبالغ من المال، لكنه مع ذلك لم يكن رجل تخطيط بارع، ولذا لم تدم طويلاً أيام انتصاره كما اعتدى بشكل سيء على شجرة الدر، وعادى المماليك بمعاملتهم بغطرسة عرضية لم يفكر بها والد أيوب لإخضاعهم، وكان هذا العمل يتسم بالغباء والخطر، وعندما بدأ في تعيين بعض أصدقائه من الجزيرة في مناصب كان يفكر بها المماليك دوماً لادخارها لأفراد مجموعاتهم المختارة، فإنه ختم بنفسه على ورقة قدره، وقرروا التخلص منه، وقتل بوحشية تامة بعد مأدبة طعام، وقذفت جثته باحتقار في الوحل إلى جانب نهر النيل كما لو أنها فقدت أهميتها أو هي جثة كلب. وكان ثمة محرض رئيسي في جريمة قتل تورانشاه هو مملوك رفيع المستوى من أصل تركي دعي ركن الدين بيبرس البندقداري قدر للصليبيين أن يسمعوا عنه الشيء الكثير.

ولم تؤد جريمة السلطان وهو آخر أفراد سلالة صلاح الدين في حكم مصر، إلا إلى شيء بسيط من الاختلاف بالنسبة للإفرنج، واستلم مكان تورانشاه أحد المماليك الكبار متستراً على اغتصابه السلطة بقناع من الشرعية، وذلك بالزواج من شجرة الدر الرهيبة. وتعين على المسيحيين أن يستمروا في المفاوضات من أجل إطلاق سراحهم مع هيئة جديدة من السجانين، ولم يكون في وضع يسمح لهم بوصف الظروف ولكنهم كانوا يمسكون بورقة رابحة مع

كل ذلك، فإن دمياط لم تستلم وبقيت في أيدي حامية تركت هناك من قبل لويس عندما سار الجيش إلى المنصورة، كما بقيت زوجة الملك، الملكة مرغريت هناك أيضاً فقد كانت حاملاً. وبعد ثلاثة ايام من وصول أنباء استسلام زوجها إلى المدينة ولدت صغيرها، وساعدها في عملها فارس قديم كان حسب ما أورده جوان أوف جونيفيل «لا يقل عن ثمانين عاماً وربما أكثر، وفي كل مرة صرخت كان يمسك يديها ويقول «سيدتي لا تخافي إلى هذا الحد. فإني معك» ولدت بأمان صغيرها بمساعدة تلك القابلة البعيدة التوقع إلى حد ما، أخبرت باستعداد رجال الحامية تحت قيادة البيزيين والجنويين للنجاة بأنفسهم بالإبحار بعيداً عن المكان ما دام الوقت متسع لذلك، وأرسلت إلى قادتهم تناشدهم البقاء وعرضت عليهم فكرة إطعامهم جميعاً على حسابها أن هم وافقوا، وأدى اجتماع شجاعتها وكرمها بشكل كاف إلى جعلهم يتراجعون عن قرارهم، وبدونها كانت المدينة مفقودة وكما في الواقع، كان لدى الملك لويس على الأقل دمياط التي يمكن أن يساوم بها حكام مصر، المماليك.

ومع ذلك كان هذا كل ما علمه وأعداؤه عن ذلك، وقد استخدموا ميزاتهم بكل وسائل القوة وأبقوا على سيل من التهديدات ضد حياة لويس وأرواح الآخرين، وفي إحدى المرات اقتحم بعضهم فسطاطة حيث كان الملك وبعض نبلائه القادة ومنهم جوان أوف جونيفيل وسجنوا هناك، وكان في أيدي أولئك سيوف مجردة كما حملوا فؤوس قتالية دانمركية فوق أكتافهم وتحدثوا بصوت عال عن ضرب أعناقهم جميعاً ، وخاف جوان أوف جونيفيل كثيراً إلى درجة أنه سقط إلى الأرض. وأشار بالصليب على نفسه واستعد ليموت في حين ركع حاكم قبرص غوي أوف ايبلين إلى جانبه وقام بالاعتراف بذنوبه، ويسترجع جوان كيف قال الحاكم الخائف «أني أحلك من أية تبعة بقوة كبيرة منّ الرب علي بها» غير أن لويس لم يكن بالرجل الذي يجبن بسبب تلك التمثيلية التحذيرية، كما لم يعد المماليك راضين بخسارة أموال الفدية التي علقوا عليها الآمال للحصول على سجنائهم الهامين أكثر مما كان تورانشاه ولذا

لم يمت أحد منهم، وعندما انتهى التهديد وجد جوان أوف جونيفيل أنه لم يستطع تذكر كلمة واحدة من الاعتراف السريع للحاكم.

وأخيراً عقدت الصفقة ووعد لويس بدفع فدية كبيرة تتألف من أربعمائة ألف قطعة ذهبية مقابل شخصه ونبلائه، وبتسليم دمياط شرط اطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين، وقد حُض على ضمان الاتفاقية بأن يعد بالارتداد عن عقيدته المسيحية أن أخفق في الحفاظ على موقفه من الصفقة، ولكنه رفض صراحة أن يعد بذلك وأثرت شجاعته واستقامته كثيراً في آسريه، وفي الحقيقة، قدموا لابداء الاعجاب بنبل شخصيته وثباته على هدفه إلى حد بعيد، وحتى أنهم في إحدى المناسبات تحدثوا عن دعوته ليصبح سلطان مصر، ويبدو أن الاقتراح لم يصرح به للمرح مطلقاً، وقبله لويس على نحو خطير ليدرسه مع جوان أوف جونيفيل الذي نصحه يرفض العرض أن قدم بينما كان الملك يميل إلى قبوله، وفي تلك الحال لم يقدم العرض. ولكنه الجهة الوحيدة التي لم تحفظ موقفها من الاتفاق فهي المسلمون الذين وعدوا بعدم إلحاق الأذى بأي شخص مسيحي ترك وراهم في دمياط عندما سلمت إليهم، ومع ذلك قام المماليك بذبح بعض الإفرنج الذين كانوا مرضى عاجزين عن الحركة عندما غادر الآخرون.

وحالما أطلق سراح لويس عاد إلى عكا حيث أعلن عن عزمه على البقاء في الممالك الصليبية، رغم توسلات أمه في فرنسا بالعودة إلى مسقط رأسه، ورغم أنه عزا الهزيمة المفجعة لحملته ضد مصر إلى رغبة الرب الرؤوف في تلقينه درساً في التواضع، فقد أدرك تماماً مدى خسارتها فقد ذهبت لقا هذه الحملة أرواح آلاف من البشر، بينما تم التخلي عن المماليك الصليبية دون دفاع تقريباً، ولن يسمح له إدراكه بهجرها في ساعة حاجتها له، وبالفعل، فقد كانت حاجتها أقل شدة مما كان متوقعاً لأن ثورة المماليك في مصر وقتل السلطان تورانشاه حفيد صلاح الدين لم يتم تلقيهما بشكل حسن من قبل أفراد الأسرة الأيوبية التي كانت لا تزال تحكم في دمشق وأماكن أخرى، وأعلنوا

الحرب على المجرمين من أقربائهم وأقحموا العالم الإسلامي مرة ثانية في جو الانقسامات والطموحات المتضاربة، وكان لويس رجل حكم بما فيه الكفاية ليعمل على الاستفادة من هذه الخلافات بين أعدائه الذين تنافسوا مع بعضهم بعضاً من أجل تأييده كما كان لويس بعيد النظر وواسع الأفق في التفكير بما فيه الكفاية ليرى أن المستقبل يسير مع مصر ونتيجة لذلك، فقد عقد حلفاً مع خصومه القدامى المماليك. وفي مقابل ذلك أطلق سراح جميع السجناء الإفرنج الباقين، كما ترك لويس ينسى نسف الفدية الضخمة التي كان قد وعد بها.

وبعد أربع سنوات قام بعقد حلف مع الحشيشة وكحاكم لا ينازع في الممالك الصليبية قام بترميم التحصينات في كل من عكا وحيفا ويافا وقيسارية في الوقت الذي حاول فيه باستمرار إقامة علاقات وروابط مع المغول، واضطرت الأحداث في الوطن الام لويس إلى العودة إلى فرنسا، فأبحر في 24 نيسان 1254 وبعد رحلة اكتنفتها الأخطار من جميع الأنواع وصل أخيراً إلى فرنسا بأمان في شهر تموز، غير ان ذكرى الأرض المقدسة كانت ما تزال تجري في دم عروقه، ولم ينسها بعد، وكان يرسل بعض الأموال إلى جماعة صغيرة من الجنود الفرنسيين هناك، وظل يحلم بالعودة في حملة صليبية أخرى غير أن الاضطرابات في الوطن أدت إلى استحالة ذلك حتى وقت متأخر، وفي 1267 عندما أصبح لويس في الرابعة والخمسين متدهور الصحة شعر أنه مستعد من جديد للقيام بمغامرة شرقية أخرى، واستغرق الإعداد لها وقتاً طويلاً. ومع ذلك لم يتمكن من الابحار حتى سنة 1270. ولم يكن معلوماً ماذا سيحدث لو أنه وصل إلى الممالك الصليبية. واقنعه أحد اخوته واسمه شارل أوف انجو بالابحار إلى تونس ضد أميرها قبل أن يتابع مسيره إلى الأرض المقدسة، وكان لدى شارل طموحات واسعة مع تخطيطات سياسية للسيطرة على مقاطعات هوهنستاوفن في جنوب إيطاليا وصقلية، كما كان في حرب مع أمير تونس في إحدى المراحل من أجل التوسع في خططه في البحر

المتوسط، وأقنع شارل لويس أن الحاكم التونسي كان مستعداً للتحول إلى العقيدة المسيحية، وأن عرض قوة سيكون كافياً للفوز بحلف له أهمية كبيرة في شأن استمرار الصراع بين المسيحيين والعالم الإسلامي، وترك لويس نفسه يقتنع بصحة كلام أخيه ضد نصيحة أصدقائه مثل جوان أوف جونفيل وأبحر مع جيش كبير في الأول من تموز من ايجز مورتز وألقى مرساته قرب موقع المدينة القديمة في قرطاج بعد ثمانية عشر يوماً في أوج حرارة الصيف الافريقي، التي لا تطاق، وانتشرت الأوبئة بين الإفرنج في الأسطول المسيحي مثل النار في الهشيم، وعندما وصل كونت منطقة انجو بعد اسبوع مات لويس، وقيل أن الكلمة الأخيرة التي لفظ بها كانت القدس القدس.

الفصل الحادي والعشرون

سراب الدفاعات الكبيرة

أصبحت أيام الإفرنج في الأرض المقدسة معدودة مع قدوم المماليك إلى السلطة في مصر، وسرعان ما سارت القلاع والمدن المحصنة التي اقتضى تشييدها وقتاً طويلاً وطاقات هائلة ودما، نحو قدرها الأخير، وأصبحت سراباً من الماضي (الرومانسي) ومتعة للسواح، ومع ذلك، أبحر لويس في ذلك الوقت من عكا في ربيع سنة 1254، ورفض الفرنجة فكرة أن ثورة القصر في القاهرة من قبل مجموعة من العبيد كان ممكناً أن يكون لها تأثير مدمر على وجودهم في المماليك الشرقية حيث أن الفرنجة اعتبروها فكرة سخيفة، فهم قد عاشوا في الماضي في وجه المخاطر الناجمة عن صلاح الدين وأمثاله.

غير أن المماليك كانوا أشد قساوة من صلاح الدين، وفي الواقع فإن جميع تدريباتهم اتجهت لجعلهم كذلك، وقد كانوا في الأصل عبيداً اتراكاً يشترون وهم أطفال ويربون ليصبحوا جنوداً أقوياء تماماً مثلما كان الانكشاريون فيما بعد، ويدربون منذ الطفولة من أجل هدف مماثل من قبل السلاطين العثمانين، ويكبر هؤلاء إلى سن الرجولة وهم لا يعرفون أية روابط عائلية أو شعوراً بالوطنية بل أوقفوا بشكل مطلق لأداء الخدمة لسيدهم الذي ترتبط سعادتهم وحظوظهم به بشكل أساسي فإذا ازدهر وانتعش فإنهم يتنعمون في مجده المكتسب، ويقوم بدوره بمكافآتهم بالأموال والقوة، وإذا قهره

أعداؤه شاركوه في سقوطه وانحداره، وعندما تتقدم بهم السنون إلى حد ما في القتال يطلق سراح العديد منهم، وإذا كان ذلك لا يؤدي إلى اختلاف كبير، ونادراً ما تحلق سمة أو علامة عار خاصة بالعبودية التي عاشوا فيها، ومع مضي الوقت أصبحوا أحراراً ولكن تدريبهم وظروف عيشهم قيدتهم بشكل آمن إلى سيدهم أكثر مما يمكن أن يفعله الالزام القانوني في الماضي، ولذا فهم رجاله: حرس شخصي بإمكانه الاعتماد عليه تماماً خاصة إذا كانت معاملته لهم حسنة، وأخيراً ونظراً إلى تعاظم قوتهم فقد أصبح الخطر واضحاً من أن يصبحوا نظاماً خاصاً بأنفسهم، مثلما تعاظمت قبلهم قوة الحرس البريتوري وجرت الأمور في وقتهابشكل حسن عندما قادت الجيش الإسلامي أغلبية من الضباط الأكراد، ولكن مع مضي السنين أصبح السلاطين معتمدين أكثر فأكثر على قواتهم التركية. التي أصبحت لا يكمن الاستغناء عنها كفرق مختارة، وسرعان ما أدرك المماليك أنهم أنفسهم وليس السلاطين، تسلموا السلطة وهي الحقيقة التي اكتشفها السلطان الشاب تورانشاه في وقت متأخر جداً عندما أصبح عاجزاً عن طردهم. وقد استلم السلطة منه رجل مملوكي رفيع المستوى دعي عز الدين أيبك وبمساعدة إخوانه المماليك لم يتمكن أحد من تحديه في السلطة والقوة والقبض على السلطنة، ولحسن الحظ، أنه لم يكن رجلاً معتدياً أو مضطهداً بالنسبة للمسيحيين خاصة.. في الممالك الصليبية، ولكن بعد عشر سنوات من مقتل تورانشاه. أصبح مملوك آخر وهو ركن الدين بيبرس البندقداري الذي شارك في جزء كبير في ذلك القتل، اصبح سلطاناً رهيباً بالفعل.

وكان التغيير الذي طرأ بشكل تدريجي وغير مدرك على الإفرنج أنفسهم، تهديداً أكبر لبقاء المسيحيين في الممالك الصليبية، فاختلفوا هم أنفسهم ومجتمعهم عن أولئك في الأيام الأولى من الممالك الصليبية، وقد اقترح أن إخفاق الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس كانت مسؤولة عن فقدان الثقة بين المسيحيين بين الشرق والغرب بينما كان في الإمكان في هزائمهم السابقة

وضع السبب على غضب الرب الذي استهدفته ذنوبهم، وقد كان لويس رجلاً صالحاً بوضوح إلى درجة يتعذر تفسير إخفاقه في مصر بهذه الطريقة، ونستنتج بدلاً من ذلك، أن الرب لم يعد في جانب الصليبيين وسواء افكر الناس بمثل هذه الطريقة أم لا، فإن الهاب الحماسة بالتأكيد من أجل شن حرب ضد المسلمين كان أمراً صعباً، في ذلك الوقت أكثر مما كان في السابق، ورغم أن ميلهم إلى القتال لم يتقلص على أية حال، لأنهم أمضوا معظم أوقاتهم في القتال، لكنهم الآن بيد أنهم يفضلون القتال بين بعضهم بعضاً عن شن حرب ضد العالم الإسلامي، وحالما أبحر لويس إلى وطنه، انفجرت حرب أهلية مريرة في المماليك الصليبية حول ملكية دير كرس للقديس سابا الذي كان يقع فوق تلة بين البنادقة والجنوبيين في عكا، ووقف البيزيون وجماعة فرسان الداوية وأحياء الفرنسيين والجنوبين وعائلة أيبلين القوية إلى جانب البنادقة، في حين أيد جماعة فرسان الداوية بالإضافة إلى نبيل قوي أو أكثر في الأرض المقدسة، أيدوا الجنوبين، فنشأت معارك دموية في شوارع عكا ومعارك من أجل المدن القليلة المتبقية في أيدي الإفرنج في بقية ما دعي بالمماليك الصليبية.

وكان هذا عملاً جنونياً، غير أنه لم يكن هناك أحد قوي إلى حد كاف ليوقفه كما لم يكن ثمة حكومة مركزية تستحق هذه التسمية. وبعد فترة من رحيل القديس لويس مات ابن الامبراطور فريدريك، الذي كان ملك القدس الاسمي منذ موت فريدريك، واصبح ابنه الذي له من العمر سنتين في ذلك الحين رئيس دار هوهنستاوفن، ونودي به ملكاً على القدس كاسم كوزاد الثالث في مكان والده، ولكن الملك الطفل لم ينل ملكية محسوسة فعلية في عالمه الجديد، وبقي في مسقط رأسه في الممالك الإيطالية ترعاه وتعتني به مربياته هناك، وبذلك بقيت الممالك الصليبية دون زعيم يرعى شؤونهما، وبذلك النبلاء أقصى ما في وسعهم لإدارة دفة الحكم في البلاد، وتسلموا في ذلك الوقت نفوذاً حقيقياً بسيطاً ولكنهم كانوا غير قادرين على ضبط الأحزاب

المنظمة بقوة والمتعددة التي تنافست فيما بينها من أجل السبق في التفوق السياسي، وكان بين ذلك كله رجالات دويلات المدن الإيطالية المتعددة الذين كانوا في نزاع مع بعضهم باستمرار، وضبطوا اقتصاد البلاد بالسيطرة على البحار بأساطيلهم وقد دب الصراع بينهم من أجل السيطرة على التجارة بين أوروبا الغربية وبلاد شرق البحر الأبيض المتوسط، ولم يلق انتباهاً سواء المسيحيون أو المسلمون إلى ثروات إخوانهم المسيحيين في الممالك الصليبية، أما الجماعات الأخرى الوحيدة ذات النفوذ والقوة مثل البنادقة والجنوبين والبيزيين فهي الجماعات العسكرية التي كرهت الواحدة منها الأخرى، وحقدت عليها كثيراً مثلما فعل الأيطاليون، ومثل الايطاليين أيضاً، كانت متنافسة وغنية وقوية جداً أكثر من أي نبيل أوعائلة نبيلة، كما كانت عنيفة تماماً عندما يحين الوقت للدفاع عن مصالحها الأنانية الخاصة، ولم تتوقف الجماعات عن القتال إلا عندما تهددت هذه القوى بالصراع من أجل السيطرة، الذي تطور بين المغول في الشمال والمماليك في الجنوب إلى درجة أنها توقفت عن القتال بينها من أجل تجنب تدميرها بين هاتين القوتين.

وعندما غادر لويس المماليك الصليبية سنة 1254 حكم المغول رجل كانت أمه مسيحية نسطورية تقية، وقد دعي هذا الرجل مونكا وتزوج من فتاة مسيحية أيضاً، وقد قسمت الامبراطورية المغولية العظيمة بين إخوته الثلاثة. ووقعت القرعة بالنسبة لبلاد فارس على الأخ الثالث ومنهم واسمه هولاكو الذي تزوج من فتاة مسيحية أيضاً، وابتهج الإفرنج بشكل مفهوم وواضح لسماع كيف نظرت الحكومة المغولية بشكل مرضٍ إلى الديانة المسيحية. رغم أنهم روعوا نوعاً ما باكتشاف الاختلاف الكبير بين آداب المسيحيين المغوليين وبين تلك عند إخوانهم وأخواتهم في المسيحية في الغرب، ورغم أن والدة خان العظيم ربما كانت مسيحية تقية فإنها لم تعتبر الحالة على ما يبدو وتعود إلى القداس السامي لصباح ذلك الأحد الوحيد بشكل باعث على اليأس كثيراً إلى درجة أنها لم تستطع أن تصمد: وهي عقبة أدهشت بشكل طبيعي وليم أوف

روبدوك الزاهد الدومينكاني الذي أرسله الملك لويس إلى بلاط ابنها كسفير، غير أن الإفرنج كانوا سعيدين بما فيه الكفاية كي يتغاضوا عن أفكار المغول الخاصة باللياقة والذوق ما داموا مستمرين في تدمير قوة المسلمين الواحدة بعد الأخرى، كما كانوا يقومون بذلك منذ أيام جنكيز خان، وفي الحقيقة عقد الإفرنج في أنطاكية سنة 1254 حلفاً معهم كما فعل ذلك قبلهم الأرمن المسيحيون.

وكان هدف الحلف ضد المسلمين، وبدا أن برهان الحكمة منه عندما شاهد الإفرنج هولاكو، أخا الخان العظيم وإيلخان بلاد فارس على رأس جيش عظيم من الغول، وإنه يريد في أول الأمر تدمير الفئة المسلمة القديمة من الحشيشية ثم التحرك للاستيلاء على بغداد والقيام بتذبيح ثمانين ألفاً من سكان المدينة، واستثني المسيحيون وحدهم الذين ربضوا في أمان في كنائسهم ولم يسكن الزمن قسوة المغول، وبدا هولاكو نفسه مجرداً من كل عاطفة أو لطف مثل بقية أبناء عرقه. فقد كان رجلاً منفراً عانى من نوبات الصرع، ولكن كان لديه ادعاءات بالتعلم وتذوق معين للفلسفة، وحتى لو كانت لديه تلك النزعة التعليمية فهي لم تمنعه من إصدار أوامره إلى جنوده للقيام بأعمال مروعة رهيبة.

وبعد القيام بذبح سكان بغداد، وهو الدمار الفعلي للخلافة العباسية، وقتل الخليفة. تحرك هولاكو باتجاه باتجاه الغرب ضد المسلمين الفزعين في سورية الذين فعلوا ما في وسعهم لتفادي غضبه بإرسال مبعوثين إلى معسكره مع أوامر بوعده بكل شيء يطلبه منهم، أما أولئك الذين اعترضوا طريقة فقد عوملوا بوحشية مدروسة وغير مصدقة تقريباً، وأما حاكم إحدى المدن الذي كان غبياً بما فيه الكفاية بعد الاستسلام له فقد أجبر على أكل لحم قطع من جسده حتى مات، وكانت حلب أول هدف لهولاكو في سورية، ورغم أنها دفعت عن نفسها بشجاعة وتصميم، فإنها لم تصمد أكثر من فترة أسبوع قبل أن تسقط في أيدي المهاجمين، وذبح المواطنون فيها حتى آخر رجل، واستثني مرة أخرى

المسيحيون وحدهم من المذبحة، أما دمشق فكانت المدينة التالية التي استسلمت، ولكنها فعلت ذلك دون قتل رغم أن بعض الأرواح الشجاعة التي دافعت عن قلعتها، حيث كانت أغلبية الدمشقيين فزعيين من نتائج المقاومة للقتال من أجل مدينتهم، وفتحت أبوابها لهولاكو وأحلافه الأمراء والأرمن في أنطاكية الذين انضموا في ذلك الوقت إلى مقدمة المنتصر، ومع ذلك كان الثمن الذي دفعوه للمشاركة في انتصار المغول أنهم أصبحوا تابعية. ومن أجل بعث السرور في سكانها الاغريق الذين أدرك إيلخان أهميتهم جيداً أمر أمير انطاكية أن يعزل رئيس أساقفة اللاتين في أنطاكية ويحل مكانه بطريرك إغريقي.

وبينما ناصر الإفرنج وشمال سورية المغول في قضيتهم كان بعض الإفرنج في عكا أقل سروراً بقدومهم، فقد كان البنادقة على الأخص يتمتعون بشبه احتكار للتجارة مع مصر التي كانت تتدفق عبرها معظم تجارة الشرق والغرب مع أوروبا الغربية عن طريق البندقية لذلك كان أبعد شيء رغبوا أن يحدث بشأن تلك التجارة أن تتحول نحو الشمال عبر طرق القوافل إلى مرافيء البحر الأسود التي كان يسيطر عليها البيزنطيون الذين لم يكن الجنويون على علاقات حسنة معهم، كما كان هناك آخرون مثل البنادقة الذين لم يسعدوا بسماع التقدم المنتصر للمغول، وكان هؤلاء العديد من الإفرنج الذين لم يكن لديهم مصالح تجارية للدفاع عنها، فلم يستسيغوا إمكانية أن يصبحوا خاضعين لخان العظيم، ففترة سنوات كانوا قد تعلموا أن يعيشوا جنباً إلى جنب مع جيرانهم المسلمين في ظروف متفق عليها من العداوة المسلحة، فكانوا في بعض الأحيان في حرب معهم أما في أحيان أخرى فقد تقيد الجانبان بمعاهدة السلام، وأصبحت الحياة تحت مثل تلك الشروط عادية جداً إلى درجة أن كل جانب عرف تماماً أين سيقف، سواء كان ذلك في الحرب أو في السلم، غير أنه لم يدر أحد ماذا ستشبه الحياة لو أن المغول دمروا آخر معقل للإسلام في مصر، وهو توقع بدأ يبدو مرجحاً بشكل مطرد عندما تقدم هولاكو باتجاه الجنوب، وخاف الإفرنج كثيراً من إمكان أن يتغير الحال إلى الأسوأ.

وفي أثناء ذلك، حدثت تغيرات في مصر أيضاً فقد كان السلطان المملوكي الأول غبياً جداً إلى درجة أنه تشاجر مع زوجته شجرة الدر، وهو شيء خطير إلى حد بعيد، ولم يكتشف ذلك بسرعة كافية، فقد أمرت بقتله أحد المقربين منه بينما كان في حمامه، ولكنها هذه المرة أخفقت في تحقيق غايتها، وأثارت حادثة موت السلطان أيبك بعض إخوانه المماليك كثيراً إلى درجة قاموا بثورة ضد السلطانة، وتلا ذلك صراع برهن فيه المتمردون أنهم أقوياء كثيراً بالنسبة لشجرة الدر التي قتلت في أوائل صيف سنة 1257، وجعل ابن أيبك المراهق سلطاناً، فأكد عدم فعاليته وحل محله مملوك آخر دعي سعيد الدين قطز الذي قدم إلى السلطة قبل التمكن من تجنب الصدام بين المغول والمصريين، وقدم إلى القاهرة مبعوث مغولي للمطالبة بتبعية المصريين، وكانت هذه رسالة أمكن لأي مملوكي الرد عليها بجواب واحد حيث قتل قطز السفير المغولي واستعد للحرب.

إن الافتراضات والتوقعات في التاريخ خطيرة غير أن الفتنة والاعجاب بما قد حدث من حوادث غير متوقعة غيرت ميزان القوى بين الجانبين في تلك اللحظة بالأخص، كانت أموراً لا تقاوم ذلك أنه بعد أن أعلن هولاكو عن تحديه للمماليك وصلته أنباء وفاة أخيه خان مونكا العظيم، وكذلك أنباء نشوء صراع حول السلطة في آسيا من أجل خلافته، فشعر أنه مضطر للزحف شرقاً مع قسم كبير من جيشه للدفاع عن حدود الخانية ضد أي هجوم محتمل يقوم به أحد المنافسين من أجل عرش مونكا، ولو أن مونكا لم يمت تماماً في تلك اللحظة لكان هولاكو قد التقى مع المماليك بكامل جيشه كما كانت النتيجة حتمية وهي فوزه دون شك وتدميره آخر معقل للقوى الإسلامية في الشرق، وبالتالي لربما تغير تاريخ العالم، وكما حدث في الواقع كان المصريون الذين ساروا باتجاه الشمال إلى داخل سورية متفوقين بالعدد على الجيش المغولي كما كانوا أقوى كثيراً من أعدائهم، وفوق ذلك، فقد تحرك المماليك بسرعة أكثر بعد قتل المبعوث المغولي بحيث فوجيء هولاكو وتم التغلب على أحد

مواضع ثغورهم الخارجية ودمرته طليعة الجيش المصري تحت قيادة القائد بيبرس، وفي غياب هولاكو مع القسم الرئيسي من جيشه في بلاد فارس وتولى أمر قيادة المغول قائد اسمه كتيوغا الذي سار جنوباً في وادي الاردن لملاقاة المصريين المتحركين نحو الشمال في الطريق الساحلية، وأرسل سفيراً مصرياً مسبقاً إلى عكا لطلب إذن العبور خلال أراضي الإفرنج، ولدعوتهم للانضمام إليهم في المعركة القادمة ضد المغول، ووافق أول الأمر بعض أمراء الإفرنج المجتمعين على نحو عاجل، وكانوا في صالح قبول الدعوة على أساس المبدأ القائل إن الشيطان الذي تعرفه خير من ذاك الذي تجهله، ولكن الراعي الأكبر للفرسان التيوتون وآخرين معه لم يؤيدوا الفكرة وأشاروا بوجوب أخذ الحذر والحيطة وأخيراً سمح للمصريين بالعبور الحر خلال البلاد دون تأييدهم عسكرياً، وأمضى السلطان قطز وجيشه بضعه أيام تحت الخيام في الريف خارج عكا، ثم دعي ومعه بعض المماليك كبار الشأن إلى داخل المدينة حيث حلوا هناك كضيوف شرف لدى الإفرنج، وكان بيبرس بينهم وقد لاحظوا بسهولة، إمكانية الاستيلاء على المكان إذا هوجم على نحو مفاجئ، ورغم أنه اقترح أمام السلطان أن الوقت الحاضر مناسب لذلك فقد رفض قطز ذلك الاغراء، وتركت عكا دون انتهاك.

وفي اليوم الثالث من أيلول سنة 1260 التقى الجيشان عند مكان اسمه عين جالوت في بلاد المسلمين، وأخبر السكان المحليون المصريين باقتراب المغول في وقت مناسب ليضع قطز خططه بعناية وحذر ونظراً إلى أن جيشه كان أكبر الجيشين، فقد كان لديه مزايا في التفوق عليهم في العدد ووقت المفاجأة، ولم يكن بالرجل الذي يرمي برجاله بعيداً في ضياع، وخبأ القسم الرئيسي من قواته بين التلال في الريف حول بحيرات جليودا حيث هزم الإفرنج صلاح الدين قبل أربع سنوات من معركة قرني خطين، وأمر قطز بيبرس أن يخرج بالطليعة لملاقاة المغول المقتربين وليستدرجهم حتى يقعوا في الشرك، أما كتيبوغا الذي بدا أنه لم يرسل كشافة أمامه أو لم يكن لديه فكرة على وشك

أن يصطدم مع العدو، خدع بمنظر بيبرس ورحاله الذين أقحمهم في الهجوم في اندفاع وحماسة بالغين، وتراجع بيبرس، كما ينبغي، في حالة فزع زائف إلى داخل التلال في مطاردة حامية مع المغول وقادهم ببراعة إلى الكمين، وقاتل المغول كالعادة بكل شجاعة وضراوة ولكن لم يكن لديه فرصة للفوز في المعركة وشق قليل منهم طريقهم بعيداً عن المكان في أمان غير أن الأغلبية الساحقة قتلوا، في حين كتيبوغا بعد أن قتل حصانة تحته. وجر الأسير أمام السلطان المنتصر، وقرر قطز أن يسخر منه ويهينه. وأجاب المغولي بكل شجاعة على ذلك أن انتصار المماليك لن يدوم طويلاً، وانهم سيداسون مثل الحشرات لأن الحشرات وحدها قتلت سادتهم وهذا ما فعله المماليك، وأمر قطز وهو في حالة غضب شديد أحد رجاله حرسه بضرب رأسه. وكان من الصعب جداً عندئذٍ أن يجيب المماليك.

لم يطل قدوم ثأر كتيبوغا التالي لوفاته الذي كان قد سخر منه قطز بتدوين خيانة يقوم بها المماليك فيما بعد. وفي أقل من شهرين بعد موته قتل السلطان المملوكي من قبل أحدهم. ونتيجة لانتصاره في عين جالوت وقعت سورية بكاملها في أيدي قطز وأصبحت المناصب الحكومية المرغوبة والمتعددة تخصه وحده في التصرف بها، وطالب بيبرس أن يصبح حاكم منطقة حلب ولكن قطز بدا في ذلك الوقت يظهر عدم الثقة به حيث تزايدت قوته بالنسبة للسلطان الذي رفض منحه ما طلب، دلتا النيل قام بمرافقة قطز في خروجه للصيد صباحاً مع مجموعة قليلة من مرافقيه، وعندما ابتعدت الزمرة الصغيرة قليلاً عن المعسكر اقترب أحدهم من السلطان كما لو أنه على وشك أن يطلب منه معروفاً وأخذ يده ليقبلها لكنه بدلاً عن تقبيلها قبض عليها بقوة في حين نهض بيبرس خلف قطز وأسلمه عدة طعنات في الخلف، ثم عادت زمرة القتلة الصغيرة إلى المعسكر المصري وأعلنوا وفاة قطز وادعي بيبرس شرف قتله، وعليه فقد نودي به سلطاناً للبلاد كما لو ليبرهن عن صحة ما ضمنه كتيبوكا عن أخلاقيات المماليك.

وكان الاستيلاء على السلطة من الأخبار السيئة بالنسبة للإفرنج، وكرههم بيبرس لمساندتهم المغول كما فعلوا ذلك في أنطاكية، وكان قد رأى نقاط ضعفهم عندما كان ضيفهم في عكا. ولم يمض وقت طويل قبل إعلانه عن نيته في طردهم إلى الخارج في البحر، وكان بيبرس من الناحية الجسمانية رجلاً ضخم الجسد ذا بشرة سمراء وشعر أحمر، وكانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى بيضاء ثم فقدتا قوة الأبصار، وقيل أنه عندما عرض للبيع أول مرة وهو عبد شاب في سورية لم يشتره أحد لأنه بدا جلفا وأنه ما كان ليشتريه أحد مطلقاً لو لم يشتره سيد مملوكي، وإذا كانت الرواية حقيقية فإن مظهره قد ضخمه. لأنه على الرغم من أنه كان فظاً إلا أنه كان شديد الذكاء، وفي الواقع، كان رجل حكم لامع وجندياً موهوباً أيضاً. وقد جعلته حقيقة كونه خلوا من المثل خطيراً إلى حد رهيب، وبالفعل قد كان مجرداً من المبادئ الأخلاقية لا يتردد لحظة في اللجوء إلى القتل أو الخيانة أو الحنث بقسمه عندما يلائمه ذلك.

وفي بادئ الأمر كان لدى الإفرنج آمال كبيرة أن يبرهن بيبرس عن شكره وامتنانه لمساعدتهم قبل معركة عين جالوت، وعندما حاولوا مفاوضته في إعادة بعض الأسرى المسيحيين الذين كانوا في أيدي المصريين رفض بفظاظة، ومع ذلك استمروا في محاولتهم وبعد فترة وجيزة من عيد الميلاد سنة 1263 نجح رجل من يافا دعي جون بدا أنه على صلة وثيقة مع السلطان الجديد، في ترتيب إطلاق سراح الأسرى بالتبادل لقاء بعض المسلمين الأسرى في المماليك الصليبية، وكان هذا نجاحاً دبلوماسياً منه، وربما كان مبشراً لعهد جديد من بيبرس، ولكن الفرصة أهملت من قبل الجماعتين العسكريتين الكبيرتين لأسباب أنانية محضة، ورفض الاسبتارية والداوية اطلاق سراح المسلمين الذين في حوزتهم لأن بعضهم كان أصحاب حرف مهرة وبالتالي فهم ذو شأن كبير بالنسبة لهم، ولم يقل أحد شيئاً حول المصلحة العامة في اختلافهم البسيط في قرارهم، ومع أن بيبرس صعق بذلك غير أنه لم يدع هذا الهجوم النادر من النقمة الأخلاقية من جانبه أن يؤثر في سرعة رده، وطلب إلى جون

من يافا أن يعود إلى حيث أتى وقام بغزو أراضي الإفرنج، وبعد نهب الناصرة زحف إلى عكا حيث جرت معركة عند أسوارها قتل فيها العديد من الجانبين ولحق الدمار بالضواحي، ثم تراجع مكتفياً بما قضاه من الوقت.

واستمر القتال بشكل متقطع على مدار السنة (1264) وكان أغلبه على المستوى المحلي، وفي أوائل سنة 1265 سار بيبرس شمالاً مع جيش مصري كبير كي يقابل المغول في شمال سورية الذين أظهروا علامات الاعتداء من جديد، ومن سوء الحظ بالنسبة للإفرنج أنه قبل أن يصل بيبرس إليهم تلقى أنباء عن اصطدامهم مع قوات في ذلك الموضع، فغير بسرعة اتجاه سيره واتجه إلى قيسارية وفي صباح أحد الأيام الأخيرة من شهر شباط ظهر في كامل قوته عند أسوار المدينة لمفاجأة السكان الفزعين، وصمدت القلعة لعدة أيام عندما أذعن مدافعوها مستسلمين ووعدوا بحريتهم، ودمر بيبرس المكان تماماً، ثم سار إلى حيفا التي كان سكانها أقل حظاً وسعادة من مواطني قيسارية. حيث نجا قليلون بالزوارق، أما الباقون فقد ذبحو ودمرت مدينتهم، ولم ينتظر السلطان حتى يرى اتمام أعمال الدمار ثم زحف إلى أضخم قلاع الداوية في عتليت وفرض الحصار عليها، وبرهنت أنها جد منيعة وتخلى بامتعاض عن الحصار وتحول إلى أرسوف التي دافع عنها ما يقارب ثلاثمائة من فرسان الاسبتارية الذين قاتلوا بشجاعتهم المهيبة المعتادة، وبرهن بيبرس في هذه الحادثة أنه أقوى بكثير، بعد أن قتل ما يقارب ثلث قوات الداوية استسلم الباقون بعد أن وعدوا بمنحهم حريتهم، ولم يتعلموا بعد كيف يتوجب إعطاء وعود للمماليك بعض التصديق حيث لم يطلق سراح أحدهم، أما هدفه التالي فكان عكا وفي هذ المرة أزعج سلبه للأراضي الفرنجية إلى درجة أن الملك هيغ الثالث الذي كان في قبرص عندما وصلته أنباء انتصارات بيبرس المدمرة، وصل إلى عكا مع جيش قبرصي كبير بما يكفي لتعزيز المكان بقوة، ولما قرر بيبرس أن ذلك كاف عاد أدراجه إلى مصر فهو بإمكانه العودة في سنة أخرى.

وأدى موت الايلخان هولاكو في سنة 1265 والنزاعات الحتمية بين

العائلة الحاكمة من أجل الخلافة إلى جعل المغول أقل قدرة مع الزمن، وترك الإفرنج دون تأييد حليفهم الوحيد القادر قوة ضد بيبرس، وهي الحقيقة التي قصد المماليك استغلالها إلى أقصى الحدود. وبينما كان ابن هولاكو يحاول توطيد نفسه مكان والده، قاد السلطان جيشين عبر سيناء في صيف سنة 1266، غزا بأحدهما بلاد الجليل بينما تابع الجيش الآخر زخفه شمالاً ضد الأرمن، ونال بيبرس أول الأمر بعض الانتصار وبرهنت عكا أنها منعية وقوية كثيراً بالنسبة له مرة أخرى، وعندما قام بحصار قلعة الداوية في صفد، صمدت ضده أيضاً، وعن طريق القيام ببعض الدعاية الماهرة والبارعة تدبر أمره في خلق صدع بين المرتزقة السوريين داخل القلعة، وبين الفرسان الداوية وبدأ السوريون بهجرها في أعداد كبيرة إلى درجة اضطر الفرسان إلى التفاوض مع بيبرس الذي وعدهم بحريتهم مقابل التخلي عن القلعة، ووافقوا على ذلك، وفي حين التزم الفرسان جانبهم من تنفيذ الاتفاق ضرب بيبرس أعناقهم واحد بعد الآخر، ويبدو أن عمله الوحشي هذا أثار شهيته لسفك دماء أكثر، فقد تلت ذلك حملة من الارهاب الفظيع انطلق فيها لقتل المسيحيين أينما وجدهم سواء كانوا من الإفرنج أو من المواطنين الفلسطينيين المقيمين في القرى التي كانت لهم منذ الأيام البيزنطية، وفي تلك الأثناء قاد الجيش المملوكي في الشمال رجل دعي قلاوون هاجم المملكة الأرمنية الصغيرة في قلقيليا ودمرها، وبعد أن ذبح آلافاً من مواطنيها تراجع قلاوون ومعه أربعون ألف أسير عزم على بيعهم في سوق النخاسة.

وبعد عامين قرر بيبرس الهجوم على انطاكية، فظهر عند أسوارها الهائلة في شهر أيار سنة 1268 ولم تستغرق العملية أكثر من أسبوع لخرقها، وقيل أن المذبحة التي تلت ذلك أذهلت المسلمين أنفسهم حيث أمر بيبرس بإغلاق أبواب المدينة وبذلك لم يتمكن أحد من النجاة ثم تلا ذلك انغماس في القتل المتنظم، وعندما دب الإرهاق والتعب في الجنود المصريين إلى درجة أنهم لم يعودوا يستطيعون استجماع قواهم لقتل المزيد حتى الأطفال توزع الفاتحون

بينهم ما بقي من الأنطاكيين كبير، وقسمت الأموال المكدسة عبر القرون بينهم كغنائم، وعندما وصلت الأنباء إلى عكا ذهل المسيحيون هناك، لقد كانت انطاكية أول مدينة كبيرة تسقط في أيدي الصلبيين بصرف النظر عن الرها، ولذا كان فقدها بعد حوالي قرنين من الحكم المسيحي ضربة صاعقة للمسيحيين، ومع ذلك لم تكن ضربة محطمة بما يكفي لتثني البنادقة والجنوبين عن القتال في حرب مصغرة من أجل السيطرة على ميناء عكا، وكانت كلا المدينتين تتجر بشكل واسع مع مصر ولم تقنعهما النكبات التي أصابتهما مؤخراً لتتوحدا ضد العدو المشترك من أجل البقاء، وبدا أن الروح الصليبية ماتت أخيراً.

ولكنها لم تمت كلية في أوروبا فقد حاول لويس أن يقدم المساعدة لمسيحي الممالك الصليبية غير أنه مات في تونس، وفي السنة التالية 1271 وصل وريث العرش البريطاني الأمير ادوارد إلى عكا بعد فترة وجيزة من تسديد بيبرس ضربة محطمة أخرى للإفرنج وذلك بالاستيلاء على قلعة الحصن العظيمة التي تحدث صلاح الدين أيضاً، ولم يقدم مع ادوارد غير ألف رجل، غير أن بيبرس تأثر كثيراً بأنباء وصوله إلى درجة أنه تراجع إلى مصر مرة ثانية. وذهل ادوارد الذي كان رجلاً صافي الذهن قديراً إلى حد ما وهادئاً بما وجده لدى وصوله إلى المماليك الصليبية وسرعان ما اكتشف أن البنادقة المزودين الرئيسيين للسلطان بأدوات الحرب، في حين انهمك الجنويون تماماً في تجارة الرقيق المصري، ولم يفكر أحد الجانبين للحظة في التخلي عن تجارته مع العدو المشترك، وفي الواقع، فإن هذا العمل كان مركز قوة في شؤون بلادهم حتى أن المجلس الأعلى في عكا سلمهم تراخيص للتجارة مع مصر في أي شكل أحبوا، ورغم أن ذلك كان أمراً مغموراً وسخيفاً إلا أنه حقيقة واقعة.

وبقي ادوارد في المماليك الصليبية لمدة ثمانية عشر شهراً، ولكنه لم يحقق الكثير، ومع ذلك، نجح في إقناع المغول في الاشتراك، ووضع أيدهم مرة ثانية، وبعد أن هدأت الاضطرابات الداخلية في بلادهم استلم ابن هولاكو أبقا مكان والده، واغارت قوة كبيرة من المغول على شمال سورية حيث هزموا

المسلمين المدافعين عن حلب، ولكن سرعان ما انتهت الغارة والتفوا عائدين إلى بلادهم قبل ملاقاة بيبرس الذي كان في دمشق مع معظم الجيش المصري، وفي أثناء ذلك، قاد ادوارد نفسه غارة إلى داخل أراضي العدو، ولكنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليقوم بأكثر من البرهان عن مضايقة المسلمين هناك، وبعد سنة تحقق أنه لم يتمكن من عمل شيء دون امدادات من أوروبا وقرر السعي لعقد هدنة مع بيبرس، ووافق هذا على ما أراد السلطان الذي عرف أنه بإمكانه تدمير المملكة الصغيرة حول عكا متى أراد ذلك، فقد أراد أولا أن يتعامل مع المغول ويتيح للسلام مع الإفرنج الوقت اللازم كي يتغلب على هؤلاء الاعداء الفزعين كثيراً. ولذلك رحب باقتراب ادوارد جيداً، ومن أجل اطمئنان الطرفين وقعت هدنة في 22 أيار 1272 ودامت أحد عشر عاماً، إلا أن بيبرس لم يكن لديه نية في فسخ المجال للأمير الانكليزي ليعود إلى مسقط رأسه كي يحشد حملة صليبية جديدة. وليمنع ذلك استأجر واحداً من الحشيشية لقتلة، فتحفى كمواطن مسيحي وطلب مقابلة ادوارد ثم طعنه بخنجر مسموم، ورغم أنه جرح بشكل خطير لكنه لم يمت وبقي مريضاً لعدة أشهر، وخلالها سارع بيبرس إلى إنكار أي اشتراك في الجريمة وبتهنئة ادوارد على سلامته وأخيراً شفائه، وأبحر ادوارد إلى بلاده في 22 أيلول ليجد والده قد مات، وأنه أصبح ملك إنكلترا.

وبعد خمس سنوات في 1277 هاجم بيبرس المغول وتابعيهم الاتراك السلاجقة في قلقيليا. وفي بداية الأمر أحرز انتصارات، ولكن نجاحه لم يكن من عمله لأن أبقا كان متيقظاً بشكل مرض للزحف ضده مع جيش مغولي كبير، فاضطر إلى التراجع، وفي شهر تموز مات وشاع أنه مات بشربه بعض الجميز المسموم، وهو حليب أنثى الخيل المخمر يسكر تماماً، ولع به الاتراك والمغول. وكان قد أعده لعدوه وتناوله من سبيل الخطأ، ورغم أنه مات لكنه من الصعب الاستنتاج بأن موته قد ترك العالم كمكان أفضل إلى حد ما، لأنه رغم أنه لم يكن أحد قادراً على إنكار أنه كان قديراً وموهباً إلى حد هائل فقد تبين على معجبيه أيضاً الاعتراف إنه رجل شرير.

ومع أن الإفرنج رجعوا إلى أقصى الحدود بموته لم يؤد إلى اختلاف بالنسبة لقدرهم لأن قلاوون خلفه وكان هذا عازماً تماماً على إفنائهم من فلسطين كما كان بيبرس، ولا بد أن مثل هذا التوقع قد أخاف الإفرنج ليتألفوا في نوع من الوحدة، ولكنهم لم يفعلوا، وبدلاً من ذلك، انفجرت حرب أهلية أخرى مزقت البلد الصغير إلى نصفين وتركته ينزف ويضعف متأثراً بحراجه التي أصاب نفسه بها، وتشاجر بوهيمند السابع الأمير الاسمي (الشرفي) في أنطاكية والفرد الأخير من بيت عظيم - مع بعض أبناء عمومه من عائلة الاميرياكو حول من ينبغي أن يتزوج الوريثة المحلية، فوقف الفرسان الاسبتارية إلى جانب بوهيمند بينما قاتل فرسان الداوية بشكل حتمي إلى جانب عائلة الأمبرياكو بعيداً عن بعض منافسيهم من الاسبتاريين، ووجه كل جانب أعمالاً رهيبة للجانب الآخر حتى أثبت بوهيمند أنه الأقوى، واضطر اعداؤه إلى الاستسلام له لقاء وعده لهم بسلامة أرواحهم، وحالما انتهى التسليم نكث بوهيمند وعده فقتل أغلبية الأسرى البائسين ودفن ثلاثة أبناء عموم من الأمبرياكو حتى رقابهم في خندق حيث تركهم يموتون جوعاً وعطشاً.

وصدم أصدقاء بوهيمند بهذا العمل من الوحشية التي لا حاجة لها، كما جفل أعداؤه أيضاً، وتفاقمت المرارة التي جزأت المملكة الصغيرة وضيعت فرصة مصالحة الفرق المتحاربة حين بقي بعض الوقت لذلك، كما ضيعت الفرصة الأخيرة من الانقاذ من قبل المغول وعندما أرسل الايلخان أبقا سفراءه إلى عكاء لهدف إقامة حلف عسكري ضد المماليك، قام الإفرنج بغباوة لا تصدق تقريباً بعقد إتفاق سلام مع قلاوون بدلاً من ذلك ورفض فرسان الاسبتارية وحدهم الالتزام به، ولذا عندما غزا المغول سورية سنة 1281 على أمل تدمير آخر قوة إسلامية عظيمة شرقي بلاد المغرب لم يتقدم إلى مساعدهم غير عصبة من الاسبتارية عندما زحفوا جنوباً لملاقاة قلاوون الذي كان ينتظرهم خارج مدينة حمص، وفي المعركة التي تلت ذلك الحق فرسان الاسبتارية القليلين هزيمة منكرة في الجناح اليساري من جيش قلاوون

وطاردوهم في طريق عبورهم إلى معسكرهم؛ ولكن الأمور جرت على نحو سيء بالنسبة لحلفائهم المغول، الذي اضطروا إلى التقهقر، وأصاب جيش قلاوون خسائر عديدة في الرجال من أجل احراز النصر؛ وانتهت المعركة دون تحديد شيء، ومن الصعب التيقن ما كان قد حدث لو انهمك الإفرنج فيها بدلاً من عصبة من الفرسان الاسبتارية ولكنه من الصعب عدم التصديق فيما قد تحدثه قوتهم الإضافية من اختلاف وإمكانية تدمير قلاوون.

وبعد أربع سنوات، في 1285 قرر قلاوون التعامل هذه المرة وللأبد مع الفرسان الاسبتارية، فقام بفرض حصار على قلعتهم الشمالية في المرقب التي صمدت لعدة أسابيع رغم أنه لم يدافع عنها أكثر من خمسة وعشرين فارساً، وساعدتهم الأديرة المحلية، وتمكن في النهاية بعض المهندسين المصريين من فتح نفق عميق تحت السور وانتهى قدر القلعة وعندما انهار أحد أبراجها الرئيسة وافق الفرسان على التخلي عنها مقابل حريتهم، وخرجوا على ظهور خيولهم في كامل أسلحتهم وسار خلفهم بقية الحامية في حين وقف الجنود المصريون يراقبون بصمت، ويبدو ذلك العمل بالنسبة للآداب الحديثة، أنه عمل مثالي ونبيل غير أن خسارة قلعة المرقب كان شيئاً محزناً حيث يصعب على الإفرنج تعويضه كما كان انذاراً خطيراً لهم.

ومع ذلك لم يتمكنوا إلا من عمل القليل فيما يتعلق بذلك. حيث كانوا في أمس الحاجة إلى الامدادات من أوروبا التي كانت في شغل شاغل بنزاعاتها عن الاهتمام بالأحداث الجارية في المماليك الصليبية، ولذلك تحول الإفرنج إلى قبرص متقدمين بعرض لملك الجزيرة هنري الثاني أن يكون ملكاً على القدس أيضاً إذا قدم إليهم وساعدهم، ووافق هذا، وتوج هنري في 15 آب 1286 في كاتدارئية صور. ورغم أنه كان في الرابعة عشرة، إلا أن فتوته لم تخلق مشاكل جديدة لتابعية، وكانت أمه من جماعة آيبلين Iblin وعرف جيداً أن أخواله الأيبلين سيحسنون توجيهه لأنهم محبوبون ومحترمون من قبل معظم الشعب، ولعل الإفرنج كانوا أقل سعادة لو أنهم علموا أن ملكهم الجديد

مصاب بالصرع، ولكن أعراض مرضه لم تظهر بعد لهم، وأن كل ما رأوه عندما وصل إلى عكا بعد تتويجه شاباً وسيماً ذا عادات ساحرة، فابتهجوا، ورغم التهديد الخارجي لوجود البلد الصغيرة - ذلك أن عكا احتفلت لفترة أسبوعين بقدوم ملكها الجديد، وكان المواطنون في مهرجان تكريم كبير، فقد ملأوا أيامهم بالألعاب والمباريات ولم تخطر إلى أحدهم فكرة العودة إلى منازلهم حتى الساعات الأولى من الصباح، وفي المساء راحوا يقيمون الموائد ويرقصون. واختلط جو الليل بأصوات الضحك والألحان والمهرجانات وربما اشترك أفراد من النبلاء في رومانسياتهم التاريخية المفضلة وعند انتهائه، عاد الملك الجديد إلى قبرص بناء على نصيحة أخواله، واضطر تابعوه أن يعودوا إلى الواقع والاشتراك في الأحداث المثيرة المقيتة التي بدأت تتكشف لهم.

ولحسن الحظ بالنسبة لهم أن التهديد الأسوأ لم يأت بشيء لوجودهم، ومات أبقا ايلخان في بلاد فارس سنة 1282. وخلفه أخوه تكيودار، الذي لم يكن له في السلطة زمن طويل عندما أعلن هدايته إلى الديانة الإسلامية، واتخذ لنفسه اسم أحمد وأرسل سفراءه إلى القاهرة مع أوامر بعقد حلف عسكري مع قلاوون، ولو أنه نجح في ذلك كانت النهاية المباشرة لعهد الممالك الصليبية والإفرنج مؤكدة، ولكنه لم ينجح في ذلك، فقد كان العديد من تابعيه من المسيحيين النساطرة متوجسين من تحوله الديني المفاجئ حتى أنهم قاموا بقتله، ولم يكن أرغون الايلخان الجديد مسيحياً ممارساً، ولكنه أوضح أنه يؤيد المسيحية وأنه أراد التحالف مع المسيحيين ضد المسلمين في مصر، وتقرب إلى الإفرنج في عكا والبابا هو نوريوس الرابع، ولكن بقليل من النجاح. وأحرز سفير مغولي إلى الإمبراطور في القسطنطينية التي استعادها البيزنطيون في ذلك الوقت، بعض النجاح رغم أنه استقبل بحرارة وحدث نفس الشيء عندما تقرب أرغون إلى ملكي فرنسا وبريطانيا: حيث استقبل بحرارة، ولكن لم يكن لأحد الملكين أن يعمل على قتل نفسه بالانضمام إلى عمل ضد قلاوون ولذا ضاعت الفرصة الأخيرة لإنقاذ الممالك الصليبية. وعلى الأرجح

أن الفرصة الأخيرة للإمبراطورية المغولية لتصبح قوة مسيحية نسطورية عظيمة في آسيا قد ضاعت أيضاً.

وفي ربيع سنة 1287 ضرب زلزال شمال سورية وتضررت أسوار الميناء المسيحي في اللاذقية، ورغم حقيقة أن الإفرنج كانوا مع قلاوون في حالة سلم، فقد ضاعت الفرصة وأمر قلاوون قواته في المنطقة بالهجوم على المدينة التي سقطت دون قتال تقريباً حيث كانت الحامية صغيرة، ولم يستطع الإفرنج في الجنوب إرسال مساعدة لهم، وذلك لأن الجنوبين كانوا يقاتلون منافسيهم من البنادقة والبيزين بلا مبالاة لا تصدق تقريباً في حرب بحرية، وشنوا هجوماً واسع النطاق على عكا التي اخفقوا في الاستيلاء عليها، على الرغم أنهم هزموا الأساطيل المجموعة لأعدائهم خارج الميناء، وبعد سنتين جاء دور طرابلس لتسقط في أيدي المسلمين، وتم الاستيلاء عليها، بجزء من اللامبالاة والعجز من جانب البنادقة الذين كانوا في منافسة مع الجنويين من أجل السيطرة على تجارة المدينة فضلاً عن ترك المكان يسقط في أيدي أعدائهم، ودعوا السلطان بالفعل إلى التدخل لمساعدتهم في ضمانها لهم؛ وكان قلاوون مسروراً جداً لإعطاء مثل هذا التسويغ لخرق الهدنة مع المدينة، وأرسل جيشاً كبيراً ضدهم رغم أن سكانها دافعوا بشجاعة بالغة، وكانوا متفوقين في العدد كثيراً؛ وفي 29 نيسان 1289 استولى عليها بهجوم، وفي بعض المدافعين بحراً أما الباقون فقد قتلوا أو بيعوا في سوق النخاسة، ثم أمر السلطان رجاله بتدمير المكان إلى الأرض، وبذلك لن يتمكن أعداؤه من احتلاله مرة أخرى.

ولم يكن ثمة شك في أذهان المسيحيين الباقين الممالك الصليبية في أن عكا ستكون في قائمة السلطان، ولذا قاموا بعقد سلام معه في حين ارسلوا رسائل عاجلة إلى الوطن يناشدون إخوانهم المسيحيين في الغرب مساعدتهم قبل أن يفوت الأوان، واستجاب قلاوون بعد مقاومة أولية على هدنة أخرى دامت فترة عشرة سنوات، وتنفس سكان عكا الصعداء براحة، غير أن نجاحهم في أوروبا كان قليلاً حيث كان الملكان الانكليزي والفرنسي ما يزالان

منهكمين في نزاعاتهما كثيراً عن مسألة مصير عكا، ولكن البابا عمل على تجنيد جيش صغير من الفلاحين الإيطاليين العاطلين عن العمل، الذين كانوا موافقين على الذهاب إلى أي مكان ما دام سيدفع لهم شخص ما الأموال، كما وافق البنادقة على نقلهم إلى عكا على حساب البابا، وكان هؤلاء أشبه بالرعاع منهم بجيش صغير، ورغم أنهم وضعوا تحت أمره أسقف طرابلس الذي كان خبيراً وعارفاً بالوضع المحلي. فقد كانت سلطته عليهم نظرية أو اسمية أكثر منها واقعية فعلية، ولما انتهى كل شيء. كان من الأفضل لو أنهم لم يغادروا إيطاليا.

وفي الوقت الذي وصل فيه هؤلاء الإيطاليون إلى عكا، كان لدى المواطنين وقت لينهضوا من جديد ضد التهديدات التي تعرضوا لها في حياتهم العادية، وكما كان الوضع غالباً في الماضي وهو اللجوء إلى تجديد علاقاتهم القديمة مع جيرانهم المسلمين الذين كانوا مسرورين إلى حد كاف لفتح باب التجارة مرة ثانية في المدن الساحلية، واحتشد التجار من مدن حلب ودمشق والفرس ومدن إسلامية كبيرة أخرى في أسواق صور وصيدا وبيروت وعكا، وازدهرت الأعمال، وبدا أن عهداً جديداً من الازدهار قد انبثق بالنسبة للمسيحيين والمسلمين على السواء، ولكن كما كان يحدث في الماضي غالباً، وجد القادمون الجدد من إيطاليا وهم متشوقون لقتل مسلم أو مسلمين من أجل محبة الرب، أن المسيحيين يعاشرون الحشود الكبيرة من التجار المسلمين، فاستثارو ا غيظاً وغضباً، فهم جاؤوا لقتال المسلمين وليس للجلوس إليهم ومراقبتهم وهم يزدادون غنى، فقاموا بإهانتهم في الطرقات وسكروا كثيراً من الأمسيات وهاجموهم، وعندما مضت ثلاثة أسابيع تقريباً على وجودهم هناك، قاموا بأعمال الشغب خلال أرجاء المدينة فقتلوا كل شخص بدا لهم أنه مسلم، ودب الذعر في رجال ونساء المدينة، كما روع قادتهم. وبصرف النظر عن إنقاذ أرواح قلة من المسلمين بـ إخفائهم في بيوتهم كان هناك دور بسيط في الإمكان أن توقف المذبحة، وعندما انتهت الأزمنة اعتقل بعض قادة الفتنة

وعذبوا ولكن الدمار كان قد تم، وعندما أخبر قلاوون بالمذبحة قرر أن الوقت حان لرمي الفرنجة إلى البحر.

وأتم قلاوون استعدادته بعناية ولكن أمرها لم يخف، فوصلت إشاعات عن حشد جيش ضخم في مصر وآخر في سورية للهجوم على الإفرنج في الممالك الصليبية، كما أخبر أحدهم فرسان الداوية أن هذه الفرق ستهاجم؛ غير أن أغلبية الإفرنج رفضوا أن يصدقوا ذلك، فإن السلطان كان لا يزال ملتزماً بشروط الهدنة التي عقدها معهم، ولم يقدروا أنه سيعود عن كلمته الأولى، وسوغ هذا التفاؤل عندما وصلت الانباء مع نهاية سنة 1290 عن موت قلاوون فجأة، وكالعادة تلت موته مؤامرات ومؤامرات مضادة قام بها المتنافسون من أجل السلطنة الشاغرة، وسر الإفرنج بفترة تأجيل لعدة أشهر حتى وطد ابن قلاوون الأشرف الخليل إرثه، وذلك بإزاحة جميع منافسيه، ولم يطل السكون السابق للعاصفة، في حين استمرت الاستعدادات من أجل الحرب في مصر وسورية، واضطر مواطنوا المماليك الصليبية للتحقق من شن الهجوم القادم، وأرسلت طلبات عاجلة من أجل النجدة إلى أوروبا مرة أخرى، بينما حشد كل المقاتلين المتوفرين في عكا في عجلة من أجل المعركة القادمة التي لم يشك أحد في تهديدها عندئذ.

وهكذا، في الخامس من شهر نيسان سنة 1291 ظهر الأشرف عند أسوار مدينة عكا على رأس جيش كبير جداً حتى أن شهود عيان تحدثوا عن مقدار يفوق ربع مليون رجل، وقد وجد أبواب المدينة مغلقة وأسوارها محروسة بالرجال، وكانت التحصينات هائلة وأعداد المدافعين متفوقة بشكل بالغ، ومن غير ريب أن السلطان قاد فرقاً عديدة كما يغلب الظن في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد جلب معه جيشين من دمشق والقاهرة بالإضافة إلى سيل واسع من أسلحة الحصار الثقيلة، في حين كان عدد سكان عكا الكامل يفوق أربعين ألف نسمة بما فيهم النساء والأطفال، كان المدافعون أيضاً رجال من

انكلترا وفرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى جميع قوى الجماعات العسكرية الكبيرة الثلاثة الاستبارية والدواية وفرسان التيوتون، أما الجنوية فكانوا غائبين عن المكان لأنهم قد أبرموا معاهدة سلام منفصلة مع السلطان؛ ولم يكن لدى المسيحيين غير ميزة واحدة تفضل على أعدائهم حيث سيطروا على البحر، وكانت تصلهم المؤن بانتظام من قبرص، ومع ذلك تعين الاقتصاد في استهلاك الطعام والماء قدر الإمكان، وهكذا ففي كل مرة كانت تقود سفينة فارغة إلى قبرص كان ينقل بعض الأطفال والنساء على متنها إلى الجزيرة حيث الأمان.

وكما كانت الحال دائماً في الماضي، قاتل الفرنجة ببسالة عظيمة، وانفرجت طبيعة الأزمة كثيراً إلى درجة أنهم نسوا خلافاتهم أخيراً واتحدوا ضد العدو المشترك، ولكن الشجاعة وحدها لم تكن كافية لوقف زحف جيش الأشرف الضخم من المهندسين عن قصف وتقويض أسوار وأبراج المدينة، ومنذ اللحظة التي بدأ فيها الحصار في السادس من نيسان تعرض تحصينات عكا لقصف مدمر ومتواصل، وقذفت المناجيق الكبيرة وسائلها المخترعة الحديثة المؤلفة من حجارة أو أواني فخارية محتوية على متفجرات على الأسوار، في حين استمر راشقو الأسهم بهجوم مهلك على مدافعيهم وأطلقوا سحباً من الأسهم عليهم ملأت الجو بأزيز خارق جاء من أسهمهم الطائرة المكسوة بالريش كم ملأت قلوب أشجع المسيحيين بالرعب من الموت المفاجئ الهابط من السماء، وبدأ المهندسون الذين بدوا كحشود تعمل على لغم وتقويض الأبراج التي شكلت نقاط قوة في عدة مسافات على طول السور الخارجي للمدينة، وهي أبراج الملك هيغ والملك هنري الثاني والقديس نيكولاس والبرج الانكليزي وبرج كونتة أوف بلوا، وبرج ممثل البابا عند الميناء، وبرج البطريرك إلى جانبه ليمنحه نيران حماية، والبرج الالماني والبرج الملعون على السور الداخلي الذي لم يكن بالإمكان الهجوم عليه حتى يتم خرق السور الخارجي، ولم يطل حدوث ذلك كثيراً، بالإضافة إلى حقيقة أن الإفرنج ردوا بهجوم على أعدائهم محرزين بعض النجاح وراحوا يقصفون

معسكرهم بالقذائف التي كانت تقذفها المناجيق وتبلغ ظهور سفنهم، ويهاجمونهم وهم نيام في خيامهم في سلسلة من الغارات الجريئة، وبعد شهر ضعف أسوار المدينة كثيراً حتى بدأت تتفتت وتنهار وكذلك الأمر مع الأبراج الضخمة.

وفي يوم الجمعة 18 أيار أمر الأشرف بشن هجوم عام في المدينة، ومن الصعب بعد مرور وقت طويل على الحادثة إستعادة ذكريات عما لا بد أن يشبه الوقوف على أسوار عكا في ذلك الصباح عندما تمزق الفجر بضجيج الحشد الإسلامي وتقدم للهجوم، ولا بد أن الجو امتلأ بدوي الأبواق وصهيل الخيول، وقرع الطبول المتواصل من الطبالين الراكبين فوق الجمال يحضون إخوانهم الفرسان على الموت أو اكتساب المجد، وكذلك عن صرخات النوبيين والمصريين والسوريين والأكراد والأتراك والبدو من القبائل تلك الصرخات التي نادت بالأئمة والدراويش في الصلوات من أجل تدمير أعداء الرب غير الورعين، وعن الهسهسة المرعبة للأسهم، وعن تحطم القذائف المتفجرة وعن صراخ الجرحى وحشرجة الموتى، فماذا فعلت تلك الأصوات لقلوب وأذهاب وعدد الرجال القادمين من مناطق بروفنس وكنت والبندقية وبيزا عندما صمدوا في مواقعهم والتووا على دروعهم؟

وتضرر السور الخارجي على نحو سيء كثيراً إلى درجة أنه لم يعد بالإمكان ترميمه بالنسبة لجميع الأهداف والغايات فسقط ذلك اليوم، وأطلق هذا الوضع الحرية للمسيحيين لتركيز جهودهم لمنع العدو من خرق السور الداخلي، غير أن رجال الأشرف كانوا عديدين وهاجموا مع طول السور مما اضطر المدافعين للانتشار بين أقصى طرفيه، ومع ذلك فقد اتضح أن المسلمين كانوا يقومون بجهودهم الخاصة لنقل البرج الملعون ويرسلون موجات من الفرق المنتخبة الواحدة بعد الأخرى يقودها كبار الضباط مرتدين عمامات بصرف النظر عن الخسائر التي لحقت بهم. وكان هجومهم عنيفاً ومتواصلاً حتى أن المدافعين تحملوا الكثير، وعندما كان الرجال يقتلون أو يجرحون فإن

آخرين كانوا يحلون في أماكنهم ليصبحوا خسائر بدورهم، وبدا الأمر كما لو أن المعركة ستكون خاسرة أو رابحة حول البرج الملعون، وقدم الداوية والاسبتارية لمساعدة المدافعين، وقاتلوا جنباً إلى جنب كما لو أنهم إخوة في الدم أكثر منهم متنافسين ألداء، ومع ذلك خسروا البرج، وبسرعة قاد القادة الكبار في الجماعتين هجوماً معاكساً عنيفاً، ورغم أن الفرسان قاتلوا بنوع من الإيثار والبسالة المجيدة فقد تم التفوق عليهم بالعدد بشكل كبير، ولم يستطيعوا احراز أي تقدم، وقتل وليم أوف بوجو، الراعي الأكبر للكنيسة، وتلقى جون أوف فيلير الراعي الأكبر للاسبتارية جراحاً بالغة في حين عانى الفرسان الكثير وتراجعوا آخر الأمر.

وطبعت خسارة البرج الملعون الخاتمة على مصير عكا، وانتشر المسلمون منه على طول السور الداخلي للمدينة، ورغم بقائهم في جهة الشمال فإنهم نقلوا بوابة القدس نيكولاس إلى الجنوب وتدفقت قواتهم إلى الداخل، وبدأت غزوها للشوارع شاقة طريقها خلال شبكة المرات والساحات في المدينة، أما أولئك الفرنجة الذين فعلوا ما استطاعوا عمله فقد جعلوا طريقهم إلى الميناء كي ينجوا بأنفسهم عن طريق البحر، وكان لا يزال هناك بعض الوقت ولكن لم يكن هناك سفن كافية لإجلائهم جميعاً عن المدينة التي نزل بها حكم القدر، وسيطر شيء يشبه الهلع على السكان في الميناء، فقد غادر النساء والأطفال المكان وبقي الآخرون، وكانوا حتى الآن قد ناضلوا بما لديهم من جنود مرهقين وقساوسة فزعين من أجل تلك الأماكن في زوارق تجديف ويخوت صغيرة نقلتهم من رصيف الميناء إلى سفن تنتظر بعيداً عن الشاطئ، وحملت بعض هذه المراكب ما يزيد عن حمولتها فانقلبت وغاصت في المياه وأغرقت مسافريها، في حين استغل أصحابها قانون العرض والطلب إلى حد مربح عندما طلبوا وتلقوا مبالغ ضخمة من الأموال من أولئك الذين استطاعوا أن يشتروا أرواحهم بموافقتهم على دفع الأجور الباهظة التي طلبت منهم، وصنع فارس داوي إسباني كان قد قاتل بشجاعة نموذجية خلال المعركة في

المدينة، صنع ثروة عن طريق ابتزاز نساء نبيلات عندما أعطوه مجوهراتهن وممتلكات نفيسة أخرى مقابل عبورهن بأمان إلى سفينته، أما أولئك الذين لم يتمكنوا أو لم يدفعوا مبالغ مماثلة فقد تركوا وراءهم ليذبحهم الفاتحون، أو يبيعوهم كعبيد في أسواق العالم الإسلامي.

وسرعان ما أصاب المدن الإفرنجية الأخرى نفس القدر الذي نالته عكا، فسقطت صور التي تحدت صلاح الدين بنجاح مرتين دون قتال، ودافعت مجموعة صغيرة من فرسان الداوية عن صيدا لفترة من الوقت، غير أن القوى ضدهم كانت كبيرة بشكل غير معقول وأخيراً أبحروا بعيداً عن المكان لينضموا إلى الأعضاء الآخرين من جماعتهم في طرطوس. ثم جاء دور بيروت للاستسلام ثم حيفا بعد عدة أيام، وبعد ذهاب بقية الأرض الرئيسية لم يعد الفرسان الداوية كثيرون بما فيه الكفاية للدفاع عن القلاع المنعزلة الثلاث المتبقية في حوزتهم، وتخلوا عن طرطوس وعتليت كي يركزوا دفاعهم على جزيرة أرواد المحصنة التي عملوا على التشبث بها ضد جميع الهجمات في تحد رائع لم يكن مفيداً ضد المسلمين المنتصرين، حتى اضطروا إلى التخلي تحت وطأة اضطهاد منظمتهم في الوطن الأم فرنسا عن الساحل كان في الماضي مملكة صليبية صغيرة رمزية أخيرة، وفي تلك الأثناء كان الأشرف عازماً على منع المسيحيين من العودة أيضاً، وأعطى أوامره بوجوب تدمير المكان، فقوضت البساتين ومزارع الكروم ودمرت قنوات الري وتم محو قرى عن وجه الأرض، كم عريت مدن حتى أصبحت منازلها لا تلائم السكن إلا لقلة مهملة عن الفلاحين مع كلابهم المسعورة.

لكن من غير الممكن محو جميع آثار حضارة وما شعبها، وإذا كان السلطان قد نجح في ثني الإفرنج عن العودة إلى الأرض المقدسة التي ناضلوا من أجلها طويلاً وبجهد كبير، فإنه أخفق في طمس العلامات التي صنعوها فوقها خلال فترة احتلال استغرقت مائتي عام، فلا تزال تشمخ العديد من قلاعهم فوق القمم الصخرية كمعالم بارزة عن روعة فن العمارة العسكرية

عندهم، وشابهت الكنائس مثل كنيسة المذبح المقدس في القدس، والكاتدرائية في طرطوس في روعتها المباني القوطية في الغرب، ولكن الشيء الذي يلخص بشكل مناسب كلاً من مصير وعقيدة الصليبيين في الممالك الصليبية هو حجر منقوش على جدار أحد المباني في عكا، وهو اليوم جامع يدعى جامع الرمل الذي كان فيما مضى كنيسة مسيحية، وفي وقت ما دفع أحد الصليبيين الذي لم يدون اسمه بناء أحجاء إلى نقش عظة على أحد حجارته، وبالنسبة للمسلمين الذين يؤدون صلاتهم هناك في هذه الأيام لا تعني الكلمات اللاتينية المنقوشة شيئاً يذكر، أما بعض السواح، القادمين من الغرب فيدركون معناها، ومع ذلك فهم يقفون مدهوشين أمام هذا النصب الأخرس على طريقة وحياة موت الرجل الذي نقشها وعن حياة وموت آلاف عديدة أنها تقول: «إلى كل إنسان يجتاز هذا الشارع، أرجوك أن تصلي من أجل روحي».